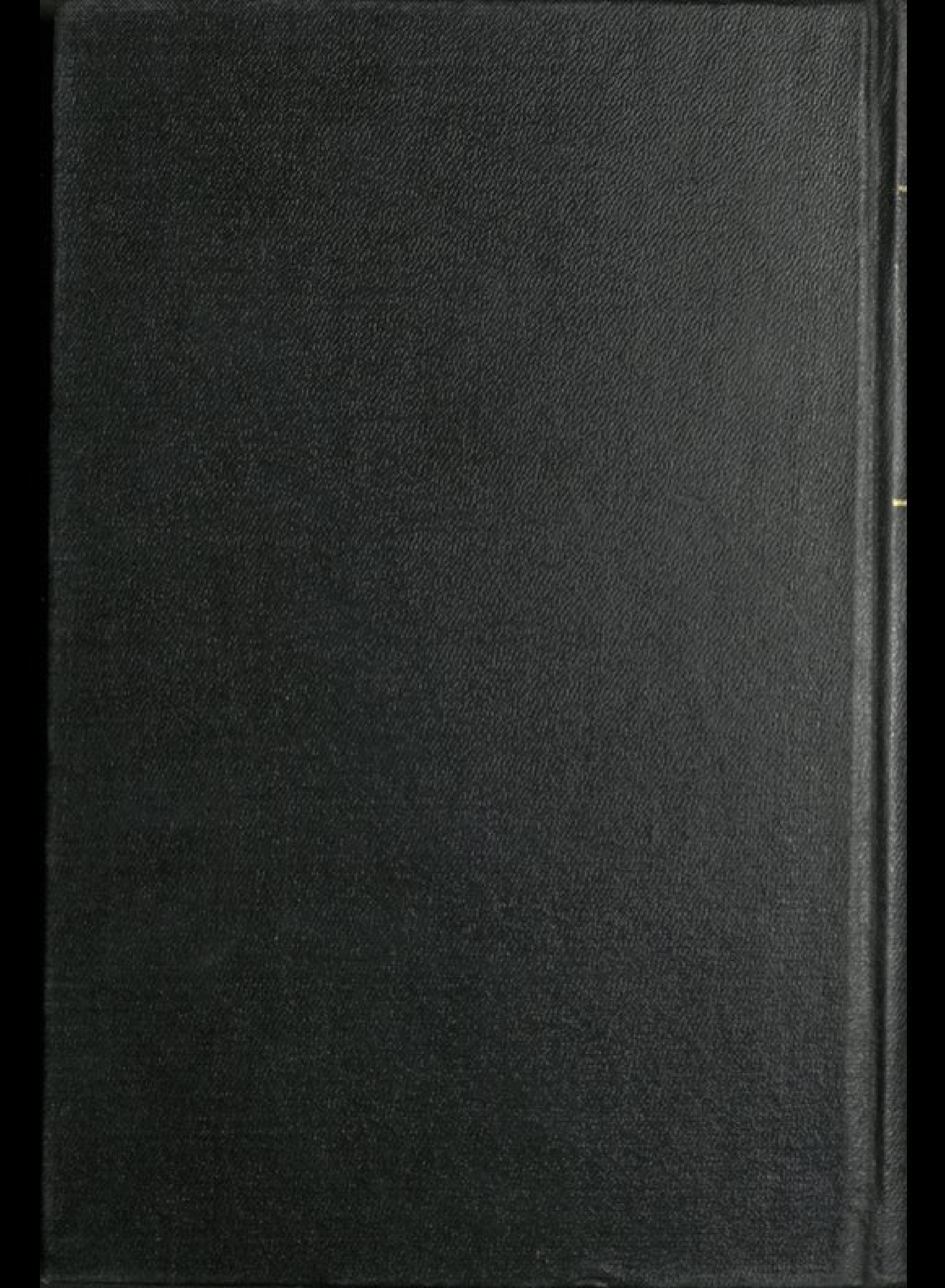
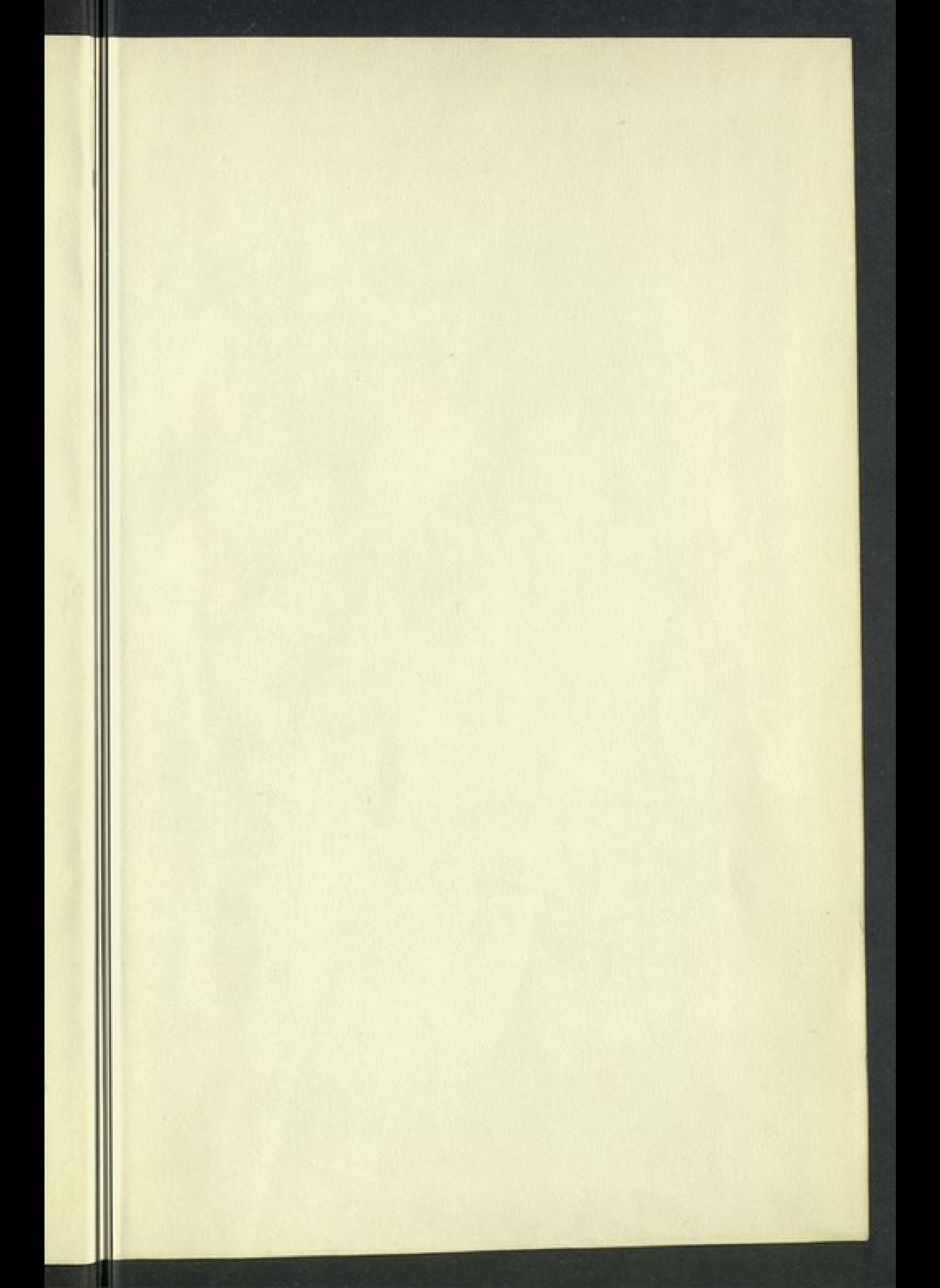
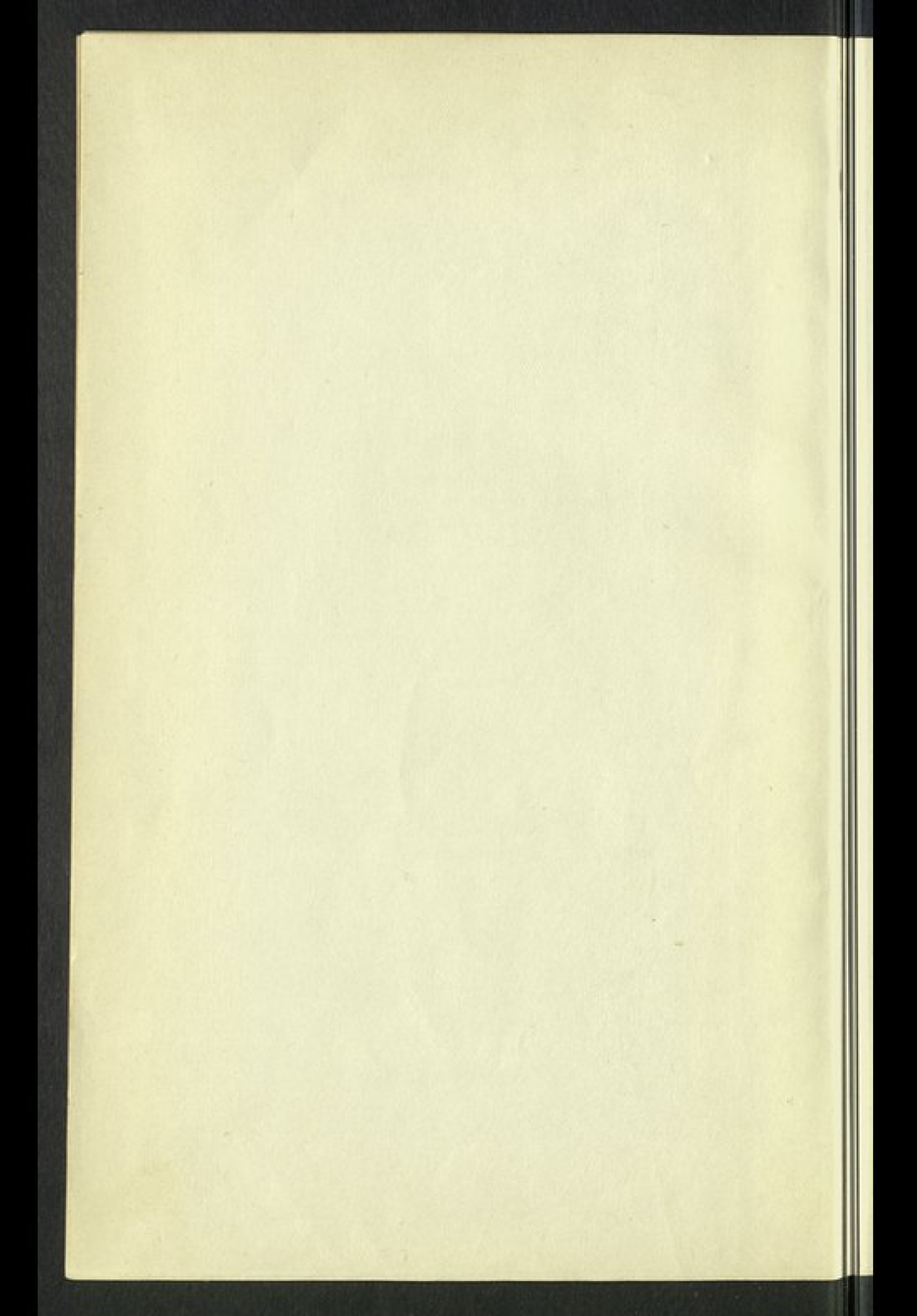
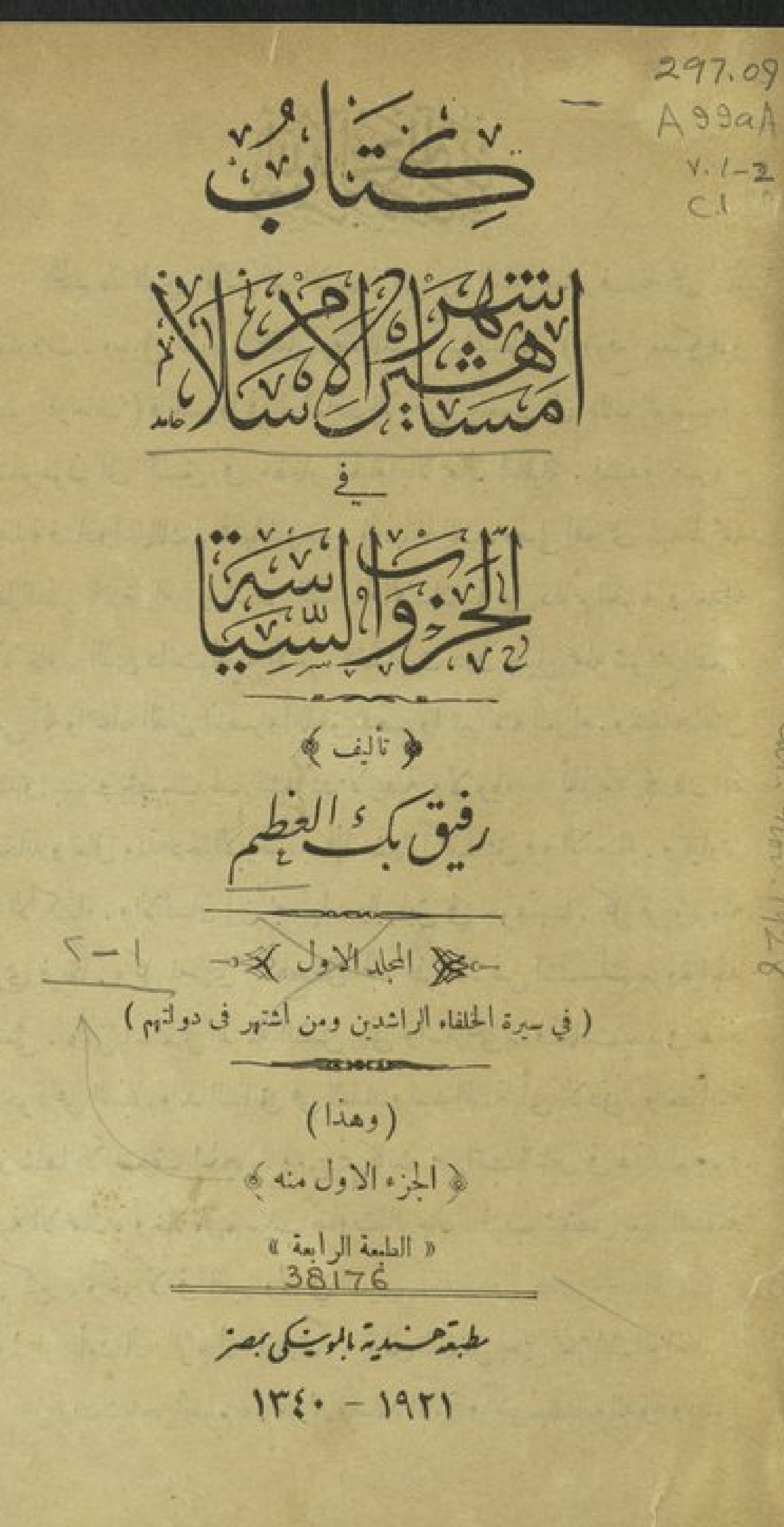








كتاب

اشهر مشاهير الاسلام

في

الحرب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

المجلد الاول

(في سيرة الخلفاء الراشدين ومن اشتهر في دولتهم)

(وهذا)

﴿ الجزء الاول منه ﴾

« الطبعة الرابعة »

مطبعة هندية بالموسكي بمصر

١٩٢١ - ١٣٤٠

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي افاض على الانسان من نور العقل ماشرف به على سائر المخلوقات . وجعل التفاضل بالعلم مرقاة للبشر آيتها العظمى (ورفع بعضكم فوق بعض درجات) فانتشروا في اكناف الارض يدتمون الى ذلك الوسيلة . ويتذرعون الى السبق في مضمار الحياة بالاعمال الجليلة . نشيدوا صروح المدنية فشادوا الممالك . فمنها الموجود ومنها الهالك . وصلى الله على سيدنا محمد اعظم البشر بلا مراء . ومؤسس الشريعة الاسلامية على دعائم الحرية والعدالة والاخاء . الذي دانت لدينه الامم . وتضاءلت دون جليل عمله شوامخ القمم . وعلى آله واصحابه الذين انتصروا للحق فنصروا شريعته الغراء . وخلفائه الذين اهتدوا بسنته نخضعت لهم الشعوب لارهبة ولا رياء ﴿ أما بعد ﴾ فان الله سبحانه وتعالى منذ دحا الارض جعلها مضماراً تتسابق فيه الاحياء . وتتبارى فيه الاكفاء . والانسان ابن بجدتها . والسابق في حومتها . كل فريق منه يباري فريقاً . وكل امرئ ينتهج الى المجد طريقاً . فمن استمسك بعروة الجد استعلى . ومن استمرأ عزيمة النفس ونى واسترخى . فكانت يده في هذه الوجود هي الدنيا . ويد السابق هي العليا . وبعيد الهمة يأبى الادنى . والفضاضة لايرضاها الا ضعيف الحجى . ومن ثم كانت مراتب الناس في هذا الوجود بنسبة الاعمال . وخلائقهم سبب تفاوت الرجال . فرب شخص بعيد السمعة عظيم كبير . وآخر لا في العير ولا في النفير

ولم ار أمثال الرجال تفاوتاً الى الفضل حتى عد الف بواحد

بل رب شخص تقوم به الدولة وتسعد الامة وآخر تهلك به الدولة ويشقى

الناس وانما قامت الدول واتصلت بالشعوب أسباب السعادة بافذاذ كل أمة معدودين. وأفراد من الرجال مشهورين. كبرت نفوسهم عن ان تخلد الى الدنايا وترضى بالحقير من الشهوات فطمحت بهم الى معالي الامور وانصرفت بهممهم الى غايات الكمال فنالوا بهذا حياة لاتفنى. وغادروا في الوجود آثاراً لن تذول

لم يخل من هؤلاء الرجال عصر من العصور ولا دولة من الدول لانهم أقطاب العالم الذين تقوم بهم أركانه. ودعامة الوجود الاجتماعي التي يشاد عليها بنيانه. وبالخاصة منهم رجال السياسة والحرب الذين رفعوا منار الدول ودوخوا ممالك الارض فانهم على قلة عددهم من كل قبيل. وندرتهم في كل جيل. لم يخل تاريخ كل أمة من ذكرهم. ولم تمح عن صفحات الوجود آيات فخرهم. وللامم في تخليد ذكر ابطالها هؤلاء مذاهب من العناية تختلف باختلاف الازمنة والاقوام وقد بلغ بالاقدمين منهم كاليونان مثلاً ان أنزلوهم منزلة الالهة ورفعوا لهم فى هياكل العبادة الانصاب واما أهل العصور المتمدنة فقد افردوا لافرادهم التواريخ تشهد لهم بجميل الذكر. وشيدوا باسمهم الآثار ليبقى مذكوراً بالتعظيم أبد الدهر

لو نقبنا عن هؤلاء الرجال فى تاريخ كل أمة لوجدنا أعظمهم عملاً. وأعلاهم كعباً. وأبعدهم همة رجال الاسلام الذين نبتت أصولهم فى منابت الشيح والقيصوم. وأظلت فروعهم فارس والترك والصين والغرب وأربا والروم. فدانت لهم أعظم دول الارض لذلك العهد واستخضعوا لسلطان حكمهم أشد الامم صولة وأرقاهن قوة ومدنية كالفرس والرومان والقوط وغيرهم

ان ممن أشتهر فى التاريخ ذكره وعظم فى عهده أثره هنبال بطل قرطاجنة الشهير الذي ناصب الرومان العداوة على ضخامة سلطانهم ومناعة بنيانهم فاجتاز

اليهم جبال البرنيه بجيوش جراره وجنـد كثيف لينازلهم في صميم بلادهم ويستنزل أقيالهم عن منصات مجدهم ومع هذا فاين هو من موسى بن نصير ومولاه طارق اللذين جاءآ من أقصى العربية الى أقصى المغرب فدوخا ممالك هنبال القديمة فى افريقيا الشمالية وقطعا بجندهما القليـل البالغ اثني عشر الف مقاتل مضيق سبتة الى القارة الاوربية ففتحا مملكة الاندلس وقضيا على دولة القوط بالدمار . بل أين هو من عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذى اقتحم ماوراء البرنيه على عهد الخليفة هشام الاموي وانساح بجيشه القيل فى أحشاء المملكة الفرنساوية حتى بلغ بواتو وبورغونيا على مسافة الف ميل من جبل طارق فذعرت منه سكان الممالك الاوربية واستجاشت لقتاله وصدته الجنود الفرنساوية والـكوكسون والقوط والجرمان حتى تمكنوا من ارجاع جيشه على ادراجه واوقفوا تياره الذي كاد يكتسح الممالك الاوربية بقوة مجاجة

أين نابليون الذي طبقت شهرته التاريخية الآفاق وعده الاوربيون من أشهر القواد فى العالم لحروب طويله اصلاهم نارها . واذاقهم شـده اوارها . لم تأت لدولته بفتح جديد . أو خير عتيد . من قتيبة بن مسلم فاتح السند وتركستان أو عبد الملك بن مروان الذي تولى منصب الخلافة وقد تنازعتها أطماع الطامعين . واشرأبت الى التحزب والانقسام أعناق المسلمين . فبادر الى تلافي الخطب مبادرة الحكيم واستظهر على الشدائد ببعـد النظر والرأى فذلل صعاب الامور وارغم من خالفه من الناس على الطاعة . ثم بعد ان استصفى لنفسه الخلافة وأجرى أمور الملك مجرى السداد والطمأنينة اطلق للجيوش الاسلامية عنان الفتح والغاره فجاست خلال الممالك وجابت شطوط المحيطين مرفوعة أعلام الظفر واثقة من نصر الله لها وحفوف عنايته بها

ومع ان هؤلاء الرجال واضرابهم كثير عددهم في الاسلام فان العناية باستقصاء أخبارهم وتتبع تواريخ حياتهم وأفرادها بكتب خاصة تخليداً لذكرهم وتقديراً لقدر كل فرد منهم غير متوفرة عند المسلمين . ولا ملتفت اليها عند المؤرخين . اللهم الا ما اوردوه من أخبارهم مبعثراً فى بطون التواريخ متفرقاً فى كتب التراجم التي تكاد الاستفاضة فيها بذكر الرجال تقصر على أرباب القلم دون أرباب السيف

ثم قد عني بعض المؤرخين بافراد كتب خاصة بتاريخ أفراد من رجال الاسلام كسيرة السلطان محمود الغزنوي وسيرة صلاح الدين وسيرة تيمورلنك الآ ان الاحرى ببعض هذه السير ان تسمى كتب أدب لا كتب سير وتاريخ كسيرة السلطان محمود الغزنوي المشهورة بتاريخ العتبي وسيرة تيمور المسماة عجائب المقدور لالتزام مؤلفيهما طريق التقفية وتكلفهما السجع الممل للنفوس المخل بأصول التاريخ وفضلا عن هذا فان فى المسلمين من رجال السياسة والحرب عدداً غير قليل لو أفردت لكل واحد منهم سيرة خاصة أو افردوا بتاريخ خاص لكان ذلك ابقى لذكرهم . وأظهر لشهرتهم . وأقرب لتناول أخبارهم التي تكون داعية الاقتداء بهم . والاعتبار بجليل اعمالهم . فان لبعض النفوس ميلاً غريزياً الى حب الشهرة وسلوك مسالك الظهور فاذا عرف أربابها كيف ساد اسلافهم وأشتهر عظماء قومهم ورأوا التنويه بشأنهم خاصة والاشارة الى انفرادهم بالشهرة واتصافهم بالفضائل ربما يدعوهم ذلك متى كانوا من زعماء الامة وقادة الافكار والسياسة الى التشبه باولئك فى جلائل أعمالهم وتدقيق النظر فى سيرهم للوقوف على مواضع الاصابة ومظان الخطأ من أعمالهم والأخذ بما يصلح منها لزمانهم ومكانهم

عرف هذا الغربيون فلم يكتفوا بافرادهم التواريخ لرجالهم والعناية بالتنويه بشأنهم؛ بل صنعوا لهم التماثيل تقام على قوارع الطرق وساحات المدن وشيدوا باسمائهم الآثار العظيمة كالمدارس والملاجئ ليكون ذلك أدعى لتوجيه الانظار اليهم . وأبقى بين الخاصة والعامة لجميل ذكرهم . كما أنهم اجتنبوا في تراجم رجالهم استعمال التخيلات الشعرية وايراد الاستعارات والمجاز في الوصف ورص الالقاب الكثيرة رصاً تضيع معه صفات المترجم الفطرية . وتغمض على الناقض أوصافه الحقيقية . ليكون في بساطة الترجمة وقصرها على ايراد الحقائق فى منشأ المترجم ومآثره فى حال ظهوره وأبان نشأته تصوير لسيرة المترجم يمثله للمطالع في قالب الوجود حتى كأنما هو يراه

ولعمري أن رجال الامم العظام لخليقون بمثل هذه العناية جديرون بأعظام الشأن . وتخليد ذكرهم على صفحات الزمان . ولما كان الاسلام قد أنجب كثيراً من أمثال هؤلاء الرجال الذين ورد ذكرهم مشتتاً فى بطون التواريخ متفرقاً فى ثنايا الكتب والسير فقد نهضت بي عزيمة النفس واستفزني الولع برجال الاسلام الى أن استقصي أخبارهم واتتبع آثارهم وأفرد لمشاهيرهم فى الحرب والسياسة تاريخاً خاصاً آتي به على أخبارهم وفتوحاتهم وسياستهم وأخلاقهم وكل ما يتعلق بتاريخ حياة كل فرد منهم على أسلوب مبتكر بديع الترتيب سهل على المتناول جامع للاوصاف التي تمثل حقيقة المترجم تمثيلاً لا يدع حاجة فى النفس الى المزيد ولا يحوج المطالع الى الامعان فى جمع مزيج الاخبار الى مقر الذاكرة من دماغه والعقل من فؤاده للوقوف على أغراضها . والتفريق بين جواهرها وأعراضها

هذا وقد أخذت على نفسي ان أطلق لها فى كل مجال عنان القول وأرمي

بسهام الفكر الى كل غرض يبدو للنظر عساني ان ألم بشيء من الادواء الاجتماعية التي طرأت على المسلمين . واستطيع من اسداء النصح ما أخدم به في هذا العصر قومي الذين ما اخالهم يردون نصيحة الناصحين . سيما اذا كانت مؤيدة بسيرة الصحابة معضدة بالتاريخ مستندة الى الدين

ولما وطنت النفس على مباشرة هذا العمل رأيت ان أقصر الاستقصاء والبسط في الكلام على أشهر مشاهير الاسلام خاصة وأورد في ختامه ملخصاً تاريخياً لمشاهير رجال الاسلام عامة يكون كفهرس تعلم منه ذواتهم ويرجع فيه الى ملخص تاريخهم

واني وان كنت عزمت على اجتناب الخوض في الفتن التي ثار ثائرها بين المسلمين في عهد الخلفاء عثمان وعلي ومعاوية رضي الله تعالى عنهم أجمعين ولم أر بداً من أيراد ذكرهم مع الخليفتين السابقين أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما لانهم جميعاً من دعائم الاسلام التي قامت عليها صروحه . واعضاد الدين الذين بان بهم صريحه . فقد اكتفيت من سيرة هؤلاء الثلاثة بما لا يعلق بذكره من هذه الفتن أثر في النفس الا ما كان فيه حجة بالغة يجري بها القلم أو حكمة زاجرة يحتاج اليها العاقل . ويتعظ بها الجاهل . لهذا لا يؤخذ علي ما يرى من الاختصار في تراجمهم والاقتصار على ذكر بعض سيرهم

وقد جعلت الكتاب اقساماً على ترتيب الدول الكبيرة ومن عاصرها مقدماً في الذكر الاقدم من الخلفاء والسلاطين ومن يليه وهكذا الى آخر الكتاب واتبع كل خليفة أو سلطان بذكر من قام في دولته . واشتهر من بين زمرته . من امراء الحرب والسياسة الذين اشتهر ذكرهم . وعظم في الاسلام أثرهم . والله المسئول ان يعصمنا من الخطأ ويفيض علينا روح النطق بالحق والصواب انه مجيب السؤال

﴿ القسم الاول ﴾

(دولة الخلفاء الراشدين)

هـذه الدولة التي أسست مجد الاسلام ورفعت منار الدين الحنيف وبلغت خيلها شطوط المحيطين ونشأت على الخشونة في العيش والاعراض عن أعراض الدنيا والتعفف عما بايدى الناس هي الدولة الاولى التي كان بها فخر الاسلام والى خلفائها الاربعة تنتهي الشهرة في المجد الذي ليس فوقه مجد وانما قامت الدولة الاسلامية على أساس هم واضعوه . وأنجبت دول الاسلام من الرجال العظام من أنجبت بفضل هم السابقون به وفتح هم فاتحوه . وقد قام في عصرهم الذي هو أفضل العصور كثير من رجال الحرب والسياسة . الذين أدهشت أعمالهم الباحثين فى تاريخ الامم . وقضوا بعزائمهم الماضية على دولتي الروم والعجم . ومن أشهر مشاهيرهم الذين يشار اليهم بالبنان . ويعدون من أفراد ذلك الزمان . فى الحرب والسياسة خالد بن الوليد فاتح العراق العربي وقسم من الشام . وأبو عبيدة بن الجراح فاتح الشام . وعمرو بن العاص فاتح مصر . وسعد بن أبي وقاص فاتح العراق العجمى وهادم عرش الاكاسرة . والاحنف بن قيس فاتح خراسان . والمغيرة بن شعبة داهية السياسة . وقد عزمنا على أن نأتي على سيرتهم في دولة الخلفاء كل رجل منهم مع خليفته الا الاحنف والمغيرة فبما انهما خدما هذه الدولة الى نهايتها فسنأتي على ذكرهما بعد آخر الخلفاء الراشدين رضي الله تعالى عنهم أجمعين

﴿ أبو بكر الصديق ﴾

(باب)

« حاله في الجاهلية »

(نسبه واصله)

اسم أبي بكر رضي الله عنه عبد الله واسم أبي قحافة ابيه عثمان وكان اسم أبي بكر في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ولقبه عتيقاً لجمال وجهه ويقال لان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له أنت عتيق من النار كما ورد في حديث رواه الترمذي وسمي صديقاً لانه بادر الى تصديق الرسول صلى الله عليه وسلم . فهو عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة وينسب أبو بكر الى تيم قريش فيقال التيمي وهو في التعدد مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم لانه يلتقي هو ورسول الله صلى الله عليه وسلم عند مرة بن كعب وبين كل واحد منهما وبين مرة ستة آباء . وأم أبي بكر سلمى ابنة صخر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم وهي بنت عم أبي قحافة وتكنى أم الخير . وكان مولد أبي بكر لسنتين وأشهر من مولد الرسول صلى الله عليه وسلم

﴿ شرفه ﴾

انتهى الشرف من قريش الى عشرة رهط من عشرة أبطن منهم أبو بكر الصديق وكانت اليه في الجاهلية الاشناق وهي الديات والمغرم ولما كان هؤلاء

الرهط الذين اليهم انتهت مكارم قريش في الجاهلية واتصلت بالاسلام منهم من صار من مشاهير الاسلام وستأتي ترجمتهم بعد فقد رأيت ان آتي هنا على بيان هذه المكارم وعامة من انتهت اليهم اكتفاء بها عن التكرار عند ذكر من يترجم منهم في هذا الكتاب فاقول

قال في العقد قال ابن المنذر هشام بن محمد السائب الكلبي تسمية من انتهى اليه الشرف من قريش في الجاهلية فوصله بالاسلام عشرة رهط من عشرة أبطن

وهم هاشم . وأمية . ونوفل . وعبد الدار . وأسد . وتيم . ومخزوم . وعدي . وجمح . وسهم . فكان من هاشم العباس بن عبد المطلب يسقي الحجيج في الجاهلية وبقي له ذلك في الاسلام . ومن بني أمية أبو سفيان بن حرب كانت عنده العقاب راية قريش واذا كانت عند رجل اخرجها اذا حميت الحرب فاذا اجتمعت قريش على احد اعطوه العقاب وان لم يجتمعوا على احد رأسوا صاحبها فقدموه . ومن بني نوفل الحرث بن عامر وكانت اليه الرفادة وهي ما كانت تخرجه من أموالها وترفد به منقطع الحاج . ومن بني عبد الدار عثمان بن طلحة كان اليه اللواء والسدانة مع الحجابة ويقال والندوة ايضاً في بني عبد الدار . ومن بني أسد يزيد بن زمعة بن الاسود وكانت اليه المشورة وذلك ان رؤساء قريش لم يكونوا مجتمعين على أمر حتى يعرضوه عليه فان وافقه ولاهم عليه والا تخير وكان له اعواناً واستشهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطائف . ومن بني تيم ابو بكر الصديق وكانت اليه الاشناق وهي الديات والمغرم فكان اذا احتمل شيئاً فسأل فيه قريشاً صدقوه وأمضوا حمالة من نهض معه وان احتملها غيره خذلوه : ومن بني مخزوم خالد

ابن الوليد كانت اليه القبة والاعنة فاما القبة فانهم كانوا يضربونها ثم يجمعون اليها ما يجهزون به الجيش واما الاعنة فانه كان على خيل قريش في الحرب . ومن بني عدي عمر بن الخطاب وكانت اليه السفارة في الجاهلية وذلك انهم كانوا اذا وقعت بينهم وبين غيرهم حرب بعثوه سفيراً وان نافرهم حي لمفاخرة جعلوه منافراً ورضوا به . ومن بني جمح صفوان بن أمية وكانت اليه الايسار وهي الازلام فكان لا يسبق بامر عام حتى يكون هو الذي تسييره على يديه . ومن بني سهم الحرث بن قيس وكانت اليه الحكومة والاموال المحجرة التي سموها لآلهتهم . فهذه مكارم قريش التي كانت في الجاهلية يتوارثونها كابراً عن كابر وكان كل شرف من شرف الجاهلية ادركه الاسلام وصله لهم وقد رأيت مكانة أبي بكر من الشرف في قريش هذا فضلاً عن مكانته الخاصة عندهم واحترامهم له لكرمه وتفضله

﴿ صناعته ﴾

كانت قريش مع ما تمت به من النسب وتحوزه من شرف المكانة عند العرب لما أنها حامية البيت وصريح ولد اسماعيل لا يستنكف اشرافها من الاحتراف أو المتاجرة والاعتماد في الاسترزاق على عمل اليد ترفعاً عن الاتكال على فضلات العجز والاعتماد على تراث الآباء فكانت لكل رجل منهم صنعة يحترف بها . ونحن ذاكرون لك هنا حرف الصحابة الذين ستأتي ترجمتهم في هذا الكتاب فقط . فمنهم عمر بن الخطاب كان تاجراً ومنهم سعد بن أبي وقاص وكان يبري النبل . ومنهم عثمان بن عفان وكان بزازاً . ومنهم عمرو بن العاص وكان جزاراً وأما أبو بكر فكان بزازاً وله رأس مال كبير للتجارة قالوا انه يبلغ أربعين الف درهم أنفق منها خمسة وثلاثين الفاً معونة للنبي صلى الله عليه وسلم

على مصالح المسلمين والذي بقي عنده مازال يتجر به حتى مات رضي الله تعالى عنه وارضاه

﴿ مكانته عند قومه وسيرته فيهم ﴾

كان ذا مكانة محترمة من قومه ومرؤة واحسان وتفضل فيهم ولهذا قال له ابن الدغنة يوماً انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر وتقري الضيف . وكان عالماً بالانساب وأخبار العرب رغاباً عن الدنايا عفيف النفس حرّم على نفسه شرب الخمر في الجاهلية . قال السيوطي اخرج أبو نعيم بسند جيد عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت لقد حرّم أبو بكر الخمر على نفسه في الجاهلية

اللهم ان امرأ ينشأ بين الاوثان حيث لادين زاجر . ولاشرع للنفوس قاهر . وهذا مكانه من الفضيلة واستمساكه بعرى العفة والمروءة لجدير بان يتلقى الاسلام بملء الفؤاد . ويكون أول مؤمن بهادي العباد . مبادر باسلامه لارغام انوف أهل المكابرة والعناد . ممهد لهم سبيل الاهتداء بدين الله القويم الذي يجتث أصول الرذائل من نفوس المهتدين بهديه المستمسكين بمتين سببه « الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » واولهم أبو بكر

باب

﴿ اسلامه وصحبته ﴾

(اسلامه)

اختلف الرواة فيمن كان أول الناس اسلاماً فقال بعضهم انه عليّ وقال

بعضهم انه أبو بكر وقال بعضهم خديجة وقد اخرج ابن عساكر من طريق الحارث عن علي رضي الله عنه قال (أول من أسلم أبو بكر الصديق) ومما يؤيد انه أول الناس أسلاماً قول حسان بن ثابت رضي الله عنه

اذا تذكرت شجواً من أخي ثقة ... فاذكر اخاك ابا بكر بما فعلا

خير البرية اتقاها وأعدلها ... الاّ النبي وأوفاها بما حملا

والثاني التالي المحمود مشهده ... واول الناس منهم صدق الرسلا

وقال السيوطي وجمع بين الاقوال بان ابا بكر اول من أسلم من الرجال وعلي اول من أسلم من الصبيان وخديجة اول من اسلمت من النساء واول من ذكر هذا الجمع الامام ابو حنيفة رضي الله عنه (وهو الصواب)

تجسم أبو بكر رضي الله عنه من الفضيلة وخلص جوهره من الدغل وانفطر على سلامة النفس من شوائب العناد وطهارتها من عمى البصيرة عن درك الصواب والماراة في الحق فقامت لديه الحجة على الشرك وظهرت له محجة الرشد لاول وهلة من دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام الذي تفرس فيه الاستعداد الكامل للايمان فبادره بالدعوة فلم يتردد . وعاهده على المظاهرة فقام بما تعهد . لهذا قال عليه الصلاة والسلام (ما دعوت احداً الى الاسلام الا كانت له كبوة غير أبي بكر)

سبق أبو بكر بالايمان فكان له الفضل على السابقين بمتابعتهم له وسبقهم ببركة اسلامه الى نيل السعادة بالاسلام لهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام (ما طلعت الشمس ولا غربت على احد افضل من أبي بكر الا ان يكون نبي) اخرجه عبد الرحمن بن حميد في مسنده وأبو نعيم وغيرهما من طرق عن أبي الدرداء . ولما كان أبو بكر محبباً سهلاً وكانت رجالات قريش تألفه فقد أسلم

منهم على يديه من بني أمية عثمان بن عفان . ومن بني عمرو بن كعب طلحة بن عبيد الله ومن بني زهرة سعد بن أبي وقاص . وغيرهم كثيرون

﴿ صحبته ﴾

صحب أبو بكر النبي صلى الله عليه وسلم من حين أسلم الى حين توفي خير صحبة وكان احب رفيق اليه واعز صاحب لديه حمل من اجل الرسول من قريش ما تنوء به العصبة أولو القوة ووقف أمامه موقف المدافع عن الحق الداعي الى الخير . صحبه يوم الهجرة وهو يبكي فرحاً بصحبته واستبشاراً بتخفيف أذى قريش عنه . ورافقه في الغار ثلاثاً وعينه من اجله لا تنام ولم يذق خوفاً عليه لذة الراحة حتى قال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تحزن ان الله معنا ليسكن اضطرابه ويأمن على نبيه وانزل فيه قرآن (ثاني اثنين اذ هما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فانزل الله سكينته عليه)

علم أبو بكر ان لله عليه حقاً وان للايمان بكتابه شرطاً وهو الامتثال لما جاء به والعمل بما فيه وان الله سبحانه وتعالى يقول بهذا الكتاب (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم واموالهم بان لهم الجنة) فسمح بماله في سبيل الاسلام وانفقه على النبي عليه الصلاة والسلام وكان يشتري من ماله المعذبين على الاسلام . لانقاذهم من الآلام . كما كان يشتري على الاسلام ايضاً[1] حتى

---

(١) اخرج ابن جرير عن عامر بن عبد الله بن الزبير قال كان أبو بكر يعتق على الاسلام بمكة فكان يعتق عجائز ونساء اذا اسلمن فقال ابوه أي بني أراك تعتق أناساً ضعافاً فلو انك تعتق رجالا جلداً يقومون معك ويمنعونك ويدفعون عنك قال أي ابت انا اريد ما عند الله واخرج الطبراني عن عروة ان أبا بكر الصديق رضي الله عنه اعتق سبعة كلهم يعذب في الله اه

اثنى عليه الرحمن ونوه به القرآن ومنه قوله تعالى (فاما من أعطى واتق) الآية وقوله تعالى (وسيجنبها الاتقى) وقوله تعالى (وما لأحد عنده من نعمة تجزى) الى آخر السورة كل هذه الآيات وغيرها نزلت في ابي بكر

سمح بنفسه فلم يترك مشهداً من مشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم الا حضره ولازم فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم يحميه بنفسه ويقف في وجه الاعداء دونه

اخرج البزار في مسنده عن علي انه قال . اخبروني من أشجع الناس . فقالوا أنت . قال اما اني ما بارزت أحداً الا انتصفت منه ولكن اخبروني بأشجع الناس . قالوا لا نعلم فمن . قال (ابو بكر) انه لما كان يوم بدر جعلنا لرسول الله عريشاً فقلنا من يكون مع رسول الله لئلا يهوي اليه أحد من المشركين . فوالله ما دنا منا أحد الا ابا بكر شاهراً بالسيف على رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يهوي اليه أحد الا هوى اليه فهو أشجع الناس . قال علي رضي الله عنه ولقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخذته قريش فهذا يجبأه وهذا يتلتله وهم يقولون أنت الذى جعلت الآلهة الهاً واحداً فوالله ما دنا منا أحد الا ابو بكر يضرب هذا ويجبأ هذا ويتلتل هذا وهو يقول . ويلكم أتقتلون رجلاً ان يقول ربي الله ثم رفع علي بردة كانت عليه فبكى حتى اخضلت لحيته ثم قال أنشدكم الله أمؤمن آل فرعون خير أم أبو بكر . فسكت القوم فقال ألا تجيبوني فوالله لساعة من ابي بكر خير من الف ساعة مثل مؤمن آل فرعون ذاك رجل يكتم ايمانه وهذا رجل أعلن ايمانه

باب

خلافة أبي بكر

(كلام على الخلافة)

قبل الكلام على خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه نأتي بتمهيد مختصر في الخلافة الاسلامية فيه بيان يحتاج الى النظر فيه كل باحث في تاريخ الاسلام فنقول

ان موازرة القوة للشرائع قاعدة كلية لا تتخلف سواء عن الشرائع الالهية . أو الاوضاع البشرية . وقد ترتب عليها قيام الدول في كل ملة من الملل لضرورة وجود الوازع الذي يزع الناس بالكتاب والميزان ويردهم ولو بالقوة الى حدود الشرع وذلك بدليل قوله تعالى فيمن سبق من الرسل أولي الشرائع (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) وفيه الاشارة الى ملازمة القوة للدين ارهاباً للناس وكبحاً لجماح النفوس التي لا تقومها مجرد الارشاد واللين وهذه القوة انما تقوم بالوازع وأعوانه ومنهم تتألف الدولة

ومن المقرر ان وظيفة الرسل هي تبليغ الشرائع وتقريرها بين الناس على وجه يجمع اليها شملهم ويتكفل بسعادتهم وبعد هذا لا يبقى من وظيفة الرسول لمن يخلفه في قومه الا حماية هذه الشرائع والحكم بينهم بما أنزل الله وسنة الرسول وهذه وظيفة يشترط فيها عندنا معاشر المسلمين الحرية

والعقل والعدالة والعلم ولا يشترط فيها شيء من النبوة بل النبوة رسالة الهية يتعلق بها تبليغ الدين ووضع أصول الدعوة وتقرير الشرائع وتلك رئاسة دنيوية تتعلق بها حماية الشرائع واقامة أركان الدين ولا تناسب بين الوظيفتين البتة لهذا تضافرت الاحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم على وجوب السمع والطاعة لكل من يتولى شيئاً من أمور المسلمين من أى قبيل كان بلا تخصيص بآل بيته الكرام عليهم السلام وأيد هذا سنته العملية فقد فارق هذه الدنيا الى الملأ الأعلى وليس لاحد من آل بيته أمر من امور الناس أو ولاية من ولايات الاطراف ولما طلب منه عمه العباس أن يوليه عملا من الاعمال أبى عليه ذلك لئلا يظن بعده انه أراد بقاء الامارة في بني هاشم متصلة بالنبوة مع أن النبوة شيء والامارة شيء آخر

وقد علم هذا الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه لما تنازل عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان فقال (أبى الله أن يجمع النبوة والخلافة فينا) وحسب آل البيت شرفاً أن تكون النبوة فيهم

قلنا أن الخلافة رئاسة دنيوية باعتبار انها شيء والنبوة شيء آخر وانما قالوا انها رئاسة دينية وخلافة نبوية لما يتعلق بها من اقامة أركان الدين كما تقدم وهي بهذه المثابة لم تتجاوز عهد الخلفاء الراشدين وصارت بعد ذلك ملكا دنيويا بحتاً اذ ترك الخلفاء أهم اصل من اصول الامارة وهي الصلاة بالناس التي استخلف بها رسول الله صلى الله عليه وسلم أبا بكر فكان خليفته على الامة في الدين كما صار أميراً عليها في أمور سياستها في الدنيا ومن هنا اشتق اسم أمارة المؤمنين اذ لا بد لكل أمة اجتمعت على دين أو أمر آخر من رئيس يضم شملها ويقيم أحكام شرائعها ويدبر سياسة ملكها لا سيما وان الاسلام جاء بقسمي السياسة والدين ولم يقتصر

على أصول التوحيد والعبادات لهذا كان وافياً بحاجات الدين والدنيا

ومن ثم كان أول مقصد من مقاصد المسلمين وأهل السابقة من المهاجرين بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم واجتماع المسلمين على كلمة التوحيد متجهاً الى وجوب نصب خليفة يجمع الأمة الاسلامية على كتاب الله وسنة رسوله ويأخذ بالقوة على أيدي ذوي العبث بالنظام. الا انهم اختلفوا فيمن يولونه هذا الامر اختلافاً ليس فيه ما ينافي المصلحة الاسلامية بل غايته تمحيص الفكر ومحض النصيحة فيمن تجمع على تأميره كلمة الجمهور الاعظم من المسلمين ليكون أثبت قدماً في الخلافة وأشد حجة على المخالفين فاختاروا لهذا المنصب الرفيع أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه

علم هذا كله جمهور الصحابة والمسلمين فاختاروا للخلافة رجلاً من غير بيت النبوة ولو علموا خلافه لما عدلوا عن بيت النبوة البتة ولكان أولى الناس بهذا الامر العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم أو علي بن أبي طالب لسابقته في الاسلام وكونه أقرب الناس من النبي عليه الصلاة والسلام نسباً وصهراً بعد العباس

هكذا كان أيضاً بعض بني هاشم وبعض بني أمية يتوقعون انه لا يعدل بعلي كرم الله وجهه أحد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن لخصوصيات ومزايا له ترشحه للخلافة وتحملهم على الاعتقاد بترجيح انتخاب المسلمين له لذلك المنصب الرفيع لا لاعتقادهم بوجوب الخلافة لبني هاشم والا لو صح عندهم شيء من وجوب الخلافة لبني هاشم لكان العباس رضي الله عنه أولى بها من علي لانه عم النبي صلى الله عليه وسلم لما لم يكن الامر كذلك لم يتخلف علي عن مبايعة أبي بكر سوى ستة أشهر كما يقولون ثم بايعه بعد وهو أعظم الناس اعتقاداً

بأهليته وطاعة له وعوناً على أمره

هذا اذا صح انه تخلف عن بيعته ولم يصح وانما وجد عليه وعلى عمر بن الخطاب لما حكما بحرمان فاطمة رضي الله تعالى عنها من ميراثها من رسول الله صلى الله عليه وسلم مما افاء الله عليه بالمدينة وفدك وهي قرية بخيبر لما ثبت عند أبي بكر يومئذ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال (لا نورث ما تركناه صدقة انما يأكل آل محمد من هذا المال) حتى كان مما قاله يومئذ أبو بكر واني والله لا اغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت في عهده صلى الله عليه وسلم. فوجدت عليه فاطمة وهجرته وهجره علي أيضاً الى أن توفيت فاطمة رضي الله عنها بعد ستة أشهر من بيعة أبي بكر وكان لعلي من الناس وجهة حياة فاطمة فلما توفيت استنكر على وجوه الناس فالتمس مصالحة أبي بكر فصالحه وربما وهم الرواة من هذا الامر انه لما صالحه بعد ستة أشهر بايعه أيضاً وسترى من الروايات الآتية ما يدل على أن علياً لم يتخلف عن البيعة الا قليلاً والله أعلم

ولكن ما الحيلة وقد رزئ هذا الدين بشراذم من المنافقين انما دخلوا في هذا الدين للتشويش على أهله لكن وقوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أحوالهم وهيبة الاسلام التي ملأت قلوبهم لم يمكناهم من بث الفتنة في الدين فبثوها وبعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم من طريق السياسة حتى نشأ عنها من الخلاف على الخلافة أمور ورأى بعد منافقوا الاعاجم ومجوسهم الذين ابتز الاسلام ملكهم وثل عروش ملوكهم فهالهم أمره وساءتهم غلبة شأنه أن يتخذوها وسيلة لادخال الوهن على الاسلام وتعطيل حدوده وشعائره فخلطوا السياسة بالدين وضربوا بسلاحهما في وجوه المسلمين فزعموا أن منصب الخلافة فرع من النبوة لا يتخلف عن أصله . ولا يصح وضعه في غير محله . واشترطوا فيه ما يشترط في

النبوة من العصمة وهي لا تكون على زعمهم الا في علي وأهل بيته والا فلا امام يؤتم ولا جمعة تصح ولا حكم ينفذ . وهو عين التعطيل الذي رموا اليه يومئذ بسهم نفذ في كبد المسلمين . وفرق وحدة المؤمنين ولا يزال يتابعهم عليه الى الآن فريق الشيعة الذين اعماهم التقليد على غير علم بمن يقلدون . ولا فهم لحقيقة ما هم فيه من تعطيل اركان الدين مسترسلون . انتظاراً لامام موهوم ويوم معلوم

واصيبتاه من هذه العقول التي لم تدرك الى الآن مرامى غرض السالفين ومهاوي ضلال الزنادقة الكاذبين الذين جعلوا مسئلة الامام المعصوم عقبة دون اقامة شعائر الدين . لن تزول من وجه الاسلام الى يوم الدين . ما دامت مدعمة بأحاديث المهدي الموضوعة . وأخبار الامامة المصنوعة . التي يدل على انها مكذوبة على الرسول مفتراة على أهل بيته الطاهرين ما أصاب المسلمين من جرائها من التفريق وما أصيب به الاسلام من الوهن وهذا شيء لا يرضاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأمته كما لا يرضاه الله سبحانه وتعالى لدينه ولو صح شيء منه لما ترك الله عباده الى الان يتخبطون في ظلمات الفوضى بلا امام معصوم والعصمة انما هي لله وللانبياء والمرسلين الذين أرسلهم الله رحمة للعالمين ولن يرسل للبشر الأئمة والسلاطين المعصومين كما يريد فريق المتخرصين من الشيعة . وهذا العالم البشري على اختلاف الامم والشعوب مازال ولن يزال قائماً بمن يتولى شؤون الناس من الرؤساء والسلاطين وفيهم وثنيون وهم أعدل من ساس الممالك كملك اليابان الان أو كسرى في قديم الزمان . فاللهم نسألك هداية هذه العقول الزائغة وتأليف تلك القلوب المتفرقة انك مجيب السؤال

ولنرجع الى الكلام على خلافة أبي بكر رضي الله تعالى عنه ونبدأ من ذلك بذكر بيعته فنقول

﴿ بيعة أبي بكر ﴾

لما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان أبو بكر غائباً في أهله بالسنح فلما أتاه منعاه أقبل على الناس فوجدهم في اختباط عظيم لوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فمنهم المصدق ومنهم المكذب فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فكشف عن وجهه وقبله وقال بابي أنت وأمي قد ذقت الموتة التي كتب الله عليك ولن يصيبك بعدها موتة أبداً . ثم خرج الى الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال . أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت . ثم تلا (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل) الآية فكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية في المنزل لما أصابهم من الدهشة بوفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وقال عمر فما هو الا ان سمعت أبا بكر يتلوها فوقعت الى الارض ماتحملني رجلاي . فاللهم ارزقنا قلوباً كهذه القلوب ملئت بالايمان وأشربت بحب الرسول حتى ما تصدق انه مات لدهشة أخذتها وحزن أصابها وأسى اراعها وبلاء فاجأها ولما لم تطق حمل هذا كله زهلت لحظة كما يشرب الطير ثم ثابت الى نفسها . وعاد اليها وعيها . بآية تلاها أبو بكر كأنما المسلمون كانوا في ذهول عنها وما هو الا زهول الحزن ووقع اليم المصاب

وبينما كان الناس مشتغلين بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتجهيزه ودفنه جاء مخبر فأخبرهم باجتماع الانصار في سقيفة بني ساعدة بقصد المفاوضة في شأن الخلافة فأسرع اليهم أبو بكر وعمر وجماعة من المهاجرين ليتداركوا هذا الامر قبل افتراق الكلمة فأتوا الانصار وقد اجتمعوا بالسقيفة يبايعون سعد ابن عبادة فأعجلهم المهاجرون عن أمرهم وغلبوهم عليه وتكلم يومئذ أبو بكر فأدلى بالحجة وكان مما قاله

يا معشر الانصار انكم لا تذكرون فضلاً الا وأنتم له أهل . وأن العرب لا تعرف هـذا الامر الا لقريش . هم أوسط العرب داراً ونسباً قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين وأخذ بيدي عمر بن الخطاب وأبي عبيدة بن الجراح فكثر حينئذ اللغط بين الانصار وقال قائلهم منا أمير ومنكم أمير . ثم ان عمر لما رأى أن بعض الانصار ومنهم بشير بن سعد يرون رأي المهاجرين بجعل الخلافة في قريش وأن الامر اذا أجل النظر فيه ربما صعب حله قام الى أبي بكر وقال ابسط يدك أبايعك فبسط يده فسبقه بشير فبايعه وبايعه عمر وسائر الناس

وتخلف عن بيعته علي وطلحة والزبير وبنو هاشم لما كانوا يتوقعونه من مصير الخلافة اليهم وعدم صرفها عنهم حتى كان مما قال يومئذ عقبة بن أبي لهب

ما كنت أحسب أن الامر منصرف عن هاشم ثم منهم عن أبي الحسن

ولما رأى بنو هاشم انحياز الناس الى البيعة لابى بكر واتفاقهم على الرضا بخلافته لما ثبت عندهم من ان الخلافة غير النبوة وان أبا بكر احق الناس بها بعد ان انابه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم في الصلاة بالمسلمين في حال مرضه اقبلوا على بيعته وبايعه علي رضي الله تعالى عنه بعد ايام على الارجح لا بعد ستة اشهر وقد سبق الكلام على هذا في اول الفصل ويؤيده ما رواه الرواة عن ابى سعيد الخدري انه قال في حديث طويل ان ابا بكر صعد المنبر عقب البيعة فنظر في وجوه القوم فلم ير الزبير فدعا بالزبير فجاء فقال قلت ابن عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم وحواريه اردت ان تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه

ثم نظر في وجوه القوم فلم ير علياً فدعا به فجاء فقال. قلت ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وختنه على ابنته أردت ان تشق عصا المسلمين فقال لا تثريب يا خليفة رسول الله فقام فبايعه

وأخرج ابن عساكر عن علي انه قال. لقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بكر ان يصلي بالناس [1] واني شاهد وما أنا بغائب وما بي مرض فرضينا لدنيانا ما رضي به النبي صلى الله عليه وسلم لديننا . وأخرج الدارقطني في الافراد والخطيب وابن عساكر عن علي رضي الله تعالى عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم سألت الله ان يقدمك ثلاثاً فأبى عليّ الا تقديم ابي بكر

هذا كله يدل على ان علياً رضى الله عنه لم يتردد عن بيعة أبى بكر الا قليلا ويعضده ايضاً ان جماعة من بني أمية منهم ابو سفيان بن حرب وخالد ابن سعيد أرادوه على الخلافة يومئذ فزجرهم زجراً وقرعهم تقريعاً

هذا ولما استقرت الخلافة لأبى بكر وذلك سنة احدى عشرة صعد على المنبر ثم تكلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

أيها الناس قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينونى وان أسأت فقومونى . الصدق أمانة والكذب خيانة . والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ منه الحق . والضعيف فيكم قويّ عندي حتى آخذ له الحق

---

(١) أخرج الشيخان عن أبي موسى الاشعري رضى الله عنه قال مرض النبي صلى الله عليه وسلم فاشتد مرضه فقال مروا أبا بكر فليصل بالناس قالت عائشة انه رجل رقيق القلب اذا قام مقامك لم يستطع ان يصلي بالناس فقال مري أبا بكر فليصل بالناس فعادت فقال مري أبا بكر فليصل بالناس فانكن صواحب يوسف

ان شاء الله تعالى . لا يدع احد منكم الجهاد فانه لا يدعه قوم الا ضربهم الله بالذل . أطيعوني ما أطعت الله ورسوله فاذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم قوموا الى صلاتكم رحمكم الله

كلام يمثل معنى الرئاسة العامة في الاسلام تمثيلا تستكن امامه القلوب التي أشربت حب العدل وتقصر عن التطاول الى تتأجه اعناق زعماء الحرية في كل أمة وجيل

كلام صدر عن اول خليفة في الاسلام يبشر الامم بنزع أغلال الذل والاستعباد من أعناقهم وانتزاع قيود السيطرة الجائرة من أيديهم وأرجلهم

بل كلام يقرر صاحبه أول قاعدة للحكومة في الاسلام ويسجل الشقاء على من تسامح بها من المسلمين . فانا لله وانا اليه راجعون . على ما كان بعد ذلك في المسلمين وما سيكون

﴿ انفاذه جيش أسامة بن زيد ﴾

لم يكن امر البيعة أول عقبة قطعها المسلمون بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فانه لم يكد ينتشر نعيه في الافاق . حتى ظهر النفاق واشرأبت من الأمم المجاورة الاعناق . ومنع العرب الزكاة والمسلمون يومئذ في ارتباك عظيم لفقد نبيهم وقلتهم وكثرة عدوهم

كان النبي عليه الصلاة والسلام اعد قبل وفاته جيشاً وعليه مولاه اسامة ابن زيد لبعثه الى الشام فتأخر ذلك الجيش عن السفر بسبب مرضه ووفاته عليه الصلاة والسلام . ولما استقرت الخلافة لابي بكر قال له الناس ان هؤلاء (يعنون جيش اسامة) جند المسلمين والعرب على ما ترى قد انتقضت بك فلا ينبغي ان تفرق جماعة المسلمين عنك فقال ابو بكر رضى الله تعالى عنه والذي

نفسي بيده لو ظننت أن السباع تتخطفني لانفذت جيش اسامة كما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

وهو ثبات امام الاخطار واستصغار للخطب ومضاء عزيمة نافذ في مثل ذلك الموقف الحرج الذي وقف به المسلمون لا تصدر الا عن مثل أبى بكر رضي الله تعالى عنه . ثم أمر بالتجهز وان يخرج كل من هو من جيش اسامة الى معسكره بالجرف . فخرجوا كما أمرهم وحبس ابو بكر من بقي من تلك القبائل التي كانت لهم الهجرة في ديارهم فصاروا مسالح حول قبائلهم وهم قليل

لما خرج الجيش الى معسكرهم وتكاملوا أرسل اسامة عمر بن الخطاب رضي الله عنه وكان معه في جيشه الى أبي بكر يستأذنه أن يرجع بالناس وقال أن معي وجوه الناس وجلتهم ولا آمن على خليفة رسول الله والمسلمين ان يتخطفهم المشركون

وقال من مع أسامة من الانصار لعمر بن الخطاب ان أبا بكر خليفة رسول الله ألا فامض فابلغه عنا أن يولي أمرنا اقدم سناً من اسامة فخرج عمر بأمر اسامة الى ابي بكر فأخبره بما قال اسامة أصر على ثبات رأيه واستمر في مضاء عزيمته على انفاذ جيش اسامة وقال لعمر لو خطفتني الكلاب والذئاب لانفذته كما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو لم يبق في القرى غيري لانفذته

قال عمر فان الانصار تطلب رجلاً أقدم سناً من اسامة . فأدرك ابو بكر من هذا ما يخالج ضمائر القوم من تأمير اسامة عليهم لما لم يزل في نفوسهم من آثار الفخر الجاهلية والاستمساك بعرى التفاضل بالانساب فرأى ان يمحو من نفوسهم كل أثر من آثار الكبرياء والتفاضل الا بالتقوى والاعمال وان يبدأهم

من ذلك بنفسه فماذا صنع ؟

خرج أبو بكر حتى أتاهم وأشخصهم وأشيعهم وهو ماش وأسامة راكب فقال له أسامة يا خليفة رسول الله لتركبن أو لأنزلن فقال والله لا نزلتَ ولا أركب وما علي أن اغبر قدميّ ساعة في سبيل الله . فلم يسع الانصار لما رأوا خليفة رسول الله ماشياً في ركاب أسامة الا السكوت ولم يبدر من أحد منهم بادرة قط بل صاروا صحبة أسامة وابدوا ما عرفوا به من الاخلاص في الجهاد والذب عن حياض الاسلام والاستماتة في قتال الاعداء فرضي الله تعالى عنهم أجمعين

ولما أراد أبو بكر أن يرجع قال لأسامة ان رأيت ان تعينني بعمر فافعل فأذن له

امام أمره نافذ في جيوشه وسلطته مبسوطة على قواده احب استبقاء عمر بن الخطاب عنده ليستعين برأيه فلم يشاء أخذه من الجيش الا باذن قائده أسامة بن زيد تنبيهاً لمن فيه الى وجوب الطاعة لامره وعدم الحيد عن اشارته ما دام فيهم أميراً ولهم قائداً وقد كان في استطاعته ان يشافه الجيش بمثل هذا التنبيه لو لم يرَ ان يبدأهم بنفسه ويؤدب نفوسهم بأدبه وهيهات هيهات ان تلد الولادات مثل أبي بكر وعمر

هذا وقد أوصاهم أبو بكر قبل رجوعه عنهم بوصية قصارى ما يقال فيها أن الدول المتمدنة الآن مع حرصها على تخفيف بلاء الحروب ودعواها العريضة في خدمة الانسانية والانسان ، ومراعاة حقوق العمران ، لم تستطع واحدة منهن أن تقيد جيوشها بمثل مضمونها او ترتبطن جميعاً بقاعدة من قواعدها وها هي بنصها

لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً الا للاكل . وسوف تمرون باقوام قد فرغوا انفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغو انفسهم له . وسوف تقدمون على قوم فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً

ثم قال اندفعوا باسم الله وأوصى أسامة ان يفعل ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم فسار وأوقع بقبائل من قضاعة وأغار على أبنى موضع بناحية البلقاء[1] وغنم وعاد بعد اربعين يوماً وقيل بعد سبعين يوماً

باب
﴿ الكلام على الردة ﴾
(بحث في الردة)

ربما يتوهم متوهم من ايراد الكلام على أهل الردة على علاته ان الردة انما هي ارتداد العرب على الاسلام الى الشرك كما توهم بعضهم فى مناظرة جرت بيني وبينه من بضع سنين في مجلة الهلال التي تطبع في مصر والحال ان ردة العرب يومئذ لم تكن بهذه المثابة وانما اعتبرهم أبو بكر مرتدين لتركهم ركناً من اركان الدين وهو الزكاة . وللعلماء والمؤرخين مباحث بهذا الشأن أحببت ان ألخصها في هذا الكتاب ليظهر بها معنى الردة يومئذ على وجهه الصحيح فاقول

---

(١) في الجنوب الغربي من الشام

رأى العرب ضعف المسلمين واضطرابهم بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام لا سيما لما بلغهم استفحال امر مسيلمة الكذاب وطليحة الأسدي فأخذوا يتناجون في الامتناع عن دفع الزكاة التي ثقلت عليهم وعدوها كالاتاوة التي لا تطيب نفس العرب بدفعها ولم تلبث ان فشت هذه القالة بينهم حتى أظهروا الامتناع وطردوا عمال الزكاة ولما انتهى الخبر الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه جمع الصحابة للشورى فاختلفوا فى هل يقاتل العرب على تركهم شيئاً من الدين كما لو قوتلوا عليه كله

(قال الشهرستاني في الملل والنحل) فقال قوم لا نقاتلهم قتال الكفرة وقال قوم بل نقاتلهم حتى قال أبو بكر لو منعونى عقالا[1] مما اعطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم عليه ومضى بنفسه الى قتالهم ووافقه الصحابة بأسرهم وقد ادى اجتهاد عمر في ايام خلافته الى رد السبايا والاموال اليهم واطلاق المحبوسين منهم

وفي سياق حكاية اقرار الصحابة على قتال اهل الردة بيان كاف في حقيقة تلك الردة التي قوتلوا عليها فقد نقل ابن شاكر في عيون التواريخ أن ابا بكر لما جمع الصحابة للشورى فى قتال العرب يومئذ اشار عمر بعدم قتالهم فقال ابو بكر والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه الى رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) في مشكاة المصابيح نقلا عن النهاية — اراد بالعقال الحبل الذي يعقل به البعير الذي كان يؤخذ في الصدقة لان على صاحبها التسليم وانما يقع القبض بالرباط وقيل أراد ما يساوي عقالا من حقوق الصدقة اذا أخذ المصدّق اعيان الابل قيل أخذ عقالا واذا أخذ أثمانها قيل أخذ نقداً اه وقال المبرد في الكامل ان المصدق اذا اخذ من الصدقة ما فيها ولم يأخذ ثمنها قيل أخذ عقالا واذا اخذ الثمن قيل أخذ نقداً

لقاتلهم على منعها . فقال عمر كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا اله إلا الله [١] وان محمدا رسول الله فمن قالها عصم مني ماله ودمه الا بحقها وحسابهم على الله)

فقال أبو بكر . والله لاقاتلنّ من فرق بين الصلاة والزكاة فان الزكاة حق المال وقد قال الا بحقها . قال عمر رضي الله عنه فوالله ما هو الا أن رأيت الله شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت انه الحق اه

وذكر العلامة أبو الحسين عروة الحنبلي في رسالة البدع في الجزء العشرين من كتاب الكواكب [٢] أن قتال الصديق رضي الله تعالى عنه لاهل الردة انما كان لمنعهم الزكاة فقط وأفاض في هذا البحث مبيناً أن من ترك شيئاً من الدين يقاتل عليه كما لو قوتل عليه كله والزكاة من الدين فاجتهاد أبي بكر أداه لقتال العرب عليها اه

وفي حديث ابن مسعود الذي يقول فيه (وسيأتي تمامه) فوالله مارضي منهم الاّ بالخطة المخزية أو الحرب المجلية . فاما الخطة المخزية فان يقروا بان من قتل منهم في النار . دليل على ان الردة لم تكن ردة عن الاسلام الى الشرك والا فما معنى اقرارهم على ان من قتل منهم في النار ولو كانوا على الشرك فهم في النار بالطبع انكروا او أقروا

وانما حمل العرب على منع الزكاة استثقالهم لها وعدها كالا تاوة بدليل

---

(١) هكذا في الاصل ولم ترد في هذه الرواية وانما وردت في رواية حتى يشهدوا ان لا الخ (٢) هذا الكتاب موجود في مكتبة دمشق الشام في جامع الملك الظاهر وهناك اطلعت عليه وهي المكتبة التي عنى بجمعها من بقايا الكتب الموجودة في المدارس القديمة المرحوم مدحت باشا لما أسندت اليه ولاية سورية سنة ١٢٩٠ واحسن ما فيها هذا الكتاب والتاريخ الكبير للحافظ ابن عساكر في نيف وأربعين مجلداً

ما رواه المؤرخون من انّ عمرو بن العاص مر عند منصرفه من جيفر على بلاد بني عامر فنزل بقرة بن هبيرة وقرة يقدم قدماً ويؤخر اخرى ومعه عسكر من بني عامر فذبح له واكرم مثواه فلما أراد الرحلة خلا به قرة وقال ياهذا ان العرب لاتطيب لكم نفسا بالاتاوة فان اعفيتموها من أخذ أموالها فتسمع لكم وتطيع وان أبيتم فلا تجتمع عليكم . وكان عمرو من صناديد قريش ودهاتها فلم يعبأ بقوله بل أظهر لديه من الشهامة والشمم فوق ماينتظر منه حيث قال له . أكفرت ياقرة وتخوفنا بالعرب فوالله لاوطئن عليك الخيل في حفش أمك واحفاش بيت ينفرد فيه النفساء ثم قام وذهب

هذه حقيقة الردة فيمن لم يرتد حقيقة كمن شايع مسيلمة الكذاب وطليحة الاسدي قد بسطناها ليكون القارئ منها على علم وهي وان تكن بتلك المثابة الا انها كانت تدل على شر عظيم يلحق بالمسلمين لو استفحل أمرها واستهين بشأنها ولكن نهض لها أبو بكر رضي الله تعالى عنه بعزيمته الماضية . وحكمته السامية . فجزاه الله عن الاسلام خير الجزاء

﴿ قتال اهل الردة ﴾

اعلم انه كما كان للمهاجرين والانصار فضل وسابقة في نصرة الاسلام ومظاهرة النبي عليه الصلاة والسلام حتى طأمن بهم من إشراف من ناواه . واستخذى من عاداه . فلقريش ايضا مثل هذا الفضل بعد وفاة النبي عليه الصلاة والسلام فان قريشا استقبلت بصدورها حوادث الردة المريعة ونيرانها المتأججة وأخذت على عاتقها استخضاع العرب وقد ارتدت قبائلها عامة اوخاصة الا ثقيفاً وقريشاً فاقتحمت رجالات قريش بالمهاجرين والانصار وثقيف وبعض الاحلاف ذلك الفجاج الذي يرتج باهل الردة ارتجاجا .

وخاضت بخيلها من حروب القوم بحراً عجاجا . وممن عقد له يومئذ من رجالات قريش خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل وعمرو بن العاص وخالد ابن سعيد والمهاجر بن أبي أمية ولم يلبث ان أطفأ أبو بكر نيران الردة بامثال هؤلاء الرجال حتى رمي برجال قريش أيضا جيوش القياصرة وجنود الأكاسرة وتابعه على ذلك عمر بن الخطاب فكان من قوادهما في استخضاع تلك الجيوش الجرارة وتدويخ تلك الممالك العظيمة الشاسعة التي شيدت فيها صروح الاسلام وذكر على منابرها اسم محمد عليه الصلاة والسلام . خالد بن الوليد وخالد بن سعيد وعمرو بن العاص وأبو عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية ابن أبي سفيان وعياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهري وسعد بن أبي وقاص واضرابهم من صناديد قريش ورؤسائها الذين ذللوا من الصعاب وقطعوا من العقاب ولاقوا من الاهوال ما لا يحلم بذكره الانسان ، ولا يدانيهم فيه من مشاهير العالم مدان ، كما سترى بعدُ الا انه يؤخذ على بعضهم تساهلهم في أمور الفتن العظمى حتى استشرى شرها ، وعظم على الامة ضرها ، وهي شؤون وان كانت تحدث في كل قوم ، وتصاب بها الدول في كل عصر ، الا أن قريشاً كانت أولى في مثل عصرها الذي نزل فيه القرآن باطراح أسباب التخاذل والمزاحمة . والاخذ باسباب الحزم والتضافر . بعد اذ انتهت اليهم السيادة في الاسلام كما انتهت في الجاهلية ومع هذا فلا يسعنا نكران فضلهم على المسلمين بخدمتهم للاسلام في أيام الفتوح العظيمة وأما ماعد هذا فلهم فيه شؤون ربما فاتهم فيها الحزم أو قام لهم في مقامهم ذلك عذر وليست العصمة الا لله وللرسول ولله فى خلقه شؤون

نعود الى ذكر قتال اهل الردة وذلك الموقف الحرج الذي وقف فيه

المسلمون بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم فنقول

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لقد قمنا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم مقاما كدنا نهلك فيه لولا ان الله منّ علينا بأبي بكر . اجمعنا على ان لا نقاتل على ابنة مخاض وابنة لبون وان نأكل قرى عربية ونعبد الله حتى تأتينا اليقين فعزم الله لأبي بكر على قتالهم فوالله مارضي منهم الا بالخطة المخزية أو الحرب المجلية فاما الخطة المخزية فان يقروا بأن من قتل منهم في النار ومن قتل منا في الجنة وان يدوا قتلانا ونغنم ما أخذنا منهم وان ما أخذوا منا مردود علينا وأما الحرب المجلية فان يخرجوا من ديارهم

بلغ بعزيمة أبي بكر وعظيم رأيه بعد اذ رأى ما أصاب المسلمين من الغم ان آلى على نفسه ان لايدع العرب يقر لهم قرار الا والسيف أخذ برقابهم والاسلام ضارب بينهم بجرانه وبينما هو يطاول في الامر انتظاراً لرجوع اسامة بجيش المسلمين اعجلته عبس وغطفان وأسد وطيء وكان بعضهم نازلا بذي القصة وبعضهم بالابرق فأرسلوا اليه وفداً يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فردهم خائبين فرجعوا وأخبروا القوم بقلة المسلمين وضعفهم وقد غرتهم كثرتهم وأعماهم الجهل عن انّ مع المسلمين قوة الايمان واليقين وفيهم من الصيد الصناديد وليوث الحرب الشجعان مثل عمرو وعليّ وطلحة والزبير الذين لا يفل لهم حد ولا يدرك لهم جد

خشي أبو بكر بعد مسير الوفد من البيات فجعل على أنصار المدينة علياً وطلحة والزبير وابن مسعود وأمرهم بملازمة المسجد خوف الغارة من العدو فما لبثوا ثلاثاً حتى طرق العدو المدينة غارةً مع الليل وخلفوا بعضهم بذي حسي ليكونوا لهم ردءاً فوافوا ليلا الانقاب وعليها المقاتلة فمنعوهم وارسلوا الى أبي

بكر فخرج بالمسلمين على النواضح فردوا العدو واتبعوهم حتى بلغوا ذا حسى[1] فخرج عليهم الرده بأنحاء قد نفخوها وفيها الحبال ثم دهدهوها[2] على الارض فنفرت ابل المسلمين وهم عليها ورجعت بهم الى المدينة ولم يصرع أحد منهم

ثم خرج أبو بكر ليلا على تعبية فما طلع الفجر الا وهم والعدوّ على صعيد واحد فما شعروا بالمسلمين حتى وضعوا فيهم السيوف فولوا الادبار وأتبعهم أبو بكر حتى نزل بذى القصة وكان أول الفتح ووضع بها النعمان بن مقرّن في عدد ورجع الى المدينة فطرقت المدينة صدقات نفر كانوا على صدقة الناس وقدم في أثناء ذلك أسامة بن زيد بجيش المسلمين فاستخلفه أبو بكر على المدينة وجنده معه ليستريحوا ويريحوا ظهرهم ثم خرج فيمن كان معه فقام اليه عليٌّ والمسلمون وناشدوه الله ليقيم فأبى وقال والله لأواسينكم بنفسي وسار الى ذى حسى وذى القصة حتى نزل بالابرق فقاتل من به فهزمهم وغلب على بني ذبيان وبلادهم وحماها لدواب المسلمين ثم رجع الى المدينة فلما استراح اسامة وجنده وكان قد جاءهم صدقات كثيرة تفضل عليهم بادر أبو بكر الى تسيير الجيوش الى أهل الردة

« تسيير الجيوش الى أهل الردة »

عقد أبو بكر لقتال أهل الردة احد عشر لواء

الاول عقده لخالد بن الوليد وأمره بطليحة بن خويلد فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح ان أقام له

---

(١) ذو القصة وذو حسى « او ذو خشب على رواية البعض » اماكن قرب المدينة لجهة نجد وهي منازل القوم

(٢) أي نفخوها والانحاء هي القرب

(٢) لعكرمة بن ابي جهل القرشي وسيره الى مسيلمة

(٣) المهاجر بن ابي امية المخزومي القرشي وأمره بجنود العنسي في اليمن ومعونة الابناء على قيس بن مكشوح ثم يمضي الى كندة بحضرموت

(٤) خالد بن سعيد بن العاص القرشي وبعثه الى مشارف الشام

(٥) عمرو بن العاص القرشي وأرسله الى قضاعة

(٦) حذيفة بن محصن الغلفاني من حمير وأمره باهل دبا

(٧) عرفجة بن هرثمة البارقي من الازد وأمره بمهرة

(٨) شرحبيل بن حسنة حليف بني زهرة وأرسله في أثر عكرمة بن ابي جهل واذا فرغ يلحق بقضاعة

(٩) معن بن حاجز السلمي وأمره ببني سليم ومن معهم من هوازن

(١٠) سويد بن مقرّن من أوس وأمره بتهامة باليمن

(١١) العلاء بن الحضرمي حليف بني أمية ووجهه الى البحرين

لما سير ابو بكر هؤلاء الامراء كتب لهم عهداً ستأتي صورته في باب كتبه وخطبه وكتب لجميع المرتدين أيضاً كتاباً وسيره مع الرسل وستأتي صورته أيضاً

باب

حروب الامراء مع أهل الردة واخبارهم

طليحة الاسدي

هو طليحة بن خويلد الاسدي من بني اسد بن خذيمة وكان قد تنبأ

في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكثر جمعه ومات النبي صلى الله عليه وسلم وهو على ذلك فتبعه كثير من العرب عصبية لهـذا كان أكثر أتباعه من أسد وغطفان وطيء ولما قصد مهاجمة المدينه أمد هذه القبائل بأخيه حبال فافترقوا فرقتين فرقة أقامت بالربذة وفرقة سارت الى ذى القصه ثم أوفدوا وفداً الى أبي بكر يبذلون الصلاة ويمنعون الزكاة فأبى عليهم أبو بكر ذلك وجرى من أمرهم وأمر المسلمين ما تقدم قبل ، ولما سار أمراء المسلمين بالجيوش قصد خالد بن الوليد رضي الله عنه طليحة فهزمه وفرق جمعه وأسر منهم عيينة بن حصن الفزارى كما سيأتي تفصيل ذلك في سيرة هـذا البطل المغوار ان شاء الله

ولما تفرق هـذا الجمع أقبل فلالهم الى امرأة اسمها ام زمل سلمى بنت مالك بن حذيفة بن بدر كانت سبيت في مدة الرسول صلى الله عليه وسلم ووقعت لعائشة فاعتقتها فرجعت الى قومها ولما اجتمع اليها هذا الفل أمرتهم بالقتال فجاءها خالد ففل جمعها وقتلها

﴿ تميم وسجاح ﴾

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أمر على بطون بنى تميم ستة امراء وهم الزبرقان بن بدر وقيس بن عاصم وصفوان بن صفوان وسبرة بن عمرو ووكيع بن مالك ومالك بن نويرة فلما وقع اليهم الخبر بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم سار صفوان بن صفوان الى ابى بكر بصدقات بني عمرو ووافى الزبرقان فاتبع صفوان بصدقات الرباب وهي ضبة بنت اد بن طابخة وعدى وتيم وعكل وثور بنو عبد مناة بن اد بصدقات عوف والابناء وكلها من بطون تميم ومنها قيس ابن عاصم ومالك بن نويرة فأما قيس فندم ولما اظله العلاء بن الحضرمي اخرج

الصدقات فتلقاه بها ثم خرج معه واما مالك فتحير وتشاغلت تميم بعضها ببعض فتام من بقي على الاسلام في وجه من ارتد وبينا هم على اختلافهم اذ جاءتهم من الجزيرة سجاح بنت الحرث بن سويد بن عقفان التميمية وكانت ورهطها في اخوالها من بني تغلب في الجزيرة فادعت النبوة وجاءت تريد غزو ابي بكر فطلبت من مالك بن نويرة الموادعة فوادعها وردها عن غزو المدينة وحملها على غزو المسلمين من بني تميم فجاءهم أمر أعظم مما هم فيه لاختلافهم ففروا امامها أماهي فسارت تريد المدينة حتى بلغت النباج قرية بالبادية فأغار عليها اوس بن خزيمة الهجيمي في بني عمرو من تميم واسر بعض رجالها ثم تحاجزوا على ان يطلقوا اسراها وتطلق اسراهم وترجع فلا تجتاز عليهم فيئست بذلك من الذهاب الى المدينة وانقلبت تريد اليمامة وجرى لها مع مسيلمة امور لا محل لذكرها هنا ثم رجعت الى الجزيرة ولم تزل في تغلب حتى نقلهم معاوية عام الجماعة وجاءت معهم وحسن اسلامها واسلامهم

﴿ مالك بن نويرة ﴾

ندم بنو تميم كلهم على ما صنعوا وتراجعوا الى الاسلام وأدّوا الصدقة الا مالك بن نويرة فانه بقي مترددا بين الامرين واجتمع اليه قومه بالبطاح فسار اليه خالد بعد ان انتهى من أمر طليحة فلما علم مالك بمسيره اليه أمر قومه فتفرقوا في المياه فبث خالد السرايا في أثرهم فأتى بجماعة منهم أسرى وفيهم مالك فأمر بقتلهم فقتلوا وسيأتي تفصيل هذا الخبر في سيرة خالد بن الوليد

﴿ مسيلمة وأهل اليمامة ﴾

كان مسيلمة ممن وفد مع قومه بني حنيفة على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما رجع ومن معه الى منازلهم باليمامة ادعى مسيلمة النبوة وانه

أشرك مع محمد بالامر واجتمع عليه بنو حنيفة وكانوا اربعين الف مقاتل ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وبث أبو بكر البعوث عقد لعكرمة ابن أبي جهل الى اليمامة كما تقدم وامده بشرحبيل بن حسنة فلم يتربص ريثما يصله المدد بل تعجل ليكون له الفضل خاصة وتقدم فواقع القوم فنكب فكتب الى أبي بكر بالخبر فغضب عليه أبو بكر وكتب اليه لا ارينك ولا تراني فتوهن الناس امض الى حذيفة وعرفجة فقاتل اهل عمان ومهرة ثم تسير انت وجندك تستبرؤن الناس حتى تلقى مهاجر بن أبي أمية باليمن وحضرموت

وكتب الى شرحبيل بالمقام الى ان يأتيه المدد مع خالد بن الوليد فاذا فرغوا من مسيلمة تلحق بعمرو بن العاص تعينه على قضاعة . فلما رجع خالد من البطاح الى أبي بكر واعتذر اليه عما صنع بمالك وقومه فقبل عذره ورضي عنه ووجهه الى مسيلمة واوعب معه المهاجرين والانصار وعلى الانصار ثابت بن قيس بن شماس وعلى المهاجرين أبو حذيفة وزيد بن الخطاب . وسار خالد للقاء مسيلمة فأمده أبو بكر بسليط ليكون رداء له لئلا يؤتى من خلفه فلما علم مسيلمة ومن معه بدنو جنود خالد خرجوا فعسكروا في منتهى ريف اليمامة واستنفروا الناس فنفر اليهم عدد كثير

تقدم خالد وعلى مقدمته شرحبيل ولما كان على ليلة من معسكر بني حنيفة التقى بسرية منهم راجعة من بلاد بني تميم وعامر لادراك ثأر لهم وعليهم مجاعة بن مرارة من سادات بني حنيفة فأمر بهم خالد فقتلوا الا مجاعة فانه استبقاه لشرفه ثم سار خالد حتى التقى بجيش المرتدين في مكان يدعى بعقرباء وجرى بينهم قتال شديد بيعت فيه الارواح بيع السماء وأصيب

المسلمون بناس من ذوي البصائر والشرف وانتهى الامر بقتل مسيلمة وانهزام بني حنيفة وسيأتي هذا الخبر مفصلاً في سيرة خالد بن الوليد ان شاء الله تعالى فان هذا الموطن من مواطنه العظيمة في حروب الردة

﴿ ردة أهل البحرين ﴾

كان أهل البحرين وهم قبائل من ربيعة قد وفدوا على النبي صلى الله عليه وسلم في حياته وأسلموا فأمر عليهم المنذر بن ساوى فلما توفي عليه الصلاة والسلام كان المنذر مريضاً فتوفي عقبه فارتد أهل البحرين فأما بكر فتمت على ردتها وأما عبد القيس فراجعت الاسلام بهمة الشهم الجليل الجارود بن المعلى العبدي وكان جاء الى النبي عليه الصلاة والسلام وتفقه في الدين وامتلأ قلبه بنور اليقين وعاد الى قومه عبد القيس فكان فيهم الى حين الردة فجمعهم لما قالوا لو كان محمد نبياً لم يمت وقال لهم : أتعلمون انه كان لله انبياء فيما مضى . قالوا نعم . قال فما فعلوا قالوا ماتوا . قال فان محمد قد مات كما ماتوا وأنا أشهد أن لا اله إلا الله وأن محمداً رسول الله . فأسلموا وثبتوا على اسلامهم

هكذا تسعد الأمم بواحد وتشقى بآخر وليس بين الشقاء والسعادة الا عقبة لا يقطعها الا المخفون من الشهوات الغالبون على هوى النفس المالكون للارادة التي لا سلطان عليها من الشهوات ولا قائد لها من التقليد وانما هي مطلقة في عالم الحس تتناول منه ما طاب وتنبذ ما خبث

فكما مني الاسلام بناس من المعطلين الذين ران الهوى على قلوبهم ، واستحكمت عادة الضلال والاضلال في نفوسهم فأثاروا ثائرة الفتنة وأبوا الا الاسترسال فيما وجدوا عليه آباءهم من الضلال فقد رزق ناساً على العكس من هؤلاء قد غلبت ارادتهم على الهوى، واستنارت بصائرهم بنور الهدى. فكانوا

للحق انصاراً، وللاسلام اعوانا، وفيمن كان من هؤلاء في أهل الردة فاهتدى به قومه وسددت بالتمسك بعرى الاسلام عشيرته فكانت عوناً للمسلمين على المرتدين هذا الشهم أي الجارود بن المعلّى العبدى وصفوان بن صفوان التميمي وعدي بن حاتم الطائي وأمثالهم من أهل البصيرة والرأي الذين أراد الله ان يضرب بهم وجوه المرتدين، ويكونوا عوناً للمسلمين، لتعلو كلمة هذا الدين، ولو كره المشركون

لما اجتمع الى الجارود قومه من المسلمين واستمروا على الاسلام خرج اليه الحطم بن ضبيعة من بكر بن وائل ومعه جمع عظيم من المشركين والمرتدين ليستبيحوا احماه وينتقموا على زعمهم ممن جاراه فنزلوا على القطيف وهجر وحصروا أصحاب الجارود فأرسل أبو بكر كما تقدم العلاء بن الحضرمي لاهل البحرين فلما كان بحيال اليمامة لحق به ثمامة بن اثال الحنفي في مسلمة بني حنيفة وقيس ابن عاصم المنقري في قومه وأتاه كثير من أهل اليمن فسلك بهم الدهناء حتى اذا كان في بحبوحتها نزل وأمر الناس بالنزول في الليل فنفرت إبلهم باحمالها فما بقي عندهم بعير ولا زاد ولا ماء فلحقهم من الغم مالا يعلمه الا الله ووصى بعضهم بعضاً فدعاهم العلاء فاجتمعوا اليه فقال ماهذا الذي غلب عليكم من الغم فقالوا كيف نلام ونحن ان بلغنا غداً لم تحم الشمس حتى نهلك

حقاً انه لموقف يروّع القلوب، ويستدعي اليأس من الحياة، إبل نافرة بالزاد والماء، وصحراء رملية تتلظى تلظي الرمضاء، منقطعة عن العمران لا يعهد فيها الماء ولا يقطعها الا المزود بالكفاية توسطها المسلمون وهم لازاد لديهم، ولا ماء يبل صداهم، فماذا يصنعون؟

رحماك اللهم فان العلاء آلى ان لا تهلك هذه العصابة المسلمة في مثل

هذه الدهناء ما دام في سبيل الله سعيها ، والى نصرة الحق قصدها ، فقال لهم : لن تراعوا أنتم المسلمون وفي سبيل الله وأنصار الله فابشروا فوالله لن تخذلوا : فلما صلوا الصبح دعا العلاء ودعوا معه فلمع لهم الماء فمشوا اليه وشربوا واغتسلوا فما تعالى النهار حتى اقبلت الابل تجمع من كل وجه فأناخت اليهم فسقوها

فكأن الله سبحانه وتعالى امتحن بهذه النازلة قلوبا لم تمكن منها اليقين وأسعفهم بعد الشدة برحمته ليوقنوا انه لا يتخلى من عباده المخلصين

ثم أرسل العلاء الى الجارود يأمره ان ينزل بالحطم مما يليه وسار هو فيمن معه حتى نزل عليه مما يلي هجر فاجتمع المشركون الى الحطم الآ أهل دارين واجتمع المسلمون الى العلاء وخندق كل نفسه وكانوا يتراوحون القتال فاذا أمسوا رجع كل الى خندقه حتى اذا كان ليلة سمع المسلمون ضوضاء من ناحية المشركين فأرسل العلاء من يستعلم الخبر فجاء بأنهم سكارى فبيتهم المسلمون شربيات ووضعوا فيهم السيف كيف شاؤا حتى هربوا وهم بين مقتول ومأسور وقتل زعيمهم الحطم ثم قصد فلهم جزيرة دارين في الخليج الفارسي وعبروا اليها في السفن فعبر خلفهم المسلمون وقاتلوهم هناك فظفروا بهم وتم النصر للمؤمنين فكتب العلاء الى أبي بكر بالفتح

﴿ عمان ومهرة ﴾

لما أسلم اهل عمان فى حياة النبي صلى الله عليه وسلم ولى عليهم الاخوين جيفراً وعياداً ابني الجلندي وكان قد نبغ في عمان ذو التاج لقيط بن مالك الازدي وكان يسمى في الجاهلية الجلندي وادعى بمثل ما ادعى من تنبأ وغلب على عمان مرتداً فتبعه كثير من اهلها فخافه ابنا الجلندي فعاذا بالجبال وبعث

جيفر الى ابي بكر فبعث اليه حذيفة بن محصن وعرفجة بن هرثمة كما تقدم الخبر عن هـذا وأرسل في أثرهما عكرمة بن أبي جهل بعد هزيمته في اليمامة فلحقهما قبل ان يصلا عمان فلما قاربوها كاتبوا جيفراً فاتاهم وعسكروا بصحار عاصمة عمان أما لقيط فانه جمع جموعه وعسكر بدبا فالتقى الفريقان واقتتلا قتالا شديداً كاد المسلمون ينهزمون فيه لولا ان الله منّ عليهم بعدد عظيم من بني ناجية وعليهم الخريت بن راشد ومن عبد القيس وعليهم سيحان بن صوحان وغيرهم فاستظهروا بهم وهزموا المشركين ثم سبوا الذرية وقسموا الغنيمة وبعثوا الى ابي بكر بالخمس مع عرفجة وأقام حذيفة بعمان يسكن الناس

وأما مهرة فان عكرمة بن أبي جهل سار اليهم لما فرغ من عمان ومعه جمع من ناجية وعبد القيس وراسب وسعد فاقتحم بلادهم فوافق بها جمعين من مهرة مختلفين أحدهما مع سخريت رجل منهم والثاني مع المصبح أحد بني محارب ومعظم الناس معه فالتمس عكرمة الحيلة بأن كاتب سخريتاً فاجابه وأسلم وكاتب المصبح يدعوه فلم يجب فرأى أن يمحو ما لحقه من غضب أبي بكر لانهزام جيشه في حرب مسيلمة فقاتل المرتدين قتالا شديداً فانهزموا وقتل رئيسهم وأصاب المسلمون ما شاؤا من الغنائم فبعث عكرمة بالاخماس الى ابى بكر مع سخريت وأقام هناك يدبر الامور ويدعو الناس الى الاسلام حتى اجتمع الناس على ما يحب وضرب الاسلام بجرانه

﴿ ردة اليمن ﴾

لما فتحت اليمن في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولى عليها باذان الفارسي الذي كان عاملا للاكاسرة على اليمن ثم دان بالاسلام وكان مقره صنعاء فلما مات قسم النبي صلى الله عليه وسلم عمله على ولده شهر وتفر من

الصحابة منهم ابو موسى الاشعري وخالد بن سعيد بن العاص وغيرهم فثار عليهم رجل من عنس اسمه عبهلة ولقبه ذو الحمار وشهرته الاسود فادعى النبوة فاجابه بعض العرب ثم جرت معه أمور يطول ذكرها انتهت بقتله وأقام أصحاب الاسود يترددون بين صنعاء وعدن لا يأوون الى أحد وتراجع عمال رسول الله صلى الله عليه وسلم الى أعمالهم وبعثوا الى المدينة بالخبر وقد توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما شاع خبر الوفاة ارتد قيس بن عبد يغوث وكاتب المنهزمين من جنود الاسود فاجتمعوا اليه وأراد ان يحتال في قتل كبار الابناء (وهم جماعة أصلهم من فارس واستوطنوا اليمن وهم الذين قتلوا الاسود العنسي) فهيأ لهم طعاماً ودعاهم اليه نظفر بواحد منهم وهو داذويه ونجا الباقون وهما اثنان فيروز وخشنش [1] فطلبهما فامتنعا بقبيلة خولان فرجع قيس الى صنعاء فاستأثر بها وعمد الى عيالات الابناء فغرّبهم وأخرجهم فلما علم بذلك فيروز استمد بني عقيل بن ربيعة وعك فساروا واستخلصوا عيالات الابناء التي سيرها قيس وقتلوا من معها من الرجال ثم انصرفوا الى فيروز فقاتل بهم قيساً ورجاله حتى هزمهم وفي غضون ذلك أتاهم المهاجر بن أبي أمية الذي عقد له أبو بكر لواء وسيره لقتال جنود العنسي ومعاونة الابناء وجاء على اثره عكرمة بن أبي جهل بعد ان انتهى من عمان ومهرة فساعدا الابناء على قتال جنود قيس بن عبد يغوث حتى انهزموا واسر قيس وعمرو ابن معديكرب الزبيدي الذي كان ارتد واتبع الاسود فسيراهما الى أبي بكر

كان ابو بكر رضي الله تعالى عنه يتألف القلوب بالاناة ولا يتعجل بالعقوبة فلما وصل اليه قيس أنبه على ما فعل فأنكر أن يكون قارف من أمر داذويه

(١) وفي تاريخ الطبري جشيش

شيئاً ولم يكن هنـاك دليل ظاهر على قتله له لأن القتل كان خلسة فتجافى له عن دمه وتجاوز له عن سوء عمله وقال لعمرو بن معد يكرب أما تستحي انك كل يوم مهزوم أو مأسور [١] لو نصرت هذا الدين لرفعك الله . فقال لا جرم لأقبلن ولا أعود . ورجعا الى عشائرهما مؤمنين وكان لعمرو بن معد يكرب البلاء الحسن في فتوح نهاوند بعد ، وفيها أستشهد على ما سترى

﴿ كندة وحضرموت ﴾

كان زياد بن لبيد الانصاري عاملا على كندة وحضرموت بالنيابة عن المهاجر بن أبي أمية الذي تولى هذا العمل من قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما تأخر بالمدينة بسبب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم استخلف على عمله زياداً وكان قد ولي صدقات بني عمرو بن معاوية من كندة بنفسه فقدم عليهم فوقع بينه وبينهم خلاف على بكرة وقع عليها ميسم الصدقة غلطاً فطلبوا اليه استبدالها بغيرها فأبى وأغلظ على شيطان بن حجر وأخيه العداء فاستغاثا بحارثة بن سراقة بن معد يكرب فأقبل الى زياد وحل عقال الناقة وبعثها وقام دونها فأمر زياد شبابا من حضرموت والسكون فمنعوه وكتفوه وكتفوا أصحابه وأخذوا البكرة وتصايحت كندة وغضبت بنو معاوية لحارثة وأظهروا أمرهم وغضبت حضرموت والسكون لزياد وتوافى عسكران عظيمان من هؤلاء ولم تحدث معاوية شيئاً خوفاً على أسرائهم ولم يجد أصحاب زياد سبيلا يتعلقون به عليهم وأمرهم زياد بوضع السلاح فلم يفعلوا ونهد اليهم ليلا فقتل منهم وتفرقوا

(١) كان عمرو قد انهزم من خالد بن سعيد بن العاص في اول ردته وأخذ منه خالد سيفه الصمصامة ولم يزل عنده حتى استشهد بالشام فصار الى بني العاص ثم الى بني أمية ثم الى بني العباس الى عهد الواثق حيث أمر بدفعه الى صيقلي ليسقيه فتغير

لما تفرق القوم اطمأن زياد من جهتهم فأطلق حارثة ومن معه ولم يتربص ريثما يصل اليه المهاجر بجيشه ليأمن غدرهم فلما رجع الاسرى الى أصحابهم حرضوهم على زياد ومن معه واجتمع منهم عسكر ونادوا بمنع الصدقة . ومن هذا يعلم ان كندة آخر من منع الصدقة بعد ردتهم الاولى مع الأسود العنسي وانما الجأهم الى مافعلوا الآن ما وقع بينهم وبين زياد من الخلاف

اجتمع الملوك الاربعة منهم ونزلوا المحاجر وهي احماء حموها ونزلت بنو الحرث بن معاوية محاجرها فنزل الاشعث بن قيس محجراً والسمط بن الاسود محجراً وأطبقت بنو معاوية على منع الصدقة الا الشهم الهمام شرحبيل بن السمط وابنه فانهما قالا لبني معاوية : انه لقبيح بالاحرار التنقل ان الكرام ليلزمون الشبه فيتكرمون ان ينتقلوا الى أوضح منها مخافة الدار فكيف الانتقال من الامر الحسن الجميل الى القبيح ومن الحق الى الباطل اللهم انا لا نمالىء قومنا على ذلك

فلله ما أسمى هذه النفوس وأشرف هذه الشيم وأعلا هذه المدارك وانما ساد المسلمون لا بكثرة وغلبوا على من غلبوا من الامم لا بقوة عدد وعديد وانما هو برجال مثل هذين لم تضعف في مواطن الشدة قلوبهم ولم تلفتهم عن الحق رغبة بأهل أو وطن أو رهبة من عدو ذي شوكة فاللهم ارزق المسلمين الآن امثال اؤلئك الرجال وغيّر حالهم الذين انتهوا اليه بأحسن حال انك مجيب السؤال

قال شرحبيل وابنه لقومهما ما قالا ثم انتقلا الى المسلمين ومعهما امرؤ القيس بن حابس وكان من حسن رأيهما وعظيم فضلهما وبعد نظرهما ان أشارا

على زياد بيات القوم وقالا له ان أقواماً من السكاسك والسكون قد انضموا اليهم وكذلك شداد من حضرموت فان لم تفعل خشينا أن تفرّق الناس عنا اليهم. فاستحسن رأيهما وأجابهما الى تبييت القوم فطرقوهم في محاجرهم وجاؤهم من خمسة أوجه وهم جلوس مكبون على نيرانهم فقتلوا الملوك الاربعة وقد كان لعنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأدركتهم لعنته وفرّ من قومهم من نجا من القتل وعاد زياد بن لبيد بالسبي واجتاز بالاشعث بن قيس فثار في قومه واستنقذهم وجمع الجموع فكتب زياد الى المهاجر بن أبي أمية يستحثه فلقيه الكتاب في الطريق فاستخلف على الجند عكرمة بن أبي جهل وتعجل في سرعان الناس وقدم على زياد وسار الى كندة فالتقوا بمحجر الزرقان فاقتتلوا فانهزمت كندة وخرجوا هراباً الى ملجأ لهم يسمى النجير وقد رموه وأصلحوه وسار المهاجر فنزل عليهم وتحصنت كندة بالنجير فحصرهم المسلمون وقدم عكرمة فاشتدّ الحصار على كندة وتفرقت السرايا في طلبهم فذلوا وخشوا وخاف من بالنجير من الامراء على نفوسهم فخرج الاشعث مع تسعة نفر فطلبوا من زياد أن يؤمنهم وأهليهم على أن يفتحوا لهم الباب فأجابهم الى ذلك وقال اكتبوا ما شئتم ثم هلموا الكتاب حتى اختمه ففعلوا ونسي الاشعث نفسه فأخذوا وأرسل مع السبي الى أبي بكر

لما قدم الاشعث المدينة أنبه أبو بكر وشدّد عليه النكير فلما خشي القتل قال أو تحتسب فيّ فتطلق إساري وتقيلني عثرتي وتفعل بي مثل ما فعلت بامثالي وترد عليّ زوجتي (وقد كان خطب أمه فروة أخت أبي بكر فلما قدم على النبي صلى الله عليه وسلم أخرها أن يقدم الثانية) فان فعلت ذلك تجدني خير أهل بلادي لدين الله فحقن ابو بكر دمه وردّ عليه أهله وأقام بالمدينة حتى فتح العراق

وكان له شأن ربما يمر معنا ذكره

﴿ كلمة في حروب الردة ﴾

انتهت حروب الردة على ما رأيت وثاب العرب الى السكون بعد ان علموا أن الاسلام يعلو ولا يعلى عليه وأن المسلمين قوم نصروا الله والحق فنصرهم على أعدائهم ومكن لهم السلطان في الارض

لو علم العرب ما أعد لهم بواسطة الاسلام من سعادة الدنيا والآخرة وكشف لهم الغطاء عن ذلك الملك العظيم الذي سيؤول اليهم والسلطان الممتد الذي سيصبح بايديهم لما لعبت الهواء برؤسهم ، وأخذت الجاهلية الاولى بمجامع نفوسهم ، ولكن هو الدين دأبه ان يلقى من الناس عناداً ، ومن العقول القاصرة اعراضاً . حتى يتبين لها انه الحق فترضاه ، وانه سبيل الهدى والسعادة فتقصد اليه وتتوخاه ،

تبين معنا من أخبار الردة أمور جديرة بالاعتبار حرية بامعان النظر لا نحب أن يفوتنا النظر اليها وبيان ما يستنتج منها وهي

(١) ان المرتدين منهم من توقف عن أداء الزكاة فقط وهم عامة العرب ومنهم من ارتد تملا وهم بعض القبائل التي قام فيها المتنبئون الاربعة

(٢) ظهور دعوى النبوة بين العرب حتى ادعاها أربعة رجال وامرأة من عهد الرسالة الى نهاية أيام الردة وهم الاسود العنسي في اليمن وطليحة في أسد وغطفان ومسيلمة في بني حنيفة وسجاح في اخوالها من بني بكر ورهطها من بني تميم ولقيط بن زرارة في عمان

(٣) انقسام معظم العرب في حروب الردة فبعضهم للاسلام وبعضهم عليه

(٤) سرعة التوفيق في انهاء حروب الردة

(٥) مصاحبة النصر للمسلمين في كل وقائعهم

فاما الأمر الأول فهو يؤيد ما تقدم معنا في مقدمة الكلام على الردة من انها ليست على اطلاقها وانما هو اجتهاد من أبي بكر رضي الله تعالى عنه خالفه فيه كثير من الصحابة ثم لما رأوا ان المصلحة تؤيد وقتئذٍ ماذهب اليه أبو بكر وافقوه على ما ارتآه ومع هذا فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ورأي ان هذه المصلحة زالت بزوال أسبابها وان بقاء من أسر من المرتدين في حالة الرق مع انهم لم يكونوا ممن يجوز عليهم الرق عار على العرب محظور في الاسلام قال : انه لقبيح بالعرب ان يملك بعضهم بعضاً وقد وسع الله وفتح الاعاجم فاستشار الصحابة في فداء سبايا العرب ثم وضع الفداء ورد السبايا

واما الأمر الثاني وهو فشو دعوى النبوّة بين العرب فهو عندي معجزة من معجزات النبوة وقد حملها بعضهم على ترقي افكار العرب قبيل ظهور الاسلام ولا دليل لهم على ذلك وانما هو الغرض يثير بالنفوس ثائرة البغضاء ويستل من بين الجوانح روح الحق فيعمى البصائر ويكشف ما تكنه من ذلك السرائر وإلا فأي باحث في التاريخ طلاب للحقيقة يقول ان فشو دعوى النبوة يومئذ منشأوه ترقي أفكار العرب مع ان هذه الدعوى انما فشت بعد ظهور الاسلام وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام لاقبل ظهوره واذا ادعاها واحد أو اثنان قبل البعثة فلأن بعض الحكماء منهم كانوا يعلمون ببعثة نبي في العرب بشرت به الكتب السابقة فكانوا يترقبونها لانفسهم وأما عامة العرب فقد كانوا كالصم البكم مستغرقين في عبادة الاوثان لايعرفون معنى الرسالة ولا يسمعون باسم النبوة إلاّ أهل الكتاب منهم كطيء مثلا وهم أول من خذل مسيلمة وكان للاسلام نصيراً وللموحدين ظهيراً

والحقيقة التي يشهد بها التاريخ ويؤيدها العقل ان دعوى النبوة انما ظهرت في العرب بعد الاسلام حسداً للرسول عليه الصلاة والسلام وطلباً للرياسة وظنا من القائمين بهذه الدعوى ان مجرد الاعتصام بالقوة وجمع الجموع يكفي لتأييد دعوى النبوة ثم التذرع بها للقبض على زمام السيادة مجاراة للرسول على زعمهم وحسب العاقل ان يفرق بين النبوة وبين التنبيء بما اقترن بهاتين من الحوادث يومئذ ومنها ان النبي محمداً عليه الصلاة والسلام ظل عشرين سنة يدعو الى الاسلام ومات ولم يجتمع لديه من المقاتلة ما اجتمع في بضعة أشهر لمسيلمة الذي كان جيشه الذي قاتل به خالد بن الوليد أربعين الفاً باتفاق المؤرخين ومع هذا فقد سحق هو ودعواه وجيشه بصدمة واحدة من صدمات الاسلام كما سحق غيره من المتنبئين الذين حشدوا الجيوش وأعدوا العدة لمكافحة الاسلام فصدمهم بقوة رجاله القليلين وأرداهم . ومحاهم من الوجود في أقل من سنة ودعواهم .

وأما الرسول صلى الله عليه وسلم فقد ظلت العرب تناصبه العداوة وتنازله ومن تبعه في ساحة القتال مدة رسالته كلها ومع هذا فقد كانت كلمته هي العليا والمسلمون على قلتهم هم الظافرون . فلم هذا ؟

لانه صلى الله عليه وسلم كان مؤيداً بمدد النبوّة الصحيحة والفيض الالهي العظيم الذي لا تغني عنه الجيوش الكثيفة ولا يقوم مقامه ترقي الأفكار ولو انصف أولئك الناس وأنعموا النظر في كثرة المتنبئين في عهد الرسالة وكثرة ما حشدوا وجندوا لتأييد دعواهم ثم انطفاء نارهم وانسحاق جندهم وانمحاق دعوتهم في تلك المدة القليلة واستمرار قوة النبي محمد صلى الله عليه وسلم نامية مهيبة ودعوته قائمة منتشرة واتباعه في ازدياد حتى بلغوا الى هذا العهد

سدس البشر وضرب الاسلام بجرانه في معظم انحاء الارض لعدوا هذا كله معجزة من معجزات النبوّة أراد الله بيانها للناس ليؤيد بها رسالة نبيه محمد عليه الصلاة والسلام ويظهر الباطل في جانب الحق ليميز بين الاثنين . ويعلم المعاند أن محمداً نبي الله حقاً بلامين . ولكن ما الحيلة (فانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور)

وأما الامر الثالث وهو انقسام العرب في حروب الردة بين منتصر للاسلام وقائم عليه فهو من لطف الله تعالى الذي أراد به تأييد جانب المسلمين. وتعجيل الفتح المبين . وفيه دليل على أن الناس انما يصلحون بالرؤساء ويفسدون كذلك لانهم لرؤسائهم تبع ولزعماء السيطرة عليهم مقلدون . فان كلمة من عدي بن حاتم الطائي مثلا كفت لانحياز انجاد طيء وفرسانها لجانب المسلمين وقتالهم في صفوف الموحدين فان عديا لما كان شهما يأبى النقيصة وقد سبق منه الايمان بدين الله القويم . وتوكيد العهد على مظاهرة المسلمين . بادر الى قومه لما انحازوا الى طليحة الأسدي ونصحهم على الوفاد بالعهد . وعدم الخروج عن الايمان فسمعوا له وأطاعوا . ولما أشار به انصاعوا . حتى قيل يومئذ (كان عدي خير مولود في طيء وأعظمه بركة عليهم) وذلك لتخلقهم بكريم أخلاقه . وتمسكهم بالاسلام اقتداء به . واتباعاً لنصيحته

وكذلك ما كان من صفوان بن صفوان والزبرقان بن بدر في قومهما من تميم حتى اقتدوا بهما وأطاعوا اشارتهما فقاموا في وجه من ارتد من احياء تميم . وانحازوا مع ذينك الشهمين الى المسلمين .

وأما الامر الرابع . وهو سرعة التوفيق بانهاء حروب الردة . والامر الخامس وهو مصاحبة النصر للمسلمين . فانهما ولا ريب من نتائج حسن

اليقين عند المجاهدين وتجردهم لنصرة الاسلام تجرد من لا يرى الحياة الا بالموت ويرجو من ثواب الشهادة في اعلاء كلمة المسلمين ، أكثر مما يرجو من متاع الدنيا ومكافأة المكافئين ، وحق لرجال باعوا نفوسهم في سبيل الدين واعزاز جانب اخوانهم الموحدين أن تدك امامهم شوامخ الجبال ، لا صفوف الرجال ويستخذى لهم الملوك الكبار ، لا سكان القفار

ولا ينكر ما لأبي بكر رضي الله تعالى عنه من حسن الاختيار عن ولاة حروب الردة من القواد العظام الذين أمعنوا بجيوش المسلمين القليلة في أحشاء بلاد العرب وجابوا انحاءها القاصية حتى بلغوا مشارف الشام والجزيرة شمالا وشطوط البحر الهندي جنوباً والعراق العربي وخليج فارس شرقاً وشطوط البحر الاحمر ومضيق باب المندب غرباً ولم تكن غيبتهم الا كما يغيب المرتاد للمناجع ثم انقلبوا ظافرين وقد عمموا في جزيرة العرب دعوة القرآن ، وجمعوا سكانها على كلمة الايمان ،

وقد نتج عن هذا كله ان وقعت هيبة الاسلام في قلوب العرب وأيقنوا انه الدين الحق الذي لا يفلح مناوئه ، ولا ينجح شانئه ، فاقبلوا بأجمعهم اليه ، وجمعوا كلمتهم المتفرقة عليه ،

باب

﴿ فتوحات أبي بكر ﴾

﴿ تمهيد للفتح الاسلامي ﴾

رأى أبو بكر رضي الله تعالى عنه أن لا يدع لبعض المنافقين الذين لا

يروق لهم سمو شأن الاسلام وقتاً لدس سموم الفتنة في جسم تلك الأمة العظيمة التي جمعتها كلمة الاسلام وان يشغلهم مع الجيوش الاسلامية بالفتح تعميما للدعوة الاسلامية وبثا لروح العدل والحرية بين الأمم فما هو الآن ولج بالعرب هذا الباب حتى انكفأوا على الأمم التي مزقت أحشاءها سيوف الاهواء والاوهام، وقضى على مجدها القديم ظلم أرباب السيطرة على النفوس والاجسام ، فلم تلبث أن وافاها المسلمون يحملون لفريق أهل الكتاب منها (قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألاّ نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً) ولفريق الصابئة ومن على نحلتهم من المشركين (الاسلام أو الجزية أو السيف)[1] حتى اشرأبت لعدل سلطانهم أعناق الناس . ودانت لدينهم الشعوب. وخضعت لسطوتهم الأمم فعمروا المسالك، وشادوا الممالك ، ومصروا الامصار وكانوا خير أمة أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون القسطاس ويأخذون من أنفسهم للظلوم حتى يرضى ،

---

(١) قاعدة الجهاد وبث الدعوة في الاسلام هي ان لايقبل من مشركي العرب الا الاسلام واما اهل الكتاب فالاسلام وان أبوا فالجزية وهي مايستعان به على اصلاح شان الامة وان ابوا فالسيف اي الحرب وهي منتهى درجات الدعوة وانما كانت الحرب مصاحبة للدعوة لحمايتها كما يفعل الان وقبل الآن دول الافرنج في حماية المبشرين بالاساطيل والجند والعدة والعديد

وقد اختلف في المشركين من غير العرب أي المجوس هل يحاربون على الاسلام أو الجزية أم على الاسلام فقط والمشهور ان النبي صلى الله عليه وسلم قبل من المجوس من اهل هجر الجزية وأما العرب فلن يقبل منهم الا الاسلام وبهم نزل كثير من آيات الجهاد ومن ثم تعلم خطأ القائلين بقيام الاسلام بين الامم بالاكراه وهو لم يقم الا بالدعوة كما فصلنا ذلك في رسالتنا المسماة كيفية انتشار الاديان تفصيلا شافياً

كما يأخذون على يد الظالم حتى يحذى ،

أما والله لن تبلغ امة بالظلم والقوة ، وكثرة العديد والعدة ، ما بلغه المسلمون في ربع قرن من استخضاع الأمم بالعدل والايغال في احشاء الممالك بدعوة القرآن فليمسك المتخرصون ، ولينصف الغربيون ، فان سلطان الظلم اذا أسرع بسيفه الى الرقاب ، فلا سلطة له على النفوس ، وانما تملك النفوس ، بالعدل ، وتلتف الناس على القائم بالقسطاس ، السائس بالرحمة ، الباسط بساط الحرية والامن ، ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الاخيار ، وأنى يجاريهم ساسة الممالك في هذا المضمار ، فجزاهم الله خير جزاء على ما تركوا من حسن الأثر للمسلمين ، وبئس من غلبتهم الشهوات بعدهم فغيروا وبدلوا فكانوا من الخاسرين ، وقذفوا بالامة من حالق مجدها الى وهدة الذل المبين .

أجل ان أكثر ما فتح أولئك الفاتحون البواسل بالعدل لا بالسيف ، وبنصفة المغلوبين لهم لا بالحيف . ولما سقطت على الأمم القديمة وطأة الاستعباد ، واستحكمت قوس ساستهم شكيمة الظلم والاستبداد ، تلقوا المسلمين في الظاهر بالحرب ، وفي الباطن بالمسرة والحب ، ولا يسع المغلوب على أمره من مستبد قاهر الا أن يساق بعصاه كما سيق المحاربون لاهل الاسلام وهم مكروهون ، ولأدالة دولتهم من العرب متمنون ، وأيّ شاهد على هذا أعدل من التاريخ الذي ينطق عليهم بالحق ولا يقول الا الصدق

روى البلاذري في فتوح البلدان انه لما جمع هرقل للمسلمين الجموع وبلغ المسلمين اقبالهم لوقعة اليرموك ردوا على أهل حمص ما كانوا أخذوا منهم من الخراج وقالوا قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم فقال أهل حمص لولايتكم وعدلكم أحبّ الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم

والدفعن جند هرقل عن المدينة مع عاملكم . ونهض اليهود وقالوا والتوراة لايدخل عامل هرقل مدينة حمص إلا ان نغلب ونجهد فاغلقوا الأبواب وحرسوها . وكذلك فعل أهل المدن التي صولحت من النصارى واليهود وقالوا ان ظهر الروم واتباعهم على المسلمين صرنا الى ما كنا عليه والاَّ فانا على أمرنا ما بقي للمسلمين عدد

واحزناه على ذلك العدل.قوم نشأوافي مهد دولتهم ونشأت في أحضانهم . ودانوا بدينها ودانت بدينهم. يغلقون في وجهها الابواب. ويظاهرون عليها العدوّ ويقسمون على الوفاء للمسلمين ما بقي منهم عدد يقاوم دولتهم . وينكس أعلام سلطانهم . وهم ليسوا على دينهم . ولا من جنسهم . ولا من أهل لغتهم . هل مرقوا من الدين. وخانوا الدولة . وباعوا الوطن. وماتت فيهم طواطف العزّة .

كلاّ وانما هو العدل العدل . العدل الذي جمع بين الأمير والمأمور والخادم والمخدوم والكبير والصغير فصيرهم في شرعة الحق سواء وضمهم تحت راية الحرية والاخاء

شيء شاهدوه أولئك القوم من العرب وشهدوه وذاقوا طعمه بعد ان لم يذوقوه . فحُبِّب اليهم دولة المسلمين بعد اذ أصبحوا من حقيقتها على علم . وقالوا لهم لولايتكم وعدلكم أحب الينا مما كنا فيه من الظلم والغشم

اللهم انك اذا حبَّيت بسلطان الأرض قوماً فقد أذنت له ولهم بالسعادة ، وأنزلت عليهم من سماء رحمتك روح السكينة ، وأفرغت عليهم لباس الامن ، وأردت له سمة السلطان . ومكنت له في الارض كما مكنت لانصار دينك يومئذ سلطانهم ، وجعلت أعداءهم أعوانهم ، ومن استمسك بعروة كتابك الوثق فان رحمتك قريب منه ، وأنى يشتبه بأولئك غيرهم وأولئك قوم رضي الله عنهم

ورضوا عنه ،

من يصدق ان تلك القبائل البدوية التي نشأت على حب العصبية والتهالك على قتال بعضها بعضاً والبعد عن معنى سياسة الأمم وحكم الشعوب ، والنفرة من مظاهر الحضارة ودواعي المدنية ، تنتهي اليها في بضع سنين سياسة فارس والروم ورياسة آسيا وأفريقيا ولم ينزل اليها القرآن وتستنير بشريعة سيد ولد عدنان ،

لله ما أعظم فضل القرآن وما أسمى مقاصد الاسلام . بالامس كانت هذه القبائل مشهرة سيوفها على المسلمين والسمط بن الاسود الكندي والاشعث بن قيس في محاجرهما بقومهما من كندة يضربون بالسيوف في وجوه المسلمين واليوم أحدهما الاشعث في العراق يخوض بقومه غمرات الموت ويقتحم صفوف الفرس ، وينادي يا للاسلام ، والثاني في حمص يقسم منازلها على المسلمين ، وأهلها من ورائه يغلقون في وجه دولتهم الابواب ، ويدفعون عنه جند الروم انّ هذا لمن العجب العجاب ،

أصبح العرب بعد تلك الهمجية المعروفة من قادة السيادة والحرب وأفضل من ساس الأمم فبات المغلوبون لهم ، الخاضعون لسلطانهم من الروم أحرض الناس على حكمهم ، وأرغبهم في شرعهم ، أفليس في هذا كله ما يكفّ عن الاسلام ألسنة المخرّصين ؟ ويشهد بأن الفتح الاسلامي كان خيرا وبركة على الناس أجمعين

لو قدر المسلمون قدر هذه النعمة وحافظوا على سنن السلف من الصحابة ولم يحد أمراؤهم عن صراط القرآن ، ويشاق بعضهم بعضاً بسيف الخذلان ، خدمةً للاهواء وانقياداً لغلبة الشهوات لما ازداد المسلمون الأ مجداً ورقيا والاسلام إلا انتشاراً وتعمما ولكن هي الاخلاق اذا فسد جوهرها والاهواء اذا

انفجرت ينابيعها صارت طوفانا اذا اندفع على البشر، لايبقى ولا يذر، والنعم لاتدوم الآ بالشكر ، ولا تزول الآ بالكفران ، وحسبنا من هذا قوله تعالى في القرآن (ان الله لايغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

﴿ فتح العراق ﴾

اول من حرك في نفس أبي بكر رضي الله تعالى عنه أمر العراق هو البطل الجليل المثنى بن حارثة بن ضمضم الشيباني من بكر بن وائل وهو ممن لم يتابع بكراً على ردتها وبقي وقومه على الاسلام وكان يغير على سواد العراق على رجال من قومه فبلغ أبو بكر الصديق خبره فسأل عنه فقال له قيس بن عاصم بن سنان المنقري . هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد هذا المثنى بن حارثة الشيباني

والظاهر ان المثنى بمجاورته لبلاد فارس وتوالي غارته على اطراف ملكهم من جهة العراق خبر حالهم ووقف على أمورهم وعلم اضطراب حبل دولتهم فقدم على أبي بكر ورغب اليه ان يستعمله على من أسلم من قومه ليغزو بهم اطراف فارس وسهل لديه أمرهم ورغبه بغزوهم فكتب له أبو بكر في ذلك عهداً وسار الى بلاده ثم ان أبا بكر رأى ان المثنى وحده لايقوم بالمهمة التي خالجت فؤاد أبي بكر وهي نشر راية الاسلام على ارجاء العراق ثم فارس فاستدعى اليه خالد بن الوليد المخزومي من اليمامة في المحرم من سنة اثنتى عشرة للهجرة وأمره بالمسير الى العراق وان يبدأه من أسفله وكتب الى عياض بن غنم الفاتح الشهير الذي كان على يده فتح الجزيرة وقسم من ارمينيا بعدُ وأمره ان يأتي العراق من أعلاه ويسير حتى يلقى خالداً وأوصى أبو بكر خالداً وعياضا أن لايضرا بفلاحي العراق وأهل السواد حرصاً منه رضي الله تعالى عنه على

منابع الثروة وعلماً بأن العمران أمر لاتقوم بدونه الدولة . والفلاحة كما لايخفى مصدر حياة الناس وتقدمها أساس عمران الممالك وانما هي قائمة بالفلاح فهو اولى الناس برعاية السلطان وحراسته من أذى الجند فما أبعد هذه الهمة وما أسمى هذا النظر . يبعث بالجند ليثلوا عرش الملوك ويستخضعوا جبابرة الاقوام ويدكوا صروح أولى السيطرة الظالمين ثم يبث فيهم روح الرأفة بالفلاحين ، والمحافظة على المستضعفين ، ليذرع في نفوسهم احترام حقوق أهل الفلح الذين هم مصادر قوى الدولة ويرشدهم الى مبلغ عناية أرباب السلطان بالطبقة العاملة منهم ليحفظوا عليهم مصدر قوتهم ومنبت قوتهم وليعلموا أن أولى الناس برعاية الأمير عامل يعمل بأرضه ويشتغل لقومه ولنفسه فيكونوا من العاملين

وأوصاهما أيضاً ان لايغزون معهما أحد ممن ارتد وذلك لضعف ثقته رضي الله عنه بأهل الردة بعد ماظهر منهم ماظهر من حرب المسلمين ولعله خشى من أن يكون في قلوب بعضهم ضغن على المسلمين فيبثون فيهم روح الفتنة ويفسدون عليهم أمر الفتح وهو احتياط وحذر لايعجب من صدورهما من مثل أبي بكر لبعد نظره في العواقب وتأنيه في الأمور ومع هذا فان عمر رضي الله تعالى عنه لما رأى حاجة المسلمين الى الجند أيام خلافته استنفر العرب للجهاد وأذن لعامتهم بالانضمام الى جيوش الفتح وكان لزعماء الردة منهم كطلحة الاسدي وعمرو بن معديكرب والسمط بن الاسود الكندى والاشعث بن قيس وامثالهم البلاء الحسن في فتوح الشام والعراق والاخلاص العظيم في اعلاء كلمة الاسلام ومعظمهم استشهد في أيام الفتوح وانما قويت ثقة عمر رضي الله عنه بالعرب لاتساع الفتوح وامتداد سلطان الاسلام ولان في

توالى الجهاد شاغلا لاهل الفتنة عن الفتنة . ولعلَّ ما أصاب المسلمين من بلاء التشيّع والتحزب والانقسام في خلافة عثمان رضي الله عنه وما بعده لما استقر أمر المسلمين في فارس والروم وأخلدوا الى الراحة من عناء الفتح كان لا يخلو من أصابع كثير من أولئك الذين حذرهم أبو بكر والله بالحقيقة عليم

لما سار خالد الى العراق كان معه من الجند عشرة آلاف واستقبله المثنى ابن حارثة بثمانية آلاف وبعد مسيره أمدّه أبو بكر بالقعقاع بن عمرو بطل المسلمين المغوار . فقيل له أتمدّه برجل واحد . فقال لا يهزم جيش فيهم مثل هذا . وكذلك أمدّ عياض بن غنم بعبد يغوث الحميري وكتب الى المثنّى بن حارثة يأمره بالسمع والطاعة لخالد وكان مذعور بن عديّ العجليّ قد كتب الى أبي بكر يعلمه حاله وحال قومه من الاسلام والطاعة وحب الجهاد ويستأذنه بقتال الفرس فأمره أن ينضم الى خالد . وكذلك كان سويد بن قطبة الذهلي من بكر بن وائل يتربص في البصرة مجيءُ خالد ليكون وقومه معه على قتال الفرس . فحيا الله هؤلاء الرجال الكرام . ورضي عن تلك النفوس الطاهرة . التي بيعت في سبيل الاسلام وأخلصت النية لهذا الدين الذي هيأ الله لاهله أسباب النصر لما نصروه . وأعزّهم لما أعزوه .

وقد اختلف المؤرخون في أول بلد قصده خالد فقال بعضهم انه سار الى الأُبلّه[1] وقال الدينورى في الاخبار الطوال انه سار الى الحيرة وان فتح الأبلة كان في عهد عمر بن الخطاب على يد عتبة بن غزوان . ولعلها انتقضت فارسل

---

(١) قال الدينوري في الاخبار الطوال « الموجود منه نسخة في المكتبة الخديوية طبع ليدن » لم يكن موضع البصرة يومئذ الا الخريبة وكانت الابلة مرفى سفن البحر من عمان والبحرين وفارس والهند والصين اهـ

عمر عتبة لاخضاع أهلها اذ المشهور ان خالداً بلغ الحفير والكواظم عند مصب الفرات ودجلة في خليج العجم ثم عاد الى الأبلة ففتحها عنوة وخلف عليها سويد ابن قطبة وقال له . قد عركنا هذه الاعاجم بناحيتك عركة أذلتهم لك . ثم أتى الخريبة وكانت مكان البصرة الآن وهي منازل خربة بها مسالح لكسرى تمنع العرب من العيث فطردهم منها واستخلف فيها عامر بن فين من بني سعد بن بكر من بني هوزان ثم تتبع شط الفرات فجاء بانقيا وبار وسماو آليس فصالحه أهلها على مال معلوم وعلى أن يكون أهل آليس عيوناً له ثم سار الى الحيرة فناوش أهلها الحرب فخرج اليه أياس بن قبيصة الطائي من أشراف الحيرة وكانوا من أهل الكتاب فدعاهم (الى الاسلام أو الجزية أو الحرب) فقال له أياس مالنا بحربك من حاجة بل نقيم على ديننا ونعطي الجزية فصالحهم على الجزية واختلفوا في مقدارها فقال بعضهم انها كانت تسعين الفا وقال بعضهم مائة الف وروى البلاذري ان أهل الحيرة كانوا ستة آلاف رجل فالزم كل رجل منهم أربعة عشر درهما وزن خمسة فبلغ ذلك أربعة وثمانين الفا تكون ستين وزن سبعة . وروى الطبري انها كانت مائة وتسعين الفاً ويؤيده ماجاء في كتاب عهد خالد لاهل الحيرة على ماسترى

وأهدى أهل الحيرة هدايا الى خالد على عادتهم مع الفرس فبعث بها مع خبر الفتح وما اجتمع لديه من الفيء الى ابي بكر فقبل الهدايا وعدها لاهل الحيرة من الجزية تعففاً عما لم يأذن به الشرع وقطعا لدابر العادات الاعجمية التي كان يحتال بها على سلب أموال الناس

هذا أول فتح بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فتحه ابو بكر خارج جزيرة العرب .قد رأيت انه لم ترق فيه نقطة من الدم فى غير الابله وفيه دليل على ارتياح أهل البلاد الى حكم المسلمين ومللهم من ظلم الفرس وتوقعهم

لاضطراب حبل دولتهم وزوال ملكهم وانما قوبل خالد بعد هذا الحرب لدماء أصابها من النمر وتغلب واياد وغيرهم من نصارى العرب الذين امتنعوا عليه ثم استجاشوا جيوش الفرس طلباً للثار

ثم ان خالداً بعد ان استخضع أهل الحيرة وقضى على دولة المناذرة التي كانت تحكم العراق من قبل الاكاسرة وقاعدتها الحيرة أخذ يتم فتح العراق العربي فسار مصعداً جنوباً فافتتح الانبار الواقعة شرقي الفرات وبادقلى وعين النمر وقطربل الواقعة شرقي دجلة ولما وصل الى دومة الجندل التقى بعياض بن غنم فجاءها عياض من أعلاها وخالد من أسفلها فافتتحاها عنوة . وكانت آخر حروب خالد في الفراض التي هي آخر تخوم العراق مما يلي الشام والجزيرة وكان كلما فتح فتحاً وتوفرت لديه الغنائم يبعث بالخمس الى أبي بكر رضي الله تعالى عنه مع خبر الفتح حتى قال فيه ابو بكر (عجزت النساء أن يلدن مثل خالد)

وسيأتي معنا بعض الكلام على حروب خالد في العراق في سيرته ونورد كتبه التي كتبها الى الفرس بعد فتح العراق وجغرافية البلاد التي افتتحها ان شاء الله

انصرف خالد بعد وقعة الفراض الى الشام واستخلف المثنى بن حارثة الشيباني على جند العراق فأقام في الحيرة يرتب المقاتلة ويذكي العيون وكان ملك فارس يومئذ شهريران بن ازدشير فظن أن غياب خالد ربما يوهن جانب المسلمين فجهز جيشاً عظيماً بقيادة قائد يسمى هرمز فلاقاه المثنى في بابل شرقي الفرات والتحمت هناك الحرب بين المسلمين والفرس وكانت حرباً شديدة انجلت عن هزيمة جنود الفرس ومات عقبها شهريران ملك فارس فعاد الاضطراب

في المملكة الى ما كان عليه واختلف الفرس فيمن يولونه أمر الملك اختلافا يؤذون بأدالة دولتهم من المسلمين وينذر بالانحلال العاجل الذي يصيب الممالك عند بلوغها منتهى درجات الترف والنعيم واشتغالها بالسفاسف والاوهام دون الجد والحزم (واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً)

باب

فتوح الشام

تمهيد

لما انتهى فتح العراق العربي وجاس المسلمون خلال ديار الفرس واستقر لهم في تخوم فارس الملك والسلطان واتخذوا بها الثغور يدّخرون بها معدات القوة للاجتياز على ممالك الفرس ورأى أبو بكر ان الله سبحانه وتعالى منجز وعده الذي وعد المؤمنين (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض) انصرفت همته الى الشام التي هي مركز التجارة بين الشرق والغرب ومدخر الخيرات التي اعدها الله للمسلمين

كانت الشام يومئذ تابعة لمملكة الروم تبعية أشبه بالاسمية وكان سلطان الروم هناك في تقلص . ونفوذهم في اضمحلال . ومعظم ولاية الشام في أيدي العرب واليهم ترجع الامارة وعلى الملوك من بني غسان حراسة البلاد . ولم يكن لقيصر في باطن الأمر على أهل الشام سوى الاتاوة. والنفوذ والسلطان انما كان للعرب الذين كانوا لا يميلون الى الروم ويودون اجلاءهم الى حيث نبت

بهم بقاع الغرب لما كانوا عليه من الظلم الذي يصاحب غالباً أواخر الدول الفاتحة الغريبة عن البلاد المخالفة لها في الجنس والعادة فلهذا ولأن الشام في الحقيقة أشبه بجزء طبيعي من جزيرة العرب كانت الأسباب متوفرة لضم هذه البلاد الى سلطان المسلمين وطرد ذلك الفاتح الغريب العابث بنظام العدل المتعدي على حقوق الملك الطبيعي والاستقرار الثابت للعرب. يضاف الى هذا ان انضواء الأمة العربية الى لواء الاسلام واجتماعها على كلمة الإيمان أمر لامندوحة عنه يومئذ بحكم الوحدة في الجنس واللغة التي تقضي بوحدة الدين والسلطان

وأنت ترى ان الشام بهذه المثابة كحق طبيعي للمسلمين وهي لما حكمت بالاسلام انما حكمت بالعرب أرباب هذا الحق وأصحاب البلاد لحكمين حكم الجوار واللغة وان لم تكن عامة وحكم الجنسية الشرقية والشرقي أولى بالشرق .

إذن فما أسخف عقول طائفة من الغربيين يدّعون حقاً قديماً في البلاد يسمون المسئلة الشرقية ولم يكن لاسلافهم في الشرق إلا مايكون لكل فاتح غريب من السيادة الى حين . ثم يتقلص ظله . وينكمش الى وطنه . كما انكمش الرومان الى حيث نبت بقاعهم وتقلص عن المشرق ظلهم (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً)

وحبذا لو كان حاكمنا الغربيون بهذه الدعوى الى مجلس العدل والمناقشة، وولجوا بنا باب الانصاف في المناضلة ، إذن والله لأدلينا بالحجة ، وكنا في جانب الحق ، وكانوا في جانب الباطل ، ولكنها القوّة تغلب كل حق وان كانت في نفسها حجة للمغلوب لايستظهر بها إلاّ اذا عادل خصمه واستعلى

على عدوه وأنّى لنا هذا معاشر المسلمين الآن وليس فينا كأبي بكر واخوانه ومعاوية والخلفاء من بني عمه والمنصور وأحفاده وعبد الرحمن الداخل واشبال اشباله وصلاح الدين وعزيمته والسلطان سليمان وأضرابه من آل عثمان الذين قضوا بعزائمهم على بقايا دولة الرومان في الشرق

ذكرى تمزق الأفئدة والقلوب وحال من ضعف البصائر وغلبة شهوات النفوس قد انتهينا اليه أفقدانا كل صبر ، وسلكنا بعقول النابغين في الأمة من مذاهب الحيرة كل مذهب ، ودون اهتدائهم الى التخلص من شرك الحيرة وخروجهم بالأمة من وهدة هذا الضعف أسوار من شهوات الأمراء وائتلاف الأمة لحكم الاستبداد الذي أوهن عقولها ، وذهب بآثار الشمم من نفوسها ، لاتزول إلاّ بخلق جديد في الاسلام فقد استقلاله ، وقضي حب الذات على دوله ، فلم يبق له أمل بغير نفسه ، واعتماد إلا على جده ، يهب هبة الغافل أيقظته الصيحة من كل مكان وأخذت بناصيته يد العدو وفي قول علي بن أبي طالب مايشير الى هذا (الناس نيام فاذا ماتوا انتبهو) [1]

هذا الحق الذى يعظم وقعه في نفوس العقلاء . ويثقل سماعه على البسطاء . نقوله بحكم المشاهدة لما يحيط بنا من الوسط . والتحقق من حالة المسلمين وحكوماتهم . والنظر الى سنن الله في خلقه التي أبانها لنا القرآن وأيدها تاريخ الانسان ـ وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ـ ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون ـ ياداود انّا جعلناك خليفة في الارض فاحكم بين الناس بالحق ـ واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ـ ان تنصروا الله ينصركم ويثبت

(١) وفي الطبعة الاولى قلنا انه حديث وهو خطأ لزم اصلاحه هنا

أقدامكم — وتلك الايام نداولها بين الناس — الى غير ذلك من آيات البيان التي تثبت ان لله في خلقه سنناً لا تتخلف وللمعرضين عنها من عباده جزاء لامهرب منه ومع هذا فانا نرجو أن تخاف ظننا الاقدار ويخلق الله لهذه الأمة ما لم يكن في الحسبان فتعود على بدئها وتسترد بقوة العلم والعمل ذاهب مجدها وليس على المجد اذا عزم أن يتوقف . وكل سالك في طريق الى نهايتها يصير . وانما نصر الله المسلمين في عهد أبي بكر ومن بعده بجدهم وسؤددهم على الامم بالغلبة على شهواتهم والاستظهار بقوة يقينهم والله ولي الصالحين

﴿ استدراك ﴾

ربما يظن ظان مما قدمناه في هذا التمهيد انا بالغنا في القول بسيادة العرب في سورية إبان الفتح وأنهم كانوا حماة البلاد وأصحاب السلطة العظمى على قسم عظيم منها والحال انّ ما ذكرناه من ذلك في هذه المقدمة انما هي حقائق تاريخية أوردناها على وجه الاجمال لهذا ودفعاً لخطأ الظن أو تهمة التشيع للعرب أحببنا أن نستدرك مافات ببيان تاريخي لما تقدم فنقول

انّ قسما عظيما من سورية كان مأهولا يومئذ بالعرب فكان سكان القسم الجنوبي منها ومن حوران ومايليها من البلاد الواقعة في الجنوب الغربي وهي الكرك ومعان الى العقبة قرب البحر الاحمر كانت مأهولة بالعرب من غسان ولخم وجذام وكلب وقضاعة وغيرهم وكانت عاصمة هذا القسم بصرى المدينة الشهيرة في حوران التي لم تزل آثار العظمة بادية على بقاياها الى الآن وكانت حاضرة الملوك من بني غسان ·

وكان قسم عظيم من الجزء الشرقي والشمالي الشرقي الممتد من غوطة

دمشق الى مدينة تدمر وما بعدها الى شط الفرات مأهولا بالعرب أيضاً من بني غسان والنمر وبهراء وتغلب وغيرهم وعاصمة هذا القسم مدينة دمشق

فاما القسم الجنوبي وكونه كان مأهولاً بالعرب وفيه نشأت دولة بنى غسان الشهيرة فمشهور لاحاجة فيه الى البيان

وأما القسم الآخر وكونه كان مأهولا بالعرب فالدليل عليه ما رواه الطبري وغيره من المؤرخين عن الفتح الذي فتحه خالد والبلاد التي مرّ عليها اثناء مجيئه من العراق الى الشام لنجدة المسلمين ومنه يستنتج انّ كل البلاد التي مرّ عليها يومئذ منذ أشرف على وادي الفرات حتى انتهى الى دمشق بلاد مأهولة بالعرب واليك البيان

لما قصد خالد بن الوليد الشام وقطع اليها المفازة أشرف منها على حدود سورية الشرقية في وادي الفرات وهو المعروف الآن ببلاد الزور وعاصمته الدير المعروف الآن بدير الشعّار وكانت كلها مساكن للعرب في بهراء والنمر وتغلب وغيرهم لم تزل الى الآن كذلك فأتى اراك وهي واقعة بين تدمر والدير ومنها سار الى تدمر وهي على حدود البادية الشرقية وسار منها الى القريتين (ولم تزل معروفة الى الآن بهذا الاسم) ومنها سار الى دمشق (عن طريق القلمون الاسفل وهو الجزء الشرقي من العمالة المعروفة الآن بجبل قلمون ويسمون هذا القسم القلمون التحتي وهو طريق القوافل لهذا العهد من الشام الى العراق) فأتى خالد فى طريقه على حوارين وقُصَم وكانت آخر مافتحه من البلاد الواقعة فى طريقه من شمال دمشق فقاتله أهلها وكانوا من بني مشجعة من قضاعة فظفر بهم ثم سارعنهم الى ثنية العقاب (التي تشرف على المرج المعروف الآن بمرج عذراء الواقع فى الجهة الشمالية الشرقية من دمشق) ومنها انحدر

الى مرج راهط (وهو المرج المتصل بمرج عذراء ممتداً الى جهة الجنوب) فأغار على بني غسان في يوم فصحهم فقتل وغنم وبعث بالاخماس الى أبي بكر

هذا ما أثبته الطبري بشأن البلاد التي مرّ عليها خالد وفتحها أثناء مجيئه من العراق الى الشام ومنه علمتَ ان آخر مافتحه خالد من جهة الشمال الشرقي عن دمشق (قُصَم) وأهلها من العرب من بني مَشجعة وهو يدل على ان القلمون الاسفل وما يليه شرقا الى شطوط الفرات كان مأهولا بالعرب من النمر وتغلب واياد وبهراء وغيرهم [1]

وكذلك القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط قدكان مأهولا ببني غسان. والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت تحت الحرث الغسانى أحد ملوك بني غسان في عهد الفتح الاسلامي فهي إذن كانت عاصمة ذلك القسم العظيم الممتد منها الى الشمال والشرق حتى البادية والفرات ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان مأهولاً بالعرب

اذا تقرر هذا علمت ان لا مبالغة فيما قلناه من أن سورية كانت أشبه بولاية عربية كان النفوذ والسلطان فيها للعرب واليهم ترجع حماية البلاد وحراستها ولم يكن للروم فيها إلاّ الاسم اللهم إلا ما كان منها واقعاً في الجهة

---

(١) هذا الاستنتاج يصح فيما لو صح ما ذكره الطبري في تاريخه من أن خالد بن الوليد اتى القريتين ثم حوارين وبعدها قصم ومنها أتى ثنية العقاب فجعل قصم آخر الفتح الى جهة دمشق . وبعده كانت غارته على غسان في مرج راهط لكن ذكر ياقوت في معجمه أن قصم موضع بالبادية قرب الشام فاذا صح هذا ضعف استدلالنا على ان قلمون الاسفل كان مأهولا بالعرب

الغربية والشمالية كفلسطين والاردن وحلب وانطاكية وما يليها فربما كانت سلطتهم عليها أظهر وكلمتهم أنفذ والله أعلم

﴿ بعث البعوث الى الشام ﴾

كان بعث أبي بكر البعوث الى الشام في أوائل سنة ثلاث عشرة بعد عوده من الحج وكان أول لواء عقده الى الشام لواء خالد بن سعيد بن العاص وقال ابن الاثير وتابعه عليه كثير من المؤرخين انه عزله قبل ان يسير بايعاز عمر بن الخطاب رضي الله عنه وذلك لما في نفسه عليه من تربصه ببيعة أبي بكر كما تقدم الكلام عليه وأمره ان يكون بتيماء ردأً للمسلمين وان لايفارقها وان يدعو من حوله من العرب وان لايقاتل إلا من قاتله فاجتمع اليه جموع كثيرة واتصل خبره بالروم فضربوا البعث على العرب الضاحية بالشام ثم جاءه ماهان بالجيوش ففرقهم ثم جمع له فقاتله فهزمه فكتب الى أبي بكر بذلك فاهتم لأمر الشام واستنفر العرب وجهز البعوث الى آخر ماذكروه من خبره

هذا ماذكره بن الاثير وغيره وروى البلاذري في فتوح البلدان عن أبي مخنف قال

لما عقد أبو بكر لخالد بن سعيد كره عمر ذلك فكلم أبا بكر في عزله وقال انه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب فعزله أبو بكر ووجه أبا أروى الدوسي لأخذ لوائه فلقيه بذي المروة فأخذ اللواء منه وورد به على أبي بكر رضي الله عنه فدفعه أبو بكر الى يزيد بن أبي سفيان فسار به معاوية أخوه يحمله بين يديه ويقال بل سلم اليه اللواء بذي المروة فمضى على جيش خالد وسار خالد بن سعيد محتسباً في جيش شُرَحْبيل اه

والذي يستنتج من هذه الرواية ان أبا بكر عقد لخالد بن سعيد ليكون ردأً للمسلمين لا ليغزو مع الأمراء ثم بعد مسيره كلمه بشأنه عمر فعزله واستعاد لواءه فدفعه الى يزيد وسيره على اثر مسير الأمراء . وروى الطبري في تاريخه عن سيف نحو هذه الرواية وروى أيضاً من طريق آخر ان أبا بكر لما عقد الالوية للأمراء عقد لخالد بن سعيد فيمن عقد ولما كلمه بشأن عزله عمر أطاعه أبو بكر في بعض أمره وعصاه في بعض وأمر خالداً ان ينزل بتيماء وان لا يبرحها وان يدعو من حوله الى الاسلام ففعل واجتمع اليه جموع كثيرة فلما بلغ الروم ذلك جمعوا له فكتب الى أبي بكر بذلك فكتب له ان اقدم ولا تحجم فسار اليهم خالد فتفرقوا فكتب الى أبى بكر بذلك فكتب اليه أبو بكر . أقدم ولا تقتحمن حتى لا تؤتى من خلفك . فسار فيمن كان معه فلقيه باهان بجيوش الروم فقاتله خالد فظفر به وهزم جنده وكتب الى أبى بكر يستمده فاهتم أبو بكر لأمر الشام وجهز البعوث فتعجل خالد بالحرب قبل وصول الامراء فنكبه الروم فعاد الى المدينة مهزوماً فغضب أبو بكر عليه ثم استأذن أبا بكر وذهب متطوعاً في جيوش الأمراء. وهذه الرواية توافق ماروا ابن الاثير وتخالف رواية البلاذري وفي كلا الحالين فان يزيد بن أبي سفيان صار أميراً على جيش خالد بن سعيد كما يتضح ذلك من وصية أبي بكر له

لما استنفر أبو بكر المسلمين من أطراف البلاد العربية للجهاد أخذوا يفدون عليه من كل فج ويعسكرون بالجرف قرب المدينة ولما تكامل جمعهم وذلك فى مستهل صفر سنة ثلاث عشرة عقد الالوية فعقد لواء لعمرو بن العاص وكان قد استدعاه من ولايته على صدقات سعد هذيم من قضاعة ووجهه الى فلسطين . وعقد لواء لشرحبيل بن حسنة وكان قد وفد اليه من

العراق ووجهه الى الاردن . وعقد ليزيد بن أبي سفيان على جمهور من انتدب اليه فيهم سهيل بن عمرو واشباهه من وجوه مكة واشراف قريش ووجهه الى البلقاء وقال بعضهم الى دمشق . وعقد لأبي عبيدة عامر بن عبد الله ابن الجراح الفهري ووجهه الى حمص . وكان العقد في بدء الأمر لكل أمير على ثلاثة آلاف رجل فلم يزل أبو بكر يتبعهم الامداد حتى صار مجموعهم أربعة وعشرين الفاً ؛

هذا هو الجيش القليل العدة فنائي الديار الذي سار على بركة الله ليغزو الروم في عقر دارهم . ويجوس خلال ديارهم . ويزعزع أركان ملكهم . وينذر بتقلص سلطانهم . وينشر راية الاسلام على ربوع الشام وآسيا الصغرى والجزيرة وأرمينيا وقد فعل فكيف وبماذا ؛

بقوة العزيمة والصبر ، والاعتماد على الله في السر والجهر ، وعدم المبالاة بالحياة في سبيل اعلاء كلمة الدين ، ونصرة الاسلام ، والتعفف عما بأيدي الناس ، وانصاف المغلوب وحماية ماله ونفسه ، واطلاق الحرية له في عوائده ودينه ، مادام يدفع للمسلمين جزءا من ماله ، يستعينون به على اصلاح حاله ، وتأمين بلده ، وتمهيد طرق الراحة والنظام لقومه ، ويكون له من الحقوق حينئذ ماللمسلمين ، وعليه من واجب المعونة وطاعة الأمير والامانة في الجوار ما عليهم ، لا يضار في عرض ولا نفس ولا مال ، هذا اذا اختار البقاء على دينه ، ورضي بأداء جزيته ، وأما اذا أسلم فالمسلمون كما في الحديث (تتكافأ دمائهم ويسعى بذمتهم أدناهم ويرد عليهم اقصاهم وهم يد على من سواهم)

ضف الى هذا ما يصاحب أولئك المجاهدين من حسن الرأي بمن يصاحبهم من رجال الاسلام وأقطاب السياسة والحرب يومئذ كعمرو بن العاص

وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد بن أبي سفيان ومعاوية بن أبي سفيان رضى الله تعالى عنهم أجمعين ومن ورائهم مثل أبي بكر يمدهم بالرأي . ويتابع اليهم النصائح . وحسبهم من وصاياه وصيته ليزيد بن أبي سفيان التي تعجز أقطاب السيادة وتنفع قادة الجيوش وساسة الأمم في كل عصر . وقد أوصاه بها لما شيعه ماشياً كما أوصى سائر الأمراء

﴿ وصية أبي بكر ليزيد ﴾

اني قد وليتك لأبلوك وأجربك فان أحسنت رددتك الى عملك . وزدتك . وان أسأت عزلتك . فعليك بتقوى الله فانه يرى من باطنك. مثل الذي يرى من ظاهرك . وان أولى الناس بالله أشدهم توليًا له وأقرب الناس من الله أشدهم تقربًا اليه بعمله . وقد وليتك عمل خالد[1] فاياك وعبية الجاهلية فان الله يبغضها ويبغض أهلها . واذا قدمت على جندك فأحسن صحبتهم وابدأهم بالخير وعدهم إياه . واذا وعظتهم فأوجز فان كثير الكلام ينسى بعضه بعضاً . وأصلح نفسك يصلح لك الناس وصلّ الصلوات لأوقاتها باتمام ركوعها وسجودها والتخشع فيها . واذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم واقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به . ولا ترينهم فيروا خللك ويعلموا علمك . وأنزلهم في ثروة عسكرك . وامنع من قبلك من محادثتهم . وكن أنت المتولي لكلامهم . ولا تجعل سرك لعلانيتك فيخلط أمرك . واذا استشرت فاصدق الحديث تصدق المشورة . ولا تخزن عن المشير خبرك فتؤتي من قبل نفسك . واسمر بالليل في أصحابك تأتك الاخبار وتنكشف عندك الاستار واكثر حرسك وبدّدهم في عسكرك . واكثر

---

(١) يريد خالد بن سعيد .

مفاجأتهم في محارسهم بغير علم منهم بك فمن وجدته غفل عن حرسه فأحسن أدبه وعاقبه في غير افراط واعقب بينهم بالليل واجعل النوبة الاولى أطول من الاخيرة فانها أيسرهما لقربها من النهار . ولا تخف من عقوبة المستحق ولا تلجنّ فيها ولا تسرع اليها ولا تخذلها مدفعاً. ولا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده . ولا تجسس عليهم فتفضحهم . ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم . ولا تجالس العباثين وجالس أهل الصدق والوفاء . واصدق اللقاء ولا تجبن فيجبن الناس . واجتنب الغلول فانه يقرب الفقر ويدفع النصر . وستجدون أقواماً حبسوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له اه

﴿ ابتداء الفتوح ﴾

﴿ بالشام ﴾

علمنا مما سبق أن الجهاد مبني على الدعوة وأن المسلمين لا يبدأون أهل الكتاب بحرب مالم يدعوهم الى خصلة من ثلاث (الاسلام أو الجزية أو السيف) أي الحرب وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كتب الى هرقل فى جملة من كتب اليهم من الملوك يدعوه الى الاسلام في رواية انه أجابه وأسلم سراً وفى رواية انه لم يجبه ولما سار الامراء وكتبوا اليه يدعونه الى خصلة من الثلاث وقد كان وقتئذ بالقدس جمع اليه البطارقة وكبار القواد وشاورهم فى أمر المسلمين وأشار عليهم بصلحهم فأبوا عليه الا الحرب وكان مما قال لهم (والله لأن تصالحوهم على نصف ما يحصل من الشام ويبقى لكم

نصفه مع بلاد الروم أحب اليكم من أن يغلبوكم على الشام ونصف بلاد الروم)
ولما لم يوافقوه على رأيه أخذ باعداد الجنود والعدة وأرسل لكل أمير جيشاً
ليشغل لكل طائفة من المسلمين بطائفة من قومه

وأما أمراء المسلمين فقد أوغلوا بجيوشهم فى احشاء البلاد فنزل أبو عبيدة الجابية . ونزل شرحبيل الاردن . ونزل عمرو بن العاص العربة من فلسطين . ونزل يزيد البلقاء . ومن ثم اختلف المؤرخون فى كيفية ترتيب الوقائع فمن قائل ان أول وقعة كانت بين المسلمين والروم وقعة اليرموك ومن قائل غير ذلك والذي قال بالاول بنى قوله على ان المسلمين لما تفرقوا فى البلاد وراعهم ماجمعه لهم هرقل من الجموع استشاروا عمراً فأشار عليهم بالاجتماع فاجتمعوا باليرموك وكتبوا الى أبى بكر فأمده بخالد بن الوليد ولما وصل اليهم وجد الامراء متساندين فتأمر عليهم ثم هاجم جنود الروم وجرى بين الفريقين قتال شديد انتهى بانكسار الروم وبينما هم فى اليرموك جاء الخبر بوفاة ابى بكر وتولية عمر رضى الله عنهما ومع الخبر أمر بعزل خالد وتأمير ابى عبيدة بن الجراح

مع ان امعان الامراء بجيوش المسلمين فى الجزء الجنوبى والجنوب الغربى من البلاد ووصول بعضهم الى الاردن قرب طبرية والبعض الآخر الى فلسطين ثم اختلاف المؤرخين فى عزل خالد بن الوليد هل كان وهم على دمشق أم فى اليرموك كل هذا يؤيد أن واقعة اليرموك انما كانت بعد وقائع كثيرة كواقعة مرج الصفر (على وزن سكر) وواقعة اجنادين التي بشر أبو بكر بظفر المسلمين فيها بآخر رمق ووقعة العربة من فلسطين وغيرها وان المسلمين افتتحوا كثيراً من البلاد قبل اليرموك صلحاً أو حرباً ويؤيد هذا

ما ذكرناه سابقاً نقلاً عن البلاذري. من ان أهل حمص عاهدوا المسلمين على الوفاء لما انجلت حاميتهم عن حمص بقصد الاجتماع مع بقية الجيوش على اليرموك

وقد اتفق ابن الاثير والبلاذري على حصول وقائع للمسلمين مع الروم قبل وقعة اليرموك وهي وقعة بصرى في حوران ودائن في فلسطين ومرج الصفر وغيرها

والظاهر من هذه الروايات أن الروم في ابتداء الامر لم يحفلوا بأمر المسلمين ولم يظنوا فيهم القوّة والجرأة على اقتحام عواصم البلاد والتغلغل في احشاء الممالك بجيشهم القليل وعدتهم الضعيفة وهو من سوء الرأي المبني على الكبرياء الباطلة والغرور المضر فانّ الاستهانة بالعدوّ مهما قلّ وهن في السياسة منشأهُ ما يصيب عقول السياسة في الدول الهرمة من فقد قوّة التجارب أو الاعراض عن مصالح الملك حباً بمصالح النفوس وشهواتها

قد مهدت سياسة الروم هذه للمسلمين أن يقتحموا بجيوشهم البلاد اقتحام المجربين في الحروب العارفين بمواضع الخطر الواقفين على عورات العدو الخبيرين بطرق البلاد فانهم أوغلوا فى جنوب الشام على شكل مثلث متقارب الخطوط رأسه فى البلقاء مع يزيد بن أبي سفيان مما يلي الحجاز وطرفاه الواحد فى الجنوب الغربى فى فلسطين وهو مع عمرو بن العاص والآخر فى الجنوب والجنوب الشرقي فى حوران وهو مع ابى عبيدة بن الجراح وفى الوسط بميلة الى الغرب أيضاً شرحبيل بن حسنة وهو فى الاردن. بحيث يمد بعضهم بعضاً من قرب . ومن ورائهم يزيد يحفظ عليهم خط الرجوع ويديم النظر فى طرق المواصلات

على هذه الصفة دخلت الجيوش الاسلامية الى الشام وافتتح كل أمير ما مرّ عليه من البلاد صلحاً أو حرباً حتى اذا أخذت الصيحة الروم من كل مكان هبوا من غفلتهم هبوب المذعورين . وانتبهو انتباه الغارين . فضرب هرقل البعث على العرب الضاحية بالشام من بهراء وسليح وغسان وكلب ولخم وجذام وهم يومئذ حماة البلاد والى الملوك من بني غسان ينتهي القول والعمل فاجتمع لديه منهم ومن الروم زهاء مائة وخمسين الفاً فقسمهم وبعث لحرب كل جيش من جيوش المسلمين قسما منهم بقيادة أحد مشاهير القواد

اجتماع الامراء في اليرموك
ووفود خالد بن الوليد عليهم

لما رأى أمراء الجيوش الاسلامية كثرة ما أعد لهم هرقل من الجنود كتبوا بذلك الى عمرو بن العاص وهو صاحب الرأي فيهم فأشار عليهم بالجلاء عن البلاد والتقهقر الى اليرموك وهو نهر في واد واقع في الجهة الشمالية من جبل عجلون الى الجنوب الغربي من الشام وكتبوا الى أبي بكر فأشار عليهم بالاجتماع أيضاً ريثما يصلهم المدد وكتب الى خالد بن الوليد يأمره بالمسير الى الشام وان يأخذ نصف الناس ويستخلف على النصف الآخر المثنىّ بن حارثة بطل العراق الشهير ولا يأخذن من فيه نجدة إلا ويترك عند المثني مثله فامتثل خالد الأمر وسار بمن معه حتى أتى تدمر وهي على حافة البرية مما يلي وادي الفرات وموقعها الى الشمال الشرقي من دمشق على بعد ١٥٠ ميلا منها بعد ان عانى وجيشه مشقة عظيمة في الطريق وغزا من صادفه من القبائل كما سترى في

سيرته بعدُ ثم قام من هناك الى ثنية العقاب ومنها الى مرج راهط الواقع شرقي الغوطة فأغار على ارباض دمشق ثم اتجه جنوبا الى بُصرى وقاتل أهلها فظفر بهم وأرسل بالاخماس الى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر وقيل في جمادى الاولى سنة ثلاث عشرة

كان المسلمون الى ذلك الحين يراوحون العدوّ القتال ويطاولونه في النزال متساندين كل أمير على جيشه والعدوّ أمامهم بجنده الكثيف الذي يبلغ المائة وخمسين الفاً لايتزعزع بل هو أشبه بالمحصور من ورائه الوادي ومن أمامه جند الاسلام فلما رأى ذلك خالد بن الوليد وكان عظيم الرأي في الحرب بعيد النظر في ترتيب الجيوش لم يرق لديه تساند الأمراء وليس لهم أمير يجمعهم فجمعهم اليه وخطب فيهم خطبة أنّبهم فيها على ماهم فيه من الافتراق في الامارة على ماسترى ذلك في سيرته وطلب اليهم ان يجتمعوا على أمير واحد ويتناوبوا الامارة العامة كل يوم واحد وان يؤمروه ذلك اليوم فأطاعوا اشارته وأمروه فرتب الجيش ترتيباً حسناً ثم نشب القتال وكانت معركة عظيمة ظهر فيها من حمية قريش وشجاعتهم مايؤيد قولنا فيما سبق ان الله سبحانه وتعالى كما أيد الدين في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالانصار أيده بعده بقريش . وانجلت المعركة عن انهزام الروم شر هزيمة بعد ان قتل منهم مقتلة عظيمة جداً وأصيب من المسلمين بين قتيل وجريح زهاء ثلاثة آلاف فيهم من وجوه المهاجرين وجلة قريش عدد كبير منهم عكرمة بن أبي جهل من أبطال حروب الردة وعمرو ابنه وسعيد بن الحرث بن قيس ابن عديّ وهو قديم الاسلام ومن مهاجرة الحبشة وأمثالهم من أهل البلاد ووجوه قريش من المهاجرين الأولين ومهاجرة الفتح

لاجرم ان واقعة اليرموك سواء كانت أول وقائع المسلمين مع الروم بالشام أو غير ذلك فانها كانت آخر وقعة قضي فيها على سلطان الروم في سورية حتى لم يقم لهم بعدها قائمة ولم يستتب لهم فيها أمر واذا رأينا كثرة من أصيب يومئذ من المهاجرين علمنا انهم كانوا محور الحرب الذي دارت عليه رحاها وجنتها التي تلقت سهام أذاها . واليهم ينتهي الفضل في كسر شرة الروم وتمهيد السبيل لتدويخ بلاد الشام . واستنارة أهلها بنور الاسلام

ليس بعجيب ان يظهر من قريش ما ظهر منهم في اليرموك وهم سادة العرب وحماة الذمار وانما العجب لهذا الرهط أن ينهض بعد الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا الأمر نهوضاً يدهش ساسة الممالك من الفرس والروم ويقضي على كثير من ممالك الارض بذلك الانقلاب العظيم في السياسة والدين . والعرب يومئذ على ما نعلم من الاستغراق في البداوة والبعد عن نعيم الحضارة . وانما كان يقودها هذا الرهط من المهاجرين الذين سبقوا الى العلم بالدين وامتلأت قلوبهم بنور الايمان

لاريب ان هدى الاسلام قد نفذ منهم الى أعماق القلوب وكشف عن بصائرهم غشاء الغرة فأخرجهم من الظلمات الى النور فرأوا طريق السيادة على الأمم واضحاً فسلكوه . وسبيل سعادة الآخرة بيناً فانصرفوا بكليتهم اليه . ففازوا بالنعمتين . وسلكوا بالعرب طريق السعادتين . فجاهدوا في الله حق جهاده . وعمموا هدى دينه بين عباده

ممن أبلى بهذه الحرب يومئذ أبو سفيان بن حرب وذهبت فيها عينه وخالد بن الوليد والسمط بن الاسود الكندي وعكرمة بن أبي جهل وهو الذي قال لما اشتد الأمر على المسلمين وبلغت جنود الروم فسطاط خالد

قاتلت النبي صلى الله عليه وسلم في كل موطن ثم أفر اليوم[1] ثم نادى من يبايعني على الموت فبايعه الحرث بن هشام وضرار بن الازور في أربعمائة من وجوه المسلمين وفرسانهم فقاتلوا قدام فسطاط خالد قتال من باع نفسه في سبيل الله وأصبح الموت أحب اليه من الحياة حتى أصيبوا جميعهم بالجراحات والقتل وأصيب عكرمة وابنه عمرو بجراح فأتى بهما ثاني يوم الى خالد فوضع رأسيهما على فخذيه وجعل يقطر في حلقيهما الماء ويقول . زعم بن حنتمة يعني عمر انا لا نستشهد

رحم الله تلك النفوس التي استهانت بالدنيا ومتاعها فتخلى الأمير عن امارته والغنيّ عن ماله وملذته والشريف عن عزته والعائل عن أهله وولده التماساً للشهادة . ورغبة بنصرة الاسلام ، وطلباً لقهر العدوّ وخذلانه ، ونصر الدين وأعوانه

أبلى النساء المسلمات في ذلك اليوم كما أبلى الرجال وحملن العمد يضربن بها وجوه الخيل اذا لوت وينادين الى أين ياحماة الاسلام ، وطلاّب الشهادة ، يشددّن بذلك عزائم الرجال ، ويواسينهم بأنفسهن في ساحات القتال ، حتى بلغن من كيد العدو ما لا تبلغه منه السيوف ، وقمن بخدمة الاسلام كما قام رجالهن الذين أوردوا الروم موارد الحتوف ،

فكان النساء يومئذ مجاهدات محرضات ممرضات يجاهدن العدو ويحرضن المسلمين ويمرضن الجرحى وربما قتل للمرأة ولد فبعثت الى ساحات الحرب أباه . أو تسلت عنه بأخيه

بينما المسلمون في ذلك اليوم في أشد حالات الحرب والصدام قدم

(١) يعني من مواطن قريش لان اسلام عكرمة كان بعد فتح مكة

البريد من المدينة واسمه محمد بن زنيم فسألوه الخبر فأخبرهم بسلامة وامداد وانما جاء بموت أبي بكر وتأمير أبي عبيدة فكتم هذا الخبر عن المسلمين ريثما تضع الحرب أوزارها وتولي الروم أدبارها

وقد اختلف المؤرخون في هل جاء الخبر بوفاة أبي بكر والمسلمون في اليرموك أو على دمشق كما اختلفوا في هل فتح شيء من الشام قبل اليرموك في خلافة أبي بكر ومما لا ريب فيه أن جيوش المسلمين لما أوغلت في القسم الجنوبي من الشام افتتحت كل ما مرت عليه من البلاد وربما بلغت حمص شمالا كما رواه البلاذري الا أن انجلاءهم بعد عن البلاد وتقهقرهم الى اليرموك جعل ذلك الفتح الاول كأن لم يكن لانتقاض البلاد بعد خروج المسلمين عنها وعدم استطاعتهم ترك الحامية فيها لقلة عددهم وكثرة جنود عدوهم لهذا عول المؤرخون في سياق أخبار الفتح على ما كان منه بعد اليرموك في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وحار بعضهم فأوردها مشوشة وفي كلا الحالين فان الفتح الحقيقي للديار الشامية انما تم في زمن عمر بن الخطاب ولأبي بكر الفضل العظيم فيه لسبقه اليه واعداده مثل جيش اليرموك له وأما عزل خالد بن الوليد فالاصح انه جاء وهم على دمشق كما سترى بعد

﴿ باب ﴾
﴿ مناقب أبي بكر وأخلاقه ومآثره ﴾

ان أحسن وصف يمثل أبا بكر بفضائله وأخلاقه تمثيلاً لا يدع في النفس حاجة الى المزيد ماوصفته به أم المؤمنين عائشة رضي الله تعالى عنه وعنها بخطبة وجيزة العبارة عظيمة المعنى جامعة لشمائل أبي بكر وأخلاقه واذا أتيت

بشيء من ذكر فضائله ومناقبه فانما يكون تفصيلا لما أجملت . وشرحاً لما أوجزت
فقد روى انه بلغها أن أناساً يتناولون من أبيها فأرسلت اليهم فلما حضروا قالت
أبي ما أبيه لا تعطوه الأيدي ذاك والله حصن منيف وظل مديد أنجح
اذا أكديتم . وسبق اذ ونيتم . سبق الجواد اذا استولى على الامد . فتى قريش
ناشئاً وكهفها كهلا . يريش مملقها . ويفك عانيها . ويرأب صدعها . ويلم
شعثها . حتى حليته قلوبها . واستشرى في دينه . فما برحت شكيمته فى ذات
الله عزوجل حتى اتخذ بفنائه مسجداً يحيي فيه ما أمات المبطلون . وكان رحمة
الله عليه غزير الدمعة . وقيذ الجوانح . شجي النشيج . فانصفقت عليه نسوان
مكة وولدانها يسخرون منه ويستهزؤن به والله يستهزئ بهم ويمدهم فى
طغيانهم يعمهون . وأكبرت ذلك رجالات قريش فحنت له قسيها . وفوقت
اليه سهامها . فامتثلوه غرضاً فما فلوا له صفاة . ولا قصفوا له قناة . ومر على
سيسائه . حتى اذا ضرب الدين بجرانه . وأرست أوتاده . ودخل الناس فيه
أفواجاً من كل فرقة ارسالا وأشتاتا . اختار الله لرسوله صلى الله عليه وسلم
ما عنده فلما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب الشيطان رواقه وشد
طنبه ونصب حبائله وأجلب بخيله ورجله وألقى بركه . واضطرب حبل الدين
والاسلام . ومرج عهده . وماج أهله . وعاد مبرمه انكاثاً . وبغي الغوائل
وظن رجال ان قد أكثبت اطماعهم نهزها . ولا حين الذى يرجون . وأنا
والصدّيق بين أظهرهم فقام حاسراً مشمرا . قد رفع حاشيتيه . وجمع قطريه
فردّ نشر الدين على غره ولمّ شعثه بطيه وأقام أوده بثقافه . فابذعر النفاق
بوطأته . وانتاش الدين فنعشه . فلما أراح الحق على أهله . وأقر الرؤوس على
كواهلها . وحقن الدماء فى أهبها . وحضرته منيته . فسد ثلمته بشقيقه فى

المرحمة . ونظيره في السيرة والمعدلة ذاك ابن الخطاب لله أم حملت به ودرّت عليه لقد أوحدت ففنخ الكفرة وديخها . وشرد الشرك شذر مذر وبعج الارض وبخعها فقاءت أكلها . ولفظت خبئها ترأمه ويصد عنها . وتصدى له ويأباها . ثم وزع فيأها فيها وتركها كما صحبها فأروني ما ذا ترتؤون. وأي يومي أبي تنقمون . أيوم اقامته اذ عدل فيكم . أم يوم ظعنه اذ نظر لكم أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم[1]

﴿ سياسته في الخلافة ﴾

لم يكن بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم موقف أشد وأحرج على المسلمين من موقف وقفه أبو بكر رضى الله تعالى عنه فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مذ كان حياً يتحدى العرب بالقرآن ويتألفهم بالمعجزات ويملك عليهم طرق الزيغ بتوالي نزول الوحي بالدلالة على المنافقين منهم . وكشف خبايا ضمائرهم . ومع هذا فقد عانى منهم ما عانى ولقى أشد مايلقى نبيٌّ من قومه ولما تولى الخلافة أبو بكر وجاء المسلمين من اخبار الردة وانتقاض العرب ما أوهن عزائمهم وفتّ في عضدهم نظر أبو بكر فرأى أن العرب كان يتألفها النبي بالوحي والمعجزات وقد انقطع الوحي وهم مع حداثة عهدهم بالاسلام عريقون بالبداوة ساذجو الفطرة قلّ أن يتأثر وجدانهم الا بما يتأثر به حسهم فلا سبيل الى اجتذاب قلوبهم وامتلاك ضمائرهم واستخذاء نفوسهم بلين الكلام أو قواصر التقريع للاحتيال على ضمائرهم . والتوصل الى كبح

(١) نقلنا هذه الخطبة عن كتاب النثر المختار بهذا الضبط فلتحرر وقد اوردها ابن عبد ربه في العقد الا ان ايدي النساخ مسختها مسخاً فجاءت ناقصة عن هذه في بعض الجمل ومختلفة عنها في البعض فقابل

جماحهم وان القوة هي أحسن ما ترتاض به نفوسهم . وتتأثر به حواسهم . وتلين من عريكتهم . وتخضع عاصيهم فانفرد بهذا الرأى دون كثير من الصحابة كما علمت مما مر فى أخبار الردة فكان رأيه الصائب . وقوله الحق . وعمله الموفق وسياسته الناجعة . حتى اعترف له بالاصابة وحزم الرأى بعدُ جميع الصحابة رضى الله تعالى عنهم وكان من وراء عمله فى الردة سلامة الاسلام والمسلمين من هجمات الشرك وغوائل الهمجية وسطوات الاعداء بدليل ما أخرجه البيهقي وابن عساكر عن أبي هريرة قال (والذى لا إله إلا هو لولا ان أبا بكر استخلف ماعبد الله ثم قال الثانية ثم قال الثالثة) فقيل مه يا أبا هريرة فذكر لهم موقف أبى بكر فى انفاذ جيش اسامة وجيوش الردة فى حديث طويل قد مضى معنا ما هو بمعناه من أخبار ابو بكر فلا حاجة لايراده هنا

وكذلك رأيه في انفاذ جيش اسامة يدل على علوّ كعبه فى السياسة وبعد نظرة فى مهمات الامور فانه ظهر به للعرب بمظهرة القوة . واستهان بانفاذه بخطب الردة . فنفث فى روع العرب روح الرهبة فكانوا بين مقبل على الردة ومدبر عنها ومتردد بين الامرين حتى وافتهم جيوش المسلمين وهم على فرقتهم وتشتت رأيهم فأخذتهم بما صنعوا . وردتهم عما ابتدعوا . وضرب الاسلام بينهم بجرانه . وقضى على شيطان الجهل وأعوانه

ومن حسن سياسته انه لما استخضع العرب وأراهم سطوة المسلمين وبأس الموحدين . فاستكانوا للاسلام وأخلدوا الى الطاعة . ولم يرَ بعد ذلك من حاجة لاستعمال الشدّة معهم . رفع العقوبة عن زعمائهم . وألان القول لأمرائهم . تأليفاً لقلوبهم . واستفادة من نفوذ رأيهم فى أقوامهم فلما جيء له بالسمط بن الاسود الكندى أحد ملوك كندة . وعمرو بن معديكرب

والاشعث بن قيس أسراء مكبلين غفر لهم زلتهم وعفا عما صدر عنهم فأسر قلوبهم . وامتلك ضمائرهم . فكانوا في المستقبل من أنصار الاسلام الكبار . وأعوانه الشداد .

ومن حسن سياسته رفقه بخالد بن الوليد واغضاؤه عن هفوته في قتل مالك بن نويرة مع الحاح عمر عليه باستدعاء خالد الى المدينة ليحاكم ويجري العقوبة عليه . ولما قال له عمر أن سيف خالد فيه رهق وأكثر في اللاغة على خالد . قال يا عمر تاول خالد فاخطأ فارفع لسانك عنه فاني لا اشيم سيفاً سله الله . وودى مالكا وكتب الى خالد أن يقدم عليه ففعل وأخبره الخبر واعتذر اليه فعنفه ابو بكر ثم تجاوز عنه وقبل عذره

كان خالد ذا عصبية في قومه محبوباً من الجند عظيم الرأي في الجهاد موفقاً في الحروب فرأى أبو بكر أن رجلا هـذا شأنه لما يضن به ويحرص عليه . لا سيما وانه كان يضمر أن يرمي به الفرس والروم . ويجمع تحت رايته العرب لبث الدعوة ونشر الاسلام في الممالك القاصية . لما يعهده فيه من سداد الرأي والشجاعة والتوفيق . فاكتفى بتعنيفه علماً منه بانه ان أخطأ هذه المرة فالتعنيف كاف في تنبيه مثله الى أن لا يعود الى مثلها

ولا يخفى ما كان بعد ذلك لخالد من البلاء العظيم فى جهاد الاعداء وما افتتحه من البلاد الواسعة في العراق والشام بحسن اختيار أبي بكر له وعفوه عنه فرضي الله تعالى عنهم أجمعين

ومن حسن سياسته استجلابه لمن توقف عن بيعته من بني هاشم وغيرهم وهم نفر قليل فيهم طلحة والزبير بلين القول والادلال بالحجة دون العنف واستعمال سلطة الخلافة وسلطان القوة وذلك لحرج الموقف الذي وقف

فيه المسلمون وقتئذ واشرأب الاعناق الى الخلاف. وتلظي نار الردة. وترقب المنافقين لفرصة الاختلاف. وتربصهم الشر بالخلافة. وناهيك به موقفاً يحتاج الى الأناة والبصيرة. والصبر والعزيمة. وما زال به أبو بكر حتى بدد غيومه. ومهد للسكون والسكينة طريقه. فوافته الامور كما شاء. وانقضت خلافته على أحسن حال كما أحب. ومما قاله يومئذ وهو يدل على اخلاصه في القول والعمل وتوجه نيته الى درء الاخطار المحيطة بالخلافة والفتنة المهددة للمسلمين بتوليه الخلافة وقبوله لها وأخرجه الحاكم وصححه عن عبد الرحمن ابن عوف قال خطب أبو بكر فقال

(والله ما كنت حريصاً على الامارة يوماً ولا ليلةً قط. ولا كنت راغباً فيها ولا سألتها الله في سر ولا علانية. ولكني أشفقت من الفتنة ومالي في الامارة من راحة لقد قلدت أمراً عظيماً مالي به من طاقة. ولا يد الا بتقوية الله) فقال عليّ والزبير ما غضبنا الاّ لانا أخرنا عن المشهورة وانا نرى أبا بكر أحق الناس بها انه لصاحب الغار وانا لنعرف شرفه وخيره ولقد أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالصلاة بالناس وهو حيّ اه

وناهيك بعظيم سياسته وثاقب رأيه وصاياه للقوّاد والامراء بالرفق بالأمم المغلوبة وتجنب كل ما يثير بالمحارب ثائرة الاشجان، أو يدعو الى مس جانب الانسانية أو يخدش وجه العمران. حتى كان من ذلك ان قام ميزان الشريعة بين الامم المغلوبة بالقسط، وانتشر نور الاسلام على الارض. فأخذ عدله بمجامع قلوب الشعوب فانضوا الى لوائه، وكانوا من أنصاره وأوليائه،

كان جند الاعاجم من الفرس والروم اذا وطئوا أرضاً أفسدوها.

واذا ظفروا بعدوّ مثلوا به واستباحوا حماه . فجاء جند الاسلام يحمل الدعوة قبل الحرب في يد وأمان البلاد من أمثال تلك المنكرات الخسيسة في يد أخرى . وكانوا اذا انتصروا على عدوّ واستباحوا حمى ملك أو أمير يحملون رؤوس البشر الى سدة ملوكهم كبشائر للنصر ، واعلان للفخر ، فرأى أمراء المسلمين في حرب الروم أن يعاملوهم بنفس عملهم فبعث عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة برأس بنان أحد بطارقة الشام الى أبي بكر مع عقبة بن عامر فلما قدم به عليه أنكر ذلك عليه . فقال له عقبة . يا خليفة رسول الله فانهم يصنعون ذلك بنا قال . افيستنّان بفارس والروم لا يحمل اليّ رأس انما يكفي الكتاب والخبر اه أخرجه البيهقي

اللهم ليست المدنية بالزخارف التي يتجلى بها الغربيون الآن ومن ورائها الشهوات تهدم ما يبنون ، وتضع مما يرفعون ، تنزع بالقويّ اذا استعلى على الضعيف منازع الظلم والجبروت فلا يبالي أخيراً صنع أو شراً ، وعدلاً أتى أو ظلماً ، يحشرون الى الغار مئات من البشر ويسدون عليهم فوهته بالحطب يوقدون فيه النار ليميتوهم خنقاً بدخانه . ويرون التمدن الجديد بسائر ألوانه .[1] أو يصفون الناس صفاً ، وينسفونهم بقذائف البارود نسفا[2] أو يجعلون المعابد مرابط للخيل والكلاب . ويحشرون الطائفة المسالمة للموت كما يحشر المادة اللازجة الذباب .[3] وانما المدنية ما سننت لعبادك في

(١) هكذا صنع الفرنساويون بمسلمي الجزائر لما دوخوا بلادهم

(٢) هكذا صنع الانكليز لما استخضعوا ثوار الهند في ثورتهم الكبيرة

(٣) هكذا صنع جنود الدول الاوربية هذه السنة في الصين وهكذا صنع الدول الاوربية في كل حرب الا بعضها مع بعض فربما رفق قليلا

كتابك ، وما فطرت عليه من الرحمه نفوس أوليائك ، الذين آمنوا بنبيك ، وعدلوا بين خلقك ، وتجافوا مضاجع الراحة في سبيل مرضاتك ، وأقاموا الميزان بالقسط لا يظلمون ولا يظلمون

أجل رفع الاسلام نفوس المسلمين عن أمثال تلك الخسائس التي كانت فاشية بين الامم وهذبها على الرأفة والعدل صدراً من خلافة الخلفاء الراشدين كان من ورائهم فيه حكمة ابى بكر ويقظة عمر تسدان على دنيء العادات الوثنية وخسيس السنن الرومية منافذ التسرب الى نفوس المسلمين ، ويقيمان في وجهها حواجز الدين الاسلامي المبين ، وما نشب ان امتد الفتح وكثر الاختلاط وامتزج الأمم بحكم الوحدة الاسلامية روميها وعربيها وعجميها وتركيها حتى أعجز الخلفاء الامر ، وارهق غاشيتهم من العلماء والمقربين الافتتان بحب الدنيا ، فتسامحوا طوعاً بحكم المخالطة ، أو كرهاً بحكم الغلبة ، ففسدت الفطرة ، وامتزجت الاخلاق بالاخلاق ومن ثم كان معظم المصائب التي حلت بالمسلمين متأتياً عن غلبة العادات الاعجمية ، وفقد التربية الاسلامية ، وليس هذا محل الاسهاب وربما نأتي بالمناسبة على شيء من ذلك في هذا الكتاب

أخرج البخاري عن قيس بن حازم قال دخل أبو بكر على امرأة من احمس يقال لها زينب . فرآها لا تتكلم . فقال مالها لا تتكلم . فقالوا حجت مصمتة قال لها : تكلمي فان هذا لا يحل هذا من عمل الجاهلية : فتكلمت فقالت من أنت : قال امرؤ من المهاجرين ، قالت أيّ المهاجرين ، قال من قريش قالت ، من اى قريش ، قال انك لسؤل انا ابو بكر . قالت ما بقاؤنا على هـذا الامر الصالح الذي جاء الله به بعد الجاهلية . قال بقاؤكم

عليه ما استقامت أئمتكم . قالت وما الأئمة . قال أو ما كان لقومك رؤوس واشراف يأمرونهم فيطيعونهم . قالت بلى . قال فهم اولئك الناس

هذا هو الحق الذي أنطق الله به أبا بكر فحسبنا الله ونعم الوكيل وهو بحسن عافيتنا كفيل (ربنا انا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيل)

﴿ سياسته في الرعية ﴾

كانت سياسته مع الرعية بشدة من غير عنف . ولين من غير ضعف بطئ العقوبة غير متعجل فيها إلا بقصاص واجب لهذا كان يأخذ على العمال ايغالهم في العقوبة ويأمرهم بالرفق والأناة

ذكر السيوطي ان المهاجر بن أبي أمية كان أميراً على اليمامة فرفع اليه امرأتان مغنيتان غنت احداهما بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فقطع يدها ونزع ثنيتها وغنت الاخرى بهجاء المسلمين ففعل بها مثل ذلك فكتب اليه أبو بكر رضي الله تعالى عنه

بلغني الذي فعلت بالمرأة التي تغنت بشتم النبي صلى الله عليه وسلم فلولا ما سبقتني فيه لأمرتك بقتلها لان حد الانبياء ليس يشبه الحدود فمن تعاطى ذلك من مسلم فهو مرتد أو معاهد . فهو محارب غادر . وأما التي تغنت بهجاء المسلمين فان كانت ممن يدعى الاسلام فأدب وتعزير دون المُثْلة وان كانت ذمية فلعمرى لما صفحت عنه من الشرك أعظم ولو كنت تقدمت اليك في مثل هذا لبلغت مكروهاً . فأقبل الدعة وإياك والمثلة في الناس فانها مأثم ومنفرة الا في قصاص اهـ

ومن سياسته في الرعية ان كان يحذرهم من الدخول في غمار الفتن التي تسفك فيها دماء المسلمين ويحملهم على التعفف عن المغانم والقناعة بالكفاف

في ابان الفتوح الذي تحولت فيه كنوز الروم وفارس الى المسلمين خشية ان تحيا فيهم ملكة الطمع فتنزع بهم منازع الظلم وتحرك بواعث الطلب من المزيد فيميلون الى الترف والنعيم اللذين يقعدان بهم عن متابعة الجهاد ويشغلانهم عن بث الدعوة بين العباد

أخرج أحمد في الزهد عن سلمان قال . أتيت أبا بكر فقلت اعهد اليّ فقال . يا سلمان اتق الله واعلم انه سيكون فتوح فلا أعرفنّ ما كان حظك منها ما جعلته في بطنك أو القيته على ظهرك واعلم انه من صلى الصلوات الخمس فانه يصبح في ذمة الله ويمسي في ذمة الله تعالى فلا تقتلن أحداً من أهل ذمة الله فتخفر الله في ذمته فيكبك الله في النار على وجهك

﴿ أدبه وتأديبه ﴾

اذا أطلق لفظ الأدب فاحر به والله ان يطلق على الصحابة الكرام الذين تأدبوا بآداب النبي عليه الصلاة والسلام فكانوا خير أمة أخرجت للناس وأشرف قدوة في مكارم الاخلاق يقتدي بها المسلمون وناهيك بأبي بكر وصحبته لرسول الله من بدء عهد النبوّة الى آخره

﴿ أدبه مع رسول الله ﴾

أخرج ابن عساكر والامام أحمد عن يزيد بن الاصم ان النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر أنا أكبر أو أنت قال أنت أكبر وأكرم وأنا أسن منك[1]

وأخرج ابن أبي حاتم عن عامر بن عبد الله بن الزبير رضي الله عنه قال لما نزلت (ولو أنّا كتبنا عليهم ان اقتلوا أنفسكم) الآية قال أبو بكر يارسول الله

---

(١) نقلت هذا الحديث في الطبعة الاولى دون ان ابين انه جاء في رواية أخرى عن العباس عم النبي (ص) وهو الاصح لان النبي أسن من أبي بكر وعمه العباس أسن منه

لو أمرتني ان أقتل نفسي لفعلت . فقال صدقت

أخرج الامام أحمد عن عائشة رضي الله عنها انها تمثلت بهذا البيت وأبو بكر يقضى

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

﴿ أدبه مع نفسه ﴾

أخرج ابن عساكر عن الاصمعي قال كان أبو بكر اذا مُدح قال اللهم أنت أعلم مني بنفسي منهم اللهم اجعلني خيراً مما يظنون واغفرلي مالا يعلمون ولا تؤاخذني بما يقولون

﴿ تأديبه لنفسه ﴾

أخرج أحمد بسند حسن عن ربيعة الاسلمى رضي الله عنه قال : جرى بيني وبين أبى بكر كلام فقال لي كلمة كرهتها وندم فقال ياربيعة رد عليَّ مثلها حتى يكون قصاصاً قلت لا أفعل . قال لتقولن أو لاستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم . فقلت ما أنا بفاعل . فانطلق أبو بكر وجاء اناس من أسلم فقالوا لي رحم الله أبا بكر في أى شيء يستعدي عليك وهو الذي قال لك ما قال . فقلت أتدرون من هذا أبو بكر الصديق ؟ هذا ثاني اثنين وهذا ذو شيبة المسلمين إياكم لا يلتفت فيراكم تنصروني عليه فيغضب فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة وانطلق أبو بكر وتبعته وحدى حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فحدثه الحديث كما كان . فرفع اليَّ رأسه فقال . ياربيعة مالك والصديق فقلت يارسول الله كان كذا وكذا فقال لي كلمة كرهتها فقال لي قل كما قلت حتى يكون قصاصاً

فأبيت . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أجل لا تردّ عليه ولكن قل قد غفر الله لك يا أبا بكر اه

لله أي وجدان هذا الوجدان وأيّ نفس تلك النفس . بادرة بدرت منها لمسلم فلم ترض إلاّ اقتصاصه منها ، وصفحه عنها ، تناهياً بالفضيلة ، واستمساكا بالادب. وشعوراً تمكن من الجوانح وأخذ بمجامع القلب فكانت عنده زلة اللسان ولو صغيرة ألماً تململ منه الضمير فلا يستريح إلا بالاقتصاص منه ، ورضا ذلك المسلم عنه ، فاللهم هبنا من عظيم رحمته اخلاقا تغلب على شهواتنا وتطهر من ادران الكبرياء الباطلة قلوبنا لنرى مواطن الخطأ فنتجنبها ، وطرق الزلل فنتنكبها ، فتبعد عن ظلمات الرذائل خطانا . وتمكن فضائل السلف الصالح من نفوسنا ، فتمكن لنا في الارض سلطان عزنا ، ونجعل الى ملأك الاعلى مصيرنا ، انك سميع الدعاء

﴿ تأديبه للمسلمين ﴾

كان رضي الله تعالى عنه يتلطف بأن يحمل الناس على طريقته . ويؤدبهم بأدب نفسه . مع ما كان عليه المسلمون يومئذ من سلامة الفطرة . وطهارة الاخلاق . والتمسك بآداب الشرع . مبالغة في النصيحة لهم . وحنانا عليهم . وقياماً مقام الوالد الرؤوف بينهم

أخرج أبو عبيد في الغريب عن أبي بكر انه مرّ بعبد الرحمن بن عوف وهو يماظ (أي ينازع) جاراً له . فقال له لا تماظ جارك فانه يبقى ويذهب عنك الناس

وخطب الناس يوما خطبة قال فيها : ومن يطع الله ورسوله فقد رشد ومن يعصهما فقد ضل ضلالاً مبيناً ، أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله

الذي شرع لكم وهدا كم به فان جوامع هدى الاسلام بعد كلمة الاخلاص . السمع والطاعة لمن ولاه الله أمركم فان من يطع الله وأولي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أفلح وادّى الذي عليه من الحق . وإياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حفظ من الهوى والطمع والغضب . وإياكم والفخر وما لفخر من خلق من تراب ثم الى التراب يعود ثم يأكله الدود ثم هو اليوم حيّ وغداً ميت

وستأتي هذه الخطبة برمتها في فصل الخطب وكثير أمثالها مما تلين له قلوب الجماد ، وتسترشد به الى الفضيلة عقول ذوي العناد ، وتوضح للمؤمنين سبل الهدى والرشاد ،

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

أخرج الامام احمد في الزهد عن ميمون بن مهران قال جاء رجل الى أبي بكر فقال السلام عليك يا خليفة رسول الله . قال من بين هؤلاء أجمعين (يشير الى من كان معه من الصحابة أدباً معهم وتأديباً للقائل)

وأخرج ابن عساكر عن أنيسة قالت نزل فينا أبو بكر ثلاث سنين قبل ان يستخلف وسنة بعد ما استخلف فكان جواري الحي يأتينه بغنمهن فيحلبهن لهن

وأخرج ابن عساكر أيضاً عن أبي صالح الغفاري ان عمر بن الخطاب كان يتعهد عجوزاً فكان اذا جاءها وجد غيره قد سبقه اليها فأصلح ما أرادت فجاءها غير مرة كيلا يسبق اليها فرصده عمر فاذا هو بأبي بكر الذي يأتيها وهو يومئذ خليفة فقال عمر أنت هو لعمرى

هكذا التسابق الى الفضيلة والتسارع الى الخيرات وهذا منتهى الرأفة

وغاية الغايات من التواضع وحق لأمة هكذا يكون رؤساؤها ، وبهذه الاخلاق يتخلق ساداتها ، ان تمتلك رقاب البشر ، وتسود على البدو والحضر ، وان ديناً هذا تأثيره في الاخلاق وتهذيبه للفطرة لدين الحق الذي لو تمسك أهله بهديه ، واهتدوا في ظلمات الحياة بنوره ، لكانوا الى هذا العهد أسعد الأمم حالاً ، وأعلى الناس كعباً ، ولكنهم فرطوا والمفرط بالخسارة أولى ، وبالندامة أحرى ، (ولا يظلم ربك احداً)

وحسب أبي بكر من الادب والتواضع قوله في خطبته يوم السقيفة يخاطب المسلمين كبيرهم والصغير وعظيمهم والحقير وغنيهم والفقير (قد وليت عليكم ولست بخيركم فان أحسنت فأعينوني وان أسأت فقوّموني)

يقول أبو بكر لهذا الجمع لست بخيركم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (إن من أمن الناس عليّ في صحبته وماله أبو بكر [1] ولو كنت متخذا خليلا غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلا ولكن اخوة الاسلام) اواه كيف لا يكون أبو بكر بعد هذا الحديث خير المسلمين بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو أبرهم بالنبي وأقربهم اليه واقدمهم صحبة له وانما هو الادب النبوي الذي تأدبت به نفسه والتواضع الذى اشرب به قلبه لا ينفكان عن مثله ، ولا يحطان من جلالة قدره ، بل يعليان مكانته في النفوس ، ويحببان

---

(١) قال في مشكاة المصابيح قوله أبو بكر هكذا بالرفع في صحيح مسلم وعند البخاري بالنصب وهو الظاهر ووجه الرفع بان تكون (من) زائدة على مذهب الاخفش وقيل (ان) بمعنى نعم فيكون ابو بكر مبتدأ ومن أمن الناس خبره وقيل اسم ان ضمير الشأن وهو نادر مع ان المكسورة كما عرف في النحو والاوجه ما ذكر بعضهم انه محكي على ما هو عليه وقد ثبت من قول أمير المؤمنين علي فيما اقطعه رسول الله صلى الله عليه وسلم تميما الداري (شهد به ابو بكر بن أبو قحافة) الخ

به القلوب ، ويمهدان لرعيته طرق الطاعة لامره ، والخضوع له ، والالتفاف حوله ، والعمل باشارته ، والذب عن حوزته .

أين هذا ممن اتخذوا بعدُ اسم الخلافة سلاحاً يضربون به وجوه المسلمين ويمزقون أحشاء الاسلام ولم يرضوا لأنفسهم من سمات الخلافة التي ابتدعوها الترفع عن مخاطبة الناس والتحجب وراء الستور والاعتلاء على منصات العظمة والكبرياء حتى انتزعوا لأنفسهم من صفات الالوهية ألقاباً ، واتخذوا من لباس الاعجمية جلباباً ، وركبوا من متن الغرور مراكب صعاباً ، فحكموا الناس بالظلم والاستبداد ، وساقوهم بعصا الاستعباد ، ففرقوا عنهم القلوب وشتتوا كلمة المسلمين فاندفعوا من قرون طويلة في غمار الفتن وشغلوا عن أمر دنياهم بأمر اولئك الجبابرة العتاة بين خارج عليهم ، ومقاتل معهم ، ومنابذ لهم ، يأخذ بأسباب الحيطة لنفسه ، ومظاهر لهم شغلوه في خدمة شهواتهم عن النظر الى يومه وأمسه ، فخمدت من جراء ذلك جذوة العقول ، وفترت القوى ، وانحطت الاخلاق وفقد العلم ، وبارت الصنائع

ومن وراء هذا كله الكذابون والوضاعون يستدرجون أولئك الجبابرة بالطغيان ويتزلفون اليهم بوضع الحديث ليدوسوا بأقدامهم على رقاب الامة ، ويبدلوا نظام الاسلام ، حتى لقد اجترأ أحدهم على أبي جعفر المنصور على قرب عهده بالتابعين وعلمه بالحديث وبعد غوره في الدين فذكر له حديثاً وضعه يداريه فيه فأنكره عليه وطرده من حضرته

لهذا لم يزل فريق من الناس ينسب أسباب تقهقر المسلمين الى الدين والدين يبرأ الى الله من كل ما يخالف سيرة الصحابة ، ويصادم قوانين الترقي ، كالعلم والحرية والعدل وانما هي نزعات قامت في النفوس تذرع بها أربابها

الى الصاق كل شيء بالدين ليحاربوا باسمه كل شيء خالف أهواءهم ، ونابذ اغراضهم ، ومن لنا بمؤرخ صادق اللهجة شديد العارضة عظيم الاطلاع غير هيَّاب من أعداء الحق ولا رغاب في غير الثواب من الله والشكر من الناس يضع لنا تاريخاً يستقصى به أخبار الماضي ويتبع مظان الملل فيكشف عن بصائر هذه الامة الغطاء ، ويزيل عن أبصارهم الغشاء ، فقد والله سئمت نفوسنا من سرد تاريخ الأمة الاسلامية كما يسرد المنشد قصيداً اختلط غثه بثمينه ، وضعيفه بمتينه ، ونحن مع ذلك لاهون بالسفاسف ولعون بما ابتدعه لنا المبتدعون من وسائل الرضا بالحرمان من العلم ، والسكوت على أذى هذا الظلم ، ولله في خلقه شؤون

﴿ زهده وورعه ﴾

اعتادت اسماعنا وألفت أذهاننا من معنى الزهد بما ابتدعه لنا المبتدعة ووضعه الوضاعون انه عبارة عن ترك الدنيا والانزواء في زوايا البطالة والكسل ليكون الزاهد عالة على سواه ، مترقباً للرزق ممن عداه ، وهو بهتان على الزهد وعكس لمعناه اذ الزهد في الحقيقة هو التعفف عما بأيدي الناس والقناعة بالكفاف عن الفضول والتماس الحلال من طريق العمل دون الاعتماد على كفاية الاغيار كما سترى ذلك مبسوطا في غير هذا المحل

ومذهب الصحابة في الزهد هو العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف وليس منهم إلا من كانت له وسيلة للارتزاق من الحلال هذا مع الرضا بالقناعة وعدم الطموح الى الفضول تهذيباً لنفوسهم واقتداء بنبيهم صلى الله عليه وسلم وذلك هو زهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه

مما روي عن زهده وعفته ورضاه بالكفاف من العيش أنّ زوجته

اشتهت حلواً فقال ليس لنا ما نشتري به . فقالت أنا استفضل من نفقتنا في عدة أيام ما نشتري به . قال افعلي ففعلت ذلك فاجتمع لها في أيام كثيرة شيء يسير فلما عرفته ذلك ليشتري به حلواً أخذه فرده الى بيت المال . وقال هذا يفضل عن قوتنا وأسقط من نفقته بمقدار ما نقصت كل يوم وغرمه لبيت المال من ملك كان له

وروى انه لما ولى الخلافة رأى أن يستمر على استغلال ملكه والارتزاق من وراء عمل يده ولا ينفق على نفسه من بيت مال المسلمين شيئاً فأصبح يوماً وعلى ساعده ابراد وهو ذاهب الى السوق فلقيه عمر فقال أين تريد . قال الى السوق . قال أتصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين . قال فمن أين أطعم عيالي . فقال انطلق يفرض لك ابو عبيدة . فانطلقا الى ابي عبيدة فقال افرض لك قوت رجل من المهاجرين ليس بافضلهم ولا اوكسهم وكسوة الشتاء والصيف اذا اخلفت شيئاً رددته وأخذت غيره . ففرضا له كل يوم نصف شاة وما كساه في الرأس والبطن : اخرجه ابن سعد عن عطاء بن السائب

وأخرج ابن سعد عن ميمون قال لما استخلف ابو بكر جعلوا له الفين فقال زيدوني فانّ لي عيالاً وقد شغلتموني عن التجارة فزادوه خمسمائة

ومما يدل على شدة ورعه وانه انما قبل فرض العطاء اضطراراً لاشتغاله بأمر المسلمين عن التجارة ما اخرجه البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت لما استخلف ابو بكر . قال لقد علم قومي ان حرفتي لم تكن تعجز عن مؤنة اهلي وشغلت بامر المسلمين فسيأكل آل ابي بكر من هذا المال ويحترف للمسلمين

وروى عن عائشة أم المؤمنين انها دخلت على أبيها في مرضه الذي توفى فيه وطلبت اليه ان يعهد بالامر وهي حزينة كئيبة فرفع رأسه وقال . يا أمه

هذا يوم يجلى لي عن غطائي واشاهد جزائي ان فرحا فدائم . وان ترحا[1] فمقيم . انى اطعت امانة هؤلاء القوم[2] حين كان النكوص اضاعة . والخذل تفريطا . فشهيدى الله ما كان يقيلني اياه فتعلقت[3] بصحفتهم وتعللت بدرة لقحتهم فاقت صلاتى[4] معهم لا مختالا اشراً . ولا متكاثراً بطراً . لم اعد سد الجوعة وورى العورة . وقوانة القوام . حاضرى الله من طوى ممعض تهفو منه الاحشاء . وتجب له المعى.[5] فاضطررت الى ذلك اضطرار المريض الى المعيف لآجن .[6] فاذا أنا مت فردى اليهم صحفتهم . وعبدهم ولقحتهم . ورحاهم ودثارة ما فوقي اتقيت بها اذى البرد ودثارة ما تحتي اتقيت بها نز الارض كان حشوها قطع السعف المشع

يترك هذا الخليفة العظيم تجارته ويتخلى عن ذرائع كسبه اشتغالا عنها بأمور المسلمين وقياماً بوظائف الخلافة فيضطر الى أخذ نفقته من بيت المال بما لا يزيد عن الحاجة الى سد الجوع وستر العورة ثم هو يؤدى للمسلمين خدمة هيهات ان تؤدى حقها الخزائن ويقابلها الشكر ، ولما يقضي واجبه ويشرف على يومه ، ويرى عنده فضلة من مال المسلمين وهي ذلك المتاع الحقير . يأمر بردها الى المسلمين ليلقى ربه امناً مطمئنا ، نزيه القلب . طاهر النفس خفيف الحمل الا من التقوى ، فارغ اليدين الا من الايمان ، ان في هذا لبلاغاً وانها لموعظة لقوم يعقلون

فالحم ان هذه التقوى وهذا الزهد وان كان أليق بمثل ابى بكر وألصق

---

(١) وفي نسخة ان فرح فدائم وان ترح فمقيم (٢) وفي النثر المختار اني اطلعت بامامة هؤلاء القوم (٣) في النثر تبلغت (٤) وفي النثر فاقت صلاتي معهم في ادامتهم (٥) وفي العقد ويجف له الامعاء (٦) وفي النثر اضطرار البرض الى المعتب الاجن

بمن أدرك عهد النبوّة وأجدر بالخلفاء المهديين الراشدين الآن فيهما عظة لو تذكرها بعدُ خلفاء المسلمين وادّرعوا منها جلباباً ليس بالصفيق فيثقل عليهم حمله . ولا بالرقيق فينكشف عن ضمائرهم ما دونه . لما زجت بهم نزعات النفوس في ظلمات المراسم الاعجمية (المنتزعة من محض الوثنية التي هدمها وكل توابعها الاسلام ونمى على أهلها عوائدهم الخسيسة القرآن) فتركتهم مثلا فى الجبارين حاشا أفراداً منهم اختاروا لا نفسهم الاعتدال دثاراً ، والتقوى شعاراً ، فألحقوا بالراشدين وتركوا أحسن الذكر فى تاريخ المسلمين

وهيهات لتلك النفوس الهائمة في فضاء الحياة الفانية أن ترضى لنفسها من هذا المتاع الدنيوى ما رضيه لنفسه ابو بكر . وأنى للمؤرخ الناقد أن يتتبع منافذ القضاء التي أرسلت علينا من شواظ الوثنية الغابرة شرراً ما زال يعظم ويشتد حتى أعاد لنا سيرتها الأولى ، وأتى على الخضراء واليابسة ، ومعظم النار من مستصغر الشرر

﴿ جمعه القرآن ﴾

من مناقب ابى بكر العظيمة ومآثره الكبيرة جمعه القرآن . ولا يعلم قدر فضله بهذا العمل الجليل الا من عانى أمر الحديث وعرف مقدار ما اجترأ فيه على الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم جماعة القصاص والوضاعين الذين شوّشوا على الأمة في الدين والسيادة والاخلاق تشويشاً الله أعلم بما جرّ على الأمة من البلاء ولولم ينهض أئمة الحديث وحفاظه من أواخر القرن الثاني وما بعده الى تلافي هذا الخطب وتتبع الاسانيد الصحيحة وترتيب درجات الحديث وتفريق الموضوع عن الصحيح لكان الخطب أعظم . والمصيبة أشد . أما القرآن فلله الحمد والمنة على انه سبحانه تكفل بحفظه فقال تعالى فيه

(انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون) (كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من عزيز حكيم) لهذا ألهم الله ابا بكر وعمر ما ألهم من النهوض الى جمعه من صدور القراء وبعض الصحف فجمع وكتب بين الدفتين دون أن يلحق حرفاً واحداً منه تغيير أو تبديل. وأما سبب جمعه فيظهر مما يلي

أخرج البخاري عن زيد بن ثابت قال (أرسل الي ابو بكر مقتل أهل اليمامة وعنده عمر فقال ابو بكر ان عمر أتاني فقال ان القتل قد استحر يوم اليمامة بالناس واني لاخشي ان يستحر القتل بالقراء في المواطن فيذهب كثير من القرآن الا أن يجمعوه واني لأرى أن يجمع القرآن قال ابو بكر. فقلت لعمر كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال عمر وهو والله خير. فلم يزل عمر يراجعني فيه حتى شرح الله لذلك صدري فرأيت الذي رأى عمر. قال زيد وعمر عنده جالس لا يتكلم فقال ابو بكر انك شاب عاقل ولا نتهمك وقد كنت تكتب الوحي لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتتبع القرآن فاجمعه . فوالله لو كلفني نقل جبل ما كان أثقل علي مما كلفني به من جمع القرآن. فقلت كيف تفعلان شيئاً لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم. فقال ابو بكر هو والله خير فلم أزل أراجعه حتى شرح الله صدري الذي شرح الله صدر ابي بكر وعمر فتتبعت القرآن اجمعه من الرقاع والاكتاف والعسب وصدور الرجال حتى وجدت من سورة التوبة آيتين مع خزيمة بن ثابت لم أجدهما مع غيره (لقد جاءكم رسول من انفسكم) الى آخرها فكانت الصحف التي جمع فيها القرآن عند أبي بكر حتى توفاه الله ثم عند عمر حتى توفاه الله ثم عند حفصة بنت عمر رضي الله عنها.

﴿ قضاؤه ﴾

أخرج البغوي عن ميمون بن مهران قال كان أبو بكر اذا ورد عليه الخصوم نظر في كتاب الله فان وجد فيه مايقضي بينهم قضى به وان لم يكن في الكتاب وعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك الامر سنة قضى به فان أعياه خرج فسأل المسلمين وقال أتاني كذا وكذا فهل علمتم ان رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قضى في ذلك بقضاء ؟ فربما اجتمع عليه النفر كلهم يذكر من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه قضاء . فيقول أبو بكر الحمد لله الذي جعل فينا من يحفظ عن نبينا . فان أعياه ان يجد فيه سنة من رسول الله صلى الله عليه وسلم جمع رؤس الناس وخيارهم فاستشارهم فان أجمع رأيهم على أمر قضى به . وكان عمر رضي الله عنه يفعل ذلك فان أعياه ان يجد في القرآن والسنة نظر هل كان فيه لأبي بكر قضاء ؟ فان وجد أبا بكر قضى فيه بقضاء قضى به والا دعا رؤس المسلمين فاذا اجتمعوا على أمر قضى به

﴿ مطلب ﴾

﴿ كلام على القضاء في الاسلام ﴾

لايخفى على من له المام بأصول الشريعة ان الاحكام القرآنية التي كانت تنزل بازاء الحوادث والسنة النبوية التي ورد فيها حكم قضى به الرسول صلى الله عليه وسلم انما هي أصول عامة أو كليات ليس من شأنها الاحاطة بجزئيات الحوادث التي تتجدد في كل وقت ومكان لهذا لما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم معاذاً الى اليمن قال له بماذا تحكم . قال بكتاب الله . قال فان لم تجد .

قال بسنة رسول الله . قال فان لم تجد . قال اجتهد برأيي وفي رواية اجتهد رأيي . فقال عليه الصلاة والسلام الحمد لله الذي وفق رسول رسوله لما يرضى به رسوله

وأنت ترى من هذا ان لأبي بكر رضي الله عنه ان يجتهد برأيه في الحوادث التي لايكون بازائها نص صريح في الكتاب ولا سنة ثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ومع هذا فهو على بصيرته في الدين وعلمه وتقواه وعدله كان يرى ان لاينفرد بحكم في نازلة ولا يقضي قضاء ليس بازائه نص صريح إلا برأي جماعة من الصحابة مبالغةً في الاحتياط ودفعاً لشبه الضمائر وقد تابعه على هذا عمر رضي الله عنه وحذا حذوه فيه . واذا علمت ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . (اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر)[1] اتضح لك من جميع ما قدمناه أن هناك أموراً لاينبغي في هذا الكتاب السكوت عليها وعدم الالمام بأطرافها

ان الاجتهاد بمعناه اللغوي هو بذل الجهد وقول معاذ لرسول الله صلى الله عليه وسلم اجتهد برأيي ظاهر معناه انه يحكم بما يراه بعد بذل الجهد في تمحيص الرأي وتحري الحق واستشارة أهل الرأي وليس هناك قرينة أو شيء آخر يدل على ان معاذاً أراد بقوله اجتهد برأيي معنى غير ما ذكرناه[2] وقد رضيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ورخص به لمعاذ لان الله سبحانه وتعالى جعل الاسلام دين اليسر لا دين العسر فقال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) ورسول الله صلى الله عليه وسلم انما رخص لمعاذ بالاجتهاد كي لاتتعطل مصالح المسلمين ولا يكون عليهم حرج في الدين

(١) أخرجه الترمذي وحسنه والحاكم وصححه (٢) أي ما اصطلح عليه الاصوليون

ومن البديهي ان هذا الترخيص تشريع للاجتهاد الذي هو ادارة الاحكام على المصلحة على تمادي الزمان . وأولى من تحرى مصلحة المسلمين وحكم بالحق أبو بكر رضي الله تعالى عنه ومع هذا ومع ما رُخّص له به من الاجتهاد فانه رأى ورأيه الحق ان لا ينفرد برأيه في الاحكام ولا يقضي بقضاء مبني على الرأي إلا باستشارة جمع من الصحابة واجماعهم على ذلك الرأى تمحيصاً للحق وتحريا للصواب وأخذاً بالاصلح والاحوط

إذن ينتج معنا من هذه المقدمات أمور هي من الاهمية بمكان (منها) مشروعية الترخيص بالاجتهاد عند الحاجة أي عند عدم وجود النص (ومنها) ان الاجتهاد بمعناه اللغوي دائر مع المصلحة والحق . مرخص لوضع الاحكام بازاء الحوادث التي لا يقابلها نص من الكتاب والسنة (ومنها) ان أبا بكر سن سنة الشورى وعدم الانفراد سواء بالرأي بوضع لحكم أو بالقضاء فيه وتابعه على ذلك عمر رضي الله عنهما وهما أولى من يستن بسنتهما بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقتدي بهما للحديث السابق

اذا تقرر هذا علمنا ان المسلمين بما دخل على نظامهم الاجتماعي من الوهن وما تخلل حكوماتهم من فساد النظام انما أتوا من قبل أنفسهم لا من قبل الدين كما يفتريه أعداؤه أو يقول به فريق من سوائم البشر الذين هاموا بمظاهر التمدن كما تهيم السائمة في منابت الكلأ فتجترّ من هنا تارة وهناك أخرى بلا نظام ولا ترتيب . اذ الدين لم يخص كل ما تحتاج اليه المجتمعات الاسلامية من الاحكام الجزئية في المعاملات ولم يقيد الأمة بقيود الحصر بما جاء فيه من كليات الاحكام دون التوسع فيما يقتضي لها من الجزئيات

أجل قد أصيب القضاء في الاسلام بآفات عظيمة أثرت كثيراً في

الحالة الاجتماعية عند المسلمين ولكن ما ذنب الاسلام وهو دين اليسر الذي دفع عن الامة الحرج ونبهها الى وجوب التوسع في القضاء بتوسع الحاجات وبما لا ينافي قاعدة الحق والعدل التي تدور عليها مصلحة المسلمين وقد عمل بهذا الخلفاء الراشدون مدة خلافتهم التي كانت الأمة فيها على حال من سذاجة الفطرة وجدة الدين وصفاء القلوب تكاد تجعل التخاصم بين الناس في حكم المفقود لقيام الزواجر النفسية مقام الوازع بالشرع الرادع بالتأديب من جهة ولانحصار المعاملات في دائرة لم تتعدّ طور السذاجة المذكورة من جهة أخرى . ثم أعقب ذلك فترة اشتغل بها الناس بالجهاد وتوسعوا بالفتح وخالطوا الأمم فطرأ بعد ذلك انقلاب في السياسة والملك وتغيير عظيم في أصول المعيشة تشعبت فيه طرق الأعمال وتوسعت أحوال المعاملات والقضاء في غضون ذلك لم يتعدّ طوره الأول إلاّ بانتقاله من أيدي الخلفاء الى أيدي أشخاص آخرين هيهات لأخيَرِ خيّريهم ان يبلغوا عشر معشار الخلفاء من العلم بالشريعة والأخذ بأسباب الحزم والمصلحة وانتهاج منهج العفة والعدل فكان ينتهي اليهم فصل الخصومات فيفصلون بها على قدر مبلغهم من العلم ومكانتهم من عفة النفس ونزاهة الضمير بلا سيطرة عليهم ممن هو أرفع منهم أو قيد بنظام خاص يلزمهم جادة الانصاف ويضطرهم الى تنكب طرق الخطأ أو الجور إلا ما جاء من ذلك في كتاب الله من أمر بالعدل ونهي عن الظلم وتحذير من اتباع الهوى وانما يستصلح بالتحذير والزواجر نفس تطهرت بأصل الفطرة من شوائب الهوى ونشأت على سذاجة الفطرة وأولئك هم المسلمون الأولون. وأما من انغمسوا بعد ذلك بحمأة الحضارة وافتتنوا بزخارف العالم الفاني فانهم الى سيطرة السلطان أحوج منهم الى التذكير بالقرآن لهذا جاء

في بعض الآثار (ان الله ليزع بالسلطان ما لايزع بالقرآن) ولا بد دائماً من قوة تصاحب الشرائع فتقيم شعائرها وتنفذ أوامرها والى هذا وردت الاشارة في كتابة الكريم (ولقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس) والاسلام بما جاء به من وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جعل الناس رقباء على أولي السلطة كما جعل هؤلاء مسيطرين على اقامة احكام الشرع فقط ولكن غفلة الناس واهواء الحكام أضاعا مزايا الاسلام وتركا الامة منقادة لجور الرؤساء محكومة بالاهواء لا تعرف لها حقاً قبل رؤسائها ولا تفتأ تعتمد في تدبير كل شؤونها على قادتها

قام في غضون ذلك من التابعين جماعة نشطوا لجمع السنة في السطور بعد اذ كانت في الصدور ضبطاً لقواعد الشريعة وتقييداً للاهواء ثم تلاهم الائمة والفقهاء الذين وجدوا القرآن مجموعاً يسراً والاحاديث قد أحرزت فضبطت فتفقهوا في القرآن والحديث ثم اشتغلوا بالاستنباط والتفريع فوضعوا علم الفروع الذي يشتمل على قسمي العبادات والمعاملات ونعمة الخدمة خدموا بها الاسلام وضبطوا بها امور القضاء بما وصل اليه اجتهادهم لولم يزعم من جاء بعدهم من فقهاء كل مذهب انهم تركوا الامور على أكمل الحالات ولم يبق للناس الا أن يحفظوا ما استنبطوه ويعملوا ما يدنوه

أجل ان الامر كذلك في قسم العبادات والاعتقادات لانه ليس مبنياً على شيء من الرأي وانما هو اصول ثابتة في الكتاب والسنة توسعوا في بيانها وتوضيحها وأما في قسم المعاملات فليس الامر كذلك الا من بعض الوجوه بدليل ما كان بينهم من الاختلاف الكثير في المسئلة الواحدة ومنشأوه اجتهاد كل

فرد منهم برأيه في طريقة الوضع والقياس والاستنباط ولو ألهم الله القوم ما ألهم أبا بكر وعمر من عدم الانفراد بالرأى فيما لا يكون بازائه نص صريح من الكتاب او السنة واجمع اهل الرأى والعلم منهم على جمل علم الفروع قائماً بالتكافل خالفاً من شوائب الظنون والاختلاف دائراً مع المصلحة التي تناسب كل عصر ولم يأت بعدهم من ينزل اقوالهم منزلة الكتاب العزيز من حيث لزوم الاكتفاء بها وعدم الحيد عنها او النظر فيما يصلح أو ما لا يصلح لكل زمان منها لما عرى نظام القضاء في الاسلام ما عراه من الخلل والنقص وتلاعب الاهواء

ان لنظام القضاء أثراً عظيما في ترقي الامم وتدنيها اذ متى انحرفت حكومة من الحكومات عن طريق العدل وحاولت حكم الامة بالجور والاستبداد فانها اول ما تتكىء فعلى القضاء فان كان نظام القضاء قوياً ثابتاً منعها من الجور وصدها عن سبيل الهوى فحفظ على الناس ارواحهم واموالهم وحقوقهم والعكس بالعكس

ومعاذ الله ان نريد بهذا القول رمي الائمة بالتقصير في جانب الحاجة الاجتماعية الى التوسع في الاحكام بتوسع طرق المعاملات فان هذا فوق طوق الآحاد أو نبخسهم حقهم من الاحترام وهم لعمر الله اولى من يحترم عملهم ويشكر صنيعهم عما خدموا به الشريعة وما عانوه من استنباط الاحكام وتدوينها تسهيلا لتناول الاحكام ودفعاً لفوضى الرأى حتى انا لنفاخر غيرنا بما بلغوه من بعيد الشأو وتعدي الغاية في تتبع احكام المعاملات المدنية أو فن الحقوق وانما هنالك أمور ربما فاتهم النظر اليها اعتماداً منهم على قرب عهد الناس بالاسلام وتمكن التقوى والعدل من النفوس ولم يصلوا الى مكان النظر في الغيب

ليروا ماذا يحدث من الاقضية بعد للمسلمين والى أية درجة تنتهي اليه الاخلاق وتتبدل العوائد وقد فسحت تلك الامور لقادة الامة مجال العبث بالشريعة ومهدت للحكام سبيل الهوى فكانوا في كثير من العصور الاسلامية آفة الامن وسم الاجتماع الا من عصم ربك وهؤلاء لا ينى عليهم حكم

وأما تلك الامور فهي أولاً كثرة الاختلاف بين المخرجين والمرجحين حتى على المسئلة الواحدة مما جعل علم الحقوق أشبه برموز لا يتيسر لاحد من الناس أن يتناول منه حكماً جازماً الا بواسطة الفقهاء والمفتين وقليل من الناس المعصوم عن الخطأ أو الغرض فيحلل أحدهم من طريق أحد المرجحين ما يحرمه الآخر من طريق غيره[1] هذا بين علماء المذهب الواحد فما بالك بتعدد المذاهب أيضاً

ثانياً أحكام العقوبات التي لم يرد فيها نص صريح في الكتاب أو السنة كالضرب والتعذير والحبس ووضع لها الأئمة والعلماء أحكاماً من طريق الرأي أو الاستنباط لم تعين فيها درجات الجرائم على وجه يمنع من تحكم هوى النفوس. وتوزع الاختصاص بالحكم فيها وتنفيذها بين الولاة والقضاة والمحتسبين فكان من ذلك أن تذرع بها الحكام الظالمون للتطاول على أموال الناس وحقوقهم وسلب الراحة والامان من بين ظهرانيهم لا سيما بعد مبالغة الخلفاء بالتحجب وترفعهم عن النظر في المظالم وانزوائهم في زوايا القصور عن أنظار الناس

والظلم على ذلك الوجه اذا طال في أمة دمرها وأفسد أخلاقها وأوهن قوتها فتألف المداهنة والنفاق وتذل نفوسها لأولي السيطرة وتمنع ثروتها

(١) راجع حاشية الدر المختار لابن عابدين وانت ترى فيها ما كتبه بشأن المفتين في عصره وكيف توسعوا بالافتاء الى ان أضاعوا الحقوق وبالخاصة حقوق الاوقاف

من الظهور خوف المصادرة فتبور عندها التجارة والصناعة وتقف حركة الاعمال وناهيك بها من آفات تنخر جسم العمران وتهدم من التمدن شوامخ البنيان وقد كاد الظلم على ذلك الوجه يتأصل لقدمه في الامة حتى قال ابن خلدون عن مداهنة الحكام فى عصره انها لازم من لوازم الامن على الانفس والاموال لا حرج فيها على المداهنين . وما أقبحها من حال آلت بالامة الاسلامية الى هذا المآل

ثالثاً تبادل المسئولية[1] بين طبقات العمال وتعيين اختصاص كل فرد منهم بوظيفة خاصة لا يتعداها وقد وضع لها الائمة والعلماء كتباً خاصة كالاحكام السلطانية وآداب القضاة والمفتين وأشباهها الا انها لشوبها بآفة الخلاف وخلوها عن تعيين العقوبات التي تقع على المخالفين تعيينا باتاً صريحاً كادت تكون بحكم المعدوم وان وجد شيء منها فليس وراءه من قوة التنفيذ ما يقف بكل عامل عند حده وعلة ذلك عدم تحديد المسئولية فى تلك الكتب وارتباط العمال بها ارتباطاً يشبه السلسلة المتصلة الحلقات بحيث تكون السيطرة عامة من الكبير على الصغير ومن هذا على الادنى وأنى يتيسر وجود هذه المسئولية لو فرض بيانها في كتب الفروع ما دام لا رأى للامة في التشريع ولا لاولياء الامر ارتباط بقانون بل هم تادة الامة الذين ترك المسلمون اعتمادهم عليهم وركنوا بكل شؤونهم اليهم فما راق لديهم من أقوال الفقهاء عملوا به وما لم يرقهم نبذوه وعاملوا الامة معاملة السائمة كما تشاء الاهواء وكم جرّت هذه الفوضى بنظام القضاء من البلاء على الناس وصبت عليهم من المصائب ما لا يتحمله الجماد وليس العهد بها في المملكة العثمانية ببعيد فانّا ان لم ندرك شيئاً منها فقد أدرك آباؤنا وأخبرونا بمبلغ ما وصل اليه لذلك العهد الخلال نظام الاختصاص

(١) المراد بالمسؤلية هنا على اصطلاح كتاب العصر التبعة

وفقد المسؤلية حتى كان ليأمر بحبس المدين (مأمور الطابو [١]) قبل وضع القانون المعمول به الآن لرجاء من الدائن ومثل هذا وأشد لم يزل حاصلاً في بعض الممالك الاسلامية الى الآن كمملكة مراكش التي يموت بسجنها السجين دون ان يعلم بسبب سجنه أو موته السجان أو يأخذ خبر أحد من الحكام إلا من أمر بحبسه لمال يريد ابتزازه منه أو لمجرد التشفي والانتقام وهذا من التناهي في الظلم الناشئ عن تشويش نظام القضاء والعياذ بالله

وتالله ان الاسلام ليبرأ الى الله من التصاق أمثال هذه المخازى بالمسلمين وهو انما شرع الاجتهاد في المسائل التي لايكون بازائها نص صريح درأً لأمثال هـذه المفاسد وتلافياً لـكل ماعساه يحدث للامة من الاقضية التي لم تحدث في عصر الرسول عليه الصلاة والسلام لهذا لما كان يعرض على أبي بكر أو من بعده من الخلفاء الرشدين قضية من هذا القبيل يحكمون فيها برأيهم ورأى المسلمين بعد تتبع الكتاب والسنة كما رأيت وهكذا ائمة المذاهب انما ألجأهم الى الاجتهادفي مسائل الفروع والتوسع في وضع الاحكام توسع الأمة بالفتح وتبسطها في مناحي الحضارة وتوفر أسباب التعامل وتنوع طرق التحيل بين الناس

---

(١) هذه وظيفة قديمة في الدولة وهي خاصة بكتاب صكوك الفراغ والانتقال في الاراضي الاميرية عملا بقانون الاراضي الذي وضعه السلطان سليمان وقسم به أراضي المملكة الى قسمين خراجية وعشورية وجعل حق التوريث في الاراضي الخراجية عائداً لنصوص القانون وحق بيعها للحكومة وقد توسعت الدولة فيه الآن حتى جعلت كل الاراضي والمسقفات داخلة تحت معاملات قانون الطابو حتى عدمت حرية التملك والتمليك في المملكة العثمانيـة وأصبحت الاعيان جميعها ملكا للدولة كما هي مالكة للرقاب أيضاً وهو شأن غريب من شؤون الحكومات المطلقة كما سترى تفصيله بعد

ولا جرم ان سنة الترقي والتدريج تقضي بتوفر تلك الأسباب وتعدد تلك الطرق ومن المصلحة الصالحة ان يدور الاجتهاد مع هـذه السنة تلافياً لكل مايحدث للناس من الاقضية وتقييداً للحكام بالقانون ولو استمر ذلك الى الآن لما طرأ على المسلمين ماطرأ من التقهقر الناشيء عن التضييق في نظام القضاء ولبلغت قوانينهم الشرعية الى هذا العهد مبلغاً من الترقي يدرأ عنهم كل آفات الظلم التي نخرت عظامهم وزعزعت أركان مجتمعهم ولكن ما الحيلة وقد حتم الفقهاء منذ أجيال طويلة بسد باب الاجتهاد لا لعلة سوى ان هذا القول وافق هوى من نفوس الأمراء الذين تعاكس قاعدة الاجتهاد مقاصدهم فأعانوا الفقهاء على قولهم . ودعموا بالقوة والجبروت دعواهم اذ الاجتهاد مبني على المصلحة والمصلحة كانت تقضي بسد كل ثلمة يتسرب منها جور الرؤساء الى الأمة وفي هذا غل لايديهم عن الاستبداد ، وصد لأهوائهم عن التصرف بنفوس العباد ، وهكذا انطوى الثوب على غره ، ومضى الأمر لهذا العهد على وجهه . حتى بلغت بنا الحال الآن الى العمل بالقوانين الوضعية التي تتمتع الأمم بها بالسعادة الدنيوية وأمامنا الشرع رحب الجناب وسيع الباب يصدنا عنه الفقهاء ويقتلنا دونه الرؤساء فاللهم ارزقنا من فضلك فرجاً ، واجعل لنا من هذا الضيق مخرجاً ، انك مجيب الدعاء

ربما يتبادر الى الذهن انا نريد بهذه المقدمة فتح باب الاجتهاد لأهل الرأي يلجه منهم من شاء في أي وقت شاء ليتلافوا حاجة القضاء في كل عصر ، ويطلقوا عنان النظر والبحث في هذا الامر ، ومعاذ الله ان يخطر لنا مثل هذا في بال ومن قبله جاء الأمة مصاب الاختلاف ، وتشوش نظام القضاء فاصبحت الاحكام عرضة لآفات الخلاف ، وانما الذي نراه حاسما للعلة وافياً بالحاجة واقيا

من التمادي في فوضى التفريع هو الاستنان بسنة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الاجتهاد بالمسائل التي لا يكون بازائها نص صريح في الكتاب أو السنة ذلك بأن لا يتحكم فيها رأي فرد واحد ربما يخالفه فيه الآخر وهكذا الى ماشاء الله فتحكم الأمة الواحدة بعدد غير متناه من القوانين كما هو شأن المسلمين بمخرّجيهم ومرجحيهم الآن بل يكون الأمر في ذلك شورى بين طائفة من العلماء المتضلعين في علوم الشريعة الواقفين على حالة الأمة والعصر ينتدبهم عند الحاجة وليّ الامر في كل قوم من المسلمين (كما كان أبو بكر ينتدب لمعونته بالرأي أهل العلم من المسلمين) ليجتهدوا في وضع الاحكام بازاء الحوادث التي تحدث للأمة [١] وتوافق حالة العصر وتفي بحاجة الترقي والاجتماع واذ كان اجتهاد الصحابة كما علمنا هو عند الحاجة وتعذر وجود النص كذلك ينبغي لاؤلئك العلماء ان يكون اجتهادهم قاصراً على ماتمس اليه حاجة الدولة والأمة من الاحكام التي تقتضيها سياسة الشعور بلزوم العدل وتدرأ بها مفسدة تعطيل الاحكام . أو الحكم بالهوى فيما لا يكون بازائه نص صريح في المسائل التي تعرض للحكام .

ومن ثم يتكون من أحكام الشريعة قانون شامل لأحكام العقوبة والحقوق ليس فيه شيء من مثارات الخلاف يتناول منه الاحكام سائر الناس ويقصر عليه العمل في الدولة على نحو ماصنعته الدولة العثمانية في ترتيب مجلة الاحكام الشرعية التي أغنت الأمة عن تكبد عناء الاستفتاء ودرأت عنهم كثيراً من أذى التلاعب بالنصوص

(١) يؤثر عن عمر بن عبد العزيز انه قال يحدث للناس من الاقضية بقدر ما يحدث لهم من الفجور وبهذه القاعدة عمل المالكية في التفريع

هذا ماراه حاسما لداء الفوضى القانونية عند المسلمين قريباً من الصواب وسنة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين وبعدُ فقوق كل ذي علم عليم والله وليّ الارشاد واليه يرجع الامر

﴿ أوّلياته ﴾

منها انه أول من سمى خليفة وأول من ولى خلافة وأبوه حي وأول من فرض له رعيته العطاء وأول من أسلم وقد تقدم الكلام على اسلامه وأول من جمع القرآن وأول من وضع بيت المال

باب

﴿ كتبه وخطبه ﴾

(كتبه)

(كتاب عهده للامراء في حروب الردة) بسم الله الرحمن الرحيم هذا عهد من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم لفلان حين بعثه لقتال من رجع عن الاسلام وعهد اليه أن يتقي الله مااستطاع في أمره كله سره وجهره وأمره بالجد في أمر الله ومجاهدة من تولى عنه ورجع عن الاسلام الى أمانيّ الشيطان بعد ان يعذر اليهم فيدعوهم بدعاية الاسلام فان أجابوه أمسك عنهم. وان لم يجيبوه شن غارته عليهم. حتى يقروا له ثم ينبئهم بالذي عليهم والذي لهم. فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذي لهم لا ينظرهم ولا يرد المسلمين عن قتال عدوّهم فمن أجاب الى أمر الله وأقر له قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف. وانما يقاتل من كفر بالله على الاقرار بما جاء من عند الله. فاذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل. وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به. ومن لم يجب الى داعية الله

قتل وقوتل حيث كان وحيث بلغ مراغمة لا يقبل الله من أحد شيئاً مما أعطى الاّ الاسلام . فمن أجابه وأقر قبل منه وأعانه ومن أبى قاتله فان أظهره الله عليه عزّ وجلّ قتلهم فيه كل قتلة بالسلاح والنيران . ثم قسم ما أفاء الله عليه الا الخمس فانه يبلغناه ويمنع أصحابه العجلة والفساد وأن لا يدخل فيهم حشواً حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيوناً . ولئلا يؤتي المسلمون من قِبَلهم . وأن يقتصد بالمسلمين ويرفق بهم في السير والمنزل ويتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصي بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول اه

كتابه الى المرتدين

﴿ وسيره اليهم قبل مسير الامراء لحربهم ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الى من بلغه كتابي هذا من عامة أو خاصة أقام على الاسلام أو رجع عنه . سلام على من اتبع الهدى ولم يرجع بعد الهدى الى الضلالة والهوى فاني أحمد الله اليكم الذي لا إله إلا هو وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأنّ محمداً عبده ورسوله وأومن بما جاء به (أما بعد) فان الله أرسل محمداً صلى الله عليه وسلم بالحق من عنده بشيراً ونذيراً . وداعياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً . لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين . يهدى الله للحق من أجاب اليه وضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم باذنه من أدبر عنه حتى صار الى الاسلام طوعاً أو كرهاً ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد نفذ لأمر الله ونصح لامته وقضى الذى عليه . وكان الله قد بين ذلك لأهل

الاسلام فقال (انك ميت وانهم ميتون) وقال (وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفائن مت فهم الخالدون) وقال للمؤمنين (وما محمد الا رسول قد خلت من قبله الرسل أفائن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزي الله الشاكرين) فمن كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله وحده لا شريك له فان الله بالمرصاد حيٌّ قيوم لا يموت ولا تأخذه سنة ولا نوم . حافظ لأمره . منتقم من عدوّه بحزبه . واني أوصيكم بتقوى الله . وحظكم ونصيبكم من الله وما جاء به نبيكم . وان تهتدوا بهديه وأن تعتصموا بدين الله عز وجل فانه من لم يهد الله ضلّ . وكل من لم يعافه مبتلي . وكل من لم ينصره مخذول . فمن هداه الله كان مهدياً . ومن أضله كان ضالاً (من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً) ولم يقبل منه في الدنيا عمل حتى يقر به . ولم يقبل له في الآخرة صرف ولا عدل : وقد بلغني رجوع من رجع منكم عن دينه بعد ان أقرّ بالاسلام . وعمل به اغتراراً بالله عزّ وجل . وجهالة لأمره . واجابة للشيطان . وقال جل ثناؤه (واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الاّ ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دوني وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلا) وقال جل ذكره (ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوًّا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) واني قد أنفذت لكم فلاناً في جيش من المهاجرين والانصار والتابعين باحسان وأمرته ان لا يقاتل أحداً ولا يقتله حتى يدعوه الى داعية الله فمن استجاب وأقر وكف وعمل صالحاً قبل منه واعانه عليه . ومن أبى ان يقاتله على ذلك ولا يبقي على أحد منهم قدر عليه . وان يحرقهم بالنيران ويقتلهم كل

قتلة ويسبي النساء والذراري ولا يقبل من أحد الا الاسلام [1] فمن آمن فهو خير له . ومن تركه فان يُعجز الله . وقد أمرت رسولي أن يقرأ كتابي في كل مجمع لكم والداعية الاذان فان أذَّن المسلمون فأذّنوا كسفوا عنهم وان لم يؤذنوا فاسألوهم بما هم عليهم فان أبوا عاجلوهم وان أقروا قبل منهم وحملهم على ما ينبغي لهم اه

﴿ كتاب عهده لعمر ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما عهد به أبو بكر خليفة محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة في الحال التي يؤمن فيها الكافر ويتقى الفاجر . اني استعملت عليكم عمر بن الخطاب فان برّ وعدل فذلك علمي به ورأيي فيه . وان جار وبدل فلا علم لي بالغيب . والخير أردت . ولكل امرىء ما اكتسب . (وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون)

﴿ كتابه الى عمرو بن العاص ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) اني كنت قد رددتك الى العمل الذي كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاّكه مرة وسماه لك أخرى مبعثك الى عمان انجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد وليته ثم وليته وقد أحببت أبا عبد الله أن افرغك لما هو خير لك في حياتك ومعادك منه الا أن يكون الذي أنت فيه أحب اليك

﴿ كتابه الى خالد ﴾

وكتب الى خالد بن الوليد منصرفه من الحج يعاتبه ويأمره بقصد الشام

---

(١) كل هذا مبالغة لاهل الردة بالارهاب فقط

(أما بعد) سر حتى تأتي جموع المسلمين باليرموك فانهم قد شجوا فاشجوا. واياك أن تعود لمثل ما فعلت فانه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجاك ولم ينزع الشجي من الناس نزعك فليهنئك أبا سليمان النية والحظوة فاتمم يتمم الله لك ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل واياك أن تدلّ بعمل فان الله عز وجل له المنّ وهو وليّ الجزاء

﴿ كتابه الى أبي عبيدة في شأن الداريين ﴾

(بسم الله الرحمن الرحيم) من ابي بكر الصدّيق الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا إله إلا هو (أما بعد) فامنع من كان يؤمن بالله واليوم الآخر من الفساد في قرى الداريين وان كانوا أهلها قد جلوا عنها وأراد الداريون يزرعونها فليزرعوها واذا رجع اليها أهلها فهي لهم وأحق بهم والسلام عليك

﴿ كلام على الخطابة عند العرب في الجاهلية والاسلام ﴾

مجمل تاريخ الخطابة عند العرب انها قديمة مع الشعر وكان لهم بها تبرز. وفيها ولع، ولها في تاريخهم عظيم الأثر، وطويل الخبر، ونحن نجتزىء من ذلك بذكر ما يهم ايراده ويناسب ذكره توطئة لما يرد معنا من ذكر خطب ابى بكر وغيره من فصحاء الاسلام فنقول

كانت العادة عند العرب في الخطابة أن يكون الخطيب واقفاً على قدميه مشرفاً على الناس لهذا كان اذا خطب خطيبهم في العراء علا نشزاً من الارض وان لم يجد خطب على الراحلة وفي غير العراء يقف على المنبر وكان لا بد للخطيب من أن يأخذ بيده العصا أو المخصرة أو القوس وتارة يخطب وفي يده القناة وللعرب في هذا أشعار كثيرة فمنها قول معن بن اوس المزني في العصا

فلا تعطى العصى الخطباء يوماً وقد تكفي المقادة والمقالا

ومنها قول لبيد بن ربيعة في القسى

ما ان أهاب اذا السرادق عمه قرع القسي وأرعش الرعديد

وقال جرير بن الخطفي في حملهم القناة

من للقناة اذا ماعي قائلها وللاعنة يا عمرو بن عمار

ولما جاء الاسلام أقر كثيراً من هذه العوائد والى استعمال المسلمين المخصرة والعصا يشير بقوله كثير من شعراء الاسلام

اذا قرعوا المنابر ثم خطوا بأطراف المخاصر كالغضاب

وربما كان هذا سبب حمل خطباء المنابر السيف الخشبي الى الآن وكان النبي صلى الله عليه وسلم يخطب واقفاً على منبر[1]

وكذلك كان بعده الخلفاء الراشدون يخطبون وهم وقوف إلا في خطبة النكاح فانهم كانوا يخطبون وهم جلوس لهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما يتصعّدني كلام كما يتصعّدني خطبة النكاح ، وذلك لانه كان يخطبها جالساً ، وكان للخطابة عند العرب من المكانة السامية ما كان للشعر يفاخرون بها في مشاهدهم ، ويتخير لها الخطباء من اللفظ أحسن ما عندهم ، الا انها كانت لا تخلو من السذاجة تبعاً لحالة القوم الاجتماعية ، ومعيشتهم الفطرية ، ولمّا جاء الاسلام ببيانه ، وضرب بينهم بجرانه ، تفتقت القرائح واتسع مجال الفكر وبعدت مرامي العقول ، فارتقى فنّ الخطابة على عهد الصحابة والتابعين ارتقاء

---

(١) عند الامام احمد وغيره من حديث سعد بن عائذ وسعد القرظ مؤذن رسول الله (ص) ان رسول الله كان اذا خطب في الحرب خطب على قوس واذا خطب في الجمعة خطب على عصا :

يدل على ما كمن وراء تلك السذاجة من الاستعداد الباهر الذي كان أشبه بكمون النار في الزناد أظهرها الاحتكاك وطيَّر شررها القدح

والفضل في ارتقاء فن الخطابة في عهد الصحابة والتابعين انما هو عائد للكتاب المبين وذلك من وجوه (منها) ان القرآن وان كان نزل بلغة القوم التي بها يتخاطبون ، وبفصاحتها يتفاخرون ، الا انّ أساليبه العالية التي أعجزت فصحاءهم ، وأخذت بمجامع قلوبهم ، أكسبتهم ملكة من البلاغة في تخيّر الاساليب السامية غير ملكاتهم ، وأطلقت ألسنتهم من عقال الحوشية والتقعر الذي كان ديدن كثير من خطبائهم وفصحائهم ،

حتى انهم لكانوا يعيبون الخطيب المصقع اذا لم يكن في كلامه شيء من آى القرآن ، فقد روى الجاحظ عن الهيثم بن عدى عن عمران بن حطان انه قال : خطبت خطبة عند زياد أو قال ابن زياد فأعجب بها زياد وشهدها عمي وأبي ثم اني مررت ببعض المجالس فسمعت رجلاً يقول لبعضهم ، هذا الفتى أخطب العرب لو كان في خطبته شيء من القرآن :

وروي الجاحظ عن الهيثم أيضاً انهم (يعني العرب) كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يوم الحفل وفي الكلام يوم الجمع آى من آى القرآن فانه مما يورث الكلام البهاء والوقار وحسن الموقع

(ومنها) ان الاسلام بما هذب من أخلاقهم وألان من جفاء طباعهم أدخل من الرقة على عواطفهم مارق به كلامهم وكثر للمعاني المؤثرة فى النفوس اختيارهم في خطبهم ومخاطباتهم

(ومنها) ان ماجاء في القرآن من الترغيب والترهيب على الاسلوب البالغ حد الاعجاز في التأثير على الضمائر والاخذ بشكائم النفوس أعانهم على التفنن

فى أساليب الوعظ الخطابي عند حلول الازمات ، أو الحاجة الى تأليف قلوب الجماعات ، حتى لقد كان الخطيب البليغ منهم ليدفع بالخطبة الواحدة من الملمات ، مالا يدفع بالبيض المرهفات ، ويملك من قلوب الرجال مالا تملكه البدر والاموال ، كما صنع أبو بكر في خطبه يوم السقيفة التي امتلك بها قلوب المهاجرين والانصار ، وصرف عن الامة تلك الامور الكبار ، وكما صنع الحجاج في أول خطبة له في أهل العراق يوم اذ قلبوا للدولة المروانية ظهر المجن ، وسطرت على جباههم آيات الاستكبار والفتن ، فانهم ماطرق مسامعهم داعي الامير الى المسجد حتى أخذوا يغدون اليه أفواجاً ويلتقطون من أرضه الحصى يريدون رجمه بها وهو على المنبر استصغاراً لشأنه واحتقاراً لمولاه ولم يلبثوا أن طرقت اسماعهم زواجره ، واخترقت جدار قلوبهم صوادع كلمه ، حتى تناثرت من أيديهم الحصى ، وخشعت منهم النفوس ، وطأطأت الرقاب ، رهبةً منه واجلالاً له ، كما سيمر عليك في هذا الكتاب ان شاء الله

(ومنها) ان الاسلام بما مهد لهم من سبل الفتح ومخالطة الأمم وبما منحهم من سعة السلطان والسيادة على الشعوب ، وفّر لهم الاسباب الداعية الى التوسع في الخطابة بما تطلبه حاجة التوسع في الملك وتقتضيه عوائد الأمم المحكومة وأخلاقها

هكذا كان شأن الخطابة في صدر الاسلام ومبلغ تبرّز القوم فيها وتسلطهم على النفوس الجافية بقوة سلطانها ، وقويّ برهانها ، ولكن واأسفاه فقد بدأ يعروها الوهن ويحتنها الفساد من أواسط الدولة المروانية حيث كان استحكم الفساد باللغة العربية ، ودب في نفوس الخلفاء داء العظمة والكبرياء ، فأقلوا من الظهور لعامة الامة ، وترفعوا بزعمهم عن الوقوف موقف المخاطب للناس ، لاسيما وقد كان الخلفاء في صدر الاسلام يخطبون الناس عند طرؤ

كل حادث جلل بلا تقييد بوقت ، ولا تكلف لقول ، فكانوا يجمعون المسلمين الى المسجد تارة لاعلان خبر عليهم ، وتارة لاستشارتهم ، ووقتاً لتحذيرهم ، وآخر لوعظهم وتذكيرهم ، وأنّي لمن اتخذوها بعدُ كسرويةً ان يقفوا للناس هذا الموقف وهم يرون ان الرأي سلطان لاستبدادهم وان الناس بالنسبة اليهم همل لا ينبغي لعصا القوة والجبروت ان تتخطاهم

ما أعظم مكانة الخطيب في النفوس ، وأنفذ كلامه في القلوب ، وأشده أثارةً للعواطف ، اذا كان ذلك الخطيب أمير القوم الذي تتجه نحوه أنظارهم ، وتحدق به أبصارهم ، وتتألف حوله قلوبهم ، وتترامى اليه آمالهم ، يستلينهم بالقول اذا قسوا ، ويستخضعهم به اذا عصوا ، يتملك نفوسهم بالرغبة تارة ، وبالرهبة أخرى ، وينفخ فيهم وقت الحاجة روح الحماس فيقذف بهم الجبال فيدكوها بين يديه ، ويلين لهم بالقول ، فاذا استوهبهم الاموال والارواح وهبوها اليه

تالله انها لمكانة سامية انحط عنها الأمراء على غير علم ، وسلطان نافذ القوة في الارواح لا يدانيه نفوذ قوتهم الجبروتية في الاجسام وأنى يضارع الروح الجسم ، ولقد كان أول وهن دخل على سلطان الخطابة في الاسلام في عهد الوليد بن عبد الملك حيث بدأ بأن يخطب على المنبر جالساً وقد كان الخلفاء قبله يخطبون وهم وقوف ، ومن ثم دب دبيب الاستهانة بهذا الموقف العظيم شأنه ، الجليل شرفه ، حتى مجه الخلفاء والامراء ، وانحط عنه القادة اما عجزاً عن الوفاء بحقه وأما استهانة به وترفعاً زعموا عنه ، وكان آخر الخطباء المجيدين من خلفاء المسلمين الخليفة المأمون العباسي رضي الله عنه وانما انحلت عرى الخطابة بعدُ لما انحلت عرى الامامة وأخذ الخلفاء يستنيبون بالصلاة

بالناس كما استنابوا غيرهم بكل وظائف الامامة فاصبحت الخطب تتلى على المنابر في ايام الجمع لا لما وجدت له بالذات بل لانها أصبحت من قبيل الرسوم التي ينبغي اداؤها على أيّ حال كان ، حتى كان من ذلك ان تنوسي مع الزمان القصد الذي سنَّت من أجله الخطابة في الاسلام فانقلب نفعها ضراً وخيرها شراً بمن انتهت اليهم هذه الوظيفة السامية من جهلاء المسلمين الذين أصبحوا واحزناه ينفثون من أعلى المنابر سموم الجهل والأذى في العقول بعد اذ كانت تشرق منه شموس الحكمة فتنبعث أشعتها في الاقطار ، وتمزق عن البصائر حجب الجهالة ، وغشاء الضلالة ، فكم فرّج ذلك الموقف من الكروب ، وكم أزال من الخطوب ، وكم فرق ما اجتمع على الضلال ، وجمع ما تفرق من القلوب ، وكم أشرف من أعلاه رجال كانت صدورهم ينابيع للحكم يفيضونها على الناس فيضاً . ورؤسهم بما تحملته من العقول أشبه بأوعية البخار ترسل قوته على الناس من أنابيب الافواه ارسالا ، فتحركهم حركة من دبت فيه الحياة ، وامتلأ بروح النشاط . ولكن كان ذلك وأنى لنا أن يكون . والحديث شجون ، وقد اختص بهذه الفضيلة الآن خطباء السياسة الغربيون

﴿ خطبة ﴾

كان ابو بكر رضي الله عنه فصيح اللسان قويّ الحجة اذا خطب كثير التذكير بالله والتخويف منه والترغيب فيه وروى عن الزبير بن بكار انه قال سمعت بعض أهل العلم يقول ، أفصح خطباء رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر الصديق وعلي بن ابى طالب

وها نحن ننقل اليك فى هذا الكتاب ما وقفنا عليه من خطب ابى بكر رضى الله عنه

١

لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم واختبط الناس فأصبحوا بين مصدق ومكذب جاء أبو بكر من السنح ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وتكلم بكلام سبق ذكره ثم خرج وخطب الناس فقال

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله وأشهد أن الكتاب كما نزل . وأن الدين كما شرع . وأن الحديث كما حدث ، وأن القول كما قال ، وأن الله هو الحق المبين ، في كلام طويل ثم قال أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فان الله حيّ لا يموت ، وانّ الله قد تقدم اليكم فى أمره فلا تدعوه جزعا ، وان الله قد اختار لنبيه ما عنده على ما عندكم ، وقبضه الى ثوابه وخاف فيكم كتابه ، وسنة نبيه ، فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر ، يا أيها الذين آمنوا كونوا قوّامين بالقسط ولا يشغلنكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتننكم عن دينكم فعاجلوه بالذى تعجزونه ولا تستنظروه فيلحق بكم

٢

(خطب يوم السقيفة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه) أيها الناس نحن المهاجرون أول الناس اسلاما ، واكرمهم أحساباً وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، واكثر الناس ولادة فى العرب وأمسهم رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم ، أسلمنا قبلكم ، وقدمنا فى القرآن عليكم ، فقال تبارك وتعالى (والسابقون الاولون من المهاجرين والانصار والذين اتبعوهم باحسان) فنحن المهاجرون وأنتم الانصار اخواننا فى الدين ، وشركاؤنا فى الفيء ، وأنصارنا على العدوّ ، وآويتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً ، فنحن الامراء وأنتم

الوزراء لا تدين العرب الا لهـذا الحي من قريش فلا تنفسوا على اخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله

٣

(وخطب يوم السقيفة أيضاً فقال) نحن أهل الله وأقرب الناس بيتاً من بيت الله، وأمس الناس رحماً برسول الله صلى الله عليه وسلم، انّ هذا الأمر وان تطاولت له الخزرج لم تقصر عنه الاوس وان تطاولت له الاوس لم تقصر عنه الخزرج وقد كان بين الحيين قتلى لا تنسى، وجراح لا تداوى، فان نعق منكم ناعق فقد جلس بين لحيي الاسد يضغمه المهاجري ويجرحه الانصاري اه

ولقد أثرت هذه الخطبة في الانصار تأثيراً بالغاً اذ تنبه لها الاوس فخافوا أن يصير الأمر دونهم الى الخزرج وتنبه الخزرج فخافوا أن يصير الأمر الى الاوس فتركوا جميعاً الأمر لقريش فانطفأت بهذا جذوة الفتنة وأمن الناس شر الخلاف

٤

وخطب بعـد أن ولى الخلافة وهي غير خطبته التي أوردناها عند ذكر بيعته ولعلّ هـذه خطبته التي خطبها بعد البيعة العامة، فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

(أما بعد) فاني قد وليت أمركم ولست بخيركم، ولـكنه نزل القرآن وسن النبي صلى الله عليه وسلم السنن، وعلمنا فعلمنا، فاعلموا أيها الناس ان اكيس الـكيس التقى، وأعجز العجز الفجور وانّ أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له بحقه، وانّ أضعفكم عندي القويّ حتى آخذ منه الحق، أيها الناس انما أنا متبع ولست بمبتدع فاذا أحسنت فأعينوني، وان أنا زغت فقوّموني أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم

﴿ كلام على الحكومة في الاسلام ﴾

أورد السيوطي في تاريخه هذه الخطبة وروى في ختامها عن مالك رضى الله عنه انه قال (لا يكون أحد اماماً أبداً الا على هذا الشرط)

ومن تدبر قول الامام مالك وأمعن النظر فيما جاء بتلك الخطبة علم أن الخلافة صارت ملكا عضوضاً وسلطة قاهرة لم يتأت للمسلمين أن يقوموا زيغ أوليائها منذ عهد بعيد جداً وان تلك الحكومة الاسلامية الاولى التي تمتع بها المسلمون زمناً ليس بكثير وعيّن أبو بكر حد السلطة العليا فيها بتلك الخطبة الانيقة حكومة ديموقراطية قل أن يجد طلاب الحرية والعدل في كل عصر أحسن لسياسة الامم منها ، وانما تمتع بها المسلمون ذلك الزمن القليل مذ كانوا يشعرون شعوراً واحداً بحاجة الحياة الاجتماعية ويعلمون أن السعادة والشقاء منوطان بالاعتماد على النفس والعمل بسنة التعاون لا بمن يتولى أمرهم ، ويُعطى مقاليد الرئاسة عليهم وهو واحد منهم يشعر كشعورهم ، ويعمل المصلحة العامة عملهم ، فاذا أحسن أعانوه ، واذا زاغ قوّموه ، ولكن لما فقد منهم ذلك الشعور واستحال الى الاعتقاد بالعجز عن القيام بشؤن الحياة الاجتماعية الا اذا تركوا مقاليد الامور الى رئيس تتجه آمالهم اليه ، ويعولون في أسباب السعادة عليه ، فيفنى وجودهم في وجوده ، وتضمحل ارادتهم في ارادته ، فلا يكون الا ما يشاء لا ما يشاؤن ولا يعمل ، الا ما يريد لا ما يريدون ، استحالت حكومتهم من الديمقراطية الى المطلقة وأصبحت الخلافة ملكا عضوضاً وسلطة جائرة نزعت منازع الجبروت واستأثرت بالمصالح واجتثت أصول الشورى ، ومن ثم تشوش نظام الدولة الاسلامية ، وانحطت مدارك الامة عن مقام العرفان بواجب الراعي والرعية ، فسلبت منهم نعمة التمتع بالعدل ، كما حرمت حكومتها نعمة

الراحة والانتظام

وما زال يتفاقم هذا الداء حتى ألف المسلمون حكم الاستبداد ، ورضوا بالجور والعبودية بديلاً عن العدل والحرية وباتوا أضعف الأمم احساساً بآلام الظلم ، وأبعد الشعوب عن التطلع الى الحرية ، ولم يساووا بالشعور بأذى الحكم المطلق والحاجة الى الحكم المعتدل أقل الشعوب عدداً من الغربيين وأضعفهم قوةً فضلاً عن بقية الأمم العظيمة الاوربية وأوضح شاهد على هذا ان المسلمين ما زالوا الى هذا العهد محكومين بانواع الظلم والاستبداد في كل بقعة من بقع الارض وليس لهم حكومة تضارع أدنى حكومة من حكومات المغرب في الرقي وحسن النظام ومع هذا فليس فيهم ولا شعب واحد يحس بهذا المرض الذي برّح وجرح فينهض لتلافي الأمر وينظر فى سوء المنقلب أو يخطر له محاولة الخلاص من هذه الحال فى بال

ولقد أصبح كل فلاسفة العالم فى حيرة من هذا التدني البالغ منتهى درجات الرضا بالشقاء ، والصبر على البلاء ، وبات بعض المتنبهين من رجال الاسلام في حيرة من تعليل الاسباب الداعية لجمود هذه الامة ويأس من سلامة مستقبل المسلمين ، وأما فلاسفة أوربا فانهم ألصقوا أسباب التدني في الامة الاسلامية بالدين بدعوى أن المسلمين والغربيين من طينة واحدة لا فرق بين الفريقين فى الخلق والتركيب يدعو الى مثل هذا التفاوت الكبير فى الشعور وهو قول فى الحقيقة خال عن التحقيق ، بعيد عن الصحة ، اذ الاسباب الداعية لتدني المسلمين واختلال نظام دولهم كثيرة وهي غير الدين الذي يبرأ الى الله من جمود المسلمين وأهم تلك الاسباب استحالة حب الاستقلال الى الاعتقاد بالعجز والاعتماد فى سائر شؤونهم على أولياء الأمر كما قدمناه والدين يبغض

اليهم العجز وينهاهم عن الرضا بالذل

أفرط بعض الخلفاء بحب الاثرة وفرط المسلمون معهم بحرية الهيمنة عليهم والمشاركة لهم والاشراف على أعمالهم كما كان الأمر على عهد الخلفاء الراشدين فكان من ذلك الافراط وهذا التفريط ان فسد كثير من شؤون المسلمين الدنيوية وانحلت عرى حكومتهم الديموقراطية فدخل الوهن على الحاكم والمحكوم ، وشقي الظالم والمظلوم ، وكان الضرر بالخلفاء أعظم ، والندامة بهم ألزم ، اذ ساءت سياستهم للملك وانصرفت هممهم الى السفاسف فتوثب أمراء الاطراف على ملكهم وتشاطروا سلطانهم فلم يدعوا لهم من الامامة الا الرسم ولا من السلطان الا الاسم ، نظلوا من حيث ظلموا ، وأخذوا من حيث أخذوا وهم لا يشعرون ، ولو علموا أن سنة الخلفاء الراشدين أبقى على ملكهم وأعز لسلطانهم لما حادوا عنها قيد شبر ، ولما خالفوها أبد الدهر ، وهل كانت غزوات التتار وهجمات أهل الصليب الا نتيجة الوهن الذي دخل على الخلافة وأصاب مجموع الامة وسببه ذلك الافراط والتفريط

أي وهن لعمر أبيك أشد على الامة وأظهر فى جانب الخلافة من أن تصير كل قرية كبيرة من قرى الممالك الاسلامية كتكريت فى الجزيرة وسيجر فى الشام مثلاً عاصمة لملك من ملوك الطوائف ينفرد بسلطانه ، ويحكم بشهواته . وينابذ جاره فى الملك ويقاتل أخاه فى الدين ، والامام فى عاصمة الاسلام كبغداد ومصر مغلوب على أمره ، محصور السلطة فى قصره

ان بقاء المسلمين الى الآن يتمتعون بشيء من الاستقلال بعد تلك الحال التي كانوا فيها فوضى الملك والسياسة وجيوش الصليب والتتار عدة أجيال لمعجزة من معجزات الدهر التي تحير الالباب وتدعو ملوك المسلمين الى النظر

والاعتبار وقياس الماضي على الحال فان مدنية المسلمين التي كانت في تلك العصور أرقى من مدنية سواهم وَقَتْهم على تفرّق كلمتهم ووهن عصبيتهم من الانحلال ، وحفظت سيادتهم من الزوال ، فان انعكست هذه القاعدة الآن وأصبح التمدن الغربي على ما نرى باسطاً رواق القوّة على ما عداه ، راقياً فوق كل تمدن ، سبقه فماذا يكون الحكم ؟

انه حكم يستدر عبرات العيون ، ويثير كوامن الشجون ، ويطلق ألسنة أهل الحق الذين لم يخمد أنفاسهم خانق الرياء ولم تعم أبصارهم عن حالة المسلمين أو تحجب عن بصائرهم سنن الكون فتنادي على ملأ السامعين ان تبعة هذا المصير عائدة على أولياء أمر المسلمين الذين لم تنفذ في جدار قلوبهم صوادع العبر ولم يزل دأبهم دأب آبائهم الاول ولو أصبح الحال غير الحال ، وانطبقت الجبال على الجبال ، أو أذن لاستقلال الامة والملك بالزوال ، ولكل أمة رقدة ولقد طالت رقدة المسلمين ، ولكل نبأ مستقر ولتعلمن نبأه بعد حين

٥

(وخطب مرة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه) أما بعد فاني وليت هذا الأمر وأنا له كاره ووالله لو وددت أن بعضكم كفانيه ، الا وانكم ان كلفتموني أن أعمل فيكم بمثل عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم لم أقم به ، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عبداً أكرمه الله بالوحي وعصمه به ألا وانما أنا بشر ولست بخير من أحدكم فراعوني فاذا رأيتموني استقمت فاتبعوني واذا رأيتموني زغت فقوموني واعلموا أن لي شيطاناً يعتريني فاذا رأيتموني غضبت فاجتنبوني لا اوثر في اشعاركم وابشاركم اه

تالله لو كان لبشر أن يعصم بعد الرسل لقلنا ذلك أبو بكر وحق لمن أنزل

نفسه تلك المنزلة من التواضع ، وأدبها بذلك الأدب ، وأخذ عليها سبيل الترفع على المسلمين بمنصب الخلافة والاثرة دونهم بالرأي أن يرفعه الله الى ذلك المقام الجليل الذي ألف فيه على حبه قلوب المسلمين ، وجعل أيامه كلها خيراً وبركة على الموحدين ، فرضي الله عنه وعن الصحابة أجمعين

٦

ولما أشار عليه الصحابة بعدم قتال أهل الردة وان لا طاقة له بالعرب خطب فيهم فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

أيها الناس من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت ، أيها الناس ان كثر أعداؤكم وقلّ عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ، والله ليظهرن هذا الدين على الاديان كلها ولو كره المشركون قوله الحق ووعده الصدق ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق ولكم الويل مما تصفون ، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة باذن الله والله مع الصابرين ، أيها الناس لو افردت من جمعكم لجاهدتهم في الله حق جهاده حتى ابلغ من نفسي عذراً ، واقتل مقتلاً ، والله أيها الناس لو منعوني عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت بالله خير معين

٧

وجاء مال من البحرين ساوى في قسمته بين الناس فغضب الانصار فخطب فيهم فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

يامعشر الانصار ان شئتم ان تقولوا انا آويناكم في ظلالنا ، وشاطرناكم في اموالنا ، وناصرناكم بانفسنا ، لقلتم ، وان لكم من الفضل ما لا يحصيه العد وان طال به الامد ، فنحن وانتم كما قال طفيل الغنوى

جزى الله عنا جعفراً حين أزلقت بنا نعلنا في الواطئين فزلت
أبوا ان يملونا ولو ان أمنا تلاقي الذي يلقون منا لملت
هم أسكنونا في ظلال بيوتهم ظلال بيوت أدفأت وأظلت

٨

وخطب مرة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

أوصيكم بتقوى الله وان تثنوا عليه بما هو أهله وان تخلطوا الرغبة بالرهبة وتجمعوا الالحاف بالمسئلة فان الله أثنى على زكريا وعلى أهل بيته فقال (انهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغبا ورهبا وكانوا لنا خاشعين) ثم اعلموا عباد الله ان الله قد ارتهن بحقه أنفسكم، وأخذ على ذلك مواثيقكم، وعوضكم بالقليل الفاني، الكثير الباقي، وهذا كتاب الله فيكم لا تفنى عجائبه ولا يطفأ نوره فثقوا بقوله وانتصحوا كتابه واستبصروا فيه ليوم الظلمة[1] فانه خلقكم لعبادته ووكل بكم الكرام الكاتبين يعلمون ما تفعلون ثم اعلموا عباد الله انكم تغدون وتروحون في أجل قد غيب عنكم علمه فان استطعتم ان تنقضي الآجال وأنتم في عمل الله ولن تستطيعوا ذلك إلا بالله[2] فسابقوا في مهل بأعمالكم قبل ان تنقضي آجالكم فتردكم الى سوء أعمالكم فان أقواماً جعلوا آجالهم لغيرهم فأنهاكم ان تكونوا أمثالهم، فالوحا الوحا ثم النجاء النجاء فان وراءكم طالباً حثيثاً أمره سريعاً سيره

٩

---

(١) وفي رواية الحاكم والبيهقي هكذا (وهذا كتاب الله فيكم لا يطفأ نوره ولا تنقضي عجائبه فاستضيئوا بنوره وانتصحوا كتابه واستضيئوا منه ليوم الظلمة الخ

(٢) وفي رواية الحاكم أيضاً (الا باذن الله)

ومن خطبه الغرّاء في الوعظ والتذكير قوله

الحمدُ لله ربّ العالمين أحمدُه واستعينهُ ونسأله الكرامة فيما بعد الموت فانه قد دنى أجلي وأجلكُ وأشهد انْ لا إله إلاّ الله وحدهُ لا شريك لهُ وأن محمداً عبدهُ ورسولهُ أرسله بالحقّ بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً لينذرَ منْ كان حياً ويحقّ القول على الكافرين ، ومن يطع اللهَ ورسوله فقد رشد ومن يَعْصِهما فقد ضلّ ضلالاً مبيناً ، أوصيكم بتقوى الله والاعتصام بأمر الله الذي شرع لكم وهداكم به فانّ جوامع هدى الاسلام بعدَ كلمة الاخلاص السمعُ والطاعةُ لمن ولاّه الله أمرَكم فانه من يطع الله وأولى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فقد أفلح وأدّى الذي عليه من الحقّ ، وإياكم واتباع الهوى فقد أفلح من حفظ من اتباع الهوى والطمع والغضب ، وإياكم والفخر وما فخر من خلق من تراب ثمّ الى التراب يعود ثمّ يأكله الدود ثم هو اليوم حيّ وغداً ميت فاعملوا يوماً بيوم وساعةً بساعةٍ وتوقوا دعاء المظلوم ، وعدّوا أنفسكم في الموتى ، واصبروا فان العمل كله بالصبر ، واحذروا والحذرُ ينفع ، واعملوا والعمل يقبلُ واحذروا ما حذّركم الله من عذابه ، وسارعو فيما وَعدكم الله من رحمته ، وافهموا وتفهموا واتقوا وتوقوا فان الله قد بين لكم ما أهلك به من كان قبلكم وما نجى به من نجى قبلكم ، قد بين لكم في كتابه حلاله وحرامهُ وما يحب من الاعمال وما يكره فاني لا آلوكم ونفسي والله المستعان ولا حول ولا قوّة إلا بالله واعلموا أنكم ما أخلصتم لله من أعمالكم فربكم أطعتم وحظكم حفظتم واغتبطتم وما تطوّعتم به لدينكم فاجعلوه نوافل بين أيديكم تستوفوا لسلفكم وتعطوا جرايتكم حينَ فقركم وحاجتكم اليها . ثم تفكروا عباد الله في اخوانكم وصحابتكم الذين مضوا وقد وردوا على ما قدّموا فأقاموا عليه

وحلو في الشقاء والسعادة فيما بعد الموت . ان الله ليس له شريك وليس بينه وبين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوأ الا بطاعته واتباع أمره فانه لاخيرَ في خيرٍ بعده النار ولا شرّ في شر بعده الجنة أقول قولي هذا وأستغفرُ الله لي ولكم وصلوا على نبيكم صلى الله عليه وسلم والسلام عليه ورحمة الله وبركاته

١٠

(وخطب أيضاً فقال) الحمد لله أحمده وأستعينه وأستغفره وأومن به وأتوكل عليه وأستهدي الله بالهدى ، وأعوذ به من الضلالة والردى ، ومن الشك والعمى ، من يهدى الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد له ولياً مرشداً وأشهدُ انّ لا إله إلا الله وحده لاشريك لهُ لهُ الملكُ وله الحمد يحيي ويميتُ وهو حيٌّ لا يموت يعز من يشاء ويذلّ من يشاء بيده الخيرُ وهو على كل شيء قدير وأشهد أنّ محمداً عبده ورسوله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كرهَ المشركون ، الى الناس كافةً رحمةً لهم وحجةً عليهم والناس حينئذ على شرّ حال في ظلمات الجاهلية دينهم بدعة ودعوتهم فرية فأعزّ الله الدين بمحمد صلى الله عليه وسلم وألف بين قلوبكم أيها المؤمنون فأصبحتم بنعمته اخواناً . وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون فأطيعوا الله ورسوله فانه قال عزّ وجلّ (من يطع الله فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظاً) اما بعد أيها الناس اني أوصيكم بتقوى الله العظيم في كلّ أمر ، وعلى كل حال ، ولزوم الحق فيما أحببتم وكرهتم فانه ليس فيما دون الصدق من الحديث خيرٌ من يكذب يفجر ومن يفجر يهلك وإياكم والفخر وما فخر من خلق من التراب والى

التراب يعود وهو اليوم حي وغداً ميت فاعملوا وعدوا أنفسكم في الموتى وما أشكل عليكم فردوا علمه الى الله وقدموا لأنفسكم خيراً تجدوه محضراً فانه قال عز وجل (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً ويحذركم الله نفسه والله رؤف بالعباد) فاتقوا الله عباد الله وراقبوه واعتبروا بمن مضى قبلكم واعلموا أنه لابد من لقاء ربكم والجزاء بأعمالكم صغيرها وكبيرها إلا ما غفر الله انه غفور رحيم ، فأنفسكم أنفسكم والمستعان الله ولا حول ولا قوة إلا بالله ان الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما اللهم صل على محمد عبدك ورسولك أفضل ما صليت على أحد من خلقك وزكنا بالصلاة عليه وألحقنا به واحشرنا في زمرته وأوردنا حوضه اللهم أعنا على طاعتك وانصرنا على عدوك اه

١١

(وخطب مرة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه) ان أشقى الناس في الدنيا والآخرة الملوك فرفع الناس رؤسهم فقال

مالكم أيها الناس انكم لطعانون عجلون انّ من الملوك من اذا ملك زهده الله فيما بيده ورغبه فيما بيد غيره وانتقصه شطر أجله وأشرب قلبه الاشفاق فهو يحسد على القليل ويسخط على الكثير ويسأم الرخاء وتنقطع عنده لذة البقاء لا يستعمل العبرة ولا يسكن الى الثقة فهو كالدرهم القسي والسراب الخادع جذل الظاهر حزين الباطن فاذا وجبت نفسه ونضب عمره وضحى ظله حاسبه الله فاشدّ حسابه وأقلّ عفوه (١) ألا وان الفقراء هم المرحومون

(١) كذا في العقد الفريد وفي البيان والتبيين وجاء في النثر المختار نقلا عن زهر الاداب (وأقل الانصار عنه عقوبة)

إلا ان من آمن بالله حكم بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم وانكم اليوم على خلافة نبوّة ومفرق محجةٍ وسترون بعدي ملكاً عضوضاً وملكاً عنوداً وأمة شحاحا ودماً مباحا فان كان للباطلِ نزوة ولأهل الحق جولة يعفو لها الاثر ويموت لها الخبر فالزموا المساجد واستشيروا القرآن واعتصموا بالطاعة وليكن الابرام بعد التشاور والصفقةُ بعد طول التناظر أيّ بلاد خرشنة (١) ان الله سيفتح لكم أقصاها كما فتح عليكم أدناها

١٢

وخطب مرة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

ان الله عزّ وجل لايقبل من الاعمال إلا ما أريد به وجهه فأريدوا الله بأعمالكم « واعلموا ان ما أخلصتم لله من أعمالكم فطاعة اتيتموها وخطأ (٢) ظفرتم به وضرائب أدّيتموها » وسلف قدّمتموه من أيام فانية لأخرى باقية لحين فقركم وحاجتكم ، اعتبروا عباد الله بمن مات منكم ، وتفكروا فيمن كان لهم ذكر القتال والغلبة في مواطن الحرب ، قد تضعضع بهم الدهر وصاروا رميماً قد تركت عليهم القالات، الخبيثات للخبيثين والخبيثون للخبيثات، وأين الملوك الذين ثاروا الارض وعمروها ؛ قد بعدوا ونسي ذكرهم وصاروا كلا شيء الا ان الله قد أبقى عليهم التبعات ، وقطع عنهم الشهوات ، ومضوا والاعمال أعمالهم والدنيا دنيا غيرهم ، وبقينا خلفاً بعدهم فان نحن اعتبرنا بهم نجونا وان اغتررنا كنا مثلهم ، أين الوضاء الحسنة وجوههم المعجبون بشبابهم صاروا تراباً، وصار ما فرّطوا فيه حسرةً عليهم أين الذين بنوا المدائن

(١) وفي العقد خرسة وفي البيان والتبيين خرشة
(٢) هكذا في تاريخ الطبري ولعلها حظ

وحصنوها بالحوائط وجعلوا فيها الاعاجيب قد تركوها لمن خلفهم فتلك مساكنهم خاوية وهم في ظلمات القبور هل تحسُّ منهم من أحد أو تسمع لهم ركزاً . أين من تعرفون من أبنائكم واخوانكم قد انتهت بهم آجالهم فوردوا على ما قدموا فحلوا عليه وأقاموا للشقوة والسعادة فيما بعد الموت . الا ان الله لا شريك له ليس بينه وبين أحدٍ من خلقه سبب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوءاً إلا بطاعته واتباع أمره واعلموا انكم عبيد مدينون وان ما عنده لا يدرك الآ بطاعته اما انه لا خير بخير بعده النار ولا شر بشر بعده الجنة اه

رضي الله عن أبي بكر كأنه يريد بهذه الخطبة التي تذكر بالملوك الماضين ان يعظ نفسه ويستزيد من الورع والتقوى هذا على ما عرف به من التقى والعدل وما اشتهر عنه من الحرص على مصالح المسلمين والتبرز في اقامة حدود الشرع على كل أمراء المؤمنين فما اجدر من عبدوا الشهوات وتناهوا في حب الذات من أولياء أمر الامة الاسلامية بعد بمثل هذه العظة وما أخلقهم بالاعتبار بذكر الماضين وتأديب نفوسهم بأدب الخلفاء الراشدين وتالله لو فعلوا لجعلوا سلطانهم فوق كل سلطان ولسودوا هذه الامة لهذا العهد على كل الامم ولم يجعلوها عرضة للبوار ، وغرضاً ترمي اليه بسهام الاذى الاغيار ، فانا لله وانا اليه راجعون

١٣

وخطب عند ما انتدب الناس الى غزو الشام فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه

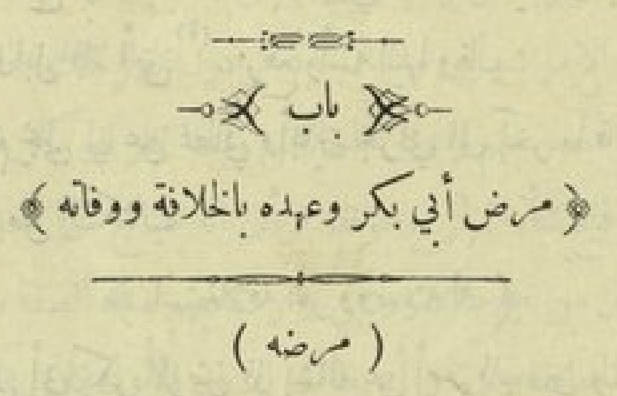
الا ان لكل أمر جوامع فمن بلغها فهي حسبه ، ومن عمل لله كفاه الله ٠

عليكم بالجد والقصد فانّ القصد أبلغ ، ألا انه لا دين لاحد لا إيمان له ، ولا أجر لمن لا حسبة له ، ولا عمل لمن لا نية له ، ألا وان في كتاب الله من الثواب على الجهاد ، لما ينبغي للمسلم ان يحبّ ان يخصّ به ، هي التجارة التي دلّ الله عليها ونجي بها من الخزي ، وألحق بها الكرامة في الدنيا والآخرة اه

وله كلام عظيم الاهمية كان خاطب به أبا عبيدة بن الجراح لكي يقوله لعليّ بن أبي طالب حين توقف عن بيعته رجيء إيراده الى سيرة علي رضي الله عنه لما ترتب عليه من كثرة الاخذ والرد بين علي وأبي بكر وعمر بشأن الخلافة يومئذ

﴿ تنبيه ﴾

اقتصاداً للوقت واشتغالا بمواد التاريخ قد أغفلت تفسير الالفاظ الغامضة التي وردت في كلام أبي بكر وعائشة وغيرهما في هذا الكتاب وانما أوردت في الهامش بعض الجمل والالفاظ التي اختلفت في بعض الروايات عن البعض الآخر تسهيلاً لمن يريد مراجعة اللغة لتطبيق المعنى على اللفظ الصحيح من تلك الالفاظ



باب

﴿ مرض أبي بكر وعهده بالخلافة ووفاته ﴾

(مرضه)

روي في سبب مرض أبي بكر رضي الله عنه انه اغتسل في يوم بارد فحم وأخرج الحاكم عن ابن عمر قال (كان سبب موت أبي بكر وفاة رسول الله

صلى الله عليه وسلم كمداً فما زال جسمه يجري (أي ينقص) حتى مات

روي ان عائشة قعدت عند رأسه يوماً وهو في مرضه فقالت شعراً

وكل ذي إبل يوماً موردها   وكل ذي سلب لابدّ مسلوب

وفي رواية الطبري

وكل ذي إبل موروث   وكل ذي سلب مسلوب

وكل ذي غيبة يؤب   وغائب الموت لا يؤب

ففهمها أبو بكر فقال ليس كذلك يا ابنتاه ولكنه كما قال الله (وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه تحيد) وأنشدت مرة فوق رأسه أيضاً

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه   ثمال اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم

ولما ثقل على أبي بكر المرض دخلت عليه عائشة فقالت

يا أبت اعهد الى حامتك وانفذ رأيك في سامتك [1] وانقل من دار جهازك الى دار مقامك انك محصور متصل بقلبي لوعتك وأرى تخاذلَ أطرافكَ وامتقاع لونك والى الله تعزيتي عنك ولديه ثواب حزني عليك ارقأ فلا ارقأ وابل فلا أبق [2]. فرفع رأسه اليها وقال

هذا يوم يجلى لي عن غطائي وأعاين جزائي الى آخر ما قال وقد سبق لنا إيراده فيما مر من الكتاب

﴿ استخلافه عمر ووصيته له ﴾

اشتد على أبي بكر المرض فلم يشغله عن أمر المسلمين ولم يثنِ همته عن

---

(١) وفي العقد اعهد الى خاصتك وأنفذ رأيك في عامتك

(٢) وفي نسخة أرقو فلا أرقى وأشكو فلا أشكي

النظر في مصلحة الامة وخشي ان هو مات ولم يعهد لاحد بالخلافة ان تكون فتنة تضطرب لها الدهماء ، وتعظم اللأواء ، وفي القوم نفر ينتهي اليهم شرف السيادة في الجاهلية والاسلام وهم في الفضل والتقدم سواء ، ولكن لكل منهم مكانة في القلوب غير مكانة من عداه ، وعصبية تريده على الامر وان هو أباه ، فان ترك منصب الخلافة شاغراً وجعله شورى بين القوم خيف من تفرق الرأى وتعذر تأليف القلوب على واحد من اولئك النفر اذ الشورى في الامور وان كان يراد بها تمحيص الآراء لاختيار الاصلح منها والاصوب فيها الا ان صاحب الرأى مجتهد قد يخطئ وقد يصيب وفي الصحابة كما قلنا نفر هم في الفضل والشرف والاهلية كالحلقة المفرغة لا يدرى ان طرفاها ولكل واحد منهم عصبية وحزب يريدونه على الخلافة اجتهاداً منهم بوجود الكفاية فيه كما هي في سواه

اذن فالاختلاف متوقع حتما بين المسلمين فيما لو ترك أبو بكر منصب الخلافة شاغراً والمعذرة قائمة للصحابة في هذا الاختلاف ما دام فيهم عدة من ذوى الكفائة وأخصهم اهل بيعة الرضوان من السابقين كما انها قائمة لابى بكر ايضاً في عدم تركه الامر شورى والحال ما ذكر دراً لخطر ذلك الخلاف المتوقع من بين قوم هو أبصر بهم وادرى باخلاقهم وانما نظر ابو بكر فيمن يختاره لذلك المنصب الرفيع شأنه الحرج موقفه فرأى انه يحتاج الى رجل فيه شدة من غير عنف ولين من غير ضعف وممن توفرت فيهم هذه الصفة من الصحابة الكرام عمر بن الخطاب وعليّ بن أبي طالب الا ان الاول كان ربما يريد الامر فيرى في طريقه عقبةً فيدرو اليه والثاني يرى الاستقامة فلا يبالي بالعقبة تقوم بين يديه فهو بهذا الى الشدة أميل منه الى اللين لهذا لما استشار ابو بكر

الصحابة فيمن يستخلفه أشاروا عليه بعمر

لما عزم ابو بكر ان يعهد بالامر ونظر فيمن يعهد اليه فوقع اختياره على عمر جعل يستشير كل من دخل عليه من الصحابة في عمر فسأل عبد الرحمن ابن عوف فقال اخبرني عن عمر بن الخطاب فقال ما تسألني عن أمر الآ وأنت أعلم به مني فقال أبو بكر وان فقال عبد الرحمن هو والله أفضل من رأيك فيه من رجل ولكن فيه غلظة قال ابو بكر ذلك لانه يراني رقيقاً ولو افضى الامر اليه لترك كثيراً مما هو فيه ثم دعا عثمان فقال اخبرني عن عمر فقال أنت اخبرنا به فقال عليّ ذلك يا ابا عبد الله اخبرني عن عمر فقال اللهم علمي به ان سريرته خير من علانيته وانه ليس فينا مثله وسأل اسيد بن حضير فقال اسيد اللهم اعلمه الخير بعدك يرضى للرضى ويسخط للسخط الذي يسر خير من الذي يعلن ولن يلي هذا الامر أحد أقوى عليه منه، واستشار غير هؤلاء سعيد بن زيد وجماعة من المهاجرين والانصار فكلهم قال خيراً

ودخل عليه بعض الصحابة فقال قائل منهم[1] ما أنت قائل لربك اذا سألك عن استخلافك عمر علينا وقد نرى غلظته، فقال ابو بكر بالله تخوفني! اقول اللهم اني استخلفت عليهم خير أهلك . ابلغ عني ما قلت من ورائك

ثم دعا عثمان فقال اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما عهد ابو بكر ابن ابي قحافة الى الخ كتاب العهد وقد سبق ايراده في فصل كتب ابي بكر ثم أمر بالكتاب نختمه ثم أمر عثمان نخرج بالكتاب مختوماً فبايع الناس ورضوا به ثم دعا ابو بكر بعمر خالياً فأوصاه بما أوصاه

ومما يؤثر عن ابي بكر هذه الوصية الغراء التي اوصى بها عمر رضي الله عنهما

---

(١) روى الطبري ان الذي قال ذلك هو طلحة بن عبيد الله

﴿ وصيته لعمر ﴾

اني مستخلفك من بعدي وموصيك بتقوى الله ان لله عملاً بالليل لا يقبله بالنهار وعملاً بالنهار لا يقبله بالليل وانه لا تقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة فانما ثقلت موازين من ثقلت موازينه يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وثقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الحق أن يكون ثقيلا وانما خفت موازين من خفت موازينه يوم القيامة باتباعهم الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه الا الباطل ان يكون خفيفاً ان الله ذكر أهل الجنة فذكرهم بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيآتهم فاذا ذكرتهم قلت اني أخاف ان لا اكون من هؤلاء ، وذكر اهل النار فذكرهم باسوأ اعمالهم ولم يذكر حسناتهم فاذا ذكرتهم قلت اني لأرجو ان لا اكون من هؤلاء وذكر آية الرحمة مع آية العذاب ليكون العبد راغباً راهباً ولا يتمنى على الله غير الحق ولا يلقي بيده الى التهلكة فاذا حفظت وصيتي فلا يكن غائب احب اليك من الموت وهو آتيك وان ضيعت وصيتي فلا يكن غائب أبغض اليك من الموت ولست بمعجز الله اه

لما خرج عمر من عند ابي بكر رفع يديه وقال

اللهم اني لم أرد بذلك الا صلاحهم وخفت عليهم الفتنة فعملت فيهم بما أنت اعلم به واجتهدت لهم رأياً فوليت عليهم خيرهم واقواهم عليهم واحرصهم على ما ارشدهم وقد حضرني من امرك ما حضر فاخلفني فيهم فهم عبادك ونواصيهم بيدك اصلح اللهم ولاتهم واجعله من خلفائك الراشدين واصلح له رعيته

وفي كلامه هذا ما يؤيد قولنا السابق انّ ابا بكر انما اختار للخلافة بعده عمر رضي الله عنهما ولم يتركها شورى خوفاً من الفتنة وثقة بكفائته وسداً لذرائع النزاع من جهة ومن جهة ثانية علماً منه بمكانة عمر من السياسة وانه لا يحيد بالأمة عن سبيل الخشونة في العيش والقناعة بالكفاف ولا يترك لها عنان الخوض في غمرات النعيم الرومي والترف الفارسي فتفسد اخلاقها وتسترخي قواها وتفتر عن بث الدعوة همتها ومع انه اختار لها خير كفؤ بشهادة كبار الصحابة كما رأيت فقد تفرس في بعض المهاجرين عدم الرضا كما ترى مما يأتي ولا يحمل ذلك منهم الاّ على الخوف من شدة عمر عليهم والله اعلم

روى ان عبد الرحمن بن عوف دخل على أبي بكر بعد ذلك فوجده مهتماً [١] فقال اصبحت بحمد الله بارئاً يا خليفة رسول الله فقال

اما اني على ذلك لشديد الوجع ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين اشد عليّ من وجعي ، اني وليت اموركم خيركم في نفسي فكلكم ورم من ذلك انفة يريد ان يكون له الامر من دونه ورأيتم الدنيا قد اقبلت ولمّا تقبل وهي مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وتألمون الاضطجاع على الصوف كما يألم احدكم الاضطجاع على شوك السعدان والله لأن يقدم احدكم فتضرب عنقه في غير حدٍّ خير له من ان يخوض في غمرة الدنيا ألا وانكم اول ضالٍّ بالناس غداً فتصدونهم عن الطريق يميناً وشمالا يا هادي الطريق انما هو الفجر او البجر [٢]

قال فقلت خفض عليك يرحمك الله فان هذا يهيضك على ما بك انما الناس في امرك بين رجلين اما رجل رأى ما رأيت فهو معك واما رجل خالفك

(١) وفي رواية فوجده مفيقاً (٢) وفي نسخة البحر

فهو يشير عليك برأيه وصاحبك كما تحب ولا نعلمك أردت الآخر ولم تزل صالحاً مصلحاً مع انك لا تأسى على شيء من الدنيا

﴿ وفاته ﴾

لما ثقل على أبي بكر المرض أوصى عائشة ان يدفن الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأشار الى ثوبيه فقال اغسلوهما وكفنوني فيهما فان الحيّ أحوج الى الجديد من الميت وأوصى ان تغسله امرأته أسماء بنت عميس ويعينها ابنه عبد الرحمن وكتب وصيته بخمس ماله وقال : آخذ من مالي ما أخذ الله من فئ المسلمين : وروى الطبري ان أبا بكر لما حضرته الوفاة : قال انظروا كم أنفقت منذ وليت بيت المال فاقضوه عني : فوجدوا مبلغه ثمانية آلاف درهم في ولايته وأخرج الامام أحمد عن عائشة رضي الله عنها ان أبا بكر لما حضرته الوفاة قال أي يوم هذا ؟ قالوا يوم الاثنين . قال فان مت من ليلتي فلا تنظروا بي الغد فان أحب الايام والليالي إليّ أقربها من رسول الله صلى الله عليه وسلم : وتوفى أبو بكر من ليلته تلك وهي ليلة الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة وله من العمر ثلاث وستون سنة وغسلته امرأته أسماء كما أوصى وصلى عليه عمر بين القبر والمنبر وكبر أربعاً ودفن الى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخرج ابن هشام عن بن عروة عن أبيه ان أبا بكر صلى عليه ليلاً ودفن ليلاً [1] وكانت مدة ولايته سنتين وثلاثة أشهر وبضعة أيام وكان نقش خاتمه (نعم القادر الله)

(١) هكذا كان دفن أبي بكر فليت شعري متى ابتدع المسلمون فى الجنائز ما ابتدعوا من الاحتفال الذي يشبه احتفال قدماء المصريين بموتاهم وجنائزهم كما يرى ذلك مرسوماً الى الآن على آثارهم اللهم ان ما يفعله المسلمون الآن فى مصر وبعض الممالك الاسلامية بالاحتفال بجنائز موتاهم بقية من بقايا الوثنية الاولى لا يرضاها شرعك ولم يسبق الى مثلها أحد من أصحاب نبيك

﴿ خطبة علي في تأبين أبي بكر ﴾

أجمع الرواة ان أبا بكر لما قبض ارتجت المدينة ودهش القوم كيوم قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وجاء عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه باكيا مسرعا مسترجعا حتى وقف بالباب وهو يقول

رحمك الله يا أبا بكر كنت والله أول القوم اسلاما وأخلصهم إيمانا وأشدهم يقينا وأعظمهم غنى وأحفظهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحدبهم على الاسلام وأحماهم عن أهله وأنسبهم برسول الله خلقا وفضلا وهديا وصمتا فجزاك الله عن الاسلام وعن رسول الله وعن المسلمين خيراً ، صدّقت رسول الله حين كذبه الناس وأوسيته حين بخلوا وقمت معه حين قعدوا وسماك الله في كتابه صديقاً فقال (والذي جاء بالصدق وصدق به) يريد محمداً ويريدك ، كنت والله للاسلام حصناً وللكافرين ناكبا، لم تضلل حجتك ولم تضعف بصيرتك ولم تجبن نفسك كالجبل لا تحركه العواصف ، ولا تزيله القواصف ، كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً في بدنك قوياً في دينك متواضعاً في نفسك عظيما عند الله جليلا في الارض كبيراً عند المؤمنين لم يكن لاحد عندك مطمع ولا هوى فالضعيف عندك قويّ والقويّ عندك ضعيف حتى تأخذ الحق من القوي وتأخذه للضعيف فلا حرمنا الله أجرك ولا أضلنا بعدك

﴿ خطبة ابنته عائشة في تأبينه ﴾

نضر الله يا أبت وجهك وشكر لك صالح سعيك فلقد كنت للدنيا مذلا بأدبارك عنها وللآخرة معزاً باقبالك عليها ولئن كان أعظم المصائب بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم رزؤك ، وأكبر الاحداث بعده فقدك ، ان كتاب الله

عزّ وجلّ ليعدنا بالصبر عنك حسن العوض ، وأنا منتجزة من الله موعده فيك بالصبر عنك ، ومستعينة كثرة الاستغفار لك فسلم الله عليك توديع غير قالية لحياتك ، ولا زارية على القضاء فيك ،

﴿ ودخل عليه عمر فقال ﴾

ياخليفة رسول الله لقد كلفت القوم بعدك تعباً ووليتهم نصباً فهيهات من شق غبارك فكيف اللحاق بك

﴿ باب ﴾

﴿ ولده وعماله وقضاته وكتابه ﴾

(ولده)

قال ابن قتيبة أولاد أبي بكر عبد الله وأسماء أمهما قتيلة من بني عامر ابن لؤي . وعبد الرحمن وعائشة أمهما أم رومان بنت الحرث بن الحويرث من بني فراس بن غنم بن كنانة . ومحمد أمه أسماء بنت عميس . وأم كلثوم أمها بنت زيد بن خارجة من الانصار (فأما عبد الله بن أبي بكر) فانه شهد يوم الطائف مع النبي صلى الله عليه وسلم وبقي الى خلافة أبيه وهلك في خلافته وترك سبعة دنانير فاستكثرها أبو بكر وولد لعبد الله اسماعيل فهلك ولا عقب له (وأما أسماء) فهي ذات النطاقين [1] وتزوجها الزبير بمكة فولدت له عدة فطلقها فكانت مع ابنها عبد الله حتى قتل بمكة وبقيت مائة سنة حتى عميت وماتت

---

(١) ان أسماء هذه رضي الله عنها هي أشجع نساء الاسلام وأثبتهن جاشاً وأعظمهن تربية للولد على الشهامة وعزة النفس كما سيمر عليك في سيرة الحجاج

(وأما عائشة) فتزوجها النبي صلى الله عليه وسلم وبقيت الى خلافة معاوية وتوفيت سنة ثمان وخمسين وقد قاربت السبعين ودفنت بالبقيع

وقد كانت رضي الله عنها على جانب عظيم من الزكاء وفصاحة اللسان وقد رأيت من كلامها فيما مرّ ما يدل على قوّة عارضتها وفصاحة لسانها ولها خطب كثيرة في أعلى مكان من البلاغة وقد أوردنا منها فيما مر ما دعت اليه المناسبة وفضلاً عن هذا فقد كان يتلقى عنها الحديث ويؤخذ عنها العلم فرحمها الله ورضي عنها

(وأما عبد الرحمن) فشهد يوم بدر مع المشركين ثم أسلم وحسن اسلامه ومات فجأة سنة ثلاث وخمسين بجبل يقرب من مكة فأدخلته عائشة الحرم ودفنته وأعتقت عنه وكان شهد الجمل معها ويكنى أبا عبد الله وولد له محمد وعبد الله وحفصة وروى المسعودي ان لعبد الرحمن عقباً كثيراً بدوا وحضرا كانوا بين الحجاز والعراق بالموضع المعروف بالضفيسان

(وأما محمد بن أبي بكر) فكان يكنى أبا القاسم وكان من نساك قريش وولاه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه مصر فقاتله صاحب معاوية هناك وظفر به فقتله وولد له القاسم لأم ولد وكان فقيهاً فاضلاً

(وأما أم كلثوم بنت أبي بكر) فتزوجها طلحة بن عبيد الله فولدت زكريا وعائشة ثم قتل عنها فتزوجها عبد الرحمن بن عبد الله بن أبي ربيعة المخزومي

﴿ عماله وقضاته وكتابه ﴾

لما ولي أبو بكر قال له أبو عبيدة أنا أكفيك بيت المال وقال له عمر أنا أكفيك القضاء وكان يكتب له عليّ بن أبي طالب وزيد بن ثابت وعثمان

ابن عفان وان غابوا فكان يكتب له من حضر

وكان عامله على مكة عتاب ابن اسيد ومات في اليوم الذي مات فيه ابو بكر وقيل مات بعده وكان على الطائف عثمان بن العاص وعلى صنعاء المهاجر بن أبي أمية . وعلى حضرموت زياد بن لبيد الانصاري وعلى خولان يعلى بن منية : وهي امه واسم ابيه امية وعلى زبيد ورمع ابي موسى وعلى الجند معاذ بن جبل وعلى البحرين العلاء بن الحضرمي . وبعث جرير بن عبد الله الى نجران . وعبد الله بن ثور الى جرش وعياض غنم . الى دومة الجندل . وكان بالشام أبو عبيدة وشرحبيل ويزيد بن أبي سفيان وعمرو بن العاص وخالدبن الوليد وكل رجل منهم امير على جيشه وقيل كانت الامارة العامة لخالد وخالد كان من أشهر مشاهير رجال الحرب في عصره لهذا اخترنا ان نورد سيرته ان شاء الله عقب سيرة أبي بكر لانه من رجاله . وكان على العراق المثنى بن حارثة الشيباني استخلفه فيها خالد لما قصد الشام بأمر أبي بكر رضي الله عنهم اجمعين

﴿ باب ﴾
﴿ صفة أبي بكر ﴾

روى ابن قتيبة عن عائشة انها وصفت ابا بكر فقالت . كان أبيض نحيفاً خفيف العارضين أجنأ لا يستمسك ازاره يسترخي عن حقويه معروق الوجه غائر العينين ناتئ الجبهة عاري الاشجع كان يصبغ بالحناء والكتم

هذا ما احببنا ايراده من سيرة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه وقد بذلنا فيما أوردناه من أخباره جهد المستطاع في التحقيق والتنقير وجمع شتيت

الاخبار المتفرقة وضم الاشباه والنظائر منها بعضها الى بعض تسهيلا على المطالعين وتقريباً على المتناولين الا انّا اغفلنا من سيرته ابوابا لم نر حاجة لايرادها في هذا الكتاب لتكفل كتب السنة بها وتفرقها فيها لانها ليست من خصائص التاريخ بل هي من خصائص كتب الشريعة كالاحاديث والآثار المروية عنه والاحكام الصادرة منه والاحاديث الواردة بفضله ونحو ذلك مما هو مبسوط في كتب السنة وارد في الصحاح وقد بقي علينا فصل واحد نبسط فيه الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر وبعد ذلك نأتي على سيرة خالد بن الوليد ان شاء الله

﴿ الحالة الاجتماعية على عهده ﴾

جاء الاسلام قاضيا بتوحيد الله وتوحيد الاجتماع وتوحيد الافكار وتوحيد اللغة وتوحيد المقاصد في عصر غلبت فيه نزغات الاهواء البشرية على النفوس ونزع الامم كافة منازع الوثنية فشوّه مؤمنهم وجه الدين وانحرف عن وجهة الكتاب وأوغل كافرهم في مناحي الخيال فخلق من ضعيف التصور اشكالا من العبادة تختلف باختلاف المنازع والاقطار فتشكلت بأشكالها الاخلاق وتنوعت المقاصد وتخالفت الوجهة وتناكرت النفوس وتجزأت الوحدة عند كل أمة في الاجتماع والسياسة والدين فأصبح أهل الكتاب اليهود منهم . بين قرائين وسامرين وربانيين وغيرهم . والنصارى بين يعاقبة وآريوسيين ونسطوريين وما لا يعد من الفرق . وغير أهل الكتاب من الأمم الاخرى بين صابئة ومجوس وزرادشت وبراهمة وما لا يعد من الفرق أيضاً . فكان الانقسام والتجزء في الاجتماع والسياسية تبعاً للنحل قائما مع الاهواء فباتت الدول المجاورة للعربية وهي فارس والروم (وما أدراك ما فارس

والروم أعرق الامم في المدنية واقصاها غاية في التاريخ وارهبها قوة في الارض وامدها ظلاً عليها) اشبه بشجرة تأصلت جذورها في الارض وتسامقت فروعها في الفضاء فجاءتها ريح عاصفة تعتعت اصلها وتلاعبت باغصانها فقصفتها قصفاً ، وعصفت فيها عصفاً ، فزوت افنانها ، وتفرقت مع الريح اغصانها ، فكانت دولة الروم غرضاً ترمي اليه الاهواء بسهامها وفريسة تتنازعها العناصر المنفردة منها والاقوام المنشقة عنها والشاغبة عليها كالعرب والارمن واليونان والرومانيين والصقالبة وغيرهم

ودولة الفرس كذلك تفككت اعضاؤها وتجزأت وحدتها فاستبد عمالها بالاطراف وتنازعوا سلطان الاكاسرة وتوثبوا على الملك وتعسفوا بالحكم وظلموا الرعية[1] ومن ثم انحلت من تلك الامم عرى وحدتها وتفرقت اهواء اهلها وتباينت مقاصد قادتها وزعمائها فانزوت شموس مدنيتها وكادت تندثر من الوجود آثار الحضارة والعلم التي انتهت الى دولتي الفرس والروم وتعود حالة البشر الى اقبح ما كانت عليه قبل تاريخ الحضارة وبعثة الانبياء هداة الامم من فوضى الاجتماع وتفرق الاهواء وانحطاط المدارك والعقول ويأبى الله الا ان يتم كلمته في خلقه ويجعل الانسان مظهر قدرته ويديم عليه سوابغ رحمته لهذا ارسل الله سبحانه وتعالى محمداً صلى الله عليه وسلم الى الناس كافة بشيراً ونذيراً وهادياً الى الله باذنه وسراجاً منيراً وأنزل عليه القرآن فيه هدى ونور ورحمة للعالمين لينذر به من كان حياً ويحق القول على الكافرين

فامتثل محمد صلى الله عليه وسلم امر ربه ودعا الناس الى دينه . دعاهم

---

(١) لهذه الاسباب تولى ملك فارس قبيل الفتح الاسلامي نحو ستة ملوك فى بضع سنين وكلهم قتلوا بيد الامراء والرعية قتلا (راجع تاريخ الكامل)

الى توحيد الله فلا يشركون به شيئاً . والى توحيد الاجتماع فلا يتفرقون شيعاً ينابذ بعضها بعضاً . والى توحيد الافكار فلا يجادلون في الحق . والى توحيد المقاصد فلا يتخبطهم شيطان الاهواء وتفرقهم عن الحق نزعات النفوس . والى توحيد اللغة فلا يتناكرون وبلسان واحد يتفاهمون

دعا اولاً أهله وعشيرته ثم قومه ثم سائر العرب ثم عامة الناس بما كتب الى ملوكهم الذين اليهم ينتهي امر الأمم وبهم تقوم الدعوة حتى قامت لله على الناس الحجة ولله الحجة البالغة على الناس اجمعين . واجاب دعوة نبيه من اجاب واقبل عليها من اقبل وكان جلهم من العرب الذين لم يلبثوا ان تلقوا هذا الدين حتى ظهر اثره فيهم ظهوراً يبشر بمصير السيادة على الامم اليهم لما صبحوا عليه من الاخاء بعد التنافر والاجتماع بعد التفرق والتوحيد بعد الشرك والتنبه بعد الغفلة والايمان بعد الكفر والتحابب بعد التناكر يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويجاهدون في الله وينصرون دينه ويقيمون حدوده ويواسون الفقير ويؤدون الحق ويرغبون بالقناعة بالكفاف عما بايدي الناس ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة

على هذا الاساس قامت حياة المسلمين الاجتماعية وبتلك الاخلاق وصف الله اتباع النبي محمد صلى الله عليه وسلم في كتابه العزيز فقال تعالى فيه (كنتم خير أمة اخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتسارعون في الخيرات واولئك من الصالحين) وقال تعالى (محمد رسول الله والذين معه اشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا) وقال تعالى (ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة) وقال تعالى (انما المؤمنون اخوة) الى غير ذلك من الآيات الكثيرة التي تمثل حالة المسلمين

يومئذ تمثيلا وتدل على مبلغ تأثير الاسلام في نفوس تلك الأمة البدوية التي أخرجها القرآن من ظلمات الفوضى والجهل الى نور العلم والاجتماع

تلك الحالة الاجتماعية التي كانت في عهد الرسالة كانت كذلك في عهد أبي بكر رضي الله تعالى عنه وقد نهض أبو بكر بعد الرسول صلى الله عليه وسلم باتمام نشر الدعوة وتوحيد كلمة الشعوب نهوضاً بسطناه فيما تقدم من سيرته فرمى بالجيوش الاسلامية فارس والروم ليكونوا حماة الدعوة بعد اذ لم تنجح فيهم الدعوة مجردة عن القوّة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم فخالط المسلمون تلك الأمم البالغة منتهى درجات الرفاه والتنعم المنغمسة في حمأ الشهوات النفسية ودوخوا بلادهم واستفتحوا كنوزهم ومع هذا فلم يؤثر ذلك في أخلاقهم ولم تدعهم تلك الزخارف الى تنكب المحجة التي تركهم عليها نبيهم لاسيما وان القرآن بين أيديهم يهتدون بهديه وأبو بكر من ورائهم يحملهم على طريقته ويؤدبهم بأدب نفسه وكان جل همه منصرفا الى اقامة شعائر الدين والتأدب بآداب النبي صلى الله عليه وسلم خصوصاً في خشونة العيش وكبح جماح النفوس والقناعة بالكفاف هذا مع علمه بأن الله سبحانه وتعالى أحلّ الطيبات للمؤمنين وانما هو كان حريصاً على تأدب المسلمين بآداب النبوّة وآدابه كي لا يشغلهم عن بث الدعوة والجهاد في الله وتوحيد كلمة الشعوب شاغل الاخلاد الى الراحة والرغبة بنعيم الحياة الفانية وأنى يشغلهم شيء عن أمر الله وهم خير أمة أخرجت للناس وعصرهم خير العصور

وكيف لا يكون خير العصور وقد كان فيه المؤمنون على جانب من سلامة الفطرة وطهارة الاخلاق وتآلف القلوب ونصرة العدل والحق ومواساة الضعيف والقيام بواجب الاخاء وتبادل الثقة والحب لم تبلغ مبلغهم فيه أمة

حديثة عهد في الدين من قبل ولن يتأتى لأمة سواهم من بعد

روى الغزالي في الاحياء ان تبادل الثقة والحب بين المسلمين يومئذ بلغ بهم ان كانوا خلطاء بالمال يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقا لقوله تعالى (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة)

وبلغت بهم معرفة الحقوق والوقوف عند الحدود ان لا يتخاصم منهم اثنان أمام القضاء في حق صدراً من خلافة أبي بكر فقد روى ان عمر بن الخطاب لما استقضاه أبو بكر رضي الله عنهما بقي سنة لا يحضر عنده خصمان في دعوى ولا يتخاصم لديه اثنان في حق

ولما كان أبو بكر رضي الله عنه خير قدوة للمسلمين وقد كان على جانب من التواضع وشظف العيش وخشونة الملبس مع غناه ووفر دخله من أملاكه فقد اقتدى به المسلمون وتخوشنوا في مأكلهم وملبسهم وتعفف كبارهم حتى عن التنعم بدخلهم فقد قال المسعودي في تاريخه انه لما قدم على أبي بكر زعماء العرب واشرافهم وملوك اليمن وعليهم الحلل وبرد الوشي المثقل بالذهب والتيجان والحبرة وشاهدوا ما عليه من اللباس والزهد والتواضع والنسك وما هو عليه من الوقار والهيبة ذهبوا مذهبه ونزعوا ما كان عليهم وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته وعليه التاج وما وصفنا من البرود والحلى ولما شاهد من أبي بكر ماوصفنا ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه حتى انه رؤي يوما في سوق من أسواق المدينة وعلى كتفيه جلد شاة ففزعت عشيرته وقالوا له فضحتنا بين المهاجرين والانصار قال ، فأردتم أن أكون ملكا جباراً في الاسلام لا والله لا تكون طاعة الرب الا بالتواضع والزهد، قال المسعودي وتواضعت الملوك ومن

ورد عليه من الوفود بعد التكبر وذلوا بعد التجبر

ولا جرم ان قدوة الأمم رؤسائها وقادتها الى الخير والشر ملوكها ولم يرنا التاريخ مصارع قوم هلكى بشقاء الحياة إلا بملوكهم كما لم يرنا تسوّد قوم وتمتعهم بسعادة الحياة الاّ اذا استقام ملوكهم

هذه كانت الحالة الاجتماعية على عهد أبي بكر رضي الله عنه وقد بسطناها اليك على وجه الاجمال لتتذكر وتعتبر . وتتقي الله في نفسك وتزدجر . والله ولي الصالحين

وهذا آخر كلام على خلافة أبي بكر رضي الله عنه وأرضاه ووفق ولاة أمورنا للنظر فيما كان عليه الخلفاء من قبل . والله يعصمنا وإياهم من الجهل .

﴿ خالد بن الوليد ﴾

﴿ باب ﴾

(حاله في الجاهلية)

« نسبه وأصله »

خالد بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم أبو سليمان وقيل أبو الوليد القرشي المخزومي أمه لبابة الصغرى وقيل الكبرى والاول أصح وهي بنت الحارث بن حزن الهلالية وهي أخت ميمونة بنت الحارث زوج النبي صلى الله عليه وسلم وأخت لبابة الكبرى زوج العباس بن عبد المطلب وهو بن خالد أولاد العباس بن عبد المطلب الذين من لبابة

﴿ شرفه في قومه ومكانته عندهم ﴾

تقدم معنا في صدر الكتاب ان خالد بن الوليد ممن انتهى اليهم الشرف في الجاهلية من قريش وانه كان على الاعنة والقبة وابنّا ثمة المراد من القبة والاعنة فلا حاجة للاعادة هنا لهـذا كان في وقائع بدر وأحد والخندق على خيل المشركين ولم يشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم الآ مابعد الفتح من الوقائع وقد كان خالد في قومه موصوفا بالشجاعة محبباً فيهم مقدما عندهم بالحروب موفقاً للنصر عارفا بأصول الحرب حائزاً على صفات الجندية التي يلازمها في الغالب خشونة الطبع وعنفوان الشجاعة والاخذ بالشدة والتسرع الى المعاقبة لهذا لما بدر منه بعد اسلامه ما بدر من التسرع في حادث مالك ابن نويرة قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان سيف خالد فيه رهق وألح على أبي بكر بعزله عن قيادة الجند خوف استرساله في الشدة على المحاربين والاسلام يأبي الشدة ويأمر بالاناة والحلم وعدم الامعان في ايذاء المقاتلين ومع هـذا فان الاسلام غيّر كثيراً من طباع خالد وألان من شدته فلم تبدر منه في حروب فارس والروم أدنى بادرة تؤخذ عليه

﴿ باب ﴾

﴿ اسلامه وصحبته ﴾

(اسلامه)

اختلف في وقت اسلام خالد فقال بعضهم انه أسلم سنة ثمان للهجرة وقال بعضهم سنة خمس وقال بعضهم سنة سبع وهو الاصح فقد كان اسلامه

بعد الحديبية وكانت عمرة الحديبية في ذي القعدة سنة ست وقدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هو وعمرو بن العاص وطلحة بن أبي طلحة العبدري في صفر فلما رآهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لاصحابه : رمتكم مكة بأفلاذ كبدها

﴿ صحبته ﴾

لما أسلم خالد انفذه رسول الله صلى الله عليه وسلم مع جيش من المسلمين أميره زيد بن حارثة الى مشارف الشام من ارض البلقاء لغزو الروم وكانت لهم هناك وقعة مؤتة العظيمة التي اشتشهد فيها زيد ثم اخذ الراية بعده جعفر ابن أبي طالب فاستشهد ايضاً ثم اخذها عبدالله بن رواحة فقتل ايضاً ثم اتفق المسلمون على دفع الراية الى خالد بن الوليد فأخذها وقاتل بها قتالاً شديداً حتى اندق يومئذ في يده سبعة اسياف ثم ما زال يدافع القوم حتى انحازوا عنه ثم عاد بجيش المسلمين

وفي هذه الغزوة سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سيفاً من سيوف الله وذلك انه اوحي رسول الله صلى الله عليه وسلم بمن قتل من الامراء فصعد يومئذ المنبر وأعلم بقتل زيد وجعفر وابن رواحة وقال ، ثم اخذ الراية سيف من سيوف الله خالد بن الوليد وفتح الله عليه ومن ثم سمي خالد سيف الله

وكان خالد من حين أسلم يوليه رسول الله صلى الله عليه وسلم اعنة الخيل فيكون في مقدمتها في محاربة العرب وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم فتح مكة وامره يومئذ ان يدخل من اسفل مكة من الليط ومعه اسلم وغفار ومزينة وجهينة وقبائل من العرب وهو اول يوم امر رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد

وكان عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن امية وسهيل بن عمرو قد جمعوا

ناساً بالخندمة ليقاتلوا ومعهم الاحابش وبنو بكر وبنو الحرث بن عبد مناة فلقيهم خالد فقاتلهم فهزمهم بعد ان قتل منهم ثلاثة عشر رجلا

ولما فتحت مكة واذل الله قريشاً لرسوله وقد كانوا اشد العرب عداوة له وايذاء لاصحابه ووقوفاً دون دعوته بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو من حول مكة من العرب الى الاسلام وكان فيمن بعث خالد بن الوليد بعثه الى بني جذيمة داعياً لا مقاتلا فذهب فقاتلهم وقتل منهم فلما انتهى الخبر الى النبي صلى الله عليه وسلم رفع يديه الى السماء ثم قال (اللهم اني أبرأ اليك مما صنع خالد) ثم أرسل علياً ومعه مال فودى لهم الدماء والاموال ثم جاء خالد الى النبي صلى الله عليه وسلم واعتذر وقال ان عبد الله بن حذافة السهمي امرني بذلك عن رسول الله

وبعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم الى العزّى ببطن نخلة وكان بيتاً عظيما لمضر تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها وكان سدنتها بنو شيبان من حلفاء بني هاشم فهدمها خالد وقال

يا عزّ كفرانك لاسبحانك ... اني رأيت الله قد اهانك

وكان خالد على مقدمة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين في بني سليم فجرح خالد فعاده رسول الله صلى الله عليه وسلم ونفث في جرحه فبرىء وأرسله أيضاً الى أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل فأسره وأحضره عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فصالحه على الجزية ورده الى بلده ، وأرسله أيضاً سنة عشر الى بني الحارث بن كعب بن مذحج بنجران وامره ان يدعوهم الى الاسلام فان أجابوا يقيم فيهم ويعلمهم شرائع الاسلام وان أبوا يقاتلهم فخرج خالد حتى قدم عليهم وبعث الركبان يضربون في كل وجه ويدعون الناس الى

الاسلام فاسلم الناس ودخلوا فيما دعاهم اليه وأقام بينهم يعلمهم كتاب الله وسنة نبيه وكتب بذلك الى رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا ستأتي صورته فكتب اليه رسول الله صلى الله عليه وسلم يستدعيه ومن يريد الوفود معه من القوم فاقبل واقبل معه الوفد وفيهم قيس بن الحُصَيْن بن يزيد بن قَنَان ذي الغُصَّة ويزيد بن عبد المدان ويزيد بن المحجّل وغيرهم

ولم يزل خالد مدة صحبته يجاهد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويكافح اعداء الاسلام ويحرص على رضاء النبي صلى الله عليه وسلم حتى توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان له بعد من جميل الاثر في قتال أهل الردة وفتوح البلدان العظيمة ما رأيت في سيرة أبي بكر ونتلوه عليك الآن ملخصاً من تاريخ حروبه في الاسلام

باب

﴿ حروب خالد وفتوحاته في عهد أبي بكر ﴾

﴿ حروبه في الردة ﴾

﴿ حربه مع طليحة ﴾

تقدم معنا في سيرة أبي بكر رضي الله عنه انه عقد لخالد وامره بطليحة ابن خويلد فاذا فرغ سار الى مالك بن نويرة بالبطاح وكان ابو بكر بعث عدي ابن حاتم [1] الطائي قبل خالد الى طيء واتبعه خالداً وامره ان يبدأ بطيء ومنهم

(١) هو عدي بن حاتم الجواد وفد على النبي صلى الله عليه وسلم فألقى له وسادة وأجلسه عليها وجلس هو على الارض فأسلم وسر باكرام رسول الله له سرورا عظيما وكان له في أيام الردة أحسن الاثر رضي الله تعالى عنه

يسير الى طليحة ببزاخة ويثلث بالبطاح حيث يقيم مالك بن نويرة بقومه وان لا يبرح اذا فرغ من قوم حتى يستأذنه

سبق عدي خالدا الى قومه ودعاهم فاجابوه وقالوا له استقبل جيش خالد واخره عنا حتى نستخرج مَن عند طليحة منا لئلا يقتلهم فاستقبل عديٌّ خالداً واخبره بالخبر فتأخر خالد وارسلت طيءٌ الى اخوانهم عند طليحة فلحقوا بهم ولما عزم خالد على قصد جديلة [1] استمهله عديٌّ عنهم ايضاً ولحق بهم يدعوهم الى الاسلام فاجابوه فعاد الى خالد باسلامهم ولحق بالمسلمين الف راكب منهم كل هذا بهمة ذلك الشهم الكبير عديّ بن حاتم رضي الله تعالى عنه حتى قيل يومئذ عنه انه خير مولود فى أرض طيءٍ واعظمه بركة عليهم

ولما عزم خالد بن الوليد على قصد طليحة أرسل عكاشة بن محصن وثابت ابن اقرم الانصاري طليعة فلقيهما حبال أخو طليحة فقتلاه فبلغ خبره طليحة فخرج هو وأخوه سلمة فقتلا عكاشة وثابتاً واقبل خالد بالجيش فرأى عكاشة وثابتاً قتيلين فجزع لذلك المسلمون وانصرف بهم خالد نحو طيءٍ فقالت له طيء نحن نكفيك قيساً فان بني أسد حلفاؤنا فقال قاتلوا أيّ الطائفتين شئتم فقال عديّ بن حاتم لو نزل هذا على الذين هم اسرتي الادنى فالادنى لجاهدتهم عليه والله لا أمتنع عن جهاد بني أسد لحلفهم فقال خالد ان جهاد الفريقين جهاد لا تخالف رأي أصحابك وامض بهم الى القوم الذين هم لقتالهم أنشط وقد أصاب خالد بهذا الرأي ورضي به عديّ ثم سار جيش المسلمين على تعبية الى بزاخة حيث التقى بطليحة ومن معه ونشب القتال بين الفريقين وكان مع طليحة عيينة بن حصن فى سبعمائة من بني فزارة فقاتلوا قتالاً شديداً حتى اذا اشتدت

---

(١) جديلة بطن من طيءٍ

عليهم وطأة الحرب وزعزعتهم صدمات المسلمين كرّ عيينة على طليحة وسأل هل أوحي اليه بشيء ؟ قال لا فتركه وذهب وقاتل ثم عاد فقال له لا ابالك فهل جاءك جبريل ؟ قال لا فقال عيينة حتى متى قد والله بلغ منا ثم رجع فقاتل ثم كرّ على طليحة فقال هل جاءك جبريل ؟ قال نعم قال فماذا قال لك قال قال لي ان لك رحى كرحاه وحديثاً لا تنساه فقال عيينة قد علم الله انه سيكون حديث لا تنساه انصرفوا يا بني فزارة فانه كذاب فانصرفوا وانهزم الناس وكان طليحة قد أعد فرسه وراحلته لامرأته النوار فلما غشيه ركب فرسه وحمل امرأته ثم نجا بها وقال يامعشر فزارة من استطاع ان يفعل هكذا وينجو بامرأته فليفعل ثم انهزم ولحق بالشام ونزل على كلب فلما بلغه أن أسداً وغطفان قد أسلموا أسلم وبقي في كلب حتى توفي أبو بكر رضي الله عنه واستخلف عمر فأتى اليه وبايعه ثم حضر بعد ذلك فتوح نهاوند وكان من الشجعان المشهورين وأبلى في حروب فارس بلاء حسناً وفيها استشهد

هكذا انقضى أمر طليحة كما انقضى أمر غيره من المتنبئين الكذابين وهيهات للباطل ان يقوم في جانب الحق وللكذب ان يغلب على الصدق (بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فاذا هو زاهق)

لما انهزم جند طليحة اجتمع الفلّ من غطفان وسليم وهوازن وغيرهم على امرأة اسمها أم زمل من بني فزارة فأمرتهم بقتال المسلمين فلما بلغ خالداً الخبر سار اليها بجيشه وقاتلها ومن اجتمع معها قتالا شديداً فقتلت وتفرق جمعها

﴿ حادثة مالك بن نويرة ﴾

ثم قصد خالد مالك بن نويرة وكان كما تقدم معنا في سيرة أبي بكر

رضي الله عنه متحيراً يقدم للردة قدماً ويؤخر أخرى وكان رؤساء تميم كلهم قدموا بالصدقات على أبي بكر كالزبرقان وصفوان بن صفوان ووكيع بن مالك وغيرهم الا مالك بن نويرة بقي متردداً حتى اذا بلغه مجيء خالد ندم على مافعل وفرق قومه في البطاح ونهاهم عن الاجتماع وقال لهم يا بني يربوع انّا دعينا الى هذا الامر فأبطأنا فلم نفلح وقد نظرت فيه فرأيت الامر يتأتى لهم بغير سياسة واذا الأمر لايسوسه الناس فاياكم ومناواة قوم قد صنع لهم فتفرقوا وادخلوا في هذا الامر

ولما أراد خالد قصد البطاح تخلفت عنه الانصار وقالوا قد عهد الينا الخليفة ان نحن فرغنا من بزاخه ان نقيم حتى يأتينا أمره فقال خالد قد عهد اليّ ان أمضي وأنا الامير ولو لم يأت اليّ كتاب بما رأيته فرصة وكنت ان أعلمته فاتتني لم أعلمه وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد لم ندع ان نرى أفضل مايحضرنا ثم نعمل فأنا قاصد الى مالك ومن معي ولست أكرههم

ولقد صدق خالد فيما قال لو لم يكن في تعجيله بأمر مالك مالا تحمد عقباه لهذا امتنع الانصار عن المسير معه ثم لما سار ندموا وقالوا ان أصاب القوم خيراً حرمتموه وان أصيبوا ليجتنبنكم الناس فلحقوه ولما قدم خالد البطاح بث السرايا وأمرهم بداعية الاسلام وان يأتوه بكل من لم يجب وكان قد أوصاهم أبو بكر (ان يؤذنوا اذا نزلوا منزلاً فان أذن القوم فكفوا عنهم وان لم يؤذنوا فاقتلوا وانهبوا وان أجابوكم الى داعية الاسلام فسائلوهم عن الزكاة فان أقروا فاقبلوا منهم وان أبوا فقاتلوهم)

لما بث خالد السرايا جاءته الخيل بمالك بن نويرة في نفر من ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم وكان فيهم أبو قتادة فكان فيمن شهد انهم

أذنوا فلما اختلفوا أمر بهم خالد فحبسوا في ليلة باردة فأمر خالد مناديا فنادى دافئوا أسراكم وهي في لغة كنانة القتل فظن القوم انه أراد القتل ولم يرد إلا الدفء فقتلوهم فقتل ضرار بن الازور مالكا وسمع خالد الواعية فخرج وقد فرغوا منهم فقال اذا أراد الله أمراً أصابه وتزوج خالد أم تميم امرأة مالك

ولما انتهى الخبر الى أبي بكر وعمر رغب عمر الى أبي بكر ان يستدعي خالداً ويقتص منه وكان عمر رضي الله عنه شديداً يحب تعجيل العقوبة وأبو بكر يحب الاناة وعدم التعجيل في العقوبة ولما الح عمر على أبي بكر بشأن خالد قال ياعمر تأول خالد فاخطأ فارفع لسانك عن خالد فاني لا اشيم سيفاً سله الله على الكافرين ، وكتب الى خالد ان يقدم عليه فقدم ودخل المسجد وعليه قباء وقد غرز في عمامته أسهماً فقام اليه عمر فنزعها وحطمها وأسمعه كلاماً أليماً فلم يكلمه ودخل على أبي بكر وأخبره بجلية الخبر واعتذر اليه فقبل عذره وودى مالكا من بيت مال المسلمين

ولا يخفى ان قتل مالك بن نويرة اذا صح ان سببه سوء فهم كما تقدم فخالد غير مسئول عن دمه هذا اذا صح انه أظهر الاسلام حين رأى جيش المسلمين الا ان تردده في الامر من بدء الردة يدل على ان الرجل لم يخلص للاسلام وإلا كان تابع بقية سادات تميم بارسال الصدقة إلى أبي بكر ولم يبطيء الى حين وصول جند المسلمين اليه وهذا أعظم عذر يمكن أن يعتذر به عن خالد بن الوليد رضي الله عنه فيما لو كان قتل مالك مقصوداً أو معجلاً به من قبل خالد بن الوليد ولولا ذلك لكان قتله لمالك ثلمة في تاريخه لا يسدها إلا جهاده العظيم في فتوح العراق والشام

حروبه مع مسيلمة

تقدم الكلام عما أصاب عكرمة بن أبي جهل في تعجيله بحرب مسيلمة قبل ان يصل اليه شرحبيل بن حسنة ولما انتهى الخبر بذلك الى أبي بكر كتب لشرحبيل بالتربص وأتبعه خالدبن الوليد بعد مجيئه الى المدينة واعتذاره عن قتل مالك بن نويرة واوعب معه المهاجرين والانصار فتقدمهم الى البطاح ولما تكاملت عدتهم سار بهم الى قصد مسيلمة فبادر شرحبيل خالداً بقتال مسيلمة فنكب فلامه خالد على تعجيله ولما بلغ مسيلمة دنو خالد عسكر بعقرباء بأربعين ألف مقاتل وقيل بستين ألفاً وخرج اليه الناس وخرج مجاعة بن مرارة في سرية يطلب ثأراً لهم في بني عامر فأخذه المسلمون وأصحابه فقتلهم خالد واستبقاه لشرفه في بني حنيفة

ثم ان مسيلمة ترك الاموال وراء ظهره وتقدم لقتال المسلمين وقام ابنه شرحبيل يحرّض بني حنيفة على القتال وينفض يديه من نبوة أبيه قائلاً لهم ، يابني حنيفة اليوم يوم الغيرة قاتلوا عن احسابكم وامنعوا نساءكم ، فنشبت الحرب ودارت بينهم وبين المسلمين رحى الطعن والضرب واشتدّ القتال ولم يلق المسلمون حربا مثلها قط حتى نزعوا الى الهزيمة وانكشفوا عن فسطاط خالد ثم تداعوا واقتحم أهل النجدة منهم كزيد بن الخطاب وثابت بن قيس وغيرهما صفوف العدو وحمل خالد بالناس حتى ردوا الاعداء الى أبعد مما كانوا واشتد القتال وتذامرت بنو حنيفة وترامو على الموت وقاتلوا قتالا شديداً والمسلمون صامدون حتى قتل من أولي البصائر منهم ناس منهم زيد ابن الخطاب القرشي وأبو حذيفة وسالم مولاه واضرابهم

لما رأى خالد ما الناس فيه خشي من ان ينهزم اخلاط العرب فتخلل

صفوف المسلمين ويساق معهم أهل النجدة من الانصار والمهاجرين فنادى في الناس ان امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حي ولنعلم من أين تؤتي . فامتازوا ولما امتازوا قال بعضهم لبعض اليوم يستحي من الفرار وحينئذ ظهر انّ القتل في المهاجرين والانصار وأهل القرى أكثر من البوادي وعلم خالد ان الحرب لا تركد الا بقتل مسيلمة فطلبه للبراز فبرز اليه فعرض عليه أشياء فبينما هو يتظاهر بمشاورة شيطانه ركبه خالد فانهزم أمامه فصاح خالد بالناس فركبوا القوم فانهزموا وقالوا لمسيلمة أين ما كنت تعدنا فقال قاتلوا عن احسابكم ونادى مناديهم يا بني حنيفة الحديقة الحديقة فدخلوها و اغلقوا عليهم بابها

فجاء أحد ابطال المسلمين الأنجاد وهو البراء بن مالك وقال يا معشر المسلمين القوني عليهم في الحديقة فاحتمل حتى أشرف على الجدار واقتحمها عليهم وقاتل على الباب حتى فتحه فدخلوها عليهم واقتتلوا أشد قتال ولم يزالوا كذلك حتى قتل مسيلمة واشترك في قتله وحشي مولى جبير بن مطعم ورجل من الانصار ولما علم بقتله بنو حنيفة ولوا الادبار فاخذهم السيف من كل جانب

كان مجاعة بن مرارة اسيرا مع خالد كما قدمنا فقال لخالد بعد انكسار بني حنيفة هلم الى الصلح على ما ورائي فصالحه على كل شيء دون النفوس فانطلق ليشاور القوم فلم يجد في الحصون الا النساء والصبيان ومشيخة فانية وبعض رجال ضعاف فالبسهم الحديد وامرهم ان يشرفوا من الحصون ثم عاد الى خالد وقال له قد ابوا ان يجيزوا ما صنعت . وكان قصده بهذا ايهام خالد لاجل ان يأخذ الامان للرجال ويصالح خالدا على السبي وقد نجح بهذه الخدعة اذ رأى المسلمون ان يعودوا على ظفر بعد ان نهكهم طول اللقاء فصالحه خالد على الفضة والذهب وربع السبي وقيل نصفه وانتهى الأمر

وقد ظهر من المسلمين في هذه الحرب من الثبات والنجدة والصبر على المكروه ما لم يظهر من جيش قط واستحر القتل في المهاجرين والانصار يومئذ وقتل من القراء جمع وهذا ما دعا أبا بكر وعمر للمبادرة الى جمع القرآن كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب

ومن مكائد خالد وحسن بصيرته في هذه الحرب امره للمسلمين بان يمتاز الاحياء والقبائل بعضهم عن بعض لما اشتدت عليهم وطأت الحرب ليظهر أهل البلاء منهم ويستحي الناس من الفرار فيقاتلوا حتى الموت وقد فعلوا وشتتوا شمل ذلك الجيش العظيم بقوّة اليقين وحسن تدبير خالد بن الوليد فرضي الله عنه وعنهم اجمعين

باب

فتحه العراق وحروبه فيه

في المحرم من السنة الثانية عشرة للهجرة بعد فراغ خالد من اليمامة امره أبو بكر بالتوجه الى العراق وقد تقدم معنا ذكر مسير خالد وفتوحه في العراق في سيرة أبي بكر ونحن ذاكرون هنا طرفا من اهم أخباره في حرب أهل العراق مما لم يذكر بالتفصيل من قبل فنقول

وقعة الحفير

اول وقائع خالد بن الوليد في العراق وقعة الحفير قرب خليج البصرة وكان اسم صاحبها هرمز فبرز الى خالد بجيشه مقترنين بالسلاسل كي لا يفروا فطلبه خالد للبراز فبرز اليه ولم يتجاولا الا قليلا حتى احتضنه خالد فحمل عليه

أصحابه فما شغله ذلك عن قتله وحمل القعقاع بن عمرو بالمسلمين فازاحوا الفرس وركبهم المسلمون فهزموهم وأخذ خالد سلب هرمز وكان على رأسه قلنسوة الامارة أو الشرف وكان قد تم شرفه ومن عادة الفرس اذا تم شرف الانسان ان تكون قلنسوته بمائة ألف

﴿ كلمة على الالقاب والرتب ﴾

هكذا قال المؤرخون بشأن هذه القلنسوة والظاهر ان القلنسوة كانت عند الفرس من شعار الشرف يعلو ثمنها وينخفض بنسبة شرف صاحبها في الدولة وهي من قبيل الرتب والالقاب التي أحدثت بعدُ في دول الاسلام وأول من أحدثها العباسيون أخذاً عن الاعاجم وذلك كالمنصور والمهدي مثلا في ألقاب الخلفاء ونظام الملك في الوزراء وشرف الدولة وعز الدولة في الامراء وما لايحصى من الالقاب والنعوت التي وصلت في القرون الوسطى الهجرية قرون الجهل والعتو والجبروت قرون الضعف والانحلال الى درجة تشمئز منها النفس ويأباها عقل الحكيم ومن أراد أن يرى شيئاً منها فليراجع تواريخ ملوك الطوائف من الدول التركية والايوبية والجركسية خصوصاً في المنشورات التي كانت تصدر اليهم من ديوان الخلافة ليرى كيف كانت ترص الالقاب والنعوت لامراء وملوك ما أجدهم بقول الشاعر الاندلسي الحكيم

القاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الاسد

ولا جرم ان توفر تلك الالقاب والنعوت في الدول من نتائج التطلع الى المجد الباطل والاعراض عن المجد الحقيقي والشرف الذاتي ومنشأ هذا أمران (فقد التربية وانحلال الدول)

أما فقد التربية فلأنه يضعف قوة الارادة ويذهب بآثار العلم ويقضي

على حب الفضيلة فيميل بالناس الى الخمول ويتنكب بهم طرق الفضائل فيصابون بفتور الهمم وانحلال العزائم فيقعد بهم ذلك عن تناول الشرف الذاتي من طرق الجد والعمل . ويدعوهم الى طلب المجد الباطل من طرق الرياء والمداهنة والتحيل والكسل ، وغير ذلك من الامور التي تدل على فقد الشمم وموت العواطف وانحطاط ملكات العمل والعلم وقصاراها ضعف الأمم وتدرجها فى مدارج التدني والانحطاط حتى آخر درجة من الهبوط الى هوّة الدمار والفناء حيث يبدأ غيرها بالصعود ممن كان ينازعها البقاء وهكذا كان الشأن مع الفرس والعرب، لما نازعهم هؤلاء البقاء وغلبوهم عليه مع حداثة ظهورهم فى الدولة والملك (وتلك الايام نداولها بين الناس)

وأما انحلال الدول فلانه يحل عرى الالفة وتتناكر به القلوب وينفضّ الناس من حول الامير لضعف أمره فيهم أو تعسفه بالحكم عليهم فيحتال لاجتذاب قلوب افرادهم ويتألفهم تارة بالرشا وتارة بمنح الالقاب وضخامة التشريف بشارات الدولة فتفسد بذلك اخلاقهم وتغتر بمظاهر النفخة الكاذبة نفوسهم فيتطلعون الى رتب الدولة والقاب التشريف الباطلة وهكذا كان الشأن لما انحل أمر الخلافة العباسية فى بغداد والفاطمية فى مصر وابتدع الخلفاء من القاب التشريف الكثيرة ما يتألفون به قلوب الناس ويجتذبون اليهم افئدة الامراء المتوثبين على الملك الغالبين على أمر الخلافة ولكن لم يغن ذلك عن سقوط خلافتهم وانحلال دولتهم و (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم)

ومن هذا تعلم مقدار الفساد الذي دخل على الدول الاسلامية من طريق التقليد للاعاجم في أمور كثيرة أفسدت اخلاق الامة وأدخلت الوهن على اصول التربية الاسلامية التي تأسست عليها دول الخلفاء الراشدين ومن بعدهم

من الامويين وأخصها ترفع تلك الدول عن السفاسف وتطلع الناس في عهدها الى أعلى مراقي المجد التي لا يبلغها إلا ذوو الشمم والجد الآخذون بنواصي الحكمة السالكون مسالك الرجولية المعرضون عن الاغترار بزخارف المجد الباطل حتى لقد كان الخلفاء لايخاطبون بغير أمرة المؤمنين ولا يخاطبون أمراءهم وولاتهم بالكنى والالقاب بل هم كانوا لا يعرفون لها اسما ولا يقيمون لها رسما وقد اقتدى بهم في هذا العصر أعظم الدول جداً وقوة وغنى وثروة وهي جمهورية أمركا الشمالية التي حرم في دولتها إيجاد الشارات والرتب وأعرضت عن أمثال تلك الالقاب الكاذبة والسفاسف المضرة بالاخلاق والتربية فنشط سكان تلك المملكة العظيمة الى السعي وراء المجد الحقيقي المتأتي عن العمل والعلم حتى بلغوا مكانا من المجد والقوة تحسدهم عليه كل دول الارض الآن ولله في خلقه شؤون وللسعادة والشقاء سبيلان يسلك الأول منهم العاقلون والثاني الجاهلون

﴿ وقعة الثني وما بعدها ﴾

لما اجتمع خالد بهرمز في الحفير أرسل الثاني كتابا الى كسرى يستمده فأمده بجيش عظيم بقيادة قائد اسمه قارن فلما انتهى الجيش الى المذار لقي المنهزمين من جيش هرمز فاجتمعوا ورجعوا الى الثني وهو النهر وسار اليه خالد وقاتلهم فهزمهم وقتل وسبى وكان في السبي يومئذ أبو الحسن البصري الشهير وكان نصرانيا وأمر خالد على الجند سعيد بن النعمان وعلى الحرز سويد ابن مقرّن وأمره بنزول الحفير وأقام يتجسس أخبار العدو فعلم أن كسرى ازدشير بعث اليه بجيش بقيادة الاندرزغر جالة من العرب الضاحية والدهاقين فسار اليهم خالد ووضع كمينا فالتقوا عند الولجة ولم تلبث إن نشبت بينهم الحرب

حتى خرج الكمين على العدو وأحاطوا به احاطة السوار بالمعصم فقتل منهم من قتل وانهزم من انهزم ومات قائدهم الاندرزغر عطشا في الفلاة

أصيب في هذه الواقعة كثير من نصارى بكر بن وائل فاستنفروا اخوانهم واستمدوا ازدشير فأمدهم ببهمن جازويه وكان بقشينانا وأمره بالقدوم على نصارى العرب باليس فقدم أمامه قائداً اسمه باجان وأمره بالتوقف ليذهب ويشاور ازدشير فيما يفعل فوجده مريضاً فتربص عنده

واما باجان فاجتمع عليه نصارى عجل وتيم اللات وضبيعة وجابر بن بجير وعرب الضاحية فسار اليهم خالد وكانوا على طعامهم فماجاهم عنه فقاموا للحرب فهزمهم شر هزيمة وأكثر فيهم القتل والاسر

ثم بعد هذه الوقعة قصد خالد الحيرة وحمل الاثقال بالنهر ولما بلغها صالحه أهلها بعد مناوشات خفيفة وقد تقدم من خبرها في سيرة أبي بكر ما فيه الكفاية ، وكان فتح الحيرة في شهر ربيع الاول من سنة اثنتي عشرة وكتب لهم خالد كتابا بذلك

ولما انتهى خالد من أمر الحيرة أتته الدهانين من النواحي فصالحوه على ما بين الفلاليج الى هرمزجرد على الفي ألف وقيل ألف ألف سوى ما كان لآل كسرى وبث خالد عماله ومسالحه وبث عيونه وأرصاده وأرسل السرايا فمخروا دجلة الى أرض فارس وأرسل خالد كتبه الى ملك فارس ومرازبتها يدعوهم الى الاسلام وفي غضون ذلك هلك كسرى وعاد أمر الفرس الى الاضطراب يولون ملكا ويعزلون آخر شأن الأمم اذا انحلت رابطتها والدول اذا انتكث فتلها وأذن الله بانصرام أجلها

وبينما الفرس في شاغل الاضطراب أخذ خالد يتمم فتح العراق فسار الى الانبار

وكان بها شيرزاد نخرج لقتاله فلم يفلح وطلب المصالحة فصولح وخرج الى بهمن جازويه ناجياً بنفسه ثم صالح خالد من حول الانبار واستخلف عليها الزبرقان ابن بدر وسار الى عين التمر فاستقبله عاملها للفرس مهران بن بهرام جوبين بجند عظيم من العجم وعقة بن أبي عقة بجمع كثيف من العرب من النمر وتغلب واياد فتقدم العرب لمصادمة خالد فهجم خالد ذلك البطل الصنديد على عقة وهو يقيم صفوفه فاحتضنه كما يحتضن الباشق العصفور وأخذه أسيراً فانهزم العرب بدون قتال وتبعهم بالهزيمة مهران بجنود الفرس وتحصن من في الحصن أما خالد فنازلهم وافتتحه وسبى من فيه فكان من جملة السبي سيرين ابن محمد بن سيرين ونصير أبو موسى بن نصير فاتح الاندلس بعد وروى بعضهم ان نصيراً عربيّ من اراشة من بليّ سبي في أيام أبي بكر فأعتقه بعض بني أمية فصار الى الشام وولد له موسى بقرية هناك تسمى كفر مري

ومنها سار خالد الى دومة الجندل حيث كان يقيم على حصارها عياض ابن غنم الذي أمره أبو بكر أن يأتي العراق من أعلاه وخالد من أسفله نخرج الجودي صاحب دومة الجندل الى خالد بطائفة من قومه وأرسل الى قتال عياض طائفة أخرى فدحر الطائفتان في آن واحد وأخذ المسلمون الحصن ومن فيه

ثم كانت بعد ذلك وقعة الحصيد والخنافس ومضيح البرشاء والثنى والزميل وكانت آخر وقائعه بالفراض وهي تخوم الشام والعراق والجزيرة فاجتمعت عليه هناك جنود الروم والعرب وفارس وقاتلوه فقاتلهم ومزق جموعهم ثم أمر بالرجوع الى الحيرة لخمس بقين من ذي القعدة وسار هو الى مكة فحج وعاد ولحق بساقة الجيش قبل وصوله الى الحيرة على مارواه المؤرخون

كانت هذه الحرب آخر حروب خالد التي اصلى الفرس والعرب في العراق نارها وقضى على ملك الفرس اذ مهد السبيل الى تدويخ فارس وازالة دولة الاكاسرة وقد كانت أعظم الدول حينئذ شأناً وارقاها مكاناً إلا أنها بلغت من الكبر عتياً، ومن فشل السياسة مكاناً قصياً، فجاءها جند الاسلام بادي الشباب ناعم الاهاب فأسس ملكه الجديد في تخوم بلادها لينساح في أحشائها، وينشر دعوة الاسلام في ارجائها، ويقضي قضاءه على الوثنية وأهلها والشرك وبنيه فتتوحد كلمة الأمم في السياسة واللغة والدين وينصر الله حزبه (وكان حقاً علينا نصر المؤمنين)

قد كانت حروب العراق أيام خالد أشد ما لقي المسلمون من حرب الفرس لاجتماع قبائل العرب في العراق وجند فارس على حرب المسلمين حتى لقد كان أهل العراق أيام عليّ اذا بلغهم عن معاوية شيء يقولون نحن أصحاب ذات السلاسل ويسمون ما بينها وبين الفراض ولا يذكرون مابعد الفراض احتقاراً للذي كان بعدها

﴿ أمراء خالد وقواده ﴾

ممن كان له البلاء الحسن في فتوح العراق مع خالدبن الوليد من أمراء الجند الذين كان يبعث معهم بالسرايا يدعون الى الاسلام أو الجزية ويقاتلون من امتنع عن قبول احدى الخصلتين، المثنى بن حارثة الشيباني وبشير بن سعد الانصاري وحنظلة بن الربيع التميمي المعروف بحنظلة الكاتب والنسير بن دسيم بن ثور وجرير بن عبد الله البجلي وضرار بن الازور وضرار بن الخطاب والقعقاع بن عمرو وعتيبة بن النهاس وغيرهم من أهل النجدة والباس، والاربعة الأخيرون كانوا من أمراء الثغور

﴿ جغرافية العراق ﴾

قالوا سمي العراق عراقا تشبيها له بعراق القربة وهو الخرز الذي من اسفلها وهو على ضفتي دجلة ويحد العراق شمالا الجزيرة وكردستان ، وشرقا بلاد العجم وجنوبا خليج العجم المسمى (أيضاً بحر فارس) والبادية، ويفصل العراق عن الجزيرة بخط مفروض من فلوجة على الفرات بقرب الانبار الى بغداد ومن ثم على شرقي دجلة الى مصب نهر الزاب الاصغر فيها ويفصل بينه وبين بلاد فارس سلسلة جبال خوزستان الممدة جنوبا من جبال كردستان

وكان العراق من قديم الزمان من مواطن العرب من بكر بل كلّ الجزء الواقع بين دجلة والفرات وهو العراق والجزيرة كان قبل الاسلام من مواطن العرب من ربيعة وبكر و بطونها وكانت للعرب دولة فى العراق وهي دولة المناذرة تدفع الاتاوة الى الفرس كما كان لهم دولة فى الشام وهي الدولة الغسانية تدفع الاتاوة الى الروم فلما جاء الاسلام قضى على دولتي المناذرة رغسان كما قضى على دولتي الروم والفرس

﴿ باب ﴾

(سفره الى الشام وحروبه فيها)

تقدم معنا فى سيرة أبي بكر رضي الله عنه ان جنود المسلمين فى الشام اجتمعوا فى اليرموك وأخذوا يطاولون العدو ويطاولهم وكتبوا الى أبي بكر يستمدونه فكتب أبو بكر الى خالد بن الوليد ان يسير بنصف الناس الى الشام ويستخلف على النصف الآخر المثنى بن حارثة الشيباني فصدع خالد بالامر وسار فى ربيع الاول ويقال في ربيع الآخر سنة ١٣ وكان مسيره من الحيرة على قول بعضهم وبعضهم قال انه سار عن عين التمر ولما سار استخلف

على العراق المثنّى بن حارثة الشيباني وقال له (ارجع رحمك الله الى سلطانك فغير مقصّر ولا وان)

وقد كان المثنّى استأذن أبا بكر بحرب من حوله من الفرس كما قدمنا فأذن له وولاه جند العراق ثم أرسل خالداً الى العراق وأمر المثنّى بالسمع والطاعة له ولما سار خالد الى الشام عادت امارة الجند الى المثنّى وكان خير كفؤ لها بعد خالد بن الوليد

سار خالد بمن معه من جند الاسلام وكانوا ستة آلاف على رواية بعضهم وتسعة على رواية البعض الآخر وقال بعضهم ان أبا بكر أمره ان يأخذ معه أهل النجدة فسار بخمسمائة ولعل الرواية الأولى أصح وأغار في طريقه على جمع من تغلب وكلب على ماء يسمى قراقر ومن ثم أخذ بجيشه طريق المفازة مع خطر السير فيها لفقد الماء منها وقال له الدليل واسمه رافع بن عميرة الطائي انك لن تطيق قطع المفازة بالخيل والاثقال فقال لا بد لي من ذلك لأخرج من وراء جموع الروم ، واحتاط لقطع المفازة بأن أمر صاحب كل جماعة ممن معه بأخذ الماء للشبعة لخمس وان يعطش من الابل الشرف ما يكتفي به ثم يسقوها عللا بعد نهل والعلل الشربة الثانية والنهل الاولى ثم يصروا آذان الابل ويشدوا مشافرها لئلا تجتر ثم ركبوا من قراقر فلما ساروا يوماً وليلة شقوا لعدة من الخيل بطون عشرة من الابل فمزجوا ما في كروشها بما كان من الالبان وسقوا الخيل ففعلوا ذلك أربعة أيام وفى اليوم الخامس انتهوا الى سوى فأغار خالد على جمع من بهراء ثم أتى أرك ثم أتى تدمر فتحصن أهلها ثم صالحوه ثم أتى القريتين [1]

---

(١) تدمر قد أصبحت الآن بعد مجدها القديم قرية يحيط بها جماعة العرب الرحل ولكن لم يزل هيكلها المشهور قائماً ينطق عما بلغته من العظمة فى قديم الزمان وبينها وبين

فقاتل أهلها نظفر بهم ثم فعل مثل ذلك بحوّارين

وروى الطبري انه سار منها الى قصم وقاتل بني مشجعة ثم سار الى ثنية العقاب[١] قرب دمشق ناشراً رايته وهي راية سوداء وكانت لرسول الله صلى الله عليه وسلم وبها سميت الثنية ثم سار فأتى مرج راهط[٢] فأغار على غسان يوم فصحهم وأرسل بسر بن أبي ارطاة وحبيب بن مسلمة الفهري من قريش فأغار على قرى الغوطة ثم سار خالد ونزل بالجابية وقيل بالباب الشرقي من دمشق فأخرج لهم بطريقها نزلاً وخدمة وقال احفظ لي هذا العهد فوعده بذلك وكتب له به كتابا

ثم سار خالد من دمشق الى بصرى (من عمل حوران وهي الآن مركز حكومة قضاء)[٣] فقيل انه وجد عليها ابا عبيدة بن الجراح وقيل وجد يزيد ابن أبي سفيان فافتتحها وبعث باخماسها الى أبي بكر ثم سار فطلع على المسلمين في ربيع الآخر وقد اختلف المؤرخون في هل كان المسلمون في اليرموك (شمال جبل عجلون) أم فى اجنادين من عمل فلسطين فقال أبو جعفر الطبري ان وقعة اجنادين كانت بعد اليرموك

دمشق الشام سبعة مراحل وبينها القريتين وهي على مرحلتين منها وقال ياقوت أنها هي حوارين التي مر عليها خالد وفيه نظر

(١) قال ياقوت وهي ثنية مشرفة على غوطة دمشق يطأها القاصد من دمشق الى حمص اه ولعلها التي تسمى الآن الثنايا

(٢) هو المرج الواقع شرقي دمشق مما يلي الغوطه

(٣) القضاء فى عرف الحكومة العثمانية هو ما دون اللواء او المصرفية التى تجمع لرئاستها بضعة أقضية والمتصرفية ما دون الولاية التي تجمع الى رئاستها بضع متصرفيات أو ألوية

وأورد البلاذري فى فتوح البلدان خبر اجنادين قبل اليرموك وقال ان وقعة اجنادين كانت فى جمادى الأولى أو جمادى الآخرة سنة ١٣ وان وقعة اليرموك كانت سنة ١٥ مع ان اكثر المؤرخين ومنهم ابن الاثير قالوا ان وقعة اليرموك كانت فى سنة ١٣ وقد تقدم معنا تعليل ذلك الاختلاف فى سيرة أبي بكر رضي الله عنه فلا حاجة للاعادة وانما نذكر هنا ما اعتمده معظم المؤرخين من ان واقعة اليرموك كانت قبل اجنادين وفيها التقى خالد بن الوليد بالمسلمين

قال بعض المؤرخين ان خالداً لما كتب اليه أبو بكر بقصد الشام أمره على جميع الجند وقال بعضهم بل أمره على جنده فقط والظاهر ان الرواية الثانية أصح لما ذكره ابن الاثير والطبري من ان خالداً لما انتهى الى المسلمين فى اليرموك وجد الامراء متساندين كل أمير على جنده فرغب اليهم ان يؤمروه عليهم جميعاً فأمروه واليك البيان

لما اجتمع المسلمون فى اليرموك كان عددهم سبعة وعشرين الفاً فيهم الف صحابي وكان الروم فى مائة ألف وفى رواية انهم كانوا فى مائتي ألف مقاتل وكان قتال المسلمين لهم على تساند كل أمير على جنده لا يجمعهم أمير ولا يخفى ما فى هذا من الوهن واختلاف الرأي وتجزء القوّة بتجزء الامارة وتعددها ولما جاء خالد بن الوليد وحضر المعارك مع المسلمين رأى ان القتال على هذا الوجه غير مجد نفعاً مع كثرة العدوّ عديداً وعدةً وان لابد فى نيل الظفر من حزم الرأى واجتماع الكلمة وكان الروم يومئذ قد تهيئوا للقتال الذى لم يكن بعده قتال وذلك لليلتين بقيتا من جماد الاولى وقيل فى جمادى الآخرة فاراد المسلمون الخروج اليهم متساندين فقام فيهم خالد فقال بعد ان حمد الله واثنى عليه

هـذا يوم من أيام الله لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي اخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم فانّ هذا يوم له ما بعده ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية وأنتم متساندون فان ذلك لايحل ولا ينبغي وان من ورائكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون انه رأى من واليكم ومحبته : قالوا هات فما الرأي ؟

فأشار عليهم بأن يتناوبوا الامارة العامة وان يؤمروه عليهم في ذلك اليوم فأمروه وهم يظنون انها كخرجاتهم وان الامر يطول

من هذه الرواية نعلم ان خالداً لم يكن أميراً عاماً على الجيش وانما كان أميراً على جنده فقط ولو كان أميراً عاماً لما ترك الروم يطاولون في القتال بل لدبّر الامر لدحرهم منذ وصوله الى اليرموك

لما تسلم خالد زمام القيادة العامة أخذ في تعبية الجيش تعبية لم تعبِ العرب مثلها قبل ذلك فجعل القلب كراديس وأقام فيها أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وشرحبيل بن حسنة والميسرة كذلك وعليها القعقاع ابن عمرو ويزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس رجلا من الشجعان وجعل على الطلائع قباث بن أشيم ولما تم له ترتيب الجيش على ذلك النمط خرج للعدو بأربعين كردوساً وأمر عكرمة بن أبي جهل والقعقاع بن عمرو فأنشبا القتال وأظهر الروم من البسالة وقوة الجاش والصبر على الحرب ما كاد يزيل المسلمين عن مواقفهم وقاتل خالد بن الوليد وشجعان المسلمين قتالا عظيما امام فسطاس خالد حتى دحروا الروم فتضعضعوا ونهد خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم فانهزم فرسان الروم فافرج لهم المسلمون واما الرجالة فالذى نجا نجا والذى قتل قتل وتم النصر للمسلمين بعد ان اصيب

منهم عدد غير قليل من سادات قريش وأقيال الصحابة كما اصيب بمثل هذا أشراف الروم الذين فضلوا الموت دفاعاً عن الحوزة على القرار فقتلوا جميعاً

ولو أنصف الروم انفسهم والمسلمين لقبلوا احدى الخصلتين (الاسلام أو الجزية) وكفوا جنودهم عناء الحرب مع قوم قد مهد الله لهم سبيل النصر على الامم بما يحملون من معجزات القرآن وآيات البيان المؤذنة بهدم اركان الظلم ومحو آثار السيطرة الجائرة التي امتد يومئذ على الناس رواقها واخذت من الامم الخاضعة لسلطان الفرس والروم بخناقها ولكن انى ينصف قادة الشعوب وزعماء السيطرة اذا احسوا بيد تمس جانب كبريائهم، وتقلل من غلوائهم، وتعين حدود سيطرتهم، وتأخذ عن الاسترسال في الشهوات بأعنتهم، وما قتل الامم، وساق النفوس الى مصارع الهلكة، وزعزع دعائم العمران في كل زمان، الاهذه الفئة الجائرة التي انتحلت لأنفسها حق السيادة المطلقة على الاشخاص والنفوس واذاقت الانسان انواع الشقاء والبؤس

﴿ عزله عن الامارة ﴾

بينما كان المسلمون في ذلك اليوم المشهود اي يوم اليرموك في اشد حالات الحرب واشتداد الطعن والضرب جاء البريد من المدينة ينعي وفاة أبي بكر ويخبر باستخلاف عمر بن الخطاب ومعه امر بعزل خالد بن الوليد وتوسيد امارة الجيش العامة الى أبي عبيدة بن الجراح فكتم ذلك ابو عبيدة ريثما تم النصر للمسلمين هذا على رواية بعض المؤرخين وعلى رواية بعضهم ان البريد جاءهم وهم على حصار دمشق ومن جعل واقعة اجنادين قبل اليرموك روى مجيء البريد وهم في اجنادين والصحيح ان عزل خالد وتأمير أبي عبيدة انما جاءهم وهم على دمشق كما يظهر ذلك من كتاب عمر بن الخطاب لأبي

عبيدة كما ستراه مبسوطاً في خلافة عمر رضي الله عنه وروى الطبري ان أبا
عبيدة كتم عن خالد خبر عزله ريثما فتح دمشق وكتب لاهلها عهداً فامضاه
له وعلى اي حال كان فان خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه حضر بعد امارته
هذه معظم فتوح الشام متطوعاً وقال بعضهم انه حضر بعض فتوح ارمينيا
أيضاً وكان المسلمون يستمدون رأيه في الحروب ويقدمونه على امرائهم ساعة
الحاجة وكان أبو عبيدة يوليه الجيوش للفتح ولما فتح في امارة أبي عبيدة
قنسرين التابعة لولاية حلب وانتهى الخبر بذلك الى عمر قال (امرّ خالد نفسه
يرحم الله أبا بكر هو كان اعلم بالرجال مني)

واما سبب عزله فأمران الأمر الاول ما كان في نفس عمر بن الخطاب
عليه منذ قتل مالك بن نويرة والأمر الثاني وهو الأهم اقبال جند المسلمين
على خالد بن الوليد وحبهم له واستماتتهم بين يديه في كل مشاهده في العراق
والشام وذلك ليمن نقيبته في الحروب . وشجاعته التي ارهبت القلوب . وقد
علم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك فخالج فؤاده شيء منه وخشي من اقبال
الناس عليه لا سيما وان في نفس خالد من جهته ما في نفسه من جهة خالد
منذ قرعه ذلك التقريع الشديد عقب حادث مالك بن نويرة لهذا بادر عمر
رضي الله عنه الى عزله قبل ان يصل خبر توليه منصب الخلافة الى المسلمين
وخالد أمير على جيش عظيم منهم وهذا الذى خالج نفسه عمر بن الخطاب
رضي الله عنه من جهة خالد بن الوليد لم يكتمه عنه بل اظهره اليه فقد روى
انه استدعاه بعد عزله الى المدينة فعاتبه خالد فقال له عمر (ما عزلتك لريبة
فيك ولكن افتتن بك الناس فخفت ان تفتتن بالناس) وهذا صريح في ان عمر
رضي الله عنه خشي من ان تحدث خالداً نفسه بشيء فيشق عصا المسلمين

وهو نظر سديد ومرمى بعيد من عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه الاّ ان خالد بن الوليد وغيره من سادات قريش وأمراء المسلمين كانوا في زمن أبي بكر وزمن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أبعد الناس عن الفتنة وألزمهم للطاعة لقرب العهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشدة حزم هذين الخليفتين في السياسة ورهبتهما التي حلت في القلوب وعدا هذا فان خالد بن الوليد لما مات أبو بكر زال من نفسه ما كان يجده على عمر فقد روى الطبري ان خالداً لما بلغه موت أبي بكر قال (الحمد لله الذي قضى على أبي بكر الموت وكان أحبّ اليّ من عمر والحمد لله الذي ولى عمر وكان أبغض اليّ من أبي بكر ألزمني حبه) والظاهر ان ما خالج فؤاد خالد من حب عمر لما ولى الخلافة عمه فيما بعد عمر بن الخطاب لهذا لما عزله وقال له ما عزلتك لريبة فيك كتب بذلك الى الامصار دفعاً للتهمة عنه

وهي احسن شهادة تحفظ كرامة خالد بن الوليد وتقدر قدر خدمته للاسلام والمسلمين وهو والله اجدر برفع الذكر وتشريف القدر فرضي الله عنه وعن الصحابة اجمعين

وروى الطبري ان عمر بن الخطاب لما عزل خالدا صادره على نصف ماله وذلك شأنه مع أكثر العمال كما سترى في سيرته لانه كان يرى ان ما يجمعونه من المال انما هو حق المسلمين فينبغي ان يؤخذ منهم ويرد لبيت مال المسلمين

باب

حزم خالد وتوفيقه في الحرب

قلّ ان يوجد قائد في العالم يوفق الى النصر في كل وقائعه كما وفق خالد

ابن الوليد رضي الله عنه فان التاريخ لم ينبئنا عن انخذاله ولا في وقعة واحدة من وقائعه مع أهل الردة أو في العراق والشام وهذا انما هو من نتائج الحزم والشجاعة والبصيرة بأمور الحرب فقد كان دائم اليقظة مراقباً لحركات العدو يترقب الفرص ويسدد سهم الفكر الى الغرض البعيد فلا يخطىء مرماه وقد رأيت كيف فلّ جموع الروم في اليرموك وكشف عن المسلمين سحب الضيق والحيرة منذ سلموا قيادهم اليه، وجعلوا اعتمادهم في تدبير الحرب عليه، مع ان فيهم من الصيد الصناديد وأهل البصيرة والرأي يومئذ نفر اولو شهرة في الحرب في الجاهلية والاسلام كعمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح ويزيد ابن سفيان وأضرابهم من كماة الاسلام وقادة الجيوش العظام

وروى الطبري ان خالداً لما كان مع أبي عبيدة على حصار دمشق ترك الاعداء ليلة مواقفهم على الاسوار لوليمة أعدها لهم البطريق فلم يعلم بذلك أحد من المسلمين إلا خالد بن الوليد فانه كان لاينام ولا ينيم ولما وقف على جلية الأمر تقدم بنفسه مع نفر من ثقات أصحابه الى السور وصعد الى أعلاه بالسلاليم وكبر فكبر أصحابه وافتتحوا الباب ففتحه لهم وكان النصر

ومن هذا التيقظ تعلم سر توفيقه في الحروب وانتصاره على الاعداء ونفاذ الرهبة من سطوته في القلوب وحق والله لقائد مثله ان يخلد ذكره على صفحات الزمان ويشاد له من جميل الاثر أعظم بنيان

﴿ باب ﴾

(كتبه)

١

كتب الى ملوك الفرس بعد تدويخ ملكهم في العراق يدعوهم الى الاسلام كتاباً هذه صورته

(أما بعد) فالحمد لله الذى حلّ نظامكم . ووهن كيدكم ، وفرق كلمتكم ، ولو لم نفعل ذلك كان شراً لكم ، فادخلوا في أمرنا ندعكم وأرضكم ونجيزكم الى غيركم ، وإلا كان ذلك وأنتم كارهون على أيدي قوم يحبون الموت كما تحبون الحياة اهـ

٢

وكتب الى المرازبة والقواد كتاباً هذه صورته

(أما بعد) فالحمد لله الذى فض حدتكم ، وفرّق كلمتكم ، وكسر شوكتكم ، فاسلمو تسلموا وإلا فاعتقدوا فيّ الذمة وأدوا الجزية والاّ فقد جئتكم بقوم يحبون الموت كما تحبون شرب الخمر اهـ

٣

ولما كان مع أبي عبيدة على حصار دمشق كان الاسقف الذى أقام له النزول يوم مروره على دمشق في أثناء ذهابه لمعونة المسلمين في اليرموك ربما وقف على السور فدعي له خالداً فاذا أتى سلم عليه وحادثه فقال له ذات يوم يا أبا سليمان ان أمركم مقبل ولي عليك عِدة فصالحني عن هذه المدينة فدعا

خالد بداوة وقرطاس فكتب

(بسم الله الرحمن الرحيم) هـذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق اذا دخلها أعطاهم أمانا على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لايهدم، ولا يسكن شيء من دورهم، لهم عهد الله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنين لايعرض لهم إلا بخير اذا اعطوا الجزية اه

هذا مارواه البلاذري بشأن هـذا الكتاب وهو يؤيد انه كان يومئذ أميراً على جنده وان خبر عزله انما أتاهم وهم على دمشق وانما كتمه عنه أبو عبيدة بن الجراح ريثما تم الفتح وقـد روى بعض المؤرخين ان أبا عبيدة اجاز كتاب خالد هذا بعد ان فتحت دمشق وأخبر خالد بالعزل

٤

وكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم لما بعثه الى بني الحارث بن كعب (بسم الله الرحمن الرحيم) لمحمد النبي رسول الله صلى الله عليه وسلم من خالد بن الوليد السلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته فاني أحمد اليك الله الذي لااله الاّ هو (أما بعد) يا رسول الله صلى الله عليك فانك بعثتني الى بني الحارث بن كعب وأمرتني اذا أتيتهم إلاّ اقاتلهم ثلاثة أيام وان أدعوهم الى الاسلام فان أسلموا قبلت منهم وعلمتهم معالم الاسلام وكتاب الله وسنة نبيه وان لم يسلموا قاتلتهم واني قدمتُ عليهم فدعوتهم الى الاسلام ثلثة أيام كما أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعثت فيهم ركباناً يابني الحارث أسلموا تسلموا فاسلموا ولم يقاتلوا وأنا مقيم بين أظهرهم وآمرهم بما أمرهم الله به وأنهاهم عما نهاهم عنه وأعلمهم معالم الاسلام وسنة النبي صلى الله عليه وسلم حتى يكتب إليَّ رسول الله والسلام عليك يارسول الله ورحمة الله وبركاته

٥

وكتب في صلح الحيرة كتاباً هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد عديا وعمراً ابني عديّ وعمرو بن عبد المسيح وإياس بن قبيصة وحيرىّ بن أكّال [١] نقباء أهل الحيرة ورضي بذلك أهل الحيرة وأمروهم به ، عاهدهم على تسعين ومائة الف درهم كل سنة جزاء عن أيديهم في الدنيا رهبانهم وقسيسهم إلا من كان منهم على غير ذي يد حبيساً عن الدنيا تاركاً لها [٢] وعلى المنعة فان لم يمنعهم فلا شيءَ عليهم حتى يمنعهم وان غدروا بفعل أو بقول فالذمة منهم بريئة وكتب في شهر ربيع الاول من سنة اثنتي عشرة وشهد فلان وفلان

٦

وكتب الى دهاقين السواد كتاباً هذه صورته

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من خالد بن الوليد لزاذ بن بهيش وصلوبا بن نسطونا انّ لكم الذمة وعليكم الجزية وأنتم ضامنون لمن نقبتم عليه من أهل البهقباذ الاسفل والاوسط على الفي الف تقبل في كل سنة ثم كل ذي يد سوى ما على بانقيا وباروسما (وفي رواية بدما) وانكم قد أرضيتموني والمسفين وإنا قد أرضيناكم وأرض البهقباذ الاسفل ومن دخل معكم من أهل البهقباذ الاوسط على أموال ليس فيها ما كان لآل كسرى ومن مال ميلهم شهد فلان وفلان وكتب سنة اثنتي عشرة في صفر اه

---

(١) وفى رواية جبري

(٢) وفى رواية وسائحاً تاركا للدنيا

﴿ (١) كلمة على الذمة أو اصل الامتيازات ﴾

اعلم ان هذه الكتب وكل ما أعطي من الصحابة من كتب العهد لأهل الذمة سواء كانوا في العراق أو في الشام أو غيرها كانت أصولاً ثابتة في معاملة أهل الذمة والعهد من الرعية غير المسلمين وعهوداً مكينة في جباية الخراج استمر العمل بها مدة الخلفاء من بني أمية وصدراً من خلافة بني العباس حيث صار الناس غير الناس واختلط السكان واتسعت أصول الجباية باتساع العمران في الخلافة العباسية وعلى تلك الكتب بني الفقهاء كثيراً من القواعد في معاملة أهل الذمة وعلة ذلك كله الحديث الشريف الذي مر معنا ذكره في هذا الكتاب وقد جاء فيه (ان المسلمين يسعى بذمتهم أدناهم) بمعنى ان كل ما أعطاه أحدهم من عهد لاسبيل لنقضه بل يؤكده الآخر وهذه قاعدة من اسمى القواعد التي جاء بها الاسلام لحماية الأمم التي تخضع لسيادة المسلمين من اذى أرباب السيطرة ومنعهم من كل من يريدهم بسوء ماداموا في عهد المسلمين وذمتهم لا يمالئون عليهم عدواً ولا يخونون لهم جواراً ويعطونهم مافرضوه على أنفسهم ورضوا به من الجزية أو أي نوع تراضوا عليه من المال في نظير هذه الحماية وهو تناه في العدل في حكم الأمم المغلوبة لم يسمع بمثله في تاريخ الدول الفاتحة لافي ذلك الزمن وما قبله ولا الآن بل جرت سنة كثير

---

(١) نريد بهذه الامتيازات ما يسمونه امتيازات الكنائس او امتيازات المسيحيين الخاضعين للحكومة الاسلامية (وهي الذمه) لا امتيازات الاجانب فان هذه تسمى (عهداً) واهلها يعبر عنهم بالمعاهدين وهذه أيضاً قد استفحل مع الزمان امرها واستشرى شرها سيما في المملكة العثمانية التي عاث فيها الاجنبي بتلك الامتيازات وتوسعت الدول المعاهدة بها حتى جعلتها حقاً ثابتاً لها قبل الدول العلية بعد ان كانت منحاً وعهوداً حبية وسيأتي الكلام عليها في الاجزاء التالية ان شاء الله

من الدول الفاتحة واخصها الدول المتمدنة الغربية في هذا العصر ان تحكم الامم المغلوبة لها الخاضعة لسلطانها بغير ما تحكم به في بلادها وأبناء جنسها وملتها وتعاملهم معاملة الرفيع للوضيع والغالب القاهر للمغلوب الضعيف لا ان تشترط على نفسها حمايتهم وتكتب لهم العهود والمواثيق

ولقد كان المسلمون يومئذ في إبان عزهم وجدة دولتهم وبسطة جاههم وقوتهم ولم يعملوا بتلك القاعدة لوهن في نفوسهم أو هيبة من عدوهم بل عملا بشرعهم واتباعاً لأمر نبيهم ، وأي عصر من عصور الفتح كان انفذ هيبة وأبسط قوة وأعظم سلطانا وأكثر فتحاً من عصر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومع هذا فقد كانت كل البلاد التي خضعت لسلطان المسلمين بالرضا والاختيار يومئذ يأخذ أهلها من قواد الجيوش العهود التي تتكفل بحماية نفوسهم وأملاكهم واعراضهم وحرية دينهم ولا يستطيع أحد من القواد أو العمال ان ينقض عهداً من تلك العهود إلا ان خان أصحابه المسلمين

روى البلاذري في تاريخه فتوح البلدان ان عمير بن سعد (الانصاري أحد كبار الفاتحين) قدم على عمر بن الخطاب وقال له ان بيننا وبين الروم مدينة يقال لها عربسوس وان أهلها يخبرون عدونا بعوراتنا ولا يظهرونا على عورات عدونا ولهم علينا عهد، واستشاره في أمرهم فقال عمر فاذا قدمت نخيرهم ان تعطيهم مكان كل شاة شاتين ومكان كل بقرة بقرتين ومكان كل شيء شيئين فاذا رضوا بذلك فاعطهم إياه واجلهم واخربها فان أبوا فأنبذ اليهم وأجلهم سنة ثم اخربها

فانظر كيف ان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه أبى ان ينقض عهد هؤلاء القوم الذي أعطاهم مع انهم نقضوا عهدهم وخانوا دولة المسلمين الحاكمة

عليهم وقد كان في وسع هذا الخليفة العظيم ان يبدد نظامهم ويريهم جزاء عملهم باجلائهم عن بلادهم سواء كان معهم منه عهد أو لم يكن لأنهم خانوا المسلمين والخائن لا عهد له ومع هذا فقد أبى عدله ودينه ان يجليهم عن بلادهم إلا بعد تعويض ما يفقدونه من المال والمتاع ضعفين

وما زال الخلفاء في كل عصر قائمين بالوفاء بعهود أهل الذمة فيما يتعلق بنوع الجزية ومقدارها كما جاء في كتب العهود التي بأيديهم من الصحابة حتى تغير السكان ودان معظمهم بالاسلام وتنوسيت تلك الكتب وفقدت وأمّا ما يتعلق بحماية أهل الذمة حيث كانوا وحماية أموالهم واملاكهم وحرية معتقدهم فهذه لما كانت لا تفتقر الى المحافظة على أمثال تلك الكتب اذ هي قاعدة أساسية في الاسلام فقد استمر العمل بها الى الآن الأ ما كان أيام ملوك الطوائف ربما أصاب أهل الذمة من جورهم ما أصاب أهل الاسلام ولما آلت الدولة الى آل عثمان توسع بعضهم بتلك المنح الاسلامية وأخصهم المرحوم السلطان محمد الفاتح بما أعطاه لبطريرك القسطنطينية من المنح التي تشبه ترتيب حكومة مسيحية داخل الحكومة الاسلامية ولا يحمل ذلك منه على غير التلطف والمجاملة وحسن الصنيع ولكن عمله ذلك كان أشبه بحلقة صارت بعد ذلك سلسلة كثيرة الحلقات اذ جعلت الدول الاوربية من ذلك الحين تستزيد لمسيحي الشرق من أمثال تلك المنح حتى توسع الدول بعدُ باسمها فسموها امتيازات ومازالت تتشعب هذه الامتيازات وتعظم حتى تناولت الذمي والمعاهد وحتى زال من نفوس الحائزين لها اعتبار كونها منحاً نالوها من دول الاسلام عملاً بالشرع الاسلامي لا تميزاً لأهل الذمة عن المسلمين ولا رهبة من دولة من الدول وكان من ذلك ان وقع الجفاء بين المسلمين وبين الطوائف

المسيحية المحكومة بالدولة العثمانية وزالت من النفوس الثقة المتبادلة بين الفريقين من قديم الزمان بسبب تحرش الدول الاوربية بالدولة العثمانية بحجة المحافظة على حقوق المسيحيين التي تكفل بالمحافظة عليها الشرع الاسلامي نفسه وجعل لغير المسلم من الحقوق مثل ما للمسلم فما أخلق تلك الدول المتمدنة ان تعطي للمحكومين منها من المسلمين ولو جزأً مما يعطي الاسلام للمحكومين من دولة من المسيحيين ثم تطالب بعد ذلك الدول الاسلامية بحقوق رعاياها المسيحيين وهيهات هيهات ان تغلب الفضيلة على الشهوات ويبلغ العدل عند الدول الاوربية مبلغه في الاسلام

باب

وفاته وولده

اختار خالد بن الوليد بعد ان أتم فتوحه في العراق والشام ان يسكن الشام فاتخذ مقراً له حمص وفيها توفى سنة احدى وعشرين في خلافة عمر وقال بعضهم انه توفى في المدينة وليس يثبت ومدفنه لم يزل معروفاً يزار الى الآن في حمص وهو ضمن مسجد واقع خارج السور الى الجهة الشمالية من حمص وقد اتصل به العمران وصار حوله لهذا العهد حيٌّ يسمى (حي سيدي خالد) كما يسمى المسجد أيضاً مسجد سيدي خالد وقد زرته مرة فوجدت عليه من المهابة والوقار ما يأخذ بمجامع القلوب التي يعرف أصحابها أقدار الرجال، ويتأثرون بذكرى عصر أولئك الابطال

لما حضرت خالداً الوفاة قال لقد شهدت مائة زحف أو زهاءها وما في بدني موضع شبر الاّ وفيه ضربة أو طعنة وها أنا أموت على فراشي كما يموت

الدير فلا نامت أعين الجبناء ، وما من عمل ارجى من لا اله الله وأنا متترّس بها)

فلله ما أعظم هذه النفس التي استهانت في سبيل المجد بالحياة حتى ماتطيق الموت على فراش السكون ، وتأبى ان تذوق في غير مواقف الحرب كأس المنون ، ولا جرم انجسما ليس فيه موضع شبر الاّ وفيه طعنة برمح أو ضربة بسيف لجسم فيه نفس عالية تحار في مرادها الاجسام ، وتمنى لقاء الموت فيحجم عنها في ساحات الصدام ، وهذا هو السر في أن حياة الابطال العظام عزيزة طويلة ، وحياة الانذال الجبناء ذليلة قصيرة [١]

وأوصى خالد قبل وفاته الى عمر وحبس فرسه وسلاحه في سبيل الله ولما مات اجتمع نساء بني المغيرة يبكين عليه فلما بلغ ذلك عمر قال (ما عليهن ان يبكين أبا سليمان مالم يكن نقع أو لقلقة) وقيل انه لم يبق امرأة من بني المغيرة الاّ جزّت لمتها وحلقت رأسها حزنا على ذلك البطل العظيم الذي يحق ان تبكيه الرجال والنساء ، ويذكره المسلمون بأشرف أعماله صباح مساء .

﴿ ولده ﴾

روي ابن قتيبة انه كان لخالد ولد كثير فقتل الطاعون منهم أربعين رجلا فبادروا وقال في أسد الغابة أخرج الثلاثة عن الزبير بن بكار ان ولد خالد بن الوليد انقرضوا فلم يبق منهم أحد وورث أيوب بن سلمة دورهم بالمدينة

ويوجد لهذا العهد قبيلة رحالة في جهات حمص تسمى بني خالد ادعى بعض مشائخها من بضع سنين انها تنتسب الى خالد بن الوليد لاغراض لامحل لذكرها هنا وهي دعوى كاذبة ليس عليها دليل اذ ولد خالد انقرضوا جميعهم في الصدر الاول كما علمت والله أعلم

(١) نريد بهذه الحياة حياة الذكر

انتهى الجزء الاول وفيه سيرة أبي بكر ومن اشتهر في دولته ويليه الجزء الثاني وفيه سيرة عمر ومن اشتهر في دولته رضي الله عنهم أجمعين اه

﴿ تنبيه ورجاء ﴾

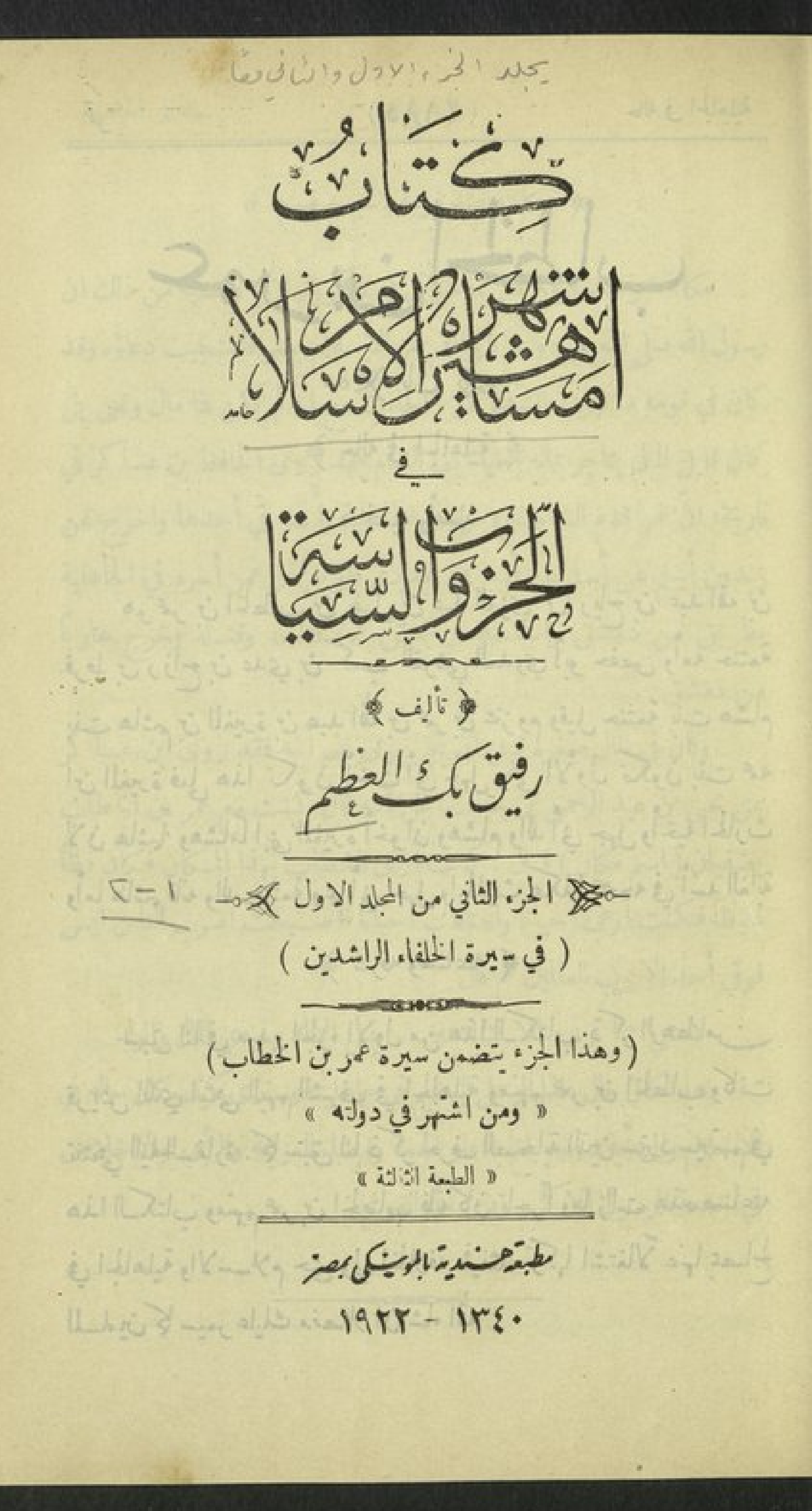
قد اخترت ان أنشر هـذا التاريخ أجزاء متوالية لفائدتين (الفائدة الأولى) سهولة نشر الكتاب وتعميمه (والفائدة الثانيـة) اطلاع القراء على الكتاب جزأً بعد جزء حتى اذا رأى أحد منهم خطأً في الجزء الواحد ينبهني الى اصلاحه في الجزء الذي يليه لهذا فاني أرجو ممن يطلع على هذا الجزء من السادة العلماء والكتاب والادباء ويرى فيه خطأً في النقل ، أو سهواً عن حقيقة ، أو غموضاً في قول ، أو ضعفاً في رأي ، أو ما أشبه ذلك من أغلاط قد لا يسلم منها كتاب ، ولا يعصم عنها مؤرخ ، أن ينبهني اليه ، ويتفضل عليّ ببيان وجه الخطأ فيه لا بادر الى اصلاحه في الجزء الذي يليه ، اذ العصمة لله وحده والمرء ضعيف بنفسه قويّ بأخيه

﴿ أيضاً ﴾

نفدت الطبعة الثالثة من هـذا الجزء فاعدت طبعه مصححاً على قدر الامكان وكان بودي التبسط في بعض المباحث واضافة أشياء خطرت لي من سيرة أبي بكر لـكن منعني من ذلك اتصال اعداد صحف هذا الجزء بالاجزاء التي تليه الى تمام المجلد الاول فلو زدت فيه شيئاً لاختل ترتيب الفهرس كما لا يخفى وما أشد هذا التقيد على النفس

فهرست

الجزء الاول من اشهر مشاهير الاسلام



يجلد الجزء الاول والثاني معا

كتاب
اشهر مشاهير الاسلام
في
الحرب والسياسة

﴿ تأليف ﴾

رفيق بك العظم

الجزء الثاني من المجلد الاول ١ - ٢

(في سيرة الخلفاء الراشدين)

(وهذا الجزء يتضمن سيرة عمر بن الخطاب)

« ومن اشتهر في دولته »

« الطبعة الثالثة »

مطبعة هندية بالموسكي بمصر

١٣٤٠ - ١٩٢٢

عمر بن الخطاب

باب

حاله في الجاهلية

« نسبه وأصله »

هو عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزي بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب القرشي العدوي أبو حفص وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم وقيل حنتمة بنت هشام ابن المغيرة فعلى هذا تكون أخت أبي جهل وعلى الأول تكون بنت عمه لان هاشماً وهشاماً ابني المغيرة أخوان وهشام والد أبي جهل وأخيه الحارث وأما هاشم فانه والد حنتمة وعم أبي جهل والحارث هكذا صححه في أسد الغابة

شرفه وصناعته

سبق لنا في صدر الجزء الاول من هذا الكتاب ذكر الرهط من قريش الذي انتهى اليهم الشرف في الجاهلية ومنهم عمر بن الخطاب وكانت تنتهي اليه السفارة . كما سبق لنا ذكر حرف الصحابة الذين سترد سيرتهم في هذا الكتاب ومنهم عمر بن الخطاب فانه كان تاجراً وما زالت هذه صناعته في الجاهلية والاسلام حتى ولي الخلافة فحينئذ تركها اشتغالاً عنها بمصالح المسلمين كما سيمر عليك مفصلا ان شاء الله

﴿ مكانته عند قومه وسيرته فيهم ﴾

مكانة عمر عند قومه تعلم مما سيأتي في ذكر اسلامه وحسبه من ذلك ان رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا ان يعز الاسلام بعمر فاستجيب دعاؤه وقد كان في قومه مشهوراً بالشدة عزيز الجانب مع انه لم يكن ذا مال وغنى بل كان قليل المال يتاجر بماله أحياناً الى الشام فقد روى الحافظ بن عساكر في تاريخه ان عمر قدم الشام غير مرة في الجاهلية وأُسر في أحدها واخرج عن زيد بن أسلم عن أسلم عن أبيه في حديث طويل ان عمر أسره في الجاهلية بطريق من دمشق واستعمله في بعض عمله فتغفله وقتله وخرج هارباً من دمشق

وكان في حال صغره قبل ان يتجر يرعى غنم أبيه فقد روى ابن عساكر عن يحيي بن عبد الرحمن بن حاطب عن أبيه قال كنت مع عمر بن الخطاب بضفيان (اسم مكان) فقال: كنت أرعى للخطاب بهذا المكان فكان فظاً غليظاً فكنت أرعى أحياناً واحتطب أحياناً فأصبحت اضرب الناس ليس فوقي أحد الا رب العالمين ثم قال

لا شيء مما ترى الاّ بشاشته   يبقى الاله ويودي المال والولد

هذا كان حال هذا الرجل العظيم في جاهليته وسترى كيف كان حاله في الاسلام والى أية درجة بلغ به علو الهمة ومضاء العزيمة والرأي والاخلاص في خدمة الرسول الاكرم ودين الله القويم

باب

اسلامه وصحبته

(اسلامه)

كان المسلمون قبيل اسلام عمر بن الخطاب يجتمعون في دار الأرقم بن أبي الأرقم المخزومي في أصل الصفا مستخفين لقلتهم وشدة قريش عليهم ولم يكونوا كما يزعم بعض المخرصين من فقراء الناس وأداني قريش بل كان في ذلك العدد القليل من المسلمين كثير من سادات قريش واغنيائهم وذوي الشرف فيهم ومنهم أبو بكر الصديق وطلحة بن عبيد الله وعثمان بن عفان المشهورون بالغنى والثروة وسعيد بن زيد وحمزة بن عبد المطلب واضرابهم من صناديد قريش وأشرافهم الآ أن معظمهم هاجروا الى الحبشة لاضطهاد قريش لهم وكانوا لقلتهم في حاجة الى الاستكثار من ذوي العصبية أو الجرأة والاقدام من رجالات قريش ليستطيعوا اعلان دينهم والذب عن نبيهم وكان ممن عرف من قريش بنفوذ الكلمة والبطش وسمو المكانة عمر بن الخطاب وأبو جهل وكان النبي صلى الله وعليه وسلم يتوقع خيراً للمسلمين باسلام أحد هذين الرجلين لهذا قال (اللهم أعز الاسلام بأحب الرجلين اليك عمر بن الخطاب او عمرو بن هشام) يعني ابا جهل

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء نبيّه صلى الله عليه وسلم بأحب الرجلين اليه وهو عمر بن الخطاب فأسلم في ذي الحجة لمضي ست سنين من البعثة وبعد اسلام تسعة وثلاثين رجلا وثلاث وعشرين امرأة وقيل بعد اربعين رجلا واحدى عشرة امرأة وكان له من العمر ست وعشرون سنة

واما سبب اسلامه فقد جاءت فيه روايات كثيرة ومنها ما اخرجه الحافظ

عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أسامة بن زيد عن أبيه عن جده أسلم انه قال. قال لنا عمر بن الخطاب أتحبون ان أعلمكم كيف كان بدؤ اسلامي قلنا نعم. قال كنت من أشد الناس على رسول الله صلى الله عليه وسلم فبينا أنا يوماً في يوم حار شديد الحر بالهاجرة في بعض طرق مكة اذ لقيني رجل من قريش فقال أين تذهب يا ابن الخطاب أنت تزعم انك هكذا وقد دخل عليك هذا الأمر في بيتك. قال قلت وما ذاك. قال أختك قد صبأت. قال فرجعت مغضبا وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الرجل والرجلين اذا أسلما عند الرجل به قوة فيكونان معه ويصيبان من طعامه وقد كان ضم الى زوج اختي رجلين قال فجئت حتى قرعت الباب فقيل من هذا قلت ابن الخطاب قال وكان القوم جلوساً يقرأون القرآن في صحيفة معهم فلما سمعوا صوتي تبادروا واختفوا وتركوا اونسوا الصحيفة من ايديهم قال فقامت المرأة ففتحت لي فقلت يا عدوة نفسها قد بلغني انك صبوت قال فارفع شيئاً في يدي فاضربها به قال فسال الدم فلما رأت المرأة الدم بكت ثم قالت يا ابن الخطاب ما كنت فاعلا فافعل فقد اسلمت قال فدخلت وانا مغضب فجلست على السرير فنظرت فاذا بكتاب في ناحية البيت فقلت ما هذا الكتاب اعطينيه فقالت لا اعطيك لست من اهله انت لا تغتسل من الجنابة ولا تطهر وهذا لا يمسه الا المطهرون قال فلم ازل بها حتى أعطتنيه فاذا فيه ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ فلما مررت بالرحمن الرحيم ذعرت ورميت بالصحيفة من يدي قال ثم رجعت اليَّ نفسي فاذا فيها (سبّح لله ما في السموات والارض وهو العزيز الحكيم) قال فكلما مررت باسم من اسماء الله عزَّ وجلَّ ذعرت ثم ترجع اليَّ نفسي حتى بلغت (آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه) حتى بلغت الى قوله (ان كنتم مؤمنين) قال فقلت اشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنَّ محمداً رسول الله . فخرج القوم

يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوه مني وحمدوا الله عزّ وجلّ ثم قالوا يا ابن الخطاب أبشر فانّ رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا يوم الاثنين فقال (اللهم أعز الاسلام بأحد الرجلين إما عمرو بن هشام وإما عمر بن الخطاب) وإنّا نرجو أن تكون دعوة رسول الله لك فأبشر قال فلما عرفوا أني الصدق قلت لهم أخبروني بمكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا هو في بيت في أسفل الصفا وصفوه قال فخرجت حتى قرعت الباب قيل من هذا قلت ابن الخطاب: قال: وقد عرفوا شدتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يعلموا باسلامي: قال: فما اجترأ أحد منهم أن يفتح الباب قال فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم افتحوا له فانه ان يرد الله به خيراً يهده قال ففتحوا لي وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أرسلوه فأرسلوني فجلست بين يديه فأخذ بجمع قميصي فجذبني اليه ثم قال أسلم يا ابن الخطاب اللهم اهده قال قلت أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فكبر المسلمون تكبيرة سمعت بطرق مكة قال وقد كان استخفى [1] قال ثم خرجت فكنت لا أشاء أن أرى رجلاً أسلم يضرب إلا رأيته [2] قال فلما رأيت ذلك قلت لا أحب إلا أن يصيبني ما يصيب المسلمين قال فذهبت الى خالي (يعني أبا جهل بن هشام) وكان شريفاً فيهم فقرعت الباب عليه فقال من هذا فقلت ابن الخطاب قال فخرج الي فقلت له أشعرت اني قد صبوت. قال فعلت قلت نعم قال لا تفعل. فقلت بلى قد فعلت. قال لا تفعل فأجاف الباب دوني وتركني: قال: فلما رأيت ذلك انصرفت فقال لي رجل تحب أن يعلم

---

(١) هكذا ولعلها وقد كانوا مستخفين

(٢) وفي رواية فلم أشأ أن أرى رجلا يضرب ويضرب الا رأيته ولا يصيبني من ذلك شيء

اسلامك: قال: قلت نعم: قال: فاذا جلس الناس في الحجر واجتمعوا أتيت رجلاً لم يكن يكتم السر فاصغ اليه وقل له فيما بينك و بينه اني قد صبوت فانه سوف يظهر عليه و يصيح و يعلنه: قال: فاجتمع الناس في الحجر فجئت الرجل فدنوت منه فأصغيت اليه فيما بيني و بينه فقلت أعلمت أني قد صبوت: فقال: ألا ان عمر بن الخطاب قد صبأ: قال: فمازال الناس يضربونني وأضربهم فقال خالي ماهذا: قال: فقام على الحجر فأشار بكمه فقال ألا اني قد أجرت ابن أختي. فانكشف الناس عني وكنت لا أشاء أن أرى أحداً من المسلمين يضرب إلا رأيته[1] وأنا لا أضرب: قال: فقلت ماهذا بشيء حتى يصيبني مثل مايصيب المسلمين: قال: فأمهلت حتى اذا جلس الناس في الحجر وصلت الى خالي فقلت اسمع فقال ماأسمع: قال: قلت جوارك عليك ردٌّ: فقال: لاتفعل ياابن أختي: قال: قلت بل هو ذاك: فقال: ماشئت: قال: فما زلت أضرب وأضرب حتى أعز الله الاسلام اه

وروي انّ عمر لما أسلم: قال: يا رسول الله علامَ نخفي ديننا ونحن على الحق وهم على الباطل فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: انا قليل وقد رأيت مالقينا فقال له عمر والذي بعثك بالحق لايبقى مجلس جلست فيه بالكفر إلاّ جلست فيه بالايمان ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في صفين من المسلمين حمزة في أحدهما وعمر في الآخر حتى دخلوا المسجد فنظرت قريش الى حمزة وعمر فأصابتهم كآبة شديدة ومن يومئذ سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق لانه أظهر الاسلام وفرق بين الحق والباطل

وأخرج الحاكم عن ابن عباس: قال: لمّا أسلم عمر قال المشركون

---

(١) يريد الا رأيته يضرب فحذف لفظ يضرب وهو استعمال شائع والمعنى ان الناس وافوا رغبته ولم يحتج هو الى الضرب بنفسه

قد انتصف القوم اليوم منا وأنزل الله (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين)

وأنت ترى من هذا مكانة عمر في قومه وسمو منزلته في قبيله وما كان لاسلامه من دخول الوهن على نفوسهم اذ أقروا بظهور المسلمين عليهم ورجحان كفة المؤمنين على كفتهم وحسبك دليلاً على هذا شهادة القرآن كما رأيت ويؤيدها شاهد العيان أيضاً فان المسلمين بعد إذ كانوا يعبدون الله مستخفين أعلنوا بعد اسلام عمر دينهم وأخذوا يبثون بين الناس دعوتهم لا يبالون بما قام في نفوس قريش من الحقد عليهم وتعمد ايصال الضرر والاذى اليهم فقد روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه انه قال (كان اسلام عمر فتحاً وكانت هجرته نصراً وكانت امارته رحمة ولقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي في البيت حتى أسلم عمر فلما أسلم عمر قاتلهم حتى تركونا فصلينا) أخرجه في أسد الغابة وأخرج البخاري عن ابن مسعود أيضاً قال (مازلنا أعزة منذ أسلم عمر)

ولا جرم أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه هو الرجل الفذ الجليل الذي قوّى الله به الاسلام في منبته وأعزه في هجرته ومهد سبيل النشر لدعوته والفتح لاهله فكان رضي الله عنه القدوة الصالحة للمسلمين والمثل المضروب في التقوى والعدل والشهامة ونصرة الدين وتأييد الحق والشدة على الاعداء وإقامة الميزان بالقسط وتعميم دعوة الاخاء والحرية بين الامم فاسلامه كان من المنن العظيمة التي منّ الله بها على المسلمين وأيد بها جانب الدين

﴿ صحبته ﴾

صحب عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحسن صحبته وبذل فى نصرته مهجته وما زال منذ أسلم يناضل عن المسلمين وينافح عن سيد المرسلين ويظهر

من الشدة على أعدائه والمظاهرة لاوليائه ماأزعج قريشاً عن أذى النبي صلى الله عليه وسلم وخفف وطأة تعسفهم على أتباعه واضطهادهم للمسلمين قبل الهجرة الى المدينة حتى اذا أذن الله للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بالهجرة أخذوا يهاجرون مستخفين إلاعمر بن الخطاب رضي الله عنه فانه لشجاعته وقهره لقريش وشدة بأسه عليهم هاجر على ملأ قريش. فقد أخرج الحافظ عز الدين الجزري والحافظ بن عساكر عن عليّ رضي الله عنه : قال : ما علمت ان أحداً من المهاجرين هاجر إلا مختفياً إلا عمر بن الخطاب فانه لما هم بالهجرة تقلد سيفه وتنكب قوسه وانتضى في يده أسهماً واختصر عنزته ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها فطاف بالبيت سبعاً ثم أتى المقام فصلى متمكناً ثم وقف على الحلق واحدة واحدة وقال لهم شاهت الوجوه لا يرغم الله إلا هذه المعاطس من أراد أن تثكله أمه وييتم ولده ويرمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي: قال علي فما تبعه أحد إلا قوم من المستضعفين علمهم وأرشدهم ومضى لوجهه

وأخرجا عن البراء بن عازب : قال : أول من قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير أخو بني عبدالدار ثم قدم علينا ابن أم مكتوم الأعمى أخو بني فهر ثم قدم علينا عمر بن الخطاب في عشرين راكباً فقلنا مافعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قال هو على أثري ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه

وما زال عمر في هجرته كما كان في مكة شديداً على المخالفين قواماً على الحق منافحاً عن رسول الله مراقباً لاعدائه حريصاً عليه من وصول أذاهم اليه مبغضاً لمن أبغضه لايفتأ يراقب حركات المنافقين ويستطلع ضمائر الوافدين حتى اذا تفرس في أحدهم سوء نية لازمه في دخوله وخروجه وألزمه حد الادب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم والاحجام عنه والخنوع بين يديه . روي

ان عمير بن وهب الجمحي عاهد صفوان بن أمية القرشي بعد وقعة بدر على أن يأتي المدينة ويقتل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدمها واستأذن على رسول الله نخرج اليه عمر بن الخطاب وتفرّس فيه الشر فأخذ بحمالة سيفه وقال لرجال معه من الانصار ادخلوا على رسول الله واحذروا هذا الخبيث فلما رآه رسول الله قال لعمر اتركه يا عمر ثم سأله عما جاء به فقال جئت لهذا الاسير (يعني أباه وهباً لانه كان أسيراً عند المسلمين أسروه في وقعة بدر): قال: أصدقني: قال: ما جئت إلاّ لذلك: قال: بل قعدت أنت وصفوان وجرى بينكما كذا وكذا فدهش عمير وأسلم لساعته

وكان ممن يؤذي رسول الله صلى الله عليه وسلم بلسانه من قريش سهيل ابن عمرو نأسره في وقعة بدر مالك بن الدخشم الانصاري فلما أتى به رسول الله قام اليه عمر وقال دعني أنزع ثنيته يارسول الله فلا يقوم عليك خطيباً أبداً: فقال: رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه ياعمر فسيقوم مقاماً تحمده عليه فتركه[1]

ورأى مرة يهوديا ممسكا برسول الله يطالبه بدين له فعظم ذلك عليه وأخذ بخناق اليهودي: وقال: دعني أقتله يا رسول الله: فقال: دعه يا عمر ان لصاحب الحق مقالا

وله من هذا القبيل أخبار كثيرة أيام صحبته لرسول الله صلى الله عليه وسلم تدل على عظيم محبته له واخلاصه في الذب عنه والشدة على من ناوأه

(١) تحقق مقام سهيل هذا الذي قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ايام الردة وذلك ان قريشاً لما وصلهم نعي رسول الله اضطربوا وكادوا يرتدون فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بهم فاجتمعوا اليه فقال ياأهل مكة لا تكونوا آخر من أسلم وأول من ارتد والله ليتمن هذا الامر كما ذكر رسول الله الى آخر ما قال بما هو مسطور فى التواريخ فامتنع أهل مكة عن الردة

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أصحابه في بعض الأمور فكان أبو بكر وعمر أفضلهم عنده رأياً لصدق لهجتهما وعظيم اخلاصهما ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام في عمر (ان الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه) رواه الترمذي عن ابن عمر وفي رواية أبي داود عن أبي ذر: قال (ان الله وضع الحق على لسان عمر يقول به) وعن أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم) لقد كان فيما قبلكم من الأمم مُحَدَّثُون (ملهمون) فان يك في أمتي أحد فانه عمر (متفق عليه كما في المشكاة) لهذا كان رضي الله عنه يرى الرأي فينزل به القرآن حتى بلغت موافقاته عشرين ونيفاً ومنها آية تحريم الخمر فانه لما قال (اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً) نزلت آية التحريم ومنها آية الحجاب فانه أمر نساء النبي صلى الله عليه وسلم أن يحتجبن فقالت له زينب: وانك علينا يا ابن الخطاب والوحي ينزل في بيوتنا: فأنزل الله تعالى (واذا سألتموهن متاعاً فاسألوهن من وراء حجاب) ومنها آية الاستئذان في الدخول وذلك انه دخل عليه غلامه وكان نائماً فقال: اللهم حرّم الدخول: فنزلت آية الاستئذان

الى هذا المقام وصل عمر رضي الله عنه في صدق اللهجة وقول الحق وجميل الصحبة وحسبه فضيلة في نفسه وفضلا على المسلمين في صحبته كونه كان سبباً في تحريم الخمر الذي هو آفة الانسانية وجرثومة الشر وعلة العلل الاجتماعية والامراض العقلية والجسمانية في كل زمان ومكان

هكذا كان عمر رضي الله عنه نافعاً في صحبته ملازماً للنبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص عليه والحب له والمدافعة عنه وشهد معه من المشاهد بدراً وأحداً والخندق وبيعة الرضوان وحنيناً والفتح وخيبر وغيرها وكان ممن ثبت مع رسول الله في أحد

أخرج في أسد الغابة عن الزهري وعاصم ابن عمر قال : لما أراد أبو سفيان الانصراف (عقب وقعة أحد) أشرف على الجبل ثم نادى بأعلى صوته ان الحرب سجال يوم بيوم بدر أعل هبل (أي أظهر دينك) : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب : قم فأجبه : فقال الله أعلى وأجل لا سواء قتلانا في الجنة وقتلاكم في النار : فلما أجاب عمر أبا سفيان قال أبو سفيان هلم اليّ يا عمر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ائته فانظر ما يقول : فجاءه فقال له أبو سفيان : انشدك بالله يا عمر أقتلنا محمداً : قال : لا وانه ليسمع كلامك الآن فقال أبو سفيان انت اصدق عندي من ابن قمئة وابر (لقول ابن قمئة لهم قد قتلت محمداً)

وارسل رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر غازياً الى ذات السلاسل في جيش اميره عمرو بن العاص وارسله في جيش اميره اسامة بن زيد مولى رسول الله وتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسافر اسامة بالجيش بعد وفاته وبقي عمر بالمدينة استبقاه ابو بكر كما رأيت في سيرته وبالجملة فان عمر رضي الله عنه خدم الاسلام في صحبته كما خدمه في خلافته وكان مخلصاً في ايمانه مخلصاً لنبيه عظيم الحب له حتى بلغ من حبه له انه لما مات صلى الله عليه وسلم لم يصدق بموته او اصابه من شدة الحزن دهشة وذهول حتى قام فقال . من قال انّ محمداً قد مات علوت رأسه بسيفي هذا وليبعثنه الله فليقطعن ايدي رجال وارجلهم . والقصة مشهورة اوردنا المهم منها في سيرة أبي بكر رضي الله عنه فكأن عمر الهم هذا القول حتى ارهب المنافقين فأذهلهم عن الكلام ريثما جاء ابو بكر وسكن اضطراب النفوس ببيانه

﴿ باب ﴾

﴿ خلافته ﴾

تقدم معنا في الجزء الأول ان أبا بكر الصديق رضي الله تعالى عنه عهد بالخلافة الى عمر بن الخطاب قبل وفاته فوليها يوم الثلاثاء لثمان بقين من جمادى الآخرة يوم وفاة أبي بكر ولما تلي كتاب العهد على المسلمين بايعوه جميعاً ولم ينكل عن بيعته احد من المهاجرين والانصار مع انه كان توقف بعضهم عن بيعة ابي بكر حالة كونها شورى بين المسلمين كما رأيت في الجزء الأول وانما رضي المسلمون بعهد ابي بكر لعمر بن الخطاب وان خالف قاعدة الشورى وتسامحوا بحق انتخابهم الخليفة لامرين

(الامر الاول) توقعهم الخلاف على الخلافة بين النفر المتطلعين اليها من المهاجرين السابقين فيما لو تركت شورى تتنازعها الاهلية وتتجاذبها العصبية وقيام العذر لأبي بكر في عدم تركها شورى لهذا السبب الذي استشعر به قبل وفاته وقد بسطنا الكلام على هذا في باب خلافته فلا حاجة للمزيد

(والامر الثاني) تفرّس المسلمين في عمر الكفاءة على القيام بهذا الامر واقتداره على سدّ ذرائع الفتنة كما تفرّس فيه ذلك أبو بكر وكبار الصحابة الذين استوثق له منهم قبل عهده اليه بالخلافة وقد صدقت في عمر رضي الله عنه فراستهم وتحقق بكفائته رجاؤهم فكانت خلافته رحمة على الأمة كما مرّ في حديث ابن مسعود

اخرج الحافظ بن عساكر عن ابي عبيدة قال: قال عبدالله بن مسعود: افرس الناس ثلاثة. الملك حين تفرّس في يوسف والقوم فيه زاهدون. والمرأة

التي تفرّست في موسى فقالت (يا أبت استأجره انّ خير من استأجرت القويّ الامين) وأبو بكر حين تفرس في عمر فاستخلفه

ثم قد استاء بعضهم من استخلاف أبي بكر لعمر الا ان استياءهم لم يكن لفقد الكفاءة ممن أسندت اليه الخلافة وانما كان لصرفها عنهم أو خوفاً من شدة عمر عليهم كما بسطنا هذا في سيرة أبي بكر ومع هذا فانّ أبا بكر رضي الله عنه لم يقض الا بعد ان جعل الساخط راضياً فقد أخرج الامام أبو الفرج بن الجوزي في السيرة العمرية وابن عساكر في تاريخه عن عاصم قال: جمع أبو بكر الناس وهو مريض فأمر من يحمله الى المنبر فكانت آخر خطبة خطب بها فحمد الله واثنى عليه ثم قال: ايها الناس احذروا الدنيا ولا تثقوا بها فانها غرارة وآثروا الآخرة على الدنيا واحبوها فبحب كل واحدة منهما تبغض الأخرى وان هذا الأمر الذي هو املك بنا لا يصلح آخره الا بما صلح به اوّله ولا يحمله الا افضلكم مقدرة واملككم لنفسه اشدكم في حال الشدة واسلسكم في حال اللين واعلمكم برأي ذوي الرأي . لا يتشاغل بما لا يعنيه ولا يحزن لما ينزل به ولا يستحي من التعلم يتحيَّر عند البديهة قويّ على الأمور لا يجوز لشيء منها حده بعدوان ولا تقصير يرصد لما هو آت عتاده [١] من الحذر والطاعة (وهو عمر بن الخطاب) ثم نزل فحمل [٢] الساخط امارته الراضي بها على الدخول معهم توصلا

ومن هذا يعلم ان أبا بكر انما اختار للخلافة عمر رضي الله تعالى علماً بحقيقته وسداً لذرائع الفتنة وطلباً لخير المسلمين ومصالحهم لا محاباة ولا لغرض آخر كما شهد بذلك عليّ بن ابي طالب رضي الله عنه فقد اخرج الحافظ عز الدين الجزريّ

(١) بفتح العين الذخيرة المعدودة لوقت الحاجة (٢) هكذا فى السيرة العمرية وفى تاريخ ابن عساكر وجعل الخ ولم يذكرا متعلق (لتوصلا)

في أسد الغابة عن سويد بن غفلة الجعفي انه دخل على علي بن أبي طالب في خلافته فقال. يا أمير المؤمنين اني مررت بنفر يذكرون ابا بكر وعمر بغير الذي هما اهل له من الاسلام .فقام (اي علي) فخطب الناس خطبة طويلة مما جاء فيها عن ابي بكر واستخلافه لعمر قوله (حتى حضرته الوفاة فرأى ان عمر اقوى عليها ولو كانت محاباة لآثر بها ولده) الى آخر كلامه وربما جاء معنا في مكان آخر

وهذا الذي تحقق عند المسلمين من حسن نية أبي بكر وكفاءة عمر دعاهم الى الرضا ببيعته والاتفاق على قبول خلافته وان خالفت قاعدة الشورى بين المسلمين وقد قام رضي الله عنه بهذه الوظيفة السامية قياماً محموداً لا يجاريه فيه أحد من قادة الأمم وساسة الحكومات بل كان من عظيم اثره واثر ابي بكر في الخلافة الاسلامية ان كانا مثلا لمن بعدهما يضرب بالعدل وحسن السياسة وحجة على من تنكب طريقهما من الخلفاء وخالف سيرتهما من الامراء

أخرج في أسد الغابة عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال «ان الله جعل أبا بكر وعمر حجة على من بعدهما من الولاة الى يوم القيامة فسبقا والله سبقاً بعيداً واتعبا والله من بعدهما اتعابا شديدا فذكرهما حزن للأمة وطعن على الأئمة»

ولقد صدق رضي الله تعالى عنه فيما قال فانه لم يخرج قوم من المسلمين على الامراء بعد ذينك الخليفتين الا مطالبين بمثل عدلهما محاجين بسيرتهما حتى فريق الخوارج الذين يذهبون الى عدم الحاجة الى الامام كانوا يحتجون على الخلفاء بسيرة الامامين الاولين واول ما خرجوا كان خروجهم على علي رضي الله تعالى عنه هذا على مكانته من الدين وتقواه وعدله حتى ان الخوارج لم يستطيعوا ان يأخذوا عليه في سيرته الا مسألة التحكيم التي تنبعث في الحقيقة الا عنهم

وحسب عمر رضي الله تعالى عنه من خلافته ان يكون مثلا في العدل وحجة

على الخلفاء والولاة من بعده بل حسبه من سيرته فخراً وذكراً ان كل المؤرخين سواء كانوا من المسلمين أو المنصفين من غير المسلمين أجمعوا على انه أعدل من ساس الأمم وأعظم رجل في الاسلام ولو قدر المسلمون قدر هذا الرجل العظيم الذي يفتخر به تاريخ الاسلام لشيدوا بأسمه الآثار العظيمة في كل مكان ليبقى ذكره حياً بين الناس كما هو حيٌّ في التاريخ وبعد فان أحط البشر عقولا وأضعفهم بصيرة فريق الغلاة من الشيعة الذين يطعنون في ذلك الرجل العظيم الذي أصبح في حسن السيرة مثلا في العالمين وحجة على الخلفاء والسلاطين فأيّ عار على المسلمين بإزاء الأمم الأخرى ان يكون فيمن ينتسب للاسلام جماعة يقدحون بمثل عمر بن الخطاب على تفرده بالشهرة وجلالة قدره وجلائل أعماله وآثاره وسبقه بالايمان وخدمته للاسلام في صحبته وخلافته حتى كان غرة جبين التاريخ الاسلامي وذكرى الفخر الغابر الخالدة مع ان الاسلام يبرأ الى الله من أمثال تلك الفرق التي أسس نحلتها ابن سبأ اليهودي واضرابه من أعداء الاسلام ومريدي الشر بالمسلمين ولا يزال أولئك الناس يدعون النسبة الى الاسلام وهو يبرأ الى الله من نحلهم الفاسدة التي لا يقبلها ذو عقل ولا تنطبق على دين ولا حكمة وانما هو التقليد الاعمى والجهل يفعلان في العقول والاوهام ما لا تفعله السموم في الاجسام

باب

أول أعماله في الخلافة

كان أول كلام تكلم به عمر رضي الله عنه يوم استخلف ان صعد المنبر فخطب الناس فقال : انما مثل العرب مثل جمل أنف اتبع قائده فلينظر قائده

حيث يقود وأما أنا فورب الكعبة لاحملنهم على الطريق

وأول عمل عمله في خلافته ثلاثة أمور: إنتداب الناس مع أبي عبيد الثقفي لحرب الفرس: وعزل خالد بن الوليد وتوسيد الامارة العامة في الشام الى أبي عبيدة عامر بن الجراح: وبعث يَعلَى بن أمية لاجلاء أهل نجران: فأما خبر أبي عبيد فسيأتي معنا في باب الكلام على فتوحات عمر (رض) وأما خبر خالد بن الوليد فقد مر معنا ذكره في سيرته وربما نعود الى شيء منه عند الكلام على فتوح الشام: وأما خبر نجران فنتكلم عليه هنا لأنه لا يخلو من فائدة تاريخية فيها موعظة وذكرى لقوم يعقلون

﴿ إجلاء أهل نجران ﴾

سبق لنا فيما مر من هذا الكتاب كلام على الدعوة الى الاسلام وأن لا إكراه فيها وان أساسها التبليغ فمن قبلها كان من المسلمين ومن أبى فعليه أن يخضع لسلطانهم وأن يعطيهم جزءاً من ماله يستعينون به على حماية ماله وعرضه ونفسه وله عليهم حق الوفاء بما عاهدوه عليه وأن لا يفتن عن دينه ولا يؤخذ منه من الجزاء إلا ما رضيه في عهده وان تكون له الذمة والعهد أنى حل وحيثما وجد من ممالك الاسلام مادام وافيا بعهده مؤديا لجزيته لا يخون المسلمين ولا يمالئ عليهم عدوهم وأحسن شاهد على هذا نسوقه اليك في هذا الفصل خبر أهل نجران اليمن وكانوا من الكتابيين لتعلم كيف كانت معاملة أهل الذمة ومبلغ محافظة الخلفاء على عهودهم معهم مالم يخونوا أو يغدروا وتحرير الخبر عنهم انه كان وفد وفدهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاهم الى الاسلام فأبوا وسألوه الصلح وان يقبل منهم الجزاء فصالحهم على شيء معلوم يؤدونه كل سنة للمسلمين وكتب لهم بذلك كتابا جعل لهم فيه ذمة الله وعهده وان لا يفتنوا عن دينهم ومراتبهم فيه ولا يحشروا ولا يعشروا وان يؤمنوا على أنفسهم وملتهم وأرضهم وأموالهم وغائبهم وشاهدهم وعيرهم وبعثهم

وأمثلتهم لا يغير ما كانوا عليه ولا يغير حق من حقوقهم ولا يطأ أرضهم جيش ومن سأل منهم حقاً فبينهم النَّصَفُ غير ظالمين ولا مظلومين ولهم على ذلك جوار الله وذمة رسوله ابداً حتى يأتي أمر الله مانصحوا وأصلحوا واشترط عليهم ان لا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به ولما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم واستخلف أبو بكر الصديق رضي الله عنه أقرهم على حالهم وكتب لهم كتابا على نحو كتاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع انه كان يخوفهم ويود إجلاءهم لما روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: لا يبقين في جزيرة العرب دينان: ولما حضرت أبا بكر الوفاة أوصى عمر بن الخطاب باجلائهم لنقضهم العهد باصابتهم الربا

فانظر كيف ان النبي صلى الله عليه وسلم كان يرى ان لا يجتمع في جزيرة العرب دينان لان العرب أمة حديثة عهد بالاسلام وقد عانى صلى الله عليه وسلم ما عانى في جمع كلمتها وتوحيد وجهتها فمن الخطر أن يوجد بين ظهرانيها قوم يدينون بغير دينها فيفتنون من جاورهم عن الاسلام على حداثة عهدهم فيه وعدم تمكنهم بعد من أصوله الصحيحة

هذا من وجه ومن وجه آخر فان النجرانيين كانوا يتاجرون بالربا ولا يخفى ما فيه من الضرر على من جاورهم من أهل اليمن الذين ينضب التعامل بالربا معين ثروتهم ويؤذن بفقرهم على غير شعور منهم لاسيما وان الشريعة الاسلامية قد حرمته تحريماً باتاً ولا يؤمن من ان النجرانيين باستمرارهم على تعاطي الربا يحملون بعض من جاورهم من المسلمين على ارتكاب الاثم بالتعامل معهم بالربا

مع هذه الاسباب التي تلجئ الى إكراه النجرانيين على الاسلام فان النبي صلى الله عليه وسلم لم يكرههم على ذلك لان شريعته لم تأذن باكراه أهل الكتاب على الاسلام لهذا تركهم على دينهم بعد ان دعاهم الى الاسلام

بالتي هي أحسن فأبوا واعطاهم كتاب العهد المذكور إلا انه اشترط عليهم فيه ان لا يخونوا المسلمين ولا يتعاملوا بالربا كما رأيت ولما استخلف أبو بكر اكد لهم عهدهم الاول مع انه كان يرى في وجودهم في جزيرة العرب من الخطر ما كان يراه النبي صلى الله عليه وسلم فلم يسعه في أمرهم الا ما وسع الرسول (ص) حتى اذا علم انهم خانوا العهد وتعاملوا بالربا أمر في حال مرضه عمر بن الخطاب (رض) باجلائهم عن جزيرة العرب دون ان يفتنوا في دينهم

ولما استخلف عمر (رض) كان أول بعث بعثه بعث أبي عبيد الى العراق كما قدمنا وبعث يَعلى بن أمية الى اليمن وأمره باجلاء أهل نجران وأن يعاملهم بالرأفة ويشتري أموالهم ويخيرهم عن أرضهم في أي أرض شاؤا من بلاد الاسلام (لا أن يعاملهم معاملة القوي الغالب للضعيف المغلوب كما هو شأن كل دولة من الدول قبل الاسلام وبعده حتى الآن في معاملة الأمم التي تخالف مذهبها وتخضع لقوة سلطانها)

أخرج الطبري عن سالم في حديث مر معنا ما هو بمعناه قال فيه عن عمر انه أوصى يَعلى بن أمية بأهل نجران فقال

ائتهم ولا تفتنهم عن دينهم ثم أجلهم من أقام منهم على دينه وأقرر المسلم وامسح أرض كل من تجلى منهم ثم خيرهم البلدان واعلمهم انا نجليهم بأمر الله ورسوله ان لا يترك بجزيرة العرب دينان فليخرجوا من أقام على دينه منهم ثم نعطيهم أرضاً كأرضهم إقراراً لهم بالحق على أنفسنا ووفاء بذمتهم فيما أمر الله من ذلك بدلا بينهم وبين جيرانهم من أهل اليمن وغيرهم فيما صار لجيرانهم بالريف

وكتب لهم كتاباً هذه صورته كما أوردها البلاذري في فتوح البلدان

« أما بعد فمن وقعوا به من أهل الشام والعراق فليوسعهم من حرث

الارض وما اعتملوا من شيء فهو لهم مكان أرضهم باليمن »

على هذا الوجه أجلى عمر (رض) النجرانيين النصارى منهم واليهود فتفرقوا فنزل بعضهم الشام و بعضهم النجرانية بناحية الكوفة وبهم سميت

ولم تقف العناية بهم في اجلائهم والمحافظة على ما بيدهم من العهد وتعويضهم عما تركوه من العقار والمال عند هذا الحد بل كانوا يجدون بعد ذلك من الخلفاء كل رعاية ورفق ولم يرفعوا لأحد منهم مظلمة إلا أنصفهم ورفع أذى عماله عنهم وشملهم بالعدل وحاطهم بالعناية

من ذلك انهم شكوا مرة الى عثمان رضى الله عنه لما استخلف ضيق أرضهم ومزاحمة الدهاقين لهم وطلبوا اليه تخفيف جزيتهم فكتب الى الوليد ابن عتبة بن أبي معيط عامله على الكوفة كتاباً يوصيه فيه بهم ويأمره أن يضع عنهم مائتي حلة من جزيتهم لوجه الله وعقبى لهم من أرضهم . وستأتي صورة الكتاب في خلافة عثمان رضى الله عنه

وروى البلاذري عن الكلبي انه لما ولي معاوية أو يزيد بن معاوية شكوا اليه تفرقهم وموت من مات منهم وإسلام من أسلم منهم وأحضروه كتاب عثمان بن عفان بما حطهم من الحلل وقالوا انما ازددنا نقصاناً وضعفاً فوضع عنهم مائتي حلة تتمة أربعمائة حلة فلما ولي الحجاج العراق وخرج ابن الاشعث عليه اتهمهم والدهاقين بموالاته فرد جزيتهم الى ما كانت عليه فلما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة شكوا اليه ظلم الحجاج ونقصهم فأمر فأحصوا فبلغوا العشر من عدتهم فألزمهم مائتي حلة جزية عن رؤوسهم فقط فلما ولي يوسف بن عمر العراق في خلافة الوليد بن يزيد الاموي ردهم الى ما كانوا عليه عصبية للحجاج فلما انقضت دولة الامويين واستخلف أبو العباس

السفاح رفعوا اليه أمرهم وما كان من عمر بن عبدالعزيز ويوسف بن عمر فردهم الى مائتي حلة ولما استخلف هرون الرشيد شكوا اليه تعنت العمال اياهم فأمر فكُتب لهم كتاب بالمائتي حلة وبالغ بالرفق بهم فأمر أن يعفوا من معاملة العمال وان يكون مؤداهم بيت المال بالحضرة كي لا يتعنتهم أحد من العال

هذا ما رواه المؤرخون في شأن هؤلاء الكتابيين الذين أجلاهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن جزيرة العرب وقد رأيت مما مر مبلغ عناية عمر (رض) بهم لما لم يرَ بداً من اجلائهم للاسباب التي مر ذكرها وقد كان من السهل اكراههم على الاسلام ودخولهم فيه كما دخل اولئك الملايين من مشركي العرب وعامة سكان الجزيرة العربية طوعاً أو كرهاً وانما هو الشرع الاسلامي منع من اكراه غير مشركي العرب على الاسلام كما منع من نقض العهد وخفر الذمة الا بسبب مشروع لهذا لما خان النجرانيون عهدهم بتعاملهم بالربا وقد عاهدوا رسول الله صلى الله وعليه وسلم أن لا يتعاملوا به في الجزيرة ساغ لامير المؤمنين اجلاؤهم الى غيرها بعد ان عوضهم عن المال والعقار بمثله وما زال الخلفاء بعده مبالغة بالرفق بأهل الكتاب وقياما بواجب السيادة العادلة ووفاء بعهد الله والرسول يعاملون النجرانيين بأحسن ما تعامل به عامة الرعية من المسلمين ويدفعون عنهم أذى الظلم والاجحاف كما رأيت

﴿ حكم الاسلام في المسيحيين وحكم الاوربيين في المسلمين ﴾

ينتج معنا من هذه الحكاية ثلاثة أمور (الامر الاول) عدم اكراه النجرانيين على الاسلام مع تعين الخطر من وجودهم في جزيرة العرب لحداثة عهد أهلها بالاسلام ذلك لان عدم الاكراه من أصول الشريعة الاسلامية والجهاد الذي يعظم أمره أعداء المسلمين انما شرع لحماية الدعوة لا للاكراه الاّ

جهاد مشركي العرب يومئذ فقد شرع لارغامهم على الاسلام لاسباب حكيمة لاتخفى على بصير أهمها تطهير نفوس تلك الأمة العظيمة من شرور الوثنية واستئصال شأفة الجهل والتوحش من جزيرة العرب التي كانت وسطاً بين ممالك الشرق والغرب من آسيا وافريقيا وأوربا بل هي نقطة الصلة السياسية والتجارية بين تلك الممالك فانتشار أنوار المدنية والدين فيها يستلزم انتشارها بطبيعة المجاورة والاشراف على تلك الممالك أيضاً وقد كان ذلك كما هو معلوم

(والامر الثاني) عدم حيد الخلفاء عن أمر الشارع فيما امر به من الوفاء بالعهود وتأكيدهم لعهد النجرانيين الواحد تلو الآخر على ضعف هؤلاء وقلتهم وقوّة الخلافة الاسلامية وسلطتها وان ذلك لم يكن عن رهبة او رغبة بل عن محض تمسك بالعهد وعدل بين الشعوب الخاضعين لسلطة الخلافة وسلطان الاسلام من كل ملة ودين

(والامر الثالث) حرص أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) على قاعدة حماية الذمي في نفسه وماله بتعويضه النجرانيين عن ارضهم ومالهم بالمثل من ارض المسلمين ومالهم لما قضت الضرورة باجلائهم عن ارضهم الى غيرها من بلاد المسلمين وقد رأيت ما ذكرناه استطراداً في سيرة أبي بكر عن عمر رضي الله عنهما وما فعله من هذا القبيل مع اهل عربسوس من ثغور الروم وكيف انه لما امر باجلائهم عن ارضهم لخيانتهم جوار المسلمين ونكثهم عهد الامانة والصدق امر بأن يعوّضوا عن مالهم وعقارهم ونعمهم ضعفين وما زال الخلفاء في ايام الفتوح العظيمة وما بعدها يحافظون على حق القرار الثابت والملك القديم للاقوام المغلوبين للمسلمين الخاضعين لسلطانهم سواء كانوا من المسيحيين او غيرهم ولم يؤثر عن احد منهم انه طرد قوماً من أرضهم او انتزعها منهم بغير حق ولا عوض ولا

عبرة بما ربما يقع من هـذا القبيل على بعض الافراد من جور بعض العمال الذين غلبت شهواتهم على الفضيلة فحادوا عن طريق الشرع فانه قد يصيب افراد المسلمين من جور هؤلاء اكثر مما يصيب غيرهم وليس في هـذا مايقدح بأصول الحكم الاسلامي الذي يأبى الظلم ويدعو الى الرأفة والعدل

هذا شأن الاسلام في المحافظة على حقوق الأمم المغلوبة وقد رأيت مما تقدم انه لم يعط للمسلمين من حقوق الغلب التي ينتحلها الغالبون في كل عصر الا ما تدعو اليه الضرورة القصوى وتستلزمه سلامة الملك والدين لا ماتدعو اليه شهوات الملك ورغبات الأمة الغالبة وقد علم هذا المسلمون وخلفاؤهم وان لاهل الذمة ما لهم وعليهم ما عليهم فبالغوا في الرأفة باهل جوارهم والداخلين ذمتهم من ارباب الملل الأخرى فتركوا لهم حرية التملك والدين ولم ينازعوهم حقاً من حقوق المواطنة والجوار بل كانوا يعتبرونهم جزءاً من الدولة وعضواً من اعضاء مجتمعهم لاغنى عن مشاركته في العمل ومشاطرته اسباب السعادة المدنية والحياة الوطنية يؤيد هذا اجماع الخلفاء الامويين والعباسيين على أهل الكتاب من اليهود والنصارى في ترتيب دواوين الخراج وترجمة علوم اليونان وتقريب النابغين منهم في علوم الهندسة والطب اليهم واعتمادهم في شفاء عللهم عليهم بل بلغ بالمسلمين اعتبارهم لاهل الكتاب عضواً من جسم هيئتهم الاجتماعية لايجوز فصله في حال من الاحوال ان جيوش التتار لما اكتسحت بلاد الاسلام من حدود الصين الى الشام ووقع في اثرهم من وقع من المسلمين والنصارى ثم خضـد المسلمون شوكة التتار في الشام ودان ملوكهم بالاسلام خاطب شيخ الاسلام ابن تيمية رأس العلماء في عصره امير التتار قطلو شاه باطلاق الأسرى فسمح له بالمسلمين وابى ان يسمح له باهل الذمة فقال له شيخ الاسلام : لا بد من

افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ولا ندع اسيراً لا من أهل الملة ولا من أهل الذمة فاطلقهم له [١]

وكيف لا يقوم علماء المسلمين وخلفاؤهم بحماية أهل ذمتهم وقد استوصى بهم النبي صلى الله عليه وسلم امته خيراً وكذلك الخلفاء الراشدون من بعده كما رأيت فيما مر من هذا الكتاب وكما سترى بعد ونحن ننقل اليك هنا على سبيل الاستطراد ما جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب (رض) الى عمرو بن العاص عامله على مصر وهو قوله

« واعلم يا عمرو ان الله يراك ويرى عملك فانه قال تبارك وتعالى في كتابه (واجعلنا للمتقين إماما) يريد ان يقتدي به وان معك أهل ذمة وعهد وقد وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم واوصى بالقبط فقال « استوصوا بالقبط خيراً فان لهم ذمة ورحماً » ورحمهم ان ام اسماعيل منهم وقد قال صلى الله عليه وسلم « من ظلم معاهداً او كلفه فوق طاقته فانا خصمه يوم القيامة » احذر يا عمرو ان يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم لك خصماً فانه من اخاصمه خصمه . والله يا عمرو ولقد ابتليت بولاية هذه الامة وآنست من نفسي ضعفاً وانتشرت رعيتي ورق عظمي فأسأل الله ان يقبضني اليه غير مفرط . والله اني لأخشى لو مات جمل بأقصى عملك ضياعاً ان أُسأل عنه يوم القيامة »

---

(١) رأيت هذه الحكاية التاريخية المهمة فى نسخة خطية من الرسالة القبرصية التي قدمها شيخ الاسلام ابن تيمية لسرجوان ملك قبرص لافتكاك أسرى المسلمين منه ودفعت هذه الرسالة الى الفاضل الشيخ على أفندي يوسف صاحب جريدة المؤيد الخطيرة فطبعها من عهد قريب على نفقته ومن الاسف أن يغفل مؤرخو المسلمين أمثال هذه الحوادث المهمة التي هي مرمى غرض التاريخ الصحيح ولو عنوا بنقل كل الحوادث الاجتماعية التي لها علاقة بأصول المدنية الاسلامية وعصورها لنفعوا الاسلام والمسلمين

تأمل قول هذا الخليفة العظيم الذي يوصي به عامله بأهـل الـكتاب ترى الرهبـة من الله بادية على كلامه . وعلائم الخشوع والحنان المنبعثة عن وجدانه الطاهر مرتسمة في تضاعيف كتابه حتى كأنما هو واقف بين يدي الله يسأل عن حقوق خلقه ويحاسب عن عمله في رعيته . إن في هذا لآيات من العدل وغايات في انصاف الرعية غير المسلمة لايدرك شأوها الولاة والسلاطين في كل أمة من امم الارض الآن

وأعظم من هذا وأجل ان آخر وصايا عمر التي اوصى بها عند وفاته كانت بالمهاجرين والانصار وأهل الذمة اذ كتب لمن يخلفه كتاباً قال فيه : وأوصيه بأهل ذمة الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم الخ ما جاء في الكتاب كما ستراه في محله ان شاء الله

هذا شأن الحكم الاسلامي في أهل الذمة ومبلغ عناية الخلفاء بالخاضعين لسلطانهم من غير المسلمين اوردناه مؤيداً بالشواهد التاريخية مع انه يكاد يدرك ببداهة الحس لان اليهود والنصارى في الممالك الاسلامية ما زالوا يتمتعون بكل ما يتمتع به المسلمون من الحقوق مدى ثلاثة عشر قرناً فلم تنزع منهم ارض ولم يطردوا و يشردوا عن اوطانهم ولم يفتنوا عن دينهم ولو اصيبوا بما يصاب به المسلمون في ممالك النصرانية لما بقي منهم في هذه القرون الطويلة باقية مع ان الاسبانيول ما لبثوا ان دوخوا بلاد الاندلس واكتسحوا ذلك الملك الاسلامي العريض حتى فتنوا المسلمين عن دينهم وطردوهم عن ملكهم واغتصبوا تراثهم وسفكوا دماءهم وشردوهم عن بلاد الاندلس تشريداً ما أبقى لهم في بضع سنين باقية ومحا كل ما تركوه من آثار العلم والمدنية في تلك البلاد التي كانت جنة الارض في عصرهم

واذا انتحل للاسبانيول عذر البربرية والتوحش وانهم انما كانوا يومئذ في عصور الجهالة الاوربية فهل يقال انهم كانوا أحط في الاخلاق والمدنية من تلك الامة البدوية التي نشأت في جزيرة العرب على الغارة والسلب وسفك الدماء وعبادة الاوثان ثم لما اندفعت للفتح وأتيحت لها قوة الغلب على الأمم وأخصها أهل الكتاب كانت سياستها في الملك ورأفتها بالمغلوبين ما رأيت فيما تقدم

نقول ولا نكران للحق ان الاسبانيول لم يكونوا في تلك الدرجة من الهمجية بل كانوا وكل الأمم الاوربية في دور تمدن جديد نبتت أصوله بين العرب يومئذ وأظلت فروعه ممالك المغرب وانما هم حملة علوم الدين وتعصبهم الدني‌ء هو الذي جعل هذا البون البعيد بين الفريقين وباين في السياسة بين الفاتحين وأين من يوصي الجيوش الفاتحة بالرفق بالمسيحيين واعتبارهم بعد الغلب كجزء لا ينفصل عن مجتمع المسلمين له ما لهم من رعاية وعليه ما عليهم من حق كما في وصايا الخلفاء التي رأيت ممن يصور للأمم المسيحية المسلمين في صورة وحش ضار يتحفز للوثوب على الشعوب وهؤلاء هم قادة المسيحيين وحملة الدين المسيحي ومنهم مثيرو نار الحروب الصليبية من القسس ومدبرو مكائد جمعية التفتيش الديني (الانكيزسيون) في اسبانيا بل ومنهم كان في هذا العصر عصر المدنية والنور المستر غلادستون وزير انجلترا الشهير بحملاته الخطابية على الاسلام والمسلمين

أليس بعجيب ان يقرر الاسلام مبدأ المساواة بين الشعوب الخاضعين لسلطانه ويحتم على أهله حماية اليهود والنصارى في أنفسهم وأموالهم وأعراضهم ونحلهم ويتعاهدهم على هذه الحماية خلفاء المسلمين كلما جاء خليفة يؤكد عهد السابق مدى هذه القرون الطويلة ولا يوجد الى هذا العهد من قادة الأمم النصرانية وحملة الانجيل في الممالك الغربية من يمزق غشاء التعصب الصفيق

وينصف المسلمين في دينهم ويعاملهم ولو بحسنة من حسناتهم اللهم ان هذا لمنتهى الضعف في الوجدان والتجرد عن العدل والتقمص في لباس الاوهام والى الله نبرأ عنه معاشر المسلمين مهما كان حالنا واني بلغ انحطاطنا والتاريخ شاهد عادل

رب معترض يقول انا بالغنا في تعنت الأمم المسيحية والتبرئ من وصمة التعصب الذميم الذي نرمي به الدول الغربية مع أن المسلمين بشر كأولئك الناس لاتتنزه نفوسهم عن الظلم والتعصب ولم يخل تاريخ حكومتهم من اعنات رعيتها من غير المسلمين وان كان دينهم يأمرهم بمحاسنة أهل جوارهم من الكتابيين فنجيب عن ذلك نعم ان المسلمين ليسوا بملائكة معصومين هبطت عليهم السكينة من السماء الا انّ دينهم الذي أمر بالعدل بين الرعية والوفاء بعهود اهل الذمة وجاء للتأليف بين القلوب ونهى عن ظلم أهل الكتاب والتعدي على حقوق الجوار هذب نفوسهم واجتث اصول التعصب الاعمى من أفئدتهم فكانوا أحسن الأمم معاشرة مع مجاوريهم من الكتابيين فأطلقوا لهم حرية الدين واقامة الشعائر والعادات وأمنوهم على المال والارض وحرية المتاجرة وشاركوهم في الاعمال وحسبك من ذلك ان الشارع سمى الرعية غير المسلمة ذميين أي داخلين في ذمة المسلمين وعهدهم لا يضارون في عرض ولا نفس ولا مال فأصبح هذا الاسم علماً على المسيحيين واليهود عند المسلمين يذكرهم بالعهد اذا نسوا ويستلينهم اذا قسوا وانما تناسى المسلمون هذا الاسم الآن كما تناسوا كثيراً من شعائر دينهم وتسامحوا بأصول شرعهم. اذا نُفخ في المسلمين شيء من روح التعصب على المسيحيين وجفوا اخوانهم في الوطنية وان لم يكونوا اخوانهم في الدين فانما كان نافخ هذه الروح ومضرم نار الفرقة والجفاء بين الفريقين حروب الصليب التي أسعر لهيبها في المشرق خطباء الدين والسياسة في الممالك المسيحية

وما تلا ذلك من تحول قوة الغلب في العصور المتأخرة الى الدول الاوربية وايغالها بسبب ذلك في التحكم الجائر على دول الاسلام والتداخل بشؤون المسيحيين في المشرق تداخلا ممزوجاً بالاغراض السياسية مبنياً على القسوة والجبروت في مناوأة دول الاسلام مع مايضاف الى هذا من دس الدسائس للتغرير بالمسيحيين في مناوأتهم لمجاوريهم المسلمين والخروج على الحكومة الاسلامية بدعوى التظلم من جور الحكام الظالمين حتى أصبحت المملكة العثمانية منذ قرن تقريباً كميدان حرب تباع فيه ارواح المسلمين والمسيحيين بلا جريرة ولااسم الا الجهل الذي يزج بهم في غمار الفتن خدمة لمصلحة الدول الاوربية على غير علم بمن يخدمون ومن ثمّ كان المسئول عن بث روح الجفاء والتعصب في نفوس المسلمين هم قادة المسيحية وساستها وحملة كتابها لا المسلمون انفسهم

اجل وقد وجد في بعض العصور الاسلامية ناس من علماء الدين الاسلامي متعصبون تناسوا وصايا نبيهم وخلفائه الراشدين بأهل الذمة لكنهم افراد من اهل العلم الناقص لاينبني على عملهم حكم وإنما تطرق اليهم ذلك التعصب من بعض مذاهب الشيعة الذين يتأولون الآيات بما يوافق مذهبهم الباطل سامحهم الله وهداهم ومع هذا فلن يبلغوا مبلغ علماء الدين المسيحي من التعصب ضد الاسلام والمسلمين كما انه وجد حكام تعسفوا في الحكم وآذوا اهل الكتاب فسلبوهم كثيراً من مزايا التمتع بحسن المجاورة والمعاشرة مع المسلمين لكن اولئك قوم قد نزع الله الرحمة من قلوبهم وقصرت على مدارك العدل مداركهم فكان المسلم والذميّ في جورهم سواء واقي ويلقي المسلمون منهم من البلاء اكثر ممايلقى المسيحيون . على ان الدول الاوربية لو تركت المسلمين وشأنهم مع مواطنيهم من المسيحيين ولم تنفث فيهم سم التنافر والجفاء لوجدوا لأنفسهم سبيلا للراحة

ومندوحة عن تحمل الظلم والعناء

ومع هذا فان جور بعض الحكام لا يعتبر أساساً في نوع الحكم والحكم في معاملة الذمي في الاسلام هو ما رأيت مما مر في هذا الفصل من عناية الخلفاء بالكتابيين ووصاياهم بأهل الذمة والعهد واذا قابلنا بين هذا الحكم وبين الحكم في معاملة المسلم عند الدول المتمدنة المسيحية في هذا العصر لرأينا الفرق واضحا والتباين بينهما فاضحاً إذ أن الاسلام لم يأت بقانونين متباينين لحكم الامم الغالبة والمغلوبة وانما أتى بقانون واحد الناس كلهم في شرعه سواء وأما قوة الغلب التي اتيحت في العصور المتأخرة للدول المسيحية فقد نزعت من قلوب زعمائها كل حنان ورحمة في معاملة المسلمين معاملة القوي القاهر للضعيف المغلوب حتى بلغ بتلك الدول ان جعلن وزارة المستعمرات منفصلة عن جسم الحكومة الوطنية تدير شؤون رعيتها فيها على أساس العسف والاستبداد وان كانت تدار شؤون أمتها الغالبة على أساس الدستور والعدل وحسبك من هذا ان دولة فرانسا التي توسعت في هذا العصر بدعوى الانسانية والعلم والحرية أصبحت أشد الدول المسيحية وطأة على رعاياها المسلمين ونزع الفرنساويون في الجزائر منازع القوة والجبروت فانتزعوا من المسلمين أراضيهم وأملاكهم وأوقافهم وحجروا على حرية التعليم عندهم واستبدوا في أموالهم وأرواحهم حتى بات الجزائري في حالة من الضنك والفقر والجهالة ينفرط لها القلب وحتى كانت الدولة الفرنساوية أبغض الدول الى المسلمين في هذا العصر ويتلوها في المرتبة هولاندا في معاملتها القاسية لمسلمي الجاوى ويتلوها النمسا في معاملتها لمسلمي البوسنه والهرسك ويتلو هذه الروسية وحكومات البلقان وهكذا كل دولة اوربية لها نصيب من ظلم المسلمين وتعنتهم ومع ان دولة انكلترا هي أخف الدول المسيحية وطأة على المسلمين وأسدهن

سياسة في المستعمرات وأطلقهن لحرية التعلم والتملك والمتاجرة والدين في مستعمراتها الشرقية سواء كانت اسلامية أو غير اسلامية الا أنا نرى بين الحكومة الانكليزية فى حكمها فى البلاد الشرقية وبين الأمة الانكليزية فى معاملتها الشرقيين بونا شاسعا وفرقا عظيما إذ بينما نرى أساس الحكم الانكليزي فى الأمم الخاضعة له خارج الجزيرة البريطانية مبنيا على ما تقدم من حسن السياسة نرى من وجه آخر أفراد الأمة الانكليزية يمتهنون الشرقي امتهانا لا يطيقه بشر بل لا يجوز صدوره عن بشر ويغالون فى حب الذات الى حد يكاد يبغض للمسلمين وغيرهم من المحكومين لتلك الأمة ذلك الحكم الانكليزي مهما بلغ من العدل ومن أغرب ما رأينا فى الجرائد من هذا القبيل ان أحد أمراء الهند الكبار مر على مدينة رأس الرجاء الصالح فى افريقيا الجنوبية من عهد قريب فلم يتيسر له النزول في فندق من فنادق تلك المدينة لانها كلها تضيف الانكليز ولا سبيل لشرقي مهما كان مقامه ان يدخل مكانا فيه رجل انكليزي بل والانكليز هناك يأبون ان يروا معهم حيثما كانوا أرجلا من الشرقيين ورأينا كثيرا من أمثال هذه الحادثة فى الجرائد مما يدل على التناهي فى الجبروت والاغراء فى حب الذات [1]

(١) بعد كتابة هذا الفصل اطلعنا فى العدد ٣٥٨١ من جريدة المؤيد الصادرة يوم الاحد غرة ذي القعدة (سنة ١٣١٩) على رسالة من دربان نتال فى أفريقا الجنوبية يقول المراسل فيها ما نصه . ارسلت لكم نسخة من جريدة (مكرى) المطبوعة فى نتال فى (بورتابزيت) وهي ان المؤذن بينا كان واقفاً على رأس منارة عالية يؤذن لم يشعر الا وطلق ناري أصابه من يد أحد المتمدنين الانكليز لانه أزعجه بصوته فسقط المؤذن على أم رأسه أجزاء متفرقة قضت نحبها فى هويها (كذا) وقد قبض على الجاني وهيهات ان يلقى عقاب الموت لانه لم يعهد ان انكليزياً يقتل فى وطني بهذه الديار ولا فى الشرق كله ثم ذكر حادثة أخرى وقعت لامام هذا الجامع يأبي القلم أن يسود بذكرها صفحات هذا الكتاب

فأين ماتعامل به المسلمين الدول الاوربية فى هذا العصر الذي دالت به لهن الدولة وأتيح لهن الغلب على الأمم مما كانت تعامل به دولة المسلمين فى ابان مجدها وأيام فتوحها رعيتها من المسيحيين وأين ما عامل به عمر بن الخطاب ومن بعده من الخلفاء أهل الكتاب من النجرانيين مما تعامل به دولة فرانسا مسلمي الجزائر الذين لم يبق لهم أرض ولا مال ونزع ذلك منهم الفرنساويون بلا عوض ولا حق ولا عدل

لا جرم أن الحق والعدل والانصاف يقضي على حملة الدين المسيحي الذين كانوا يصورون المسلمين فى صورة وحش ضار أن يصوروا التمدن الاوربي وأهله فى أقبح صور الحيوانية وأخس لباس التوحش والهمجية بعد ما بسطناه من المقابلة بين حكم الاسلام فى المسيحيين وحكم التمدن فى المسلمين ومن العار على هذه المدنية ان تصل الى أرقى درجات الزهو بالمظاهر والصور وهي تنحط الى دركات التسفل فى الاخلاق والتنائي عن الرحمة والبعد عن فضيلة النفس فتنقض بأهلها على المسلمين انقضاض الجوارح على فريستها الضعيفة ولا ذنب لاولئك المسلمين الا كونهم كانوا أمة عزيزة الجانب قوية السلطان فأتاح الله لهم وسائل الغلبة على الأمم وبسط جناح السلطان على جزء عظيم من الارض حكموا أهلها بالعدل وساسوا رعيتهم بقاعدة الآخاء والمساواة وأحيوا تمدن الرومان واليونان ونشروا على الممالك نور المدنية والعلم حتى اذا دالت بحكم تنازع البقاء دولتهم وانطفأ مصباح مدنيتهم واختل نظام ملكهم بتغلب شهوات أمرائهم وجهل قادتهم أصبحوا فى نظر الدول الاوربية ذات الغلب عليهم لا يستحقون الرأفة ولا يجاوزون بغير الظلم والاستعباد إن هذا لشيء عجاب

يقول الاوربيون إن المسلمين أمة تنفخ فيهم روح التعصب والجفاء

والبغض لمن لايدين بدينهم من الناس وهو قول مبني على الاستقراء الناقص عند الباحثين وعلى الغرض أو التعصب الذميم عند السياسيين وعامة القائلين بهذا القول وانما تسلط هذا الوهم على عامة الاوربيين لما كان يكتبه عن الاسلام رؤساء الدين المسيحي في أوروبا في القرون المتوسطة من الاضاليل التي كانوا يريدون بها إيقاف تيار الاسلام ومن ثم أصبح الاوربيون حتى هذا العهد كأنما هم في عالم والاسلام في عالم آخر لم يتحققوا من أمره وأمر اتباعه شيئاً في الدين والأخلاق ولو بحثوا عن ذلك أقل بحث مجرد عن الغاية السياسية أو التعصب لأدركوا خطأهم ببداهة الحس اذ أن قوماً مضى عليهم ثلاثة عشر قرناً وهم باسطون جناح السلطان على قسم عظيم من الارض يقطنه ملايين من المسيحيين يتمتعون الى الآن بسائر ما يتمتع به الوطني في وطنه لقوم تشهد لهم بداهة التاريخ بأنهم ألزم الأقوام لأدب الجوار وأبعدهم عن تحكم الغلب وجبروت السيادة الذي يظهر من كل فاتح عظيم

آن للاوربيين أن ينزعوا عن بصائرهم حجب الغرض والوهم ويعلموا ان الاسلام يأمر أهله بالتآلف وحسن المعاشرة والجوار ومحاسنة من أحسن اليهم وأن لايخاشنوا إلا من خاشنهم وأراد امتهانهم وان المسلمين بما فطروا عليه من كرم الاخلاق وجميل المعاشرة أعظم الناس اعترافاً بالجميل ورضىً بالقضاء وميلا للفضيلة وقد قضى جهل أمرائهم بتقلص ظل سلطانهم السياسي عن معظم ممالكهم الشاسعة فدالت دولة المشرق للغربيين فاذا حكمهم هؤلاء بالعدل وساسوهم بالرأفة وعاملوهم معاملة النظير امتلكوا قلوبهم واستأنسوا نافرهم واستفادوا من إخلاصهم كما تستفيد الآن دولة انكلترا من إخلاص المسلمين الذين تحت حكمها الواسع لاطلاقها لهم حرية الفكر والدين ونشرها بينهم أنوار المعارف والعلم والا فمن الظلم الفاضح والعار المشين على الدول المتمدنة المسيحية

وأخصها جمهورية فرنسا الجائرة على المسلمين أن تعامل محكوميها من المسلمين
بعكس ما تعامل به الدول الاسلامية حتى هذا اليوم رعاياها المسيحيين من
منحهم حرية لتمتع بسائر ما يتمتع به رعاياها المسلمون من الحقوق لا سيما في
المملكة العثمانية ومن العبث ان تخط الدول الاوربية لنفسها خطة العسف
وحب الأثرة والجور في حكمها في المشرق وترجو مع هذا تمكن سلطانها في
هذا الجزء العظيم من الارض وفيه ثلاثمائة مليون من المسلمين كانت لهم
السيادة عليه والسلطان العظيم فيه ومن الحكمة وحسن السياسة أن يعوّضوا
عن هذا السلطان بجميل المعاملة وحقوق الوطنية والقرار ولو كانوا أمة صغيرة
أو شعباً حقيراً لا يؤبه له كهنود أميركا مثلا لساغ للدول الاوربية أن تعاملهم
بما شاءت من ضروب القسوة والاذلال حسبما يوحيه اليها شرع التمدن
الحديث وأما أمة كالمسلمين شأنها ما ذكرنا فمن المحال ان ترضى لنفسها
الاذلال وإن طال عليها المطال والله وليّ الرشد وهو الموفق بين القلوب

باب

فتوح الشام

علمنا مما مر في الجزء الاول كيف أن الجيوش الاسلامية فلّت جموع الروم
على اليرموك وذكرنا ثمة ما كان من الخلاف بين المؤرخين في ترتيب الوقائع
التي كانت قبل ذلك الى فتح دمشق وفي الحقيقة إنّ تلاحق الوقائع التي
حدثت بالشام من أوائل السنة الثالثة عشرة الى أوائل السنة الرابعة عشرة
أوجد اضطراباً في الروايات في ترتيب تلك الوقائع واختلافاً بين الرواة في
تعيين الزمن لا في أصل الوقائع بل هذه اتفق عليها ثقات المتقدمين من

رواة تاريخ الفتح الاسلامي كسيف بن عمر الاسدي وابن اسحاق والواقدي ومن تلاهم من مدوني التاريخ كابن جرير الطبري والدينوري وابن واضح وغيرهم من المتقدمين وقد استقصى ابن جرير في تاريخه معظم الروايات الواردة عن المحدثين بأخبار الفتح على اختلافها وترك الحكم فيها للناقد شأن كل المؤرخين في الاسلام ونحن نعتمد ما اعتمده المؤرخون بعد في سرد الوقائع المختلفة في تعيين زمنها إذ ليس سرد الروايات من الاهمية في شيء ما دام من الثابت حصول الوقائع وما أظن ذلك الاختلاف بين الرواة ناشئاً الا عن حصول عدة من الوقائع في آن واحد أوردها الرواة متفرقة من طرق شتى فاختلط أمرها على المؤرخين و بعض الرواة أو ان تلاحق بعض الوقائع ببعض أوجب ذلك الاختلاف كما ذكرنا قبل والعبرة في كلا الحالين في تحقيق الخبر لا في تعيين الزمن كما لا يخفى على بصير

فتح دمشق
وانحياز هرقل الى حمص

لما انتصر المسلمون فى واقعة اليرموك كان هرقل فى أورشليم وقد جاءها لاجل الاحتفال بعيد تخليص الصليب المقدس الذي استرده من دولة الفرس قبل ذلك ولم يكن هو ورجال دولته بموقنين بان قوة المسلمين تبلغ من كيدهم مالم تبلغه جيوش دولة الفرس العظيمة حتى جاءه خبر انتصار المسلمين فى اليرموك فنخب قلبه وأسقط فى يده فنظر فرأى أن مقامه فى أورشليم (القدس) خطر عليه سيما اذا انساح المسلمون فى أحشاء البلاد فأسرع بالرحيل الى شمال سورية ولحق بمدينة حمص ليجعلها مقراً لاعماله الحربية ومن ثم أخذ يبث المقاتلة ويذكي العيون ويسرح القواد الى مواقف الحرب وسلم أخاه تذارق (لعله تيودور) القيادة العامة

وتربص هو في حمص . وقد أخذ عليه بعض المؤرخين عدم حضوره الوقائع بنفسه وانه لو حضرها لكان ذلك أدعى لتشجيع جنوده وأرجى للنصر على انّ هرقل كان ملكاً حازماً ليس بالجاهل ولا الجبان يدلك على هذا ظفره قبل حربه مع العرب بالفرس [1] لهذا فلا بد لتخلف هرقل عن جيشه في حرب المسلمين من عذر

(١) كان الفرس غزوا بلاد الروم ودوخوا ممالك الدولة البزنطية حتى وصلوا الى القسطنطينية وذلك حوالى سنة (٦١٤ م) فاشهر هرقل عليهم الحرب ثانية سنة (٦٢١ م) أي بعد الهجرة بسنة واسترد هذه البلاد والقصة مشهورة جاءت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى (الم غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) ويعني بادنى الارض اذرعات وهي ادنى ارض الروم الى العرب وكانت الروم قد هزمت بها فى بعض وقائعها وكان سبب نزول الآيات ان النبي صلى الله عليه وسلم كان قد ساءه وساء المسلمين ظفر الفرس اولا بالروم لان الروم أهل كتاب وفرح مشركوا العرب لان المجوس اميون مثلهم فلما نزلت هذه الآية راهن أبو بكر الصديق ابي بن خلف على أن الظفر يكون للروم الى تسع سنين مصداقاً لما نزل به القرآن والرهن مائة بعير (ولم يكن الرهن يومئذ حراماً) فظفرت الروم وغلبه أبو بكر وأتى الخبر بظفر الروم النبي صلى الله عليه وسلم يوم الحديبية وكانت سنة ست للهجرة واذ كانت حملة هرقل على الفرس ابتدأت سنة (٦٢١ م) أو التي بعدها أي قبل الهجرة بسنة واحدة وكان الروم غلبوا مرة فى هذه السنة فتكون استمرت هذه الحرب نحو سبع سنين وانتهت بظفر الروم مصداقاً لما نزل به القرآن الكريم فى قوله تعالى (فى بضع سنين) والبضع ما بين الاربعة الى التسعة وقد جاء فى تواريخ الغربيين ما يؤيد ذلك وحاصل ما ذكره عن هذا الحادث ادورد جيبون الانكليزي فى (تاريخ الامبراطورية الشرقية) ان كسرى ابرويز ملك الفرس غزا بجيوشه مملكة الرومان الشرقية « البزانطية » فى سنة « ٦١٤ م » لاسباب لا محل لذكرها هنا ففتح سورية ومصر وآسيا الصغرى حتى وصل الى حدود القسطنطينية ولما رأى الامبراطور هراكليوس « هرقل » ذلك الخطر المحدق بعاصمته خشي ان هو حارب الفرس قربها ان تسقط فى أيديهم فجهز اسطولا عظيما شحنه بالمقاتلة والمؤن وخرج به فى سنة «٦٢٢م» من القسطنطينية حتى بلغ هاسبونت . « جناق قلعة » ومن ثم مخر الاسطول فى عباب

اضطره لهذا التخلف ولعله لما رأى منهم شدة البأس والدربة على الحرب وحسن السياسة في البلاد التي افتتحوها وشعر بميل السوريين اليهم وتأففهم من جور الحكام الرومانيين خامر نفسه شيء من اليأس من امكان دفع المسلمين عن البلاد لاسيما وان الحرس الروماني في البلاد السورية لم يكن في عدد كافٍ لحماية البلاد وانما كان حماتها من العرب المتنصرة ومن نفس سكان البلاد الذين كانوا خليطاً من السريان والعرب واليهود والروم واذا صح هذا الظن فلا يؤاخذ هرقل على انحيازه الى حمص وتباعده عن مواقع القتال أخذاً بالحيطة لنفسه وتمسكاً بأسباب النجاة اذا ظفر المسلمون بجنود الروم وانكفأوا على شمال البلاد

لم يكن المسلمون يومئذ على ماعهد فيهم من البدواة جاهلين بأحوال البلاد غير خبيرين بقوّة أهلها وطرقها ومسالكها بل كانوا على بصيرة من امرهم ووقوف على مبلغ قوّة عدوّهم بمن كان فيهم من سادات قريش الذين اختبروا حالة البلاد في الجاهلية باختلافهم اليها للمتاجرة لهذا أعدوا لهذه الحرب عدتها من التدرب والاناة وحسن البصيرة في ترتيب الجيوش وقيادتها يضاف الى هذا

البحر الابيض حتى انتهى الى اسكندرون بعد معاناة نصب شديد فى البحر وهناك رأى هرقل فى جون الاسكندرون مرسى أميناً لسفنه لا يصل اليه كيد البحر ولا كيد العدو فأمر بان ترسو فيه السفن وانزل الجنود الى حدود سوريه وكيلكيا « ادنه » ورتب معسكره قرب اسس فى السهل الذي انتصر فيه الاسكندر المقدوني على ملك الفرس « وهو سهل الاسكندرون » وأخذ يدرب جنوده على فنون الحرب ويهيئهم للطعن والضرب ولما علم بذلك الفرس انكفأوا لقتاله من داخل البلاد فانتصر عليهم بحسن تدبيره الحربي ومزق جموعهم كل ممزق ثم جهز عليهم حملة ثانية ومازال بهم حتى اجلاهم عن مملكته ولما كانت سنة « ٦٢٨ م » استقر الصلح بين الفريقين وكان ولي ملك فارس كسرى ازدشير بعد ان قتل أباه ابرويز فصالح هرقل على ان تعاد تخوم المملكتين الى أصلها اه وجاء فى تاريخ الكامل لابن الاثير ما يطابق معنى ماذكره جبون وفيه زيادة تفصيل

ما يصاحب عامة المقاتلين من الشجاعة العربية وكمال الايمان وعدم الرهبة من الموت في سبيل نصرة الاسلام وتعميم دعوة القرآن . لهذا فلا يتوهمن متوهم من بداوة أولئك الفاتحين الشجعان أن حروبهم مع الروم أو الفرس كانت همجية على غير نظام ولا ترتيب بل انهم كانوا على أحسن ما يكون من البصيرة بأمر الحرب يعلم هذا من دقق النظر في كيفية حروبهم مع الروم في الشام وكيفية قيادتهم للجيوش وبصرهم في تدويخ البلاد كما سيأتي بيانه في غضون الكلام على فتح دمشق وغيرها وسنفرد له فصلاً خاصاً نفصل فيه الكلام على ذلك أحسن تفصيل ان شاء الله تعالى وها نحن ذاكرون هنا كيفية مسير المسلمين الى دمشق بعد اليرموك نقلاً عما ذكره الطبري من رواية سيف وذلك ببعض تصرف واختصار قال

لما هزم الله جند اليرموك وتهافت أهل الواقوصة وفرغ من المقاسم والانفال وبعث بالاخماس وسُرّحت الوفود استخلف أبو عبيدة على اليرموك بشير بن كعب بن أبيّ الحميري كي لا يغتال بردة ولا تقطع الروم على موادّه[1] وخرج أبو عبيدة حتى نزل بمرج الصفَّر وهو يريد اتباع الفالّة ولا يدري يجتمعون أو يفترقون فأتاه الخبر بأنهم اجتمعوا بفحل وان المدد قد أتى أهل دمشق من حمص فهو لا يدري أبدمشق يبدأ أو بفحل من بلاد الاردّن فكتب في ذلك الى عمر وانتظر الجواب وأقام بالصفر فلما جاء عمر فتح اليرموك أقرّ الامراء على ما كان استعملهم عليه أبو بكر الا ما كان من عمرو بن العاص وخالد بن الوليد فانه ضم خالداً الى أبي عبيدة وأمر عمراً بمعونة الناس حتى يصير الحرب الى فلسطين ثم يتولى حربها

ولما انتهى كتاب أبي عبيدة الى عمر بالذي ينبغي ان يبدأ به كتب اليه (أما بعد)

(١) أي كي لا تقطع عليه خط المواصلة على الاصطلاح المعروف الان في فن الحرب

فابدأوا بدمشق فانهدوا لها فانها حصن الشام و بيت مملكتهم وأشغلوا عنكم أهل فحل بخيل تكون بازائهم في نحورهم وأهل فلسطين وأهل حمص فان فتحها الله قبل دمشق فذاك الذي نحب وان تأخر فتحها حتى يفتح الله دمشق فلينزل بدمشق من يمسك بها ودعوها وانطلق أنت وسائر الامراء حتى تغيروا على فحل فان فتح الله عليكم فانصرف أنت وخالد الى حمص ودع شرحبيل وعمراً وأخلهما بالاردن وفلسطين وأمير كل بلد وجند على الناس حتى يخرجوا من امارته

فسرّح أبو عبيدة عشرة قواد أبا الاعور السلمي وعبد عمرو بن يزيد ابن عامر الجرشي . وعامر بن حثمة . وعمرو بن كليب من يحصب . وعمارة ابن الصعق بن كعب . وصيفيّ بن علبة بن شامل . وعمرو بن الحبيب بن عمرو . ولبدة (أو وليدة) عامر بن خثعمة . وبشر بن عصمة . وعمارة بن مخش (أو مخشي) قائد الناس ومع كل رجل خمسة قواد وكانت الرؤساء تكون من الصحابة حتى لا يجدوا من يحتمل ذلك منهم فساروا من الصفر حتى نزلوا قريباً من فحل فلما رأت الروم ان الجنود تريدهم بثقوا المياه حول فحل فاردغت الارض ثم وحلت واغتم المسلمون من ذلك وحبس من فيها عن المسلمين وكان أول محصور بالشام أهل فحل ثم أهل دمشق

و بعث أبو عبيدة ذا الكلاع حتى كان بين دمشق وحمص ردءاً . و بعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين دمشق وفلسطين والامير يومئذ يزيد بن أبي سفيان [1] فقدم خالد بن الوليد وعلى مجنبتيه عمرو وأبو عبيدة وعلى الخيل عياض ابن غنم وعلى الرجل شرحبيل بن حسنة فقدموا على دمشق وعلى الروم نسطاس ابن نسطوس (وفي رواية باهان) فحصروا أهل دمشق ونزلوا حوالبها . فكان

(١) يعني انه امير على حرب دمشق

أبو عبيدة على ناحية وعمرو على ناحية وخالد على ناحية ويزيد على ناحية وهرَقل (هرا كليوس) يومئذ بحمص فحاصروا أهل دمشق نحواً من سبعين ليلة حصاراً شديداً بالزحف والترامى والمجانيق والروم معتصمون بالمدينة يرجون الغياث وذو الكلاع بينهم وبين حمص يمنع عنهم المدد وجاءت خيول هرقل مغيثة لأهل دمشق فأشجتها الخيول التي مع ذي الكلاع وشغلتها عن نصرة الدمشقيين فلما أيقن أهل دمشق أن الامداد لا تصل اليهم فشلوا و وهنوا وقد كانوا يظنون انها كالغارات قبل ذلك اذا هجم البرد قفل المسلمون فسقط النجم والقوم مقيمون فمنذ ذلك انقطع رجاؤهم وندموا على دخول دمشق وفي غضون ذلك ولد للبطريق الذي على أهل دمشق مولود فأعد للقوم وليمة فأكلوا وشربوا وغفلوا عن مواقفهم ولا يشعر بذلك أحد من المسلمين الا ما كان من خالد فانه كان لا ينام ولا ينيم ولا يخفى عليه من أمورهم شيء عيونه ذاكية وهو معنيّ بما يليه قد اتخذ حبالا كهيئة السلالم وأوهاقاً فلما أمسى من ذلك اليوم نهد ومن معه من جنده الذين قدم بهم عليهم وتقدمهم هو والقعقاع بن عمرو ومذعور بن عديّ وأمثاله من أصحابه وقالوا اذا سمعتم تكبيرنا على السور فارقوا الينا وانهدوا للباب فلما انتهى الى الباب الذي يليه هو وأصحابه المتقدمون رموا بالحبال الشرف وعلى ظهورهم القرب التي قطعوا بها الخندق فلما ثبت لهم وهقان تسلق القعقاع ومذعور وأثبتا الاوهاق بالشرف فتسلق خالد وأصحابه وكان المكان الذي اقتحموا منه أحصن مكان يحيط بدمشق وأشده مدخلا ولما استووا على السور حدر خالد عامة أصحابه وانحدر معهم وخاف من يحمي ذلك المكان لمن يرتقي وأمرهم بالتكبير فكبر الذين على رأس السور فنهد[1] المسلمون الى الباب ومال الى الحبال

---

(١) في القاموس نهد الرجل نهض ولعدوه صمد لهم

بشر كثير فوثبوا فيها وانتهى خالد الى أول من يليه فأنامهم وانحدر الى الباب فقتل البوابين وثار أهل المدينة وفزع الناس ولا يدرون ما الشأن وتشاغل أهل كل ناحية بمن يليهم وقطع خالد بن الوليد ومن معه أغلاق الباب بالسيوف وفتحوا للمسلمين فأقبلوا عليهم من داخل حتى ما بقي مما يلي باب خالد مقاتل الا أنيم ولما شد خالد على من يليه وبلغ منهم الذي أراد عنوة اجتمع من أفلت الى أهل الابواب التي تلي غيره وقد كان المسلمون دعوهم الى المشاطرة فأبوا وأبعدوا وجاءوا الآن يبذلون لهم الصلح فأجابوهم وقبلوا منهم وفتحوا لهم الابواب وقالوا ادخلوا وامنعونا من أهل ذلك الباب فدخل أهل كل باب بصلح مما يليهم ودخل خالد مما يليه عنوة فالتقى خالد والقواد في وسطها هذا استعراضاً وانتهاباً وهذا صلحاً وتسكيناً فأجروا ناحية خالد مجرى الصلح فصار صلحاً وكان صلح دمشق على المقاسمة الدينار والعقار ودينار عن كل رأس فاقتسموا الاسلاب فكان أصحاب خالد فيها كأصحاب سائر القواد وجرى على الديار ومن بقي في الصلح جريب حنطة من كل جريب أرض ووقف ما كان للملوك ومن صوب معهم فيئاً[1] وقسموا لذي الكلاع ومن معه ولأبي الأعور ومن معه ولبشير ومن معه (وهم القوّاد الذين أرسلهم أبو عبيدة ليحولوا بين دمشق والامداد) وبعثوا بالبشارة الى عمر وقدم على أبي عبيدة كتاب عمر أن اصرف جند العراق الى العراق فسرحهم وهم عشرة آلاف وعليهم هاشم بن عتبة ومعه القعقاع بن عمرو

(١) الفيء هو ما نيل من المحارب بعد وضع الحرب اوزارها وصيرورة داره دار اسلام وهو الجزية وعشر التجارة وما يصالح عليه من المال وحكمه ان يكون لسائر المسلمين فيه نصيب وقد فصلنا الكلام على هذا تفصيلا في كتابنا (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) وبينا ثمة ان ما ترمي اليه مقاصد الاشتراكيين في هذا العصر سبقهم اليه الاسلام لكن على وجه معقول لا يصادم أحكام العقل والحس

وذكر البلاذري في سبب فتح دمشق غير ماتقدم من رواية الطبري وقال ان فتحها كان بممالأة الاسقف الذي كان اعطاه خالد عهداً وأماناً على دمشق حين مروره عليها في أول مجيئه الشام وذلك بان أرسل اليه الاسقف بعض أصحابه وأعلمه بان القوم في عيد لهم وان الباب الشرقي ردم وليس عليه أحد من الحرس (وقد مرت حكاية هذا الاسقف وصورة الكتاب في سيرة خالد بن الوليد) وان خالداً لما دخل المدينة كان أبو عبيدة دخلها من باب آخر عنوة فالتقيا في دخولهما بالمقسلاط وهو موضع النحاسين بدمشق وهو البريص الذي ذكره حسان بن ثابت في شعره حين يقول

يسقون من ورد البَرِيص عليهم   بَرَدى يصفِّق بالرحيق السلسل

ولا يخفى مافي هذه الرواية من الوهن لان الصحيح الثابت في الاخبار ان أبا عبيدة لم يدخل دمشق عنوة بل دخلها صلحاً .

وقد اتفق كثير من الرواة والمؤرخين على ان الذي تولى عقد الصلح مع الدمشقيين هو خالد بن الوليد وأمضاه له أبو عبيدة بعد ان أطلعه على كتاب عمر رضي بعزله عن امارته وممن ذكر هذا الطبري في روايته عن ابن اسحق والبلاذري في تاريخه فتوح البلدان وفي هذا ما يدل على أن خبر عزل خالد لم يأت وهم على اليرموك بل انما أتى وهم على دمشق أو مرج الصفر وكتمه عنه أبو عبيدة ريثما تم الفتح وفي حكاية قيام المسلمين من اليرموك وتربصهم في الصفر في انتظار كتاب عمر بالذي ينبغي ان يبدؤا به مايستنتج منه ترجيح ورود الكتاب بعزل خالد وهم على الصفر والله أعلم

وأما صلح أهل دمشق فقد كان كما مر في رواية الطبري على دينار على كل رأس وجريب من الحنطة على كل جريب من الارض وعلى المقاسمة

على العقار والدينار على ان هناك ما يوهن رواية من روى أمر المقاسمة فقد جاء في كتاب كتبه عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح ما نصه (وأما الحنطة والشعير التي وجدتموها في دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهي للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس) وهذا يدل على ان المسلمين اختلفوا في هل يشاطروا الدمشقيين على نصف ما وجدوه عندهم من الدينار والدرهم فكتب أبو عبيدة يستشيره في الامر فأمره بأخذ خمس الفضة والذهب فقط وسيرد معنا هذا الكتاب بجملته في باب كتبه ان شاء الله

وقال البلاذري في فتوح البلدان ما نصه « زعم الهيثم بن عدي ان أهل دمشق صولحوا على انصاف منازلهم وكنائسهم وقال محمد بن سعد قال أبو عبد الله الواقدي قرأت كتاب خالد بن الوليد لأهل دمشق فلم أر فيه انصاف المنازل والكنائس وقد روى ذلك ولا أدري من أين جاء به من رواه ولكن دمشق لما فتحت لحق بشر كثير من أهلها بهرقل وهو بانطاكية فكثرت فضول منازلها فنزلها المسلمون: انتهي ما نقله البلاذرى من قول الواقدى ويؤيده كتاب خالد بن الوليد الذى اعطاه لاهل دمشق وفيه الامان على كنائسهم ودورهم لا يسكن منها شيء وقد مرت صورة الكتاب في سيرة خالد على انه سواء صحت هذه الرواية أو الرواية الاولى فان المسلمين أجروا نصف كنيسة ماريوحنا مجرى الصلح والنصف الآخر مجرى السيف وهو النصف الشرقي الذى يلي الباب الذى دخل منه خالد بن الوليد وجعلوه مسجداً لهم وما زال كذلك حتى أيام الوليد بن عبد الملك فاشترى النصف الآخر منهم وجعله كله جامعاً لم يزل يعرف لهذا العهد بجامع بني أمية وسيأتي الكلام عليه في سيرة الوليد ان شاء الله وأما باقي كنائس دمشق فالمعروف انه كان منها بيدهم بعهد من المسلمين

الى خلافة عمر بن عبد العزيز خمسة عشر كنيسة وروى البلاذري ان بعضهم أقطع كنيسة منها لبني نصر فردها عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الى النصارى هذا وأما الجزية فانها كانت في بادئ الامر ديناراً على كل رأس كما علمت مما تقدم ثم عدلها عمر بن الخطاب (رض) فجعلها على ثلاث طبقات على الغني بنسبة غناه والمتوسط بنسبة توسطه والفقير بنسبة فقره

الى هنا انتهى ما أحببنا ايراده من الخبر عن فتح دمشق التي كانت أم المدن السورية ومهد الصناعة الشرقية وزهرة البلاد وازدادت بعد الفتح الاسلامى لا سيما في عهد الامويين مجداً على مجدها وعمراناً على عمرانها وأما ولايتها بعد الفتح فقد صارت الى يزيد بن أبي سفيان ثم الى أخيه معاوية ثم قدر لها أن تكون بعد ذلك عاصمة ذلك الملك الاسلامى العظيم الممتد امن حدود الهند فى الشرق الى شطوط الاطلانتيك فى الغرب على عهد لامويين لا عاصمة سورية وحدها وسيأتي الكلام على هذا فى محله ان شاء الله

وقد اختلف المؤرخون فى الزمن الذى افتتحت به دمشق فروى بعضهم انها فتحت فى أواخر سنة ١٣ للهجرة وبعضهم قال فى أواخر المحرم افتتاح سنة ١٤ وبعضهم قال انها فتحت فى رجب من هذه السنة ولعله الاصح

﴿ بطلان خبر ﴾

سألني بعضهم عن حكاية رآها فى تاريخ انكليزى وهي ان خالد بن الوليد لما افتتح دمشق صالح أهلها على ان من يريد منهم الجلاء يمهل بعد سفره ثلاثة أيام اذا مضت وأدركه المسلمون فدمه مهدور وان أهل دمشق جلوا وتبعهم المسلمون بعد ثلاثة أيام فقتلوهم ولا يخفى ما فى هذه الحكاية من العار على المسلمين يومئذ فيما لو صح عنهم مثل هذا الخبر مع انهم كانوا أوفى

الأمم الفاتحة بالعهد وأبعدهم عن مثل هذا الظلم الذى يأباه دينهم وتتنزه عنه شيمهم العربية وأخلاقهم الفطرية فبحثت عن هـذا الخـبر فيما دوّنه رواة الأخبار من المتقدمين كالطبري والبلاذري وابن واضح المعروف باليعقوبي وفي تواريخ المتأخرين كتاريخ ابن الأثير الذي هو أوثق التواريخ فلم أجد لهذا الخبر من أثر وانما رأيته في بعض تواريخ معاصرينا من المسيحيين كتاريخ سورية لجرجي افندى ينى وتاريخ الوافي لامين افندى شميل وكلا التاريخين وان كان مؤلفاها عربيين الا ان عبارتهما تدل على ان ما في التاريخين مترجم عن لغة أعجمية لم تذق طعم العربيـة البتة وان المؤرخين كانا أبعد الناس عن تحقيق أمثال تلك الحوادث من كتب التاريخ العربيـة الوثيقة التي لم تغادر كبيرة ولا صغيرة الا أتت على ذكرها تفصيلا في البعض واجمالا في البعض الآخر ولم تغفل حادثة من أدنى حوادث الفتح فكيف تغفل مثل هـذه الحادثة واءل بعض مؤرخي الاورببين الولعين بالبحث عن مساوى المسلمين وستر محاسنهم التقطوا ذلك الخبر من كتب المغازى والقصاصين كفتوح الشام وأمثاله من الكتب التي هي أبعد عن الثقة وأقرب للخلط والخبط منها الى التاريخ أو عن كتب مؤرخي الروم وهي لا تخلو عن لغو القول والمبالغة فى ذم الفاتح بالطبع

على انه مما يوهن أساس هذه الفرية ويدل على بطلان هذا الخبر ماقاله بعض مؤرخيهم من ان المسلمين أدركوا أولئك الناس وراء اللاذقية وفتكوا بهم بعـد انقضاء الاجل (وكان بزعمهم ثلاثة أيام) ومن البديهي ان البلاد يومئذ كانت كلها دار حرب وكانت الجنود الرومانية والسورية كلها مرابطة فى البلاد واقفة على قدم الأهبة لصد المسلمين الذين لم تكن سلطتهم بعد تجاوزت دمشق وحوران والناس واقفون لهم على قدم الأهبة فى كل مكان

لما يتوقعونه من انكفائهم على البلاد بعد فراغهم من دمشق فكيف يتيسر لسرية منهم ان تقتحم البلاد الى ماوراء اللاذقية وهذا حال أهلها من اليقظة والاستعداد وما الحامل لجند المسلمين على تتبع أثر قوم لهم عليهم عهد وميثاق فاذا قيل الطمع فيقال ان امامهم البلاد لم تزل فسيحة الارجاء كثيرة الغنائم والخيرات وليس فيهم من يشك بمصير البلاد وأهلها وكنوزها اليهم في أقرب آن وان قيل غير ذلك من نحو التعصب أو الظلم أو غيره فيقال ان التاريخ يبرئ تلك العصابة المؤمنة بكتاب الله الآمر بالعدل الناهي عن الظلم عن أمثال تلك المساوئ الشائنة وقد مر معنا فى هذا التاريخ ما يدل على ترفع أولئك القوم الفاتحين عن الخسائس التي قضى عليها نظام دينهم الجديد وشرعهم المستقيم وعدا هذا كله فان الفاتحين مهما بلغ بهم فساد الاخلاق والظلم فالسياسة تقضي عليهم بالمجاملة والرفق مع القوم المغلوبين ريثما يتم لهم الفتح والعرب يومئذ قد كان فيهم من القواد المحنكين مثل أبي عبيدة وعمرو بن العاص وخالد بن الوليد ويزيد بن أبي سفيان فكيف يمكنون جندهم من اتيان مثل ذلك المنكر والبلاد على وشك الفتح وينبغي للمسلمين ان يتألفوا قلوب أهلها بحسن المعاملة وجميل المعاشرة مع أن العرب لم يكونوا فى جاهليتهم مع شهرتهم بسفك الدماء ومثابرتهم على الغزو يعرضون للنساء والاطفال بالقتل فكيف بهم فى الاسلام وقد حرم عليهم سفك الدماء ظلماً ان يعرضوا لأولئك المساكين بالقتل وربما كان معظمهم من النساء والاطفال ان هذا لما تأباه نفوسهم العربية وتمنعهم منه المروءة والدين اذن فذلك الخبر باطل من كل الوجوه واذا ورد فى كتب مؤرخي الروم فمصدره الغرض واذا ورد فى كتب القصاصين فمصدره الجهل ولا يشك فى هذا عاقل البتة

بحث

في هل كانت دمشق قاعدة للغسانيين

سبق لنا في التمهيد الذي قدمناه في الجزء الاول عند الكلام على فتوح الشام ان قلنا على سبيل الاستنتاج ان معظم ولاية الشام كانت على عهد الفتح في أيدي العرب وانه كانت عليهم حماية البلاد واليهم ينتهي نفوذ الكلمة والسلطان الى أن قلنا (والظاهر ان دمشق نفسها كانت عربية يومئذ بدليل انها كانت تحت الحرث الغساني أحد ملوك بني غسان على عهد الفتح الاسلامي فهي إذن عاصمة ذلك الملك العظيم الممتد منها الى الشمال والشرق حتى البادية ومن الجنوب والجنوب الغربي حتى الحجاز والعقبة وكله كان مأهولا بالعرب)

وقد التمسنا في ذلك الجزء من أهل الفضل والعلم ان يتكرموا علينا ببيان مواضع الخطأ فيما ننقله أو نرتئيه في كل جزء لنبادر الى إصلاحه في الجزء الذي يليه فكان ممن أجاب ملتمسنا الفاضل المدقق جورجي افندي زيدان في مجلته (الهلال) الغراء فأخذ علينا ذلك القول بعبارة تدل على كمال وأدب وفضل وتنبيء عن سعة في الاضطلاع وميل عرفناه به للتحقيق ومؤدى انتقاده عليّ بهذا الصدد ان العرب لم يكونوا يومئذ إلا في البادية وحوران وان دمشق لم تكن تحت بني غسان بل كانت حاضرة ولاية يحكمها ولاة من قبل القياصرة وان حاضرة بني غسان كانت بُصرى في حوران وانه لم يقرأ ان أحداً من ملوك غسان أقام في دمشق أو تولى حكومتها إلا اذا كنا اطلعنا على نص لم يطلع هو عليه وأن عرب الشام لم يكونوا إلا آلة بيد الروم يسوقونهم لقتال عرب العراق والفرس عند الحاجة وليسوا في المكانة التي وصفناهم بها ثمة : ونحن مع شكرنا لاحلال صديقنا الفاضل كتابنا محل النظر والانتقاد وإقرارنا بالعجز عن بلوغ

شأو المحققين في التاريخ نجيبه بما يلي

بنينا ذلك الاستنتاج ثمة على ما رواه الطبري من أن خالد بن الوليد لما جاء من العراق لنجدة المسلمين بالشام فتح كل ما مرَّ عليه في البلاد في مروره على القلمون الاسفل وكان آخر فتحه مما يلي دمشق (قُصَم) وقاتل فيها بني مشجعة ثم انحدر الى المرج من ثنية العقاب فقاتل فيه بني غسان والذي أوهمنا أن الطريق الذي مر عليه خالد منذ دخل البادية الشامية الى أن بلغ دمشق كان مأهولا بالعرب جَعْلُ الطبري آخر الفتح مما يلي دمشق وقبل وصوله الى ثنية العقاب (قُصَم) وانه قاتل فيها بني مشجعة من قضاعة على انا بعد ان كتبنا ذلك الفصل راجعنا ما كتبه ياقوت في معجمه عن (قصم) فاذا هو يقول انها موضع البادية قرب الشام فذيلنا ذلك الاستنتاج بما يفيد ضعفه اذا صح قول ياقوت تفاديا من ارتكاب الخطأ في وضع الظن موضع اليقين كما رأيت في الجزء الماضي الا أن هذا اذا نفى قولنا أن القلمون الاسفل كان مأهولا بالعرب لا ينفي قولنا أن ما يليه شرقا الى شطوط الفرات كان من أماكن العرب بدليل أن ذلك القسم لم يزل من منازل العرب الرّحل الى الآن والبلاد التي فيه كضُمير والقريتين وتدمر والسخنة كل سكانها من العرب بل وهناك بعض القرائن التاريخية التي تدل على أن ذلك القسم الذي كان مملكة مستقلة عاصمتها تدمر الشهيرة كان محكوما بالعرب ومن تلك القرائن انفراد مدينة تدمر في طرف البرية في وسط منازل العرب

ومنها أن أحد أشراف هذه المدينة المسمى أودينائوس الذي قام وهاجم سابور ملك الفرس وأفتك منه بلاد ما بين النهرين (الجزيرة) التي كان أخذها من الرومان ثم أسس لنفسه ملكا وبسط سلطته على الجزيرة وسورية في أواسط القرن الثالث قبل المسيح قد اختلف المؤرخون في أصله هل هو عربي أم سرياني

فاذا رجحنا كونه عربياً بقرينة موضع وطنه الجغرافي وهو تدمر ثبت معنا ان هذه المدينة وما حولها من البلاد كانت عربية ولم تزل كذلك

وكذلك لا ينفي قولنا ان القسم الواقع شرقي دمشق وهو مرج راهط كان مأهولا ببني غسان لان النص صريح على ان خالداً واقعهم فيه يوم عيدهم . وكذلك لا ينفي قولنا ان القسم الذي يلي دمشق من جهة الجنوب الى حوران حتى العقبة والحجاز كان مأهولا بالعرب فانه معلوم بالبداهة وكان أشهر مدنه بصرى واشمسكين واطلعنا في تاريخ الطبري وفي فتوح البلدان على نص يفيد انَّ شمالي سورية أيضاً كانت بعض مدنه مأهولة بالعرب فقد جاء فيهما ان أبا عبيدة لما افتتح قنسرين صالحه أهل حاضر قنسرين وكانوا من تنوخ ومصّروا هذا الحاضر لما تخوا فدعاهم الى الاسلام فأسلم بعضهم وأقام على نصرانيته بنو سليح من قضاعة ثم أسلموا في خلافة المهدي العباسي وكذلك حاضر حلب وهو غير حاضر قنسرين كان من مدن العرب ولا يبعد أيضاً ان يكون العرب هم الذين مصّروا غزة في الجنوب الغربي من سورية فسميت غزة هاشم نسبة الى هاشم الثريد كما يقولون

وحق لقوم يشغلون بالسكنى قسماً عظيماً من سورية ويتوطنون في أحشاء البلاد مع ما اشتهر عن العرب من حب الاستقلال والحرية ان يكون لهم من النفوذ والسلطان في البلاد أكثر مما لغيرهم من العناصر الأخرى التي كانت تقطن هذه الولاية العظيمة كالسريان والأرمن والروم واليهود وبقية الأخلاط الذين هم ليسوا الامن الجالية حاشا العرب والسريان والبلاد وان كانت يومئذ تابعة لدولة الروم الا انه لا يعقل أن يكون الجنس الروماني أكثر الاجناس القاطنين في سورية ولا أقواها أيضاً وإن كانت بيده حكومة البلاد

اذا تقرر هذا فلا بدع ان يكون على الملوك من بني غسان حراسة البلاد

وأن يكون لهم فيها نفوذ أمر وسلطان لا سيما وانهم رجال حرب كما انهم أهل ثروة وغنى لان البلاد التي هم فيها كحوران والكرك ومعان وتدمر كلها بلاد زرع وضرع وهي من أخصب البلاد السورية ولم تزل كذلك الى هذا العهد واذا أضفنا الى هذا وهن السلطة الرومانية يومئذ وضعف سلطانها في البلاد لا نكون مبالغين فيما قلنا عن استغلاظ شأن العرب في سورية وان كان ذلك من قبيل الاستنتاج

وأما قولنا ان دمشق كانت قبيل الفتح الاسلامي تحت الحارس[1] الغساني فانا وان لم نقف في شأنه على نص صريح سوى قول للدكتور فانديك سيأتي بيانه إلا أن هناك من الاخبار التاريخية مايستنتج منه ان عاصمة بني غسان قبيل الفتح كانت دمشق الشام ومن تلك الاخبار ما ذكره الطبري في تاريخه عن مجيء خالد بن الوليد من العراق الى الشام حيث قال ما نصه

ثم نزل (يعني خالداً) الكثب حتى صار الى دمشق ثم مرج راهط فلقي عليه غسان وعليهم الحارث بن الأيهم (يريد به جبلة) الخ الخبر

وجاء في السير أن النبي صلى الله عليه وسلم أرسل شجاع بن وهب بكتاب الى الحارث بن أبي شمر الغساني يدعوه الى الاسلام فأتاه وهو بغوطة دمشق يهيئ النزل لقيصر وقد كان قاصداً إيلياء فشغل عنه الحارث ثم دعاه يوماً وقرأ الكتاب الذي معه وغضب وقال من ينتزع مني ملكي الخ

ولما وفد حسان بن ثابت الانصاري قبل إسلامه على آل جفنة وهم

---

(١) اسم الحارث يطلق على كل ملك من ملوك غسان كما يطلق اسم قيصر على ملوك الروم وكسرى على ملوك الفرس وملك غسان الذي كان على عهد الفتح هو جبلة بن الايهم

ملوك غسان امتدحهم بأبيات قال فيها

لله در عصابة نادمتهم يوماً بجلّق في الزمان الاول

ومنها

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبرُ بن مارية المعمّ المخول

يسقون من ورَد البرَيص عليهم بردى يصفّق بالرحيق السلسل

والبريص الذي جاء في الابيات هو قصر لآل جفنة على نهر بردى الذي هو نهر دمشق وجلّق من أسماء دمشق وقد تقدم معنا في خبر فتح دمشق ما قاله البلاذري في تاريخه من ان خالداً وأبا عبيدة التقيا في دخولها الى دمشق بالمقسلاط وانه هو البريص

ولا يخفى على الناقد أن التصاق ملوك غسان بدمشق كما يرى من هذه الروايات يحمل المؤرخ المحقق على الحكم بانهم كانوا قبيل الفتح أصحاب السيادة على دمشق والذي يترجح عندنا أن الفرس لما دوخوا الولايات الرومانية سنة (٦١٤م) أقروا ملوك غسان على ما كان لهم وأقاموهم ملوكا على الشام ولما استعاد هرقل من الفرس البلاد لم يشأ أن ينزع من ملوك غسان الولاية لضعفه في حرب الفرس وخوفه من شغب القوم فاستمرت بيدهم ولاية دمشق لحين الفتح الاسلامى بل هناك دليل آخر على أن سلطة بني غسان يومئذ تجاوزت ولاية دمشق وربما شملت سورية كلها فقد ذكر المؤرخون أن جبلة بن الايهم بن جبلة وهو آخر ملوك غسان ابتنى بين اللاذقية وطرابلس مدينة سماها باسمه وهي جبلة التي لم تزل عامرة الى هذا العهد فاذا كان ملوك جفنة من بني غسان قبيل الفتح انما كانوا أمراء على عرب البادية وحوران وآلة بيدي قيصر الروم يصد بهم غارات عرب العراق (كما قال صديقنا

جرجي افندي زيدان) فما علاقة جبلة بسواحل الشام وما الداعي له لتمصير الامصار في أرض ليس له ولا لقومه سلطة فيها ولا سلطان

لا جرم أن سلطة العرب كانت يومئذ مبسوطة على الشام وكانت عاصمة ملوكهم دمشق ولولا ذلك لما تسنى لجبلة أن يبتني تلك المدينة ويسميها باسمه ويؤيد ذلك ماقاله الدكتور فانديك في المرآة الوضية عند كلامه على دمشق وهو بنصه

وكانت (يعني دمشق) قبل الاسلام تخت آل جفنة ملوك غسان الذين يقول فيهم حسان بن ثابت وذكر البيتين الثاني والثالث من الابيات التي سبق ايرادها

وليت شعري لماذا استعظم صديقنا على العرب أن يكونوا ملوك الشام قبل الفتح الاسلامى وهو يعلم انهم أبناء بجدتها والسابقون الى حومتها وانهم تسلطوا على هذه البلاد مراراً قبل الميلاد وبعده كما ذكر ذلك صديقنا في مجلته من عهد قريب نقلا عن يوسيفوس المؤرخ القديم ولا مراء في أن الحارث أحد ملوك العرب على عهد طيباريوس قيصر المتوفي سنة ٢٧ للميلاد استولى على دمشق بعد حرب شديدة وقعت بينه وبين صهره هيرودس على أثر طلاق هيرودس لبنت الحارس ومما يؤيد سلطة الحارس على دمشق يومئذ قول بولس في رسالته الثانية الى الكورنثيين وهو بنصه

(وفي دمشق والى الحارث الملك كان يحرس مدينة الدمشقيين يريد ان يمسكني) وقد سبق ان قلنا ان اسم الحارث كان يطلق على ملوك العرب بالشام وعدا هذا فانا اذا رجحنا قول القائلين بان أصل اودينانوس التدمري الذي سبق ذكره عربي لا سرياني (والجنسان من أصل واحد) فلا يستبعد أن يكون للعرب من السلطة في الشام قبيل الفتح الاسلامى ما كان لهم على

عهد طيباريوس قيصر وعلى عهد اوديناثوس الذي تملك الجزيرة والشام ثم امتد ملك زوجته الملكة زنوبيا الشهيرة الى مصر وأزعجت سطوتها ملوك ذلك العصر

هذا ما انتهى اليه علمنا في تحقيق هل كانت دمشق عربية أم لا هذا على غموض تاريخ هذه الامة العربية وما دام العلماء مجدين في البحث عن آثار الامم القديمة فستكشف الايام من تاريخ عرب الشام ما كشفته من عهد قريب من تاريخ عرب اليمن (حمير) مما يدل على بلوغ هذه الامة منتهى درجات المدنية في العصور الغابرة والله أعلم

﴿ وقعة فحل ﴾

رأى المسلمون بعد فتح دمشق أن يناجزوا هرقل الا انهم خافوا ممن وراءهم من جيوش الروم في بيسان وكانوا ثمانين ألفاً على قول بعض الرواة كما ذكر ذلك الطبري فاختاروا مناجزة هؤلاء أولا فاستخلف أبو عبيدة على دمشق يزيد بن أبي سفيان وسار بجيش المسلمين قاصداً بيسان وعلى الناس شرحبيل بن حسنة إذ كانت اليه ولاية الحرب في الأردن فبعث خالد بن الوليد على المقدمة وأبا عبيدة وعمراً على مجنبتيه وعلى الخيل ضرار بن الأزور وعلى الرجل عياضاً ولما انتهوا الى أبي الاعور (وقد كان بين الاردن و بين دمشق يمنع المدد عن أهل دمشق) قدموه الى طبرية فحاصرها وهم نزلوا بفحل وكان الروم بثقوا المياه بينهم و بين فحل منعاً للمسلمين عن الوصول اليهم فكان عملهم هذا وبالاً عليهم لانهم أصبحوا بعد خروجهم للحرب كالمحصورين وكان به هلاكهم كما كان ذلك يوم اليرموك اذ تركوا النهر وراءهم وعسكروا على الضفة التي تلي جند المسلمين فأصبحوا بين خطرين حتى اذا تمت عليهم الهزيمة لم يروا طريقاً للفرار فأخذتهم سيوف المسلمين وهذا يدل على ضعف معارف قوادهم يومئذ بفنون الحرب وتمكن

الهلع والاضطراب من نفوسهم تمكنا أضاع منهم الحيلة وأفقدهم حسن التدبير

لما رأى المسلمون تلك المياه والوحل نزلوا بفحل ولم يسعهم التقدم الى حيث يقيم العدو ببيسان فكتبوا الى أمير المؤمنين بذلك وأقاموا ينتظرون الجواب وهم في رغد من ريف الاردن والروم في ضنك وقد ظنوا في المسلمين الغفلة عنهم فخرجوا عليهم بقيادة قائد اسمه سقلار أو صقلار ورجوا أن يأخذوهم على غرة والمسلمون حذرون وكان قائدهم شرحبيل لشدة يقظته وحزمه لايبيت ولا يصبح إلا على تعبية واستعداد للحرب فلما هجموا على المسلمين لم يناظروهم فاقتتلوا أشد قتال كان ليلتهم ويومهم الى الليل فأظلم الليل عليهم وقد حاروا فانهزموا وهم حيارى وقد أصيب قائدهم سقلار والذي يليه (أي القائد الثاني) واسمه نسطوس وركبوهم فلم يعرف الروم مأخذهم فانتهوا في الهزيمة الى الوحل فأدركتهم أوائل خيل المسلمين فأخذوهم وما يمنعون يد لامس

كان المسلمون يسمون هذه الوقعة ذات الرداغ لما لاقوا فيها من الوحل الذي كانوا له كارهين فكان عونا لهم على العدو ولما انتهت الحرب بفحل انصرف أبو عبيدة ومعه خالد بن الوليد الى حمص ومضى بذى الكلاع الحميري الذي كان مرابطا بين جنود المسلمين وحمص ليمنع المدد عن العدو

أوهن المسلمون بفحل قوى العدو وأوقعوا الرعب في قلوب الروم فتأهب كل أمير لقصد الجهة التي ولي حربها فسار أبو عبيدة الى حمص وسار شرحبيل الى بيسان وطبرية وتجهز يزيد بن أبي سفيان للخروج الى سواحل الشام

﴿ بيسان وطبرية ﴾

سار شرحبيل الى بيسان ومعه عمرو بن العاص والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وكلهم من أنجاد قريش وساداتها فلما بلغ أهل بيسان

ما أصاب جند الروم بفحل تحصنوا من المسلمين بكل مكان فحصرهم المسلمون أياما ثم خرج بعضهم لقتال المسلمين فأناموهم وصالحهم من بقي على صلح دمشق وبلغ أهل طبرية الخبر فصالحوا أبا الاعور على ان يبلغهم شرحبيل ففعل فصالحوا شرحبيل على صلح دمشق أيضاً ونزل القواد بجندهم في مدائن الاردن وقراها وكان ذلك سنة أربع عشرة للهجرة

﴿ مرج الروم ﴾

لما علم هرقل بما أصاب جنده في دمشق والاردن وبلغه مسير أبي عبيدة الى حمص رأى أن يرسل جيشاً الى دمشق إما ليشغل عن حمص جيش المسلمين وإما ليغنم فرصة تفرق الجيوش الاسلامية عن دمشق فتستردها جنوده من يزيد بن أبي سفيان فأرسل ذلك الجيش بقيادة توذر (لعله تيودور) فنزلا بالجيش في مرج الروم غربي دمشق وبلغ ذلك أبا عبيدة فجاء ونزل بأزاء شنس وخالد بأزاء توذر. فناز لهم لما نزلوا شنس وسار توذر يطلب دمشق فسار خالد وراءه في جريدة وبلغ يزيد بن أبي سفيان إقبال توذر عليه فاستقبله بالجند فاقتتلوا ولحق بهم خالد وهم يقتتلون فأخذهم من خلفهم ولم يفلت منهم إلا الشريد وقتل خالد توذراً وقال

نحن قتلنا توذراً وشوذراً وقبله ما قد قتلنا حيدرا

نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

وأما أبو عبيدة فقد ناهد بعد خروج خالد شنس فاقتتلوا بمرج الروم وأصابهم ما أصاب توذر وقتل أبو عبيدة شنس وانهزم فلهم الى حمص وتبعهم بعض المسلمين فلما انتهى الخبر الى هرقل أمر عامل حمص بالمسير اليها وسار هو الى الرُّها (اورفا) وفي رواية الى انطاكية وقال للعامل بلغني ان طعامهم (يعني المسلمين) لحوم الابل وشرابهم ألبانها وهذا الشتاء قد أقبل فلا تقاتلوهم إلا في كل يوم

بارد فانه لايبقى الى الصيف منهم أحد

واذا صح صدور هذا الكلام عن هرقل فانه من الغرابة بمكان لان رجلا مثله عجم عود القوم وجرب حربهم وعرف ثباتهم منذ سنتين لكبير عليه أن يعلق آماله على مجرى الطبيعة ويفوه بمثل هذا الهذر من القول الا اذا أراد به تخفيف الهلع عن قلوب الجنود المدافعة وتهوين الخطب على قواده ريثما يتم عليهم أمر القضاء الذي علمه هرقل من خلال الحوادث الماضية وانما يدافع ذلك القضاء بآخر ما عنده من وسائل القوة والتحريض كي لا تهن نفوس الجنود ولا يستولي اليأس على ضمائر الشعب

ذكر بعلبك وحمص

وسواحل دمشق

علمنا مما سبق ان يزيد بن أبي سفيان كان يتجهز بعد فتح دمشق للمسير الى سواحل دمشق وان أبا عبيدة قصد حمص ولما جاء توذر الى مرج الروم تربص يزيد وعاد اليه أبو عبيدة ولما انتهى أمر توذر لما انتهى اليه قصد يزيد سواحل دمشق وذلك سنة (١٤) وعلى مقدمته أخوه معاوية بن أبي سفيان فابتدأ بصيدا ففتحها ثم فتح عرقة وجبيل و بيروت وجلا كثيراً من أهلها ممن رغبوا الجلاء وتولى فتح عرقة معاوية بنفسه ثم ان الروم غلبوا على بعض هذه السواحل في آخر خلافة عمر وأول خلافة عثمان فقصدهم معاوية ففتحها ورمها وشحنها بالمقاتلة وأقطعهم القطائع وانما تجرأ الروم على غزو السواحل لان المسلمين لم يكن لهم يومئذ أسطول يمنع غارة الروم على السواحل اذ لم يكن من رأي أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) ركوب المسلمين للبحر وغزوهم فيه

وأما أبو عبيدة فقد قصد حمص عن طريق بعلبك وقدم اليها السمط بن

الاسود الكندي وقدّم خالداً الى البقاع فافتتح خالد بلاد البقاع ونزل أهل بعلبك الى أبي عبيدة فصالحوه على ان يكون لهم الامان على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وكتب لهم بذلك كتاباً ستأتي صورته ثم توجه الى حمص فمن قائل إنه وجد السمط قد صالحهم فأجاز صلحه ومن قائل إنه قاتلهم قتالا شديداً وكانوا يغادون المسلمين القتال ويراوحونهم في كل يوم بارد ولقي المسلمون برداً شديداً وطال على الروم الحصار وكان بعض مشايخهم دعاهم الى مصالحة المسلمين فأبوا ولما اشتد عليهم الامر طلبوا من أبي عبيدة الصلح فصالحهم على صلح دمشق وأنزلها السمط بن الاسود الكندي في بني معاوية والاشعث بن ميناس في السكون وَالمقدَاد بن بَلِيّ وأنزلها غيرهم

وفي فتوح البلدان ان السمط قسم حمص خططاً بين المسلمين وأسكنهم كل مرفوض جلا أهله أو ساحة متروكة

أما أبو عبيدة فقد بعث بالاخماس وخبر الفتح الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع عبد الله بن مسعود فكتب اليه عمر: ان أقم في مدينتك وادعُ أهل القوّة والجلد من عرب الشام فاني غير تارك البعث اليك بمن يكانفك ان شاء الله

﴿ تحقيق خبر اجنادين واليرموك ﴾

﴿ واختلاف المؤرخين فيها ﴾

اختلف المؤرخون في وقعة اجنادين واليرموك فمن قائل ان الاولى كانت قبل فتح دمشق والثانية بعد فتح حمص ومن قائل بالعكس ولقد يحار المؤرخ الناقد في التفريق بين هاتين الواقعتين وتعيين الزمن الذي وقعتا فيه ويكاد يشتبه عليه أمرها فيتخيل له ان الواقعتين واحدة أو ان الواقعتين كانتا في اليرموك واحدة في خلافة أبي بكر والاخرى في خلافة عمر رضي الله عنهما وذلك لما فيهما

من التشابه في الاسباب والحوادث وقد كنت أظن أن هذا الاضطراب في خبر الواقعتين قاصر على كتبنا وأن الغربيين ربما لم يقعوا في هذا الاضطراب لما عساهم نقلوه من أخبار الفتح عن مؤرخي الروم الذين كتبوها عن مشاهدة لا من طريق الرواية فاذ بالقوم وقعوا فيما وقع فيه مؤرخو العرب فقد راجعت ما كتبه بهذا الصدد المؤرخ الانكليزي ادوَرد جبون[1] في (تاريخ السلطنة الرومانيـة) والمؤرخ الفرنساوي نويل ديفرجي في كتابه بلاد العرب[2] فلم أعثر على ما يشفي الغليل ويزيح ستار اللبس فان الاول جعل وقعة أجنادين سنة (٦٣٣ م) الموافقة سـنة (١٢ هـ) أي قبل فتح دمشق مع ان الادلة التاريخية تؤيد حصول وقعة اليرموك قبل دمشق لا اجنادين وأما الثاني فقد قال ان ماراه في تاريخ أبي الفداء في شأن اليرموك يعروه اللبس والاشكال وأن هذا يوجب الارتياب في كلام الشرقيين اكثر من الارتياب في كلام الغربيين الى ان قال وهذا المبهم من كلامهم يدعو الى الظن انه حدثت واقعتان في هذا المحل (أي في اليرموك) الاولى قبل فتح دمشق والثانية بعد الاستيلاء على حمص

ولقد نكاد نجاريه في هذا الظن وان هناك التباساً في هذا الاسم وان الاسمين ربما يطلقان على مكان واحد لو لم نر ان ياقوت فرق في معجمه بين المكانين فقال ان اليرموك واد في طرف الغور يصب في الاردن وأن اجنادين موضع بالشام من نواحي فلسطين من الرملة من كورة بيت جبرين كما ان الطبري أيضاً قال عن اجنادين انه بلد من أرض فلسطين من عمل بيت جبرين

وبما ان حصول الواقعتين الواحدة قبل فتح دمشق والثانية بعدها أمر

(1) Gibbon's Roman Empire
(2) Arabie, par M. Noel Desvergers

محقق عند المؤرخين لاخلاف فيه وان اختلفوا في تعيين زمن كل منهما فجعل بعضهم الاولى بمكان الثانية وهذه بمكان تلك وبالعكس فالذي نريد الوصول اليه الآن هو تحقيق أيهما كانت قبل فتح دمشق وأيهما كانت بعدها فالذي اعتمده البلاذري في فتوح البلدان ان اجنادين هي الاولى واليرموك هي الثانية وجاراه على هذا الرأي ابن واضح الكاتب العباسي الشهير باليعقوبي في تاريخه المعروف بتاريخ اليعقوبي [1] وجعل اليرموك بعد حمص وأما الطبري فانه أورد خبر اليرموك كما أوردناه في الجزء الاول أي قبل دمشق وأورد خبر اجنادين مرة قبل فتح دمشق ومرة بعدها الواحدة من رواية سيف والثانية من رواية ابن اسحق على عادته في نقل الروايات على اختلافها وترك الحكم فيها للمطالع وتكاد هذه الرواية تكون أقرب للحق لو لم يتوهم الرواة ان اجنادين الاولى هي التي اجتمع عليها الامراء ووافاهم اليها خالد بن الوليد وهذه هي التواريخ التي بين أيدينا من كتب المتقدمين الذين نقلوا الاخبار بالرواية وأما المتأخرون فاذ كان اعتمادهم فى سرد الوقائع على ما دوّنه أولئك اضطربوا أيضاً في تعيين زمان الواقعتين ومكانهما وليس منهم الا من أورد الخبر على علاته دون تمحيص ولا تحقيق وبما ان بعضهم قال ان أبا عبيدة رجع من حمص الى اليرموك بزعم انها بعد فتح حمص مع ان المرجح ان اليرموك هي الواقعة التي حضرها خالد بن الوليد لما جاء لنجدة المسلمين في سنة ١٣ وفتح حمص كان في سنة (١٤) أو التي بعدها فقد حملني ذلك على اعتقاد خطائهم في تأخير تاريخ وقعة اليرموك مع الظن باحتمال وصول أبي عبيدة الى حمص قبل مجيء خالد من العراق فبسطت في الجزء الاول هذا الاحتمال خطأ اذ الحقيقة التي ظهرت لي في هذا بعد التدقيق

(١) هذا التاريخ جزءان طبعا فى ليدن ويوجد منه نسخة في المكتبة الخديوية

في التاريخ ان رجوع أبي عبيدة من حمص انما كان بعد فتحها ويومئذ اجتمع على الامراء في اجنادين واجتماعهم هذا هو غير اجتماعهم على اليرموك وانما تضارب الروايات في هذه الوقايع يدعو الى غموض الحقيقة وتشويش الذهن والذي صح عندي من تحقيق هذه الروايات الآن والتدقيق فيها ان هناك ثلاث وقائع متشابهات اضطرب في ترتيبها المؤرخون لتشابه البواعث والاسم وهي اجنادين الاولى وحدثت في أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة١٣ واليرموك وكانت في جمادى سنة ١٣ واجنادين الثانية وكانت سنة (١٤) أو (١٥)

وقد ساق ابن جرير الطبري في تاريخه خبر هذه الوقائع الثلاث الا انه أورد خبر اليرموك واجنادين الاولى من عدة روايات كلها يخالف بعضها بعضاً ويدل على اضطرابهم في تحقيق هل كانت اليرموك قبل اجنادين أو بالعكس أو كانتا وقعة واحدة ويؤخذ من مجمل هذه الروايات حصول وقعة في اجنادين لم يحضرها خالد بن الوليد وانما هي اما أن تكون لخالد بن سعيد لما بعثه أبو بكر لاطراف الشام وواقع هناك الروم وعليهم باهان أو ماهان على رواية مؤرخي العرب ووردان على رواية ادورد جبون الانكليزي واما أن تكون مع الامراء في أول دخولهم الشام لما بعثهم أبو بكر في أثر خالد بن سعيد ثم لما واقعوا باهان وأوقعوا به تفرقوا في انحاء الشام فسرب لهم هرقل الجنود فمادوا الى اليرموك واستنجدوا أبا بكر فأنجدهم بخالد بن الوليد فوافاهم وهم على اليرموك ثم لما تمت الهزيمة على الروم في اليرموك وسار الامراء الى دمشق ففتحوها ثم فحل فكان الفتح ثم سار أبو عبيدة الى حمص وفتحها أرسل هرقل جنوداً جديدة الى سورية اجتمعت في فلسطين فعاد أبو عبيدة والامراء الى حيث يخيم جند الروم في اجنادين فكانت وقعة

اجنادين الثانيـة والظاهر ان بعض المؤرخين ومنهـم البلاذرى واليعقوبي ظنوا أن وقعة أجنادين واحدة فاعتبروا الاولى وجعلوا مكان الثانية اليرموك مع أن المرجح أن اليرموك هو المكان الذى اجتمع عليه الامراء، ووافاهم فيه خالد بن الوليد من العراق بدليل ما قاله ياقوت في معجم البلدان وهو بنصه

اليرموك واد بناحية الشام في طرف الغور يصب فى نهر الاردن ثم يمضي الى البحيرة المنتنة كانت به حرب بين المسلمين والروم فى أيام أبي بكر الصديق رضي الله عنـه وقدم خالد الشام مدداً لهم فوجدهم يقاتلون الروم متساندين : وساق مجمل الخبر كما ذكرناه فى الجزء الاول ثم قال : وقال القعقاع ابن عمرو يذكر مسيرة خالد من العراق الى الشام فى أبيات

بدأنا بجمع الصفرين فلم ندع ... لغسان أنفاً فوق تلك المناخر

صبيحة صاح الحارثان ومن به ... سوى نفر نجتـدهم بالبواتر

وجئنا الى بصرى و بصرى مقيمة ... فألقت الينا بالحشا والمعاذر

فضضنا بها أبوابها ثم قابلت ... بنا العيس فى اليرموك جمع العشائر

والشاهد من كلام ياقوت هو هـذه الابيات التي تدل دلالة صريحة على أن خالداً لما جاء الى الشام واقع غسان ثم فتح بصرى وانتهى الى جيوش المسلمين وهم فى اليرموك

وأما أجنادين الاولى فان الذى يرجح انها كانت فى أواخر سنة ١٢ أو أوائل سنة (١٣) هو مارواه بعض المؤرخين من أن أبا بكر بُشِّر بانتصار المسلمين على الروم في أجنادين وهو بآخر رمق مع أن انتصار المسلمين فى اليرموك كان فى جمادى الثاني بعد وفاة أبي بكر وانما جاء المسلمين وفاته وهم على اليرموك فهذا ما وصل اليه الفكر وانتهى اليه البحث فى تحقيق وقعة اليرموك

وأجنادين التي قبلها وأما أجنادين الثانيـة وهي التي كانت عقب فتح حمص واضطر أبو عبيدة ان يرحل من أجلها عن حمص وحذا حذوه باقي الأمراء لمصادمة الجيوش العظيمة التي أرسلها اليهم هرقل واجتمعت في فلسطين ثم في أجنادين فقـد ذكر خبرها الطبري سـنة (١٥) كما ذكره البلاذري واليعقوبي الاّ ان هذين زعما أنها وقعة اليرموك

على ان القرائن التي تحف بهذه الوقعة التي حدثت سنة ١٥ تؤيد انها كانت في أجنادين وذلك ان أجنادين من عمل فلسطين واليرموك من عمل الأُردُن وعمالة الاردن كانت سقطت يومئذ في أيدي الجيوش الاسلامية وهم فيها مرابطون وفلسطين لم تكن كذلك بل كانت على وشك السقوط وبسقوطها يسقط بيت المقدس ومتى سقط بيت المقدس تقطعت بالروم الاسباب وقضى على سلطان دولتهم في سورية بالانقلاب لهـذا فلا يعقل ان هرقل يسرب جيوشه الى الاردُن ويترك فلسطين معرضة لهجوم عمرو بن العاص الذي كان يقصدها من الأُردُن ومعاوية بن أبي سفيان الذي عزم ان يأتيها من سواحل دمشق بل المعقول ان هرقل لما جلا عن حمص وأقام في انطاكية او الرُها ووصلته الاخبار بتغلب المسلمين على جيوشه في كل مكان ورأى ان أبا عبيدة قد بلغ حمص من جهة الشمال وقطع طريق المواصلة والامداد ما بينه وبين الجنود الرومية من جهة البر أرسل جيوشاً عظيمة من جهة البحر لتكون مدداً لأهل قيسارية وغزة وايلياء (بيت المقدس) ولعل تلك الجنود أنزلت من يافا وعسكرت بأجنادين لقربها منها إذ المسافة لا تزيد عن ثلاث ساعات بين يافا والرملة واجنادين من عملها كما قال ياقوت واليك ما رواه الطبري وغيره في شأن قيسارية وغزة واجنادين

﴿ فلسطين واجنادين ﴾

لما انصرف أبو عبيدة من فحل الى حمص ونزل عمرو بن العاص وشرحبيل ابن حسنة على بيسان وافتتحها وصالحهم أهل الأردن قصد عمرو فلسطين وكتب الى أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بتفرقهم فكتب الى يزيد بن أبي سفيان بأن يدفئ ظهورهم بالرجال وان يسرح معاوية الى قيسارية [1] وكتب الى عمرو بصدم الارطبون وكان في اجنادين والى علقمة بن مجزز بصدم الفيقار وكان في غزة وكان مما كتبه الى معاوية (أما بعد اني قد وليتك قيسارية فسر اليها واستنصر الله عليهم وأكثر من قول لاحول ولا قوة الا بالله الله ربنا وثقتنا ورجاؤنا ومولانا نعم المولى ونعم النصير)

فسار كل أمير لما أمر به وسار معاوية الى قيسارية وكان فيها من المقاتلة مائة ألف أو يزيدون على ما يؤخذ من كلام الطبري فافتتحها وكتب الى عمر بالفتح وبعث بالخبر مع رجلين من بني الضبيب ثم خاف منهما الضعف فبعث عبد الله بن علقمة الفراسي وزهير بن الحلاب الخثعمي وأمرهما ان يتبعاهما ويسبقاهما فلحقاهما فطوياهما وهما ناغان وابن علقمة يتمثل

أرّق عيني أخو جذام ... كيف أنام وهما أمامي

اذ يرحلان والهجير طامي ... أخا حرام خثيم وأخو حرام

وأما علقمة بن مجزز فحصر الفيقار بغزة وجعل يراسله فلم يشفه مما يريد أحد فأتاه كأنه رسول علقمة فأمر الفيقار رجلاً ان يقعد له بالطريق فاذا

(١) هذا الاسم معرب قيصرنه وهما ثنتان واحده تسمى قيصرية فلسطين وهي خراب الآن وخربت على عهد الصليبيين والاخرى قيصرية فيلبس وهي بانياس على ما قاله فانديك

مرّ قتله ففطن علقمة فقال ان معي نفراً شركاني في الرأي فأنطلق فآتيك بهم فبعث الفيقار الى ذلك الرجل لا تعرض له نخرج من عنده ولم يعدو فعل كما فعل عمرو بن العاص بالارطبون لما احتال عليه بنفس هذه الحيلة ونجا من القتل

وأما بريد معاوية الذي أرسله الى المدينة فوصل الى عمر رضي الله عنه فجمع الناس ليلاً وقال لتحمدوا الله على فتح قيسارية وأبانهم على الفرح

وأما عمرو بن العاص فقد سار بجيشه نحو الأرطبون وكان من كبار القواد ودهاتهم وهو يعادل عند الروم بالدهاء عمرو بن العاص عند العرب فتقدم نحوه عمرو وهو مخيم بأجنادين بجند كثيف وعلى مقدمة عمرو شرحبيل وعلى مجنبتيه عبد الله بن عمر وجنادة بن تميم المالكيّ مالك بن كنانة وقد كان الأرطبون وضع بالرملة جنداً عظيماً وبايلياء جنداً عظيماً فكتب عمرو الى أمير المؤمنين بالخبر فقال . قد رمينا أرطبون الروم بأرطبون العرب فانظروا عمّ تفرّج : وكان عمر رضي الله عنه من لدن توجه أمراء الشام يمدّ كل أمير جند ويرميه بالامداد حتى اذا أتاه كتاب عمرو بتفريق الروم كتب الى يزيد بن أبي سفيان بأن يبعث معاوية في خيله الى قيسارية وكتب الى معاوية كتاباً بأمرته على قتال أهل قيسارية وقد مر ذكره وذلك ليشغلهم عن عمرو وكان عمرو قد استعمل علقمة بن حكيم الفراسي ومسروق بن فلان العكي على قتال أهل ايلياء وبعث أبا أيوب المالكيّ الى الرملة وعليها التذارق ولما تتابعت الامداد على عمرو بعث محمد بن عمرو مدداً لعلقمة ومسروق وبعث عمارة بن أمية الضمريّ مدداً لأبي أيوب وأقام عمرو على أجنادين لايقدر من الأرطبون على سقطة ولا تشفيه الرسل فوليه بنفسه فدخل

عليه كأنه رسول فأبلغه ما يريد وسمع كلامه وتأمل حصونه حتى عرف ما أراد فحدثت أرطبون نفسه بأنه عمرو بن العاص فوضع له في الطريق من يقتله وفطن له عمرو فاحتال للتخلص منه بمثل الحيلة التي احتال بها علقمة على الفيقار ونجا عمرو وعلم الأرطبون بحيلته فقال : خدعني الرجل هـذا أدهى الخلق : وبلغت عمر بن الخطاب فقال : غلبه عمرو لله عمرو :

لما عرف عمرو وأخذ الأرطبون ووقف بنفسه من حالة الروم على ما يريد ان يقف عليه زحف عليهـم بجنده واقتتلوا قتالا شـديداً كقتال اليرموك فانهزم ارطبون في الناس وآوى الى ايلياء ولما وصلها أفرج له المسلمون الذين على حصارها فدخلها ثم أزالهم الى اجنادين

فهذه وقعة اجنادين التي اضطرب فيها المؤرخون وجعلها بعضهم على اليرموك سنة (١٥) مع ان اليرموك كانت سنة (١٣) كما تقدم الدليل على ذلك في أبيات القعقاع بن عمرو التي يذكر فيها التقاءهم مع خالد بن الوليد بجيش المسلمين وهم على اليرموك على ان وقعة اجنادين هذه لم يذكر الطبريّ في سياقها اسم أبي عبيدة وخالد وانهما حضرا بمعسكرهما من حمص الا انه لما ساق خبر فتح بيت المقدس بعد اجنادين ذكر في جملة رواياته عن فتح بيت المقدس ان الذي كان على حصارها هو أبو عبيدة فاذا أضيفت هذه الرواية الى ما ذكره البلاذريّ في فتوح البلدان واليعقوبي في تاريخه من رجوع هذين القائدين بجيش المسلمين من حمص لانجاد بقية الامراء في اليرموك سنة (١٥) مع ما علمناه مما سبق ان وقعة اليرموك كانت سنة (١٣) لا سنة (١٥) وان المؤرخين ربما وهموا لتشابه الوقائع وقرب المكانين أحدهما من الآخر بأن وقعة اجنادين كانت على اليرموك صح ان أبا عبيدة وخالداً حضرا وقعة اجنادين هذه هذا اذا لم يكن هناك وقعة ثانية في

اليرموك كما كانت وقعتان في اجنادين الا ان القول بحدوث وقعتين في اليرموك لم يقم عليه دليل واضح في التاريخ وأما القول برحيل أبي عبيدة بجيشه عن حمص سنة (١٥) أي بعد فتحها وشخوصه الى جنوب الشام لامداد المسلمين فقد اتفق عليه البلاذري واليعقوبي ومما ذكره اليعقوبي بهذا الصدد قوله عن أبي عبيدة بعد ان فتح حمص

ثم أتاه خبر ما جمع طاغية الروم من الجموع في جميع البلدان وبعثه اليهم مَن لا قِبلَ لهم به فرجع الى دمشق وكتب الى عمر بن الخطاب : وكتب اليهم عمر انه قد كره رجوعهم من أرض حمص الى دمشق : وجمع أبو عبيدة المسلمين وعسكر في اليرموك الى ان قال وكانت وقعة جليلة الخطب قتل فيها من الروم مقتلة عظيمة وفتح الله على المسلمين وكان ذلك سنة (١٥) وأوفد أبو عبيدة الى عمر وفداً فيهم حذيفة بن اليمان وقد كان عمر أرق عدة ليال واشتد تطامه الى الخبر فلما ورد عليه الخبر خرّ لله ساجداً وقال : الحمد لله الذي فتح على أبي عبيدة فوالله لو لم يفتح لقال قائل خالد بن الوليد اه

وأما ما نقله البلاذري فقد تقدم ذكره في الجزء الاول ومؤداه أن المسلمين لما بلغهم اقبال الجنود الكثيرة لوقعة اليرموك ردوا ما كانوا أخذوه من أهل حمص وقالوا لهم قد شغلنا عن نصرتكم والدفع عنكم فأنتم على أمركم فأقسم النصارى واليهود انهم لا يدعوا عامل هرقل يدخل الى المدينة وأغلقوا أبوابها وحرسوها الخ

هذا ما أورده المؤرخون بشأن اليرموك وأجنادين بسطناه هنا مع ما في كثرة هذه الاقوال من التشويش والاختلاف ليكون القاريء على بينة من الحقيقة والله بها عليم

﴿ فتح بيت المقدس ﴾

لما انتهى عمرو من اجنادين ترك أهل ايلياء (بيت المقدس) محصورين وأخذ يتم فتح مدن فلسطين وقراها ففتح غزة ولُدّ ونابلس وبيت جبرين ومرج عيون ويافا وقيل ان يافا فتحها معاوية فلما أتم هذا الفتح قصد بيت المقدس وأخذ يخابر الارطبون مخابرة حبية ويطلب اليه تسليم المدينة والارطبون ممتنع عليه وكتب لعمرو كتاباً يقول فيه : انك لست بصاحب فتح ايلياء بل صاحبه عمر : فكتب عمرو الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) يستمده ويقول : اني أعالج حرباً كؤوداً صدوماً (كناية عن شدتها) وبلاداً ادخرت لك فرأيك : ولما انتهى الكتاب الى عمر نادى في الناس ثم خرج فيهم حتى نزل الجابية[1]

وفي رواية للطبري ان أبا عبيدة هو الذي كان على حصار ايلياء وأن سبب قدوم عمر الى الشام ان أهل بيت المقدس طلبوا من أبي عبيدة أن يصالحهم على صلح مدن الشام وأن يكون المتولي للعقد عمر بن الخطاب فكتب اليه بذلك فسار عن المدينة وكتب للامراء أن يوافوه بالجابية ليوم سماه لهم وأن يستخلفوا على أعمالهم فلقوه حيث رفعت لهم الجابية فكان أول من لقيه يزيد ثم أبو عبيدة ثم خالد على الخيول وعليهم الديباج والحرير فكبر على ذلك الخليفة العظيم الذي ولع بالتقشف وازدرى بنعيم الحياة الفانية أن يرى آثار التنعم بادية على قوّاده على قرب عهدهم بالخوشنة وتخلقهم بخلق العفة والجد والقناعة فنزل

---

(١) قال ياقوت . الجابية من قرى الجولان من أعمال دمشق ثم من عمل دمشق قرب مرج الصفر في شمالي حوران ويقال لها جابية الجولان أيضا قال الجواس بن القعطل

أعبد المليك ما شكرت بلادنا فكل في رخاء الامن ما أنت آكل
بجابية الجولان لولا ابن بحدل هلكت ولم ينطق لقومك قائل

وأخذ الحجارة فرماهم بها وقال : سرع ما لفتم عن رأيكم إياى تستقبلون بهذا الزى وانما شبعتم منذ سنتين سرع ما ندت بكم البطنة وتالله لو فعلتموها على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم : فقالوا يا أمير المؤمنين انها يلامعة[1] وأن علينا السلاح :قال: فنعم اذن : وركب حتى دخل الجابية وعمر وشرحبيل بأجنادين فبينما عمر معسكراً بالجابية فزع الناس الى السلاح فقال ما شأنكم فقالوا ألا ترى الخيل والسيوف فنظر فاذا كردوس يلمعون بالسيوف فقال عمر هذه مستأمنة فلا تراعوا وأمنوهم فأمنوهم واذا هم أهل ايلياء.

كان أهل ايلياء في ضنك عظيم وحصار شديد وقد أيقنوا بعد انقطاع المدد عنهم واستيلاء المسلمين على أطراف الشام ومدنها العظام انهم مأخذون لا محالة وان دولة الروم دالت وسلطانهم عن البلاد زالت وخافوا اذا سلموا المدينة للمسلمين أن لا يصالحوهم على ما صولح عليه أهل المدن الاخرى لكثرة ما لاق المسلمون منهم من العناء وما بذلوا في حربهم من الدماء ولما تحقق عندهم من أن بيت المقدس مكرم عند المسلمين لانه محل الاسراء ومقر الانبياء والظاهر انهم خافوا لهذا السبب على كنيستهم العظمى أن ينزعها منهم المسلمون وقبلتهم المقدسة أن يحرمهم منها الفاتحون مع أن المسلمين كانوا أحرص الناس على الوفاء بالعهود وألزمهم لشرعة الانصاف مع المغلوبين وكانوا اذا صالحوا قوماً على شيء وكتبوا لهم بذلك عهداً صار ذلك العهد سنة لمن بعدهم في معاملة اولئك المعاهدين لا يحيد عنها أحد من المسلمين وانما هو الروع أخذ بقلوب أهل بيت المقدس فرأوا توكيداً للامان وتوثيقاً لعرى العهد أن يباشروا ذلك مع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى

(١) قال في القاموس اليلامعة ما لمع السلاح كالبيضة

الله عنه فطلبوا من الامراء حضوره بنفسه ولما بلغهم وصول أمير المؤمنين الى الجابية أوفدوا اليه ذلك الوفد فتلقاهم المسلمون براية الامان فأخبروا أمير المؤمنين انهم نواب في الصلح عن أهل ايلياء وان أمراء الجند الرومي وهم أرطبون والتذارق لحقا بمصر فصالحهم على ايلياء وحيزها والرملة وحيزها فصارت فلسطين نصفين نصف مع أهل ايلياء ونصف مع أهل الرملة وكتب لهم بذلك كتباً وكتب لاهل ايلياء خاصة كتاباً سترد صورته في هذا الكتاب ثم جعل على ذينك القسمين أميرين فجعل علقمة بن حكيم على الرملة وأحوازها وأنزله الرملة وجعل علقمة بن مجزز على ايلياء وأحوازها وأنزله ايلياء ونزل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه وضم عمرو بن العاص وشرحبيل اليه بالجابية فلما انتهيا الى الجابية وافقا عمر (رض) راكباً فقبّلا ركبته وضم هو كل واحد منهما محتضنهما

وكان فتح ايلياء سنة (١٦) وقيل سنة (١٥) ولما أتم عمر عهد الصلح أراد المسير الى بيت المقدس فأتى له ببرذون فركبه فلما سار جعل يتخلج[1] به فنزل عنه وضرب وجهه وقال : لا علّم الله من علمك هذا من الخيلاء ولم يركب برذوناً قبله ولا بعده ثم دعا بفرسه فركبه ثم سار حتى انتهى الى المسجد الاقصى ليلا فدخله فصلى فيه ولم يلبث ان طلع الفجر فأمر المؤذن بالاقامة فتقدم فصلى بالناس ثم انصرف ودعا بكعب الاحبار (وكان لما دخل المسجد قال : ارقبوا لي كعباً :) فلما أتى به قال له : أين ترى ان نجعل المصلى : فقال : الى الصخرة : فقال : ضاهيت والله اليهودية يا كعب وقد رأيتك وخلعك نعليك : فقال : أحببت أن أباشره بقدمي :فقال: قد رأيتك

(١) يضطرب ويتمايل

بل نجعل قبلته صدره كما جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلة مساجدنا صدورها اذهب اليك فانا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة : فجعل قبلته صدره ثم قام الى كُناسة (١) قد كانت الروم دفنت بها بيت المقدس فى زمان بني اسرائيل وقال : يا أيها الناس اصنعوا كما أصنع وجثا في أصلها وحثا في فرج من فروج قبائه وسمع التكبير من خلفه وكان يكره سوء الرعة (٢) في كل شيء فقال : ما هذا فقالوا كبّر كعب وكبَّر الناس بتكبيره : فقال : عليّ به فأتى به فسأله عن سبب تكبيره فقال يا أمير المؤمنين انه قد تنبأ على ما صنعت نبيٌّ منذ خمسمائة سنة وسرد له خبراً طويلا من الاسرائيليات لا محل لذكره هنا

ولا جرم ان يظهر كعب الاحبار سروره ويكبر لمصير بيت المقدس الى المسلمين وهو اسرائيليّ الاصل يعلم سوء ما لاقى بنو اسرائيل من الرومان وما كانوا يلاقونه من النصارى من الاضطهاد والتعصب الذي منعهم من حرية التوجه الى قبلتهم والتمتع بأول معبد لهم كما يعلم جميل معاملة المسلمين لأهل الكتاب واطلاقهم لهم حرية التعبد والسكنى والاعمال حيثما كانوا وانى أقاموا ولهذا السبب كان اليهود في سورية يتمنون إدالة دولة الروم ويحرّضون عليهم المسلمين ومن ذلك ما رواه الطبري ان عمر بن الخطاب لما نزل الجابية قبيل فتح إيلياء جاءه يهوديّ من يهود دمشق وقال له : يا أمير المؤمنين لا ترجع الى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء وما زال ملازماً له حتى تم الفتح وشهد عقد الصلح

(١) الكناسة الزبالة ويراد ببيت المقدس الهيكل الذي بني على الصخرة وقد كان الروم من زمان بني اسرائيل هدموه وألقوا عليه الزبالة نكاية باليهود فبنى عمر فوقه مسجداً ثم وسع بعد (٢) جثا أي جلس على ركبتيه وحثا من حثا التراب يحثوه ويحثيه ومعناه ان عمر حثا التراب في ذيل ثوبه والرعة بالكسر كما في القاموس الهدى وحسن الهيئة او سؤها وهو ضد والتحرّج أي التنطع ولعله هو الاقرب للمراد من قوله يكره سؤ الرعة

﴿ لا وثنية في الاسلام ﴾

رأيت ماقاله عمر (رض) لكعب الاحبار وهو قول لا نحب ان يفوتنا البحث فيه لهذا رأينا أن نفرد له هذا الفصل فنقول

أولع الانسان بالافراط كما أولع بالتفريط في كل شؤونه الروحية والجسمانية ولو أنصف واعتدل ولم يطلق لنفسه العنان ليبلغ مقام الملائكة في أعلى عليين أو يهبط بها الى مقر الشرور في أسفل سافلين لكانت السعادة الدائمة به ألزم وطريق النعيم الحيوي لديه أوسع ولما احتاج الى كثير من هذه القوانين وقوامها وزعماء السيطرة وجنودهم والحكام وأعوانهم والسجون وحراسها بل ولكان اكتفى بدين واحد قويم وشرع الهي مستقيم ولم يشوه وجه الشرائع ولم يدع لتعدد الاديان وارسال الرسل في آن وآن

أجلْ أولع الانسان بالشطط حتى في العقائد فبينا يكون هذا في طارف التفريط مارقا من كل دين منكراً لكل نحلة هائماً في المادة التي يتناولها حسه وينكر مافوقها عقله يكون الآخر مسلما لعقيدته بما لا يبعد طبعه عن طبيعته طالباً بخياله مايظن له قدرة فوق قدرته وسلطة أعلى من سلطته وأول مايلاقيه في طلبه يعلق بقلبه ويظنه منتجع عقله والغاية التي يطلبها في سيره فتولع به نفسه ويقوى فيه أمله ويختص به عمله فيغلو في عبادته غلو المادي في مادته حتى يساويه من طارف الافراط بالتوجه تارة للاقمار وأخرى للاشجار وآونة للاحجار ووقتاً للارواح وآخر للاشباح الى غير ذلك مما هو داخل في المادة قريب من متناول الحس . فكأن العقل الانساني في حال الإيمان والكفر أسير المادة لا يفلت من شرك الحس ولا يذعن الى مافوق المادة ويصعد الى أفق الكمال الا هنيهة ريثما يتلقى برهان ربه بواسطة الانبياء ويطمئن الى التسليم بقوة الهية تفوق قوى المادة وتعلو

عن العقل وتحكم على الكائنات تحكم الصانع المختار ثم لا يلبث ان ينحط عن هذه المرتبة فيعود الى نحيزته الاولى للهبوط الى هوة النقص والتوجه الى مظاهر المادة ولو تدريجاً حتى يلتصق بالحضيض و يعود الى الشرك وهو يظنه الايمان ويخاله منتهى العبادة و إن من دين الاّ أصيب أهله بهذا المصاب وأشركوا مع الله الارواح تارة وأخرى الانصاب توسلا اليه على زعمهم بالحس وارتياحاً الى ما تحت النظر والعقل والله سبحانه وتعالى فوق ما يتصورون ليس من المادة ولا المادة منه بل هي مخلوقة له متفرقة اليه وليس بينه و بين خلقه سبب منها يتوصل به اليه بل هو كما قال في كتابه الكريم (الله لا إله إلا هو الحيُّ القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الارض من ذا الذي يشفع عنده الاّ باذنه) الآية

ومن الثابت ان العرب كانوا على دين ابراهيم الذي هو كباقي الاديان الالهية دين التوحيد بالله والايمان بأنه تعالى خالق الكون وما فيه و إنكار ما دون ذلك من الاعتقاد بشيء من المادة ومن التمسك في العمل بأهداب الشرك ولكن لم يلبثوا ان تدرجوا في مدارج المادة وهبطوا الى حضيض الشرك وتدرجوا من الاعتقاد بالارواح الى الاعتقاد بالاشخاص ثم الى الاعتقاد بالانصاب والاحجار وغير ذلك مما هو داخل في المادة واقع تحت الحس وهم مع ذلك كانوا يزعمون انهم مؤمنون لا مشركون وانهم بعبادة المادة يعبدون الله ويتقربون بها اليه كما أخبر عن ذلك القرآن بقوله تعالى (ما نعبدهم الاّ ليقربونا الى الله زُلفى) وهذا من الاغراق في الجهل والانحطاط في العقيدة والافساد لاصل التوحيد ولم يكن هذا الافساد قاصراً على العرب فقط بل عم سائر أرباب الاديان مما لا محل لبسطه الآن

اذا تمهد هذا علمنا ان الاسلام بما جاء به من آيات التوحيد الخالص من كل

شائبة من شوائب الشرك انما جاء لاستئصال شأفة الوثنية من نفوس العرب وغيرهم من أرباب الاديان بمحو شائبة الاعتقاد بأي أثر من آثار المادة وصرف النفوس عن التوجه الى تلك الآثار بالحس لتتوجه الى واجب الوجود بالضمائر والاكتفاء باستحضار هيبة جلاله في القلب وتمكين الاعتقاد بأن الأثر الواقع تحت الحس انما يقوم قوامه بالمؤثر المستحضر في الضمير الخارج عن الحس إذ بغير هذا لا يقوم للتوحيد أثر متين في النفس ينجي من مزلة القدم الى الوثنية المفضية الى الشرك المؤدي الى الجحود وإنما الانسان مادة وهذه اعراض منها تنمو وتعظم في النفس مادامت النفس مستشعرة بشيء من وجوب التعظيم لغير الله تعالى والتوجه لأي أثر من آثار المادة وساء منقلب الظالمين

هذا هو التوحيد الذي جاء به الاسلام ودعا اليه النبي محمد عليه الصلاة والسلام وإنما اضطربت العقول وساءت الاوهام لتفاوت الافهام وتباين مراتب المسلمين في العلم بحقيقة الدين والاحاطة بأسراره والوقوف على جميع مقاصده حتى على عهد الرسالة واليك الدليل

أخرج الامام أبو الفرج بن الجوزي في السيرة العمرية عن المغرور بن سويد قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب في حجة حجها قال فقرأ بنا في الفجر (ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل) «ولإيلاف قريش» فلما انصرف رأى الناس مسجداً فبادروه فقال: ماهذا : قالوا : هذا مسجد صلى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : هكذا أهلك أهل الكتاب قبلكم اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً . من عرضت له فيه صلاة فليصل ومن لم تعرض له صلاة فليمض:

فلو كان أولئك المصلون يومئذ في مرتبة عمر في العلم واستشعروا من إقبالهم على ذلك المسجد للصلاة فيه تعظيماً له كما استشعر به عمر رضي الله عنه وعنهم أجمعين

لما بادروا للصلاة فيه الا اذا عرضت لهم صلاة ولا جرم ان أعظم الناس فهماً للاسلام وعلماً بغوامض الدين ووقوفاً على مقاصد النبوّة المحمدية وما كانت تدعو اليه من التوحيد البحث الخالي عن كل شائبة من الشوائب التي مر ذكرها هم أهل السابقة من المهاجرين الاولين الذين تلقوا الدين أنجماً كان ينزل بها الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم من لدن البعثة ولازموا الرسول ملازمة الظل فاكتنهوا سر شريعته وأدركوا مرامي غرضه وقلدو في أعماله وأقواله وانتهجوا منهجه واهتدوا بسيرته فتفوّقوا على غيرهم في العلم بالدين وعرفوا حقيقة التوحيد ومن هؤلاء من هم في المرتبة الاولى في فهم مقاصد الاسلام ومنهم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ومن تتبع سيرته وأنعم النظر في أقواله وأفعاله وانطباقها على الكتاب الكريم ونهج السنة القويم علم ما هو التوحيد الذي أرشد اليه الاسلام وعرفه أولئك الصحابة الكرام فأرادوا أن يمحوا به كل أثر من آثار الوثنية عن صفحات الضمائر والقلوب وحسب العاقل دليلا على هذا قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه لكعب الاحبار لما أشار عليه بجعل المصلى الى الصخرة : لقد ضاهيت اليهودية يا كعب الى قوله اذهب اليك[1] فانا لم نؤمر بالصخرة ولكنا أمرنا بالكعبة : وقد مر الخبر في الفصل السابق نقلا عن الطبري ولأجله عقدنا هذا الفصل ليكون به عبرة وذكرى لقوم يعقلون

تقدم معنا كيف تدرج العرب الى الوثنية حتى أمسوا بلمس الاحجار وعكفوا على عبادة الاصنام وان أصول التوحيد عند أرباب الاديان كلها أفسدت تدريجاً كما حصل في دين العرب وانما كان مبدأ هذا التدريج الاستسلام للشعور بوجوب تعظيم مظهر من مظاهر المادة يظن ان له صلة بما فوق المادة كالمعابد مثلا

(١) هكذا جاءت هذه العبارة في تاريخ الطبري بهذا اللفظ ولعلها اليك عني

ثم يأخذ هذا الشعور ينمو ويتعد المظهر الاول الى غيره ويتدرج في أطوار التعبد له حتى تنقلب صورة التوحيد المرتسمة على صفحات الضمائر الى صورة من صور المادة متجسمة للحس ويستحيل الايمان باله واحد فوق المادة الى آلهة شتى كلها من المادة أو لها صلة بها وهذا هو الشرك التام الجلي ومبدؤه ذلك الشرك الخفي ولم تكن دعوة الاسلام قاصرة على استئصال الوثنية فقط بل كان من مقاصدها الاولى والغايات التي ترمي اليها بل من أولاها بالاهتمام وأجدرها بالعناية تطهير النفوس من كل أثر من آثار ذلك الشعور الفاسد ولو أشبه بدقته دقة الجرثومة الحية التي لا ترى الا بالنظارة المكبرة الا انها اذا وجدت منبتاً صالحاً لها تولد عنها ما لا يحصى من الجراثيم في بضع ثوان فمن قال بخلاف ذلك أو ظن ان الاسلام يتسامح في تلك الجزئيات أو يبيح تعظيم أي مظهر من مظاهر المادة تعظيماً دينياً فقد أخطأ ونسب العبث الى دين الله لهذا ولما أشرب قلب عمر (رض) من التوحيد الحق الصادق لم يتسامح مع كعب الاحبار حتى في خلعه نعليه عند دخوله المسجد الاقصى وآخذه على عمله ذلك كما آخذه على رأيه في جعل المصلى الى الصخرة كما رأيت وسترى من أخباره بهذا الصدد ان شاء الله

هكذا كان فهم كبار الصحابة للدين ومن أمعن النظر في قول أبي بكر الصديق رضي الله عنه في احدى خطبه التي مر ايرادها في هذا الكتاب وهو (ان الله لا شريك له وليس بينه و بين أحد من خلقه نسب يعطيه به خيراً ولا يصرف عنه سوأ الا بطاعته واتباع أمره) يعلم كيف كان أولئك الصحابة الكرام يعلمون الناس التوحيد ويقتلعون من أعماق نفوسهم أصول الشرك ورحم الله امرءاً حاسب نفسه وعرف دينه وتأدب بأدب النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ونبذ بدع النفوس وأهواءها وتنكب مواضع الزلل

ومواقع الخطل وسوء الفهم والله وليّ الرحمة وهو القاهر فوق عباده

﴿ فتح حماه واللاذقية وقنسرين ﴾

قيل ان هذه البلاد وما يليها شمالا الى انطاكية فتحها أبو عبيدة قبل مسيره من حمص الى ايلياء أي سنة (١٥) وقيل انه فتحها بعد عوده من ايلياء سنة (١٦) وعندي ان هذا الاصح

سار أبو عبيدة الى معرة حمص فصالحه أهلها على صلح حمص وسار الى حماة فصالحه أهلها أيضاً و بعث خالد بن الوليد الى قنسرين وسار هو الى اللاذقية وقيل بل سار اليها عبادة بن الصامت فامتنع عليه أهلها أياماً فاحتال على فتحها بان أمر الجند أن يحفروا اسراباً في الارض كل سرب يستر الرجل وفرسه فاجتهد المسلمون حتى حفروها ثم انهم أظهروا القفول الى حمص فلما جنّ عليهم الليل عادوا الى معسكرهم وحفائرهم وأهل اللاذقية غارون يرون انهم قد انصرفوا عنهم فلما أصبحوا فتحوا بابهم وخرجوا وأخرجوا سرحهم فلم يرعهم الا تصبيح المسلمين اياهم ودخولهم في باب المدينة عنوة فهرب قوم من نصارى اللاذقية ثم انهم طلبوا الامان على أن يتراجعوا الى أرضهم فقوطعوا على خراج يؤدونه قلوا أو كثروا وتركت لهم كنيستهم و بنى المسلمون باللاذقية مسجداً جامعاً بأمر عبادة ثم وسع بعد

ثم أخذ عبادة يتم فتح عمالة اللاذقية بأمر أبي عبيدة ففتح جبلة وانطرسوس وبانياس والمرقب وغيرها وكل هذه البلاد لم تزل معروفة الى الآن بهذا الاسم وكان فتحها سنة (١٥ هـ) أو سنة (١٦)

وأما خالد بن الوليد فانه لما وصل الى حاضر قنسرين زحف اليه القائد ميناس بجيش الروم فاقتتلوا قتالا عظيما وقتل ميناس فأما الروم فماتوا على دمه وأما أهل

الحاضر وكانوا من العرب من تنوخ نزلوه وهم في خيم الشعر ثم ابتنوا المنازل فأرسلوا الى خالد انهم عرب وانهم انما حشروا ولم يكن من رأيهم حربه فدعاهم الى الاسلام فأسلم بعضهم وأقام على النصرانية بنو سليح بن حلوان بن عمران ابن الحاف فتركهم خالد فأسلموا بعد ذلك بيسير وقيل أسلموا في خلافة المهدي العباسي ولما فرغ من حاضر قنسرين سار الى حاضر حلب [1] فتحصن أهلها منه فقال: انكم لو كنتم في السحاب لحملنا الله اليكم أو لأنزلكم الله الينا فنظروا في أمرهم وما لقي أهل حمص فصالحوه على صلح حمص فأبى الا خراب القلعة فأخربها

ولعمري ان قوماً بلغ اعتقادهم بالنصر الى هذا الحد لقوم لا تعصم منهم العواصم ولا الحصون ولا تثبت امامهم الجيوش وانما حملهم على هذا الاعتقاد يقينهم الثابت بوعد الله ورسوله لهم بالنصر اذا نصروا الحق وتمسكوا بعرى الايمان فكانوا يداً على من ناوأهم وعوناً لمن نصح لهم ووالاهم ومن لهذا غير أولئك الفاتحين الاخيار الذين جمعتهم كلمة الاسلام على الاخوة التي لا تنفصم عروتها والطريق التي لا يضل سالكها الا اذ انحرف عنها وزاغ عن صراطها

﴿ ذكر مسير هرقل الى القسطنطينية ﴾

كان هرقل بعد فراره من حمص قصد انطاكية ثم ارتحل على قول بعضهم الى الرها (أورفا) في الجزيرة ليجمع منها جيشاً يمد به أهل حمص قبل سقوطها في يد المسلمين وكان المسلمون كما قدمنا في غير هذا المحل يقظين لا تخفى عليهم من أمر الروم خافية ولما استشعروا بمقاصد هرقل

(١) مدينة كانت على بعد مرحلة صغيرة من حلب ويقول ابن حوقل ان هذه المدينة أخربها الملك باسيليوس ثم تجددت عن يد الامراء من بني بدليس التنوخية ثم أخربها عن آخرها تاج الدولة . وأما حاضر قنسرين فقرية قريبة منها

أدرب عليه من الكوفة عمرو بن مالك من قبل قرقيسيا وعبد الله بن المعتم من قبل الموصل والوليد بن عقبة من بلاد الجزيرة بجيوش المسلمين وطووا بلاد الجزيرة وخلفوا وراءهم عقبة لئلا يؤتوا من خلفهم

وكذلك أدرب من قنسرين مما يلي الشام خالد بن الوليد وعياض بن غنم بجيش من المسلمين وعندئذ رحل هرقل الى القسطنطينية وعاد القواد الى اماكنهم دون حرب . ولما بلغ أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ما فعله خالد قال : أمَّر خالد نفسه يرحم الله أبا بكر هو كان أعلم بالرجال مني :[1] وقد كان عزله كما مر في سيرته وعزل المثنى بن حارثة الشيباني وقال : اني لم أعزلهما عن ريبة ولكن الناس عظموهما فخشيت ان يوكلوا اليهما

وأما هرقل فانه مضى على وجهه واستتبع أهل الرها فأبوا أن يتبعوه وقالوا نحن ههنا خير منا معك وتفرقوا عنه وعن المسلمين لما وصلوا الى مدينتهم التي كان أول من دخلها منهم وأنبح كلابها وأنفر دجاجها زياد بن حنظلة وهو صحابي وكان مع عمرو بن مالك مسانده

وكان ادراب المسلمين الى الرها ورحيل هرقل عنها سنة ١٦

ولما ارتحل هرقل لحقه رجل كان أسيراً في أيدي المسلمين فأفلت فقال له : أخبرني عن هؤلاء القوم : فقال له أحدثك كأنك تنظر اليهم فرسان بالنهار ورهبان بالليل ما يأكلون بذمتهم[2] الا بثمن ولا يدخلون الا بسلام : تقفون على من حاربهم حتى يأتوا عليه : فقال هرقل : لئن صدقتني ليرثن ما تحت قدميّ هاتين :

---

(١) وفي رواية أن عمر قال هذا القول لما فتح خالد قنسرين وقد ذكرناه في سيرة خالد (٢) يعني من أهل البلاد التي دخل اهلها في ذمتهم

هذه الصفات السامية التي قلّ ان تجتمع في فاتح من الفاتحين هي التي مهدت لأولئك الابطال تدويخ الممالك الشاسعة وقلب كيان الدول لاعددهم القليل وعدتهم الضعيفة بازاء عدة الروم والفرس وعديدهم وضخامة ملكهم ومناعة حوزتهم ولهذا استشعر هرقل بضعف بنيانه وتقلص ظل سلطانه فيئس من عود ملكه في الشام وما يليها اليه فوقف لما باء عنها بالخسران وعاد بالخذلان وقال مودعاً لتلك البلاد الزاهرة والملك العريض

عليكِ السلام ياسورية سلاماً لا اجتماع بعده ولا يعود اليك روميّ أبداً الا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم ويا ليته لايولد ما أحلى فعله وامرّ عاقبته على الروم : وفي رواية انه قال

قد كنت سلمت عليك تسليم المسافر فاما اليوم فعليك السلام ياسورية تسليم المفارق ولا يعود اليك رومي ابداً الا خائفاً حتى يولد الولد المشؤم وليته لم يولد

فتح حلب وانطاكية وغيرهما

بعد ان تم لأبي عبيدة فتح حماة وقنسرين واللاذقية وغيرها سار الى حلب وعلى مقدمته عياض بن غنم الفهري فوجد اهلها متحصنين فنازلهم فلم يلبثوا ان طلبوا الصلح والامان على انفسهم واموالهم وكنائسهم ومنازلهم والحصن الذي بها فأعطوا ذلك فاستثنى عليهم موضع المسجد وكان الذي صالحهم عليه عياض ولما انتهى اليهم ابو عبيدة انفذ صلحه . وقيل إن أباعبيدة لم يجد احداً من المقاتلة بحلب وان اهل حلب صالحوه على مدينتهم بأن راسلوه من انطاكية ولما تم لهم الصلح عادوا الى مدينتهم و بينما أبو عبيدة في حلب اتاه الخبر بعصيان أهل قنسرين فوجه اليهم السمط بن الاسود الكندي فأخضعهم وقيل استعصى عليه فتح حلب فتركها

وسار الى انطاكية وكتب الى عمر بذلك فبعث اليه كتاباً يلومه فيه فرجع وفتحها

ثم قصد أبو عبيدة حاضر حلب وكان لحاضر قنسرين يجمع أصنافا من العرب فصالحهم أبو عبيدة على الجزية ثم انهم اسلموا بعد ذلك وحاولوا بُعَيدَ وفاة الرشيد العباسي الاستيلاء على حلب فاستنجد أهل حلب من حولهم من العرب ولم يستطيعوا استنجاد دار الخلافة لحصول فتنة محمد الامين فيها فأنجدهم العباس بن زفر الهلالي ونازل أهل الحاضر فرحلوا عنه الى قنسرين ثم غدروا بأهل قنسرين بخلوهم هؤلاء عن بلدهم ومن ثم تفرقوا في البلاد فقوم نزلوا تكريت وقوم ارمينيا وغيرها

ثم قصد أبو عبيدة انطاكية وكانت ذات خطر وشهرة وقد التجأ اليها كثير من فالة قنسرين وغيرها من البلاد وتحصنوا فيها و بعثوا بجيش منهم الى مهربة على فرسخين من انطاكية لصد المسلمين فلقي أبو عبيدة هذا الجيش ففضه والجأهم الى المدينة وحاصر أهلها من جميع ابوابها فصالحوه على الجزية والجلاء فجلا بعضهم واقام بعضهم فأمنهم ووضع على كل حال منهم ديناراً وجريب حنطة وسار عنهم فنقضوا فوجه اليهم عياض بن غنم وحبيب بن مسلمة الفهري ففتحها على الصلح الأول . ومن يرى ان فتح انطاكية كان قبل إيلياء يقول انها نقضت بعد رجوع ابي عبيدة الى فلسطين فوجه اليها من إيلياء عمرو بن العاص ففتحها وممن قال هذا البلاذري في فتوح البلدان وما نخاله صواباً

وكانت انطاكية بسبب موقعها الجغرافي وحصانتها وتفوقها على مدن سورية عظيمة الذكر والامر عند عمر وعثمان رضي الله عنهما ولما فتحت كتب عمر الى أبي عبيدة ان يرتب فيها جيشاً من المسلمين من أهل الحسبة والرأي يرابط فيها وان لا يحبس عن ذلك الجيش العطاء، وهكذا فعل بعده عثمان رضي الله عنه فقد

أمر معاوية وكان يؤمئذ والي الشام ان يلزمها قوماً من المسلمين وان يقطعهم القطائع ففعل

وبلغ أبا عبيدة بعد فراغه من امر انطاكية ان جمعاً من الروم بين معرة مصرين وحلب فسار اليهم وقاتلهم وفرق جمعهم ثم فرق خيوله في انحاء البلاد ففتحت بوقا وسرمين وتيزين وجميع ارض قنسرين ثم سار أبو عبيدة الى حلب وقد نقض أهلها فنازلهم واخضعهم ثم سار أبو عبيدة نحو قورس ففتحها صلحاً وفتح تل عزاز ومنبج وسير عياضاً وحبيباً في جيشين من المسلمين فأتما فتح سورية الى حدود الفرات شرقاً وآسيا الصغرى شمالاً وجعل أبو عبيدة على كل كورة فتحها عاملا وضم اليه جنداً من المسلمين وبعث جيشاً مع ميسرة بن مسروق العبسي الى اطراف آسيا الصغرى فلقي جمعاً للروم معهم عرب من تنوخ وغسان يريدون اللحاق بهرقل فأوقع بهم ثم لحق به مالك بن الاشتر النخعي مدداً من قبل أبي عبيدة وعادوا جميعاً سالمين غانمين وسير جيشاً آخر الى مرعش مع خالد بن الوليد ففتحها واخربها وعاد والظاهر ان الذي دعاه الى اخرابها عدم وجود جند كاف يقوم بحمايتها من هجمات أهل الجزيرة والروم والا فربما يكون اخرب حصنها فقط لئلا يعتصم به أهلها بعد وينتقضوا على المسلمين

﴿ مهاجمة هرقل لسورية بعد استقرار ملك المسلمين ﴾

هكذا انقضى امر الروم في البلاد السورية وتم للمسلمين فتحها بعد حروب طويلة استمرت ثلاث سنين ولاقى جند المسلمين في غضونها من العناء وبذلوا من الدماء ماجعل ثمن هذه البلاد عليهم غالياً ومقامها في نظرهم عالياً وكان لرجالات قريش واشرافها في حرب الشام خاصة من الاثر العظيم والبلاء الجسيم مالم يكن لقوم غيرهم في الفتوحات الأخرى وقتل منهم في وقائع الشام عدد كبير

لا سيما في وقعة اليرموك وكان ممن قتل منهم عكرمة بن أبي جهل وابنه عمرو وخالد بن سعيد وهشام بن العاصي وسهيل بن عمرو وابان بن سعيد وأضرابهم من صناديد قريش وأشرافها وكان للنساء القرشيات من البلاء ما كان للرجال أيضاً فقد روى الطبري ان النساء المسلمات قاتلن يوم اليرموك وخرجت جويرية ابنة أبي سفيان (القرشية) في جولة . وقال البلاذري : وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالا شديداً وجعلت هند بنت عتبة أم معاوية بن أبي سفيان تقول : عضدوا الغلفان بسيوفكم :

وبالجملة فقد لاقى المسلمون في فتح الشام أهوالا شداداً وصادموا عدواً استمات في الدفاع عن حوزته والذب عن سلطانه اذلم يكن هرقل وجنوده بأقل ثباتاً واقداماً وجراءة من العرب يدلك على هذا ما ظهر من الروم في الوقائع الاولى التي حدثت في اليرموك ودمشق وفحل واجنادين وغيرها وعدا هذا فانه لما استقرت قدم المسلمين بالشام وتمكن سلطانهم منها في الشرق والغرب وسار أبوعبيدة عن انطاكية بعد ان استخلف عليها وعلى قنسرين وحلب وغيرها من استخلف من القواد لم يستقر لهرقل حال ولم يهدأ له بال فأعاد الكرة على البلاد السورية في سنة (١٧هـ) بتحريض أهل الجزيرة له ووعدهم له بالمظاهرة والنصرة فلم يفجأ المسلمين الا وهرقل قادم بجند كثيف الى حمص من طريق البحر واستمد أهل الجزيرة وكاتب أهل حمص بالخروج على المسلمين فأبوا عليه وأرسلوا اليه إنا قد عاهدنا المسلمين فنخاف أن لا ننصر وكان أبوعبيدة في حمص فاستمد خالداً فجاءه من قنسرين بمن معه من الجنود فانضم أهل قنسرين بعده الى هرقل وحاصر هذا أبوعبيدة في حمص فاستشار أبوعبيدة القواد فأشار عليه خالد بالمناجزة وأشار غيره بالكتابة الى عمر ومطاولة هرقل ريثما يأتي منه الجواب فعمل برأيهم

وكتب الى أمير المؤمنين يستمده وجاءت لهرقل الجيوش والامداد وكان امداد الجزيرة وحده ثلاثين ألفاً على ما رواه الطبري و بلغ الروم من المسلمين كل مبلغ ووصل الكتاب الى عمر فكتب الى سعد بن أبي وقاص في العراق ان أباعبيدة قد أحيط به ولزم حصنه فبث المسلمين بالجزيرة واشغلهم بالمسلمين عن أهل حمص وكان عمر أعد في كل مصر قدراً من الخيل لكون ان كان وكان في الكوفة أربعة آلاف فرس فلما وصل كتاب عمر الى سعد بعث بالجند مع القعقاع بن عمرو وعبدالله بن عتبان وسهيل بن عدي وعياض بن غنم وكان عياض قد عاد الى العراق بعد فتح الشام لانه من جند العراق وأشار عليهم بأمر عمر بن الخطاب أن يسلك كل أمير طريقاً الى الجزيرة فيقصد واحد قرقيسياء والآخر الرقة والثالث نصيبين والرابع حران والرها واهتم لهذا الامر عمر بن الخطاب (رض) فخرج من المدينة ممدداً لابي عبيدة حتى نزل الجابية وكان القعقاع تعجل بأربعة آلاف فارس الى حمص ولما بلغ الروم ذلك انفضوا الى مدائنهم و بادروا المسلمين اليها فتحصنوا ونزل المسلمون عليهم فمنعوهم عن امداد هرقل فدب الفشل في جنوده وراسل طائفة من تنوخ خالد بن الوليد بالتسليم أو الهزيمة وكان خالد بن الوليد لشجاعته وعلو همته لايحب الغلبة الا بفل صفوف الاعداء ومناجزتهم في الهيجاء فأرسل الى تنوخ والله لولا اني في سلطان غيري ما باليت أقللتم أم اكثرتم أو أقمتم أو ذهبتم فان كنتم صادقين فانفشوا[1] كما أنفش أهل الجزيرة فوعدوه بالهزيمة اذا خرج اليهم المسلمون وقال المسلمون لأبي عبيدة قد تفرق أهل الجزيرة وندم أهل قنسرين وواعدوا من أنفسهم وهم العرب فاخرج بنا هذا وخالد بن الوليد ساكت فقال له أبوعبيدة مالك لاتتكلم فقال : قد عرفت الذي

(١) يقال انفش الرجل أي فتر وكسل

كان من رأيي فلم تسمع من كلامي : قال : فتكلم فاني أسمع منك وأطيعك :
قال : فاخرج بالمسلمين فان الله تعالى قد نقض من عدتهم (يعني الروم)
وبالعدد يقاتلون وانما نقاتل منذ أسلمنا بالنصر فلا تحفلك كثرتهم

روى الطبري بعد سياق هذا الخبر عن علقمة بن النضر وغيره قالوا
فجمع أبو عبيدة الناس فحمد الله وأثنى عليه وقال

أيها الناس ان هذا يوم له ما بعده أما من حي منكم فانه يصفو له ملكه
وقراره وأما من مات منكم فانها الشهادة فأحسنوا بالله الظن ولا يكرّهن
اليكم الموت أمر قد اقترفه أحدكم دون الشرك توبوا الى الله وتعرضوا للشهادة
فاني أشهد وليس أوان الكذب اني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم
يقول : من مات لا يشرك بالله شيئاً دخل الجنة :

وكأنما كان في الناس عقل[1] تنشطت فخرج بهم وخالد على الميمنة
وعباس على الميسرة وأبو عبيدة في القلب وعلى باب المدينة معاذ بن جبل
ونشب القتال فانهم لكذلك اذ قدم القعقاع متعجلا في مائة وانهزم أهل
قنسرين بالروم فركبهم المسلمون وتمت الهزيمة وعاد هرقل وجنوده بالخيبة
وظهر من يقظة المسلمين واستعدادهم واهتمام أمير المؤمنين بهم في هذه
الحادثة ما رأيت مما لا يظن بقوم مثلهم حديثي عهد بالبداوة . ولما ظفر
المسلمون جمعهم أبو عبيدة وخطبهم وقال لا تنكلوا[2] ولا تزهدوا في الدرجات
فلو علمت انه يبقى منا أحد لم أحدثكم بهذا الحديث

وتوافى اليه آخر أهل الكوفة في ثالث يوم من يوم الواقعة فكتب
المسلمون الى عمر وهو بالجابية بالفتح وبقدوم أهل الكوفة بعد ثلاثة وطلبوا

---

(١) جمع عقال وهو ما يعقل به البعير (٢) قال في القاموس نكل نكص وجبن

منه الحكم في ذلك فكتب اليهم أن اشركوهم وقال : جزى الله أهل الكوفة خيراً يكفون حوزتهم ويمدون أهل الامصار

﴿ ما كل حديث تحدث به العامة ﴾

﴿ وندم أبي عبيدة على نقله الحديث لعامة الناس ﴾

كل مسلم اكتنه كنه الدين الاسلامي و وقف على حكمه وأسراره يرى من آياته العظمى في الترغيب والترهيب مالو أحسن استعماله و وضع في موضعه لكفى لازعاج النفوس الشريرة عن مواطن الرذيلة مهما التصقت بها وأمعنت فيها ولجعل النفوس البارة نوراً على نور وألبسها من الفضيلة لباساً لا يصيبه بلى وقد جاء الكتاب الكريم بالترغيب ليكون باعثاً للنفوس على العمل الصالح رجاء الثواب الاخروي الذي أعده الله لعباده الصالحين لا ليكون وسيلة لاستدراج النفوس في مدارج الاستباحة طمعاً في عفو الله لهذا جاء بازاء الترغيب بالترهيب لترتسم على صفحات النفوس صورة العقاب كما ارتسمت صورة الثواب فيكون لها منها داع الى الخير بذكرها بالثواب ويمكن منها الرغبة فيه لا الى حد الطمع والغرور ثم الاستدراج في الشرور . وزاجر عن الشر بذكرها بالعقاب ويمكن منها الرهبة منه لا الى حد الانقطاع الى تقويم أود النفس وتعطيل وظائف الحياة ولا الى حد اليأس والقنوط ثم الاسترسال في الشهوات واقتراف المنكرات[1] : على ذلك الاساس بني الترغيب والترهيب في الاسلام وكل ماجاء منه في الحديث النبوي فالمراد منه عين ما أراده القرآن ولكن ما الحيلة وقد أولع كثير من علماء المسلمين بالافراط في الوعظ ترغيباً وترهيباً وحملوا عامة الناس على طريقتهم في

---

(١) لنا بهذا الصدد كلام مشبع في كتابنا (تنبيه الافهام الى مطالب الحياة الاجتماعية والاسلام) فليرجع اليه من أحب

فهم الدين فاكثروا من حمل الحديث وروايته دون التفهم له والعلم بمقاصده ووضع كل شيء منه في محله والتفريق بين صحيحه وموضوعه حتى أغروا العامة بعقيدة الاباحة لكثرة ما يروون لهم من أحاديث الترغيب ولو موضوعة كفضائل الصيام والصلاة وفضائل الشهور والايام وفضائل التلاوات وجلها ان لم نقل كلها من الموضوع الذي تستدرج به العامة للاستباحة لاعتقادهم بأن من صام كذا غفر له من السيئات كذا وكذا ومن تنفل بيوم كذا محيت سيئاته الى كذا ولقد بلغ ببعضهم سوء الفهم للدين أن جعلوا لبعض القصائد النبوية من الفضائل ما لم يجعلوه للقرآن فقالوا ان البيت الفلاني منها لشفاء الاسقام والآخر لمحو الذنوب والآثام والثالث للنجاة من ظلم الحكام فليت شعري اذا اعتقد العامي أن تلاوة بيت من قصيد يكفي لمحو كل ما يقترفه في يومه من الآثام فالى أية درجة ينتهي فساد أخلاقه وشرور نفسه وما ذا ينفعه القرآن بأوامره ونواهيه ووعده ووعيده وحكمه وأحكامه

اللهم ان هذا لغاية الاستهانة بالدين والجهل بمقاصد الاسلام ومنشؤه اضطراب الافهام وتلبس الحقائق بالاوهام منذ أخذ الوضاعون بالكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأدخلوا في الدين ما ليس منه يضاف اليه الاكثار من حمل الحديث على غير تفقه فيه ووضع له في مواضعه التي أرادها الشارع وقصدها الاسلام ولو تتبع العلماء سيرة الصحابة الكرام سيما خاصتهم الذين لازموا النبي عليه الصلاة والسلام وفهموا هذا الدين حق الفهم لرأوا كيف انهم كانوا يقلون من رواية الحديث الا للخاصة أو ما تعلق منه بالاحكام حتى بلغ بعمر رضي الله عنه ان كان ينهي عن رواية الحديث ويقول عليكم بالقرآن كما سترى بعد وما ذلك الا خوف الكذب على رسول

الله صلى الله عليه وسلم اذا كثرت الرواية والنقل وخوف افتتان العامة بما ليس لهم به علم وبما لم يتفقهوا فيه من الحديث

أبو عبيدة بن الجراح كان من خيرة الصحابة وعلى جانب من التفقه في الدين والورع والتقوى دعا النبي صلى الله عليه وسلم لأن يسميه أمين هذه الامة وقد سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً ربما لم يسمعه منه أحد من الصحابة او سمعه بعض الخاصة فرأى هذا الأمين أن يطوي هذا الحديث بين الجوانح ويضن به على العامة كما ضن به عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم لان عقول العامة يلابسها الاغترار ونفوسهم يلامسها الضعف وحب الشهوات فهم بالوعيد أولى وبالزامهم ظواهر الشرع أحرى ولكن لما ألجأته الضرورة القصوى وهو محصور مع المسلمين في حمص ورأى منهم فتوراً عن الحرب لا لوهن في نفوسهم أو جبن أصابهم كلا وانما هو لرهبة الخالق التي تمكنت من افئدتهم وقلوبهم وأخافتهم من الموت لا لذاته بل لما بعده قام فخطب فيهم وتلى عليهم ذلك الحديث وهو (من مات لايشرك بالله شيئاً دخل الجنة) استحثاثاً لهممهم وتخفيفاً لروعهم مما بعد الموت رجاء رحمة الله وعفوه عن ذنوب اقترفوها مما دون الشرك اذا تابوا وأنابوا

قال لهم هذا وهو يظن ان هذا الحديث لايتعدى اسماعهم لاعتقاده انهم اذا خرجوا لمكافحة الروم لم يبق منهم احد يحدث به أو يلابس نفسه اثر منه لكثرة من كان على حصارهم من جند الروم ولما تم الظفر للمسلمين ونجوا من براثن العدو ندم على ان حدثهم بذلك الحديث وخشي من ان يعلق في نفوسهم شيء منه مع أنه علقه على التوبة فقام وخطب فيهم فقال

لاتتكلوا ولا تزهدوا في الدرجات فلو علمت انه يبقى منا أحد لم أحدثكم

بهذا الحديث)

وتالله إن قوما بلغ بهم الايمان الصادق واليقين الثابت ذلك المقام مقام الرهبة من الله ومن الوقوف بين يدي قدرته بعد الموت لقوم عامتهم أعلم بالدين وأخلص في اليقين من خاصتنا ومع هـذا فقد ندم أبو عبيدة على ان حدثهم بذلك الحديث فليت شعري كيف يكون الحال بعد ذلك العصر وماذا يشترط في المحدثين وحملة علوم الدين ألا يشترط الوقوف على مقاصد الاسلام والتفقة في الحديث والعلم بحالة المخاطبين واجتناب الغلو معهم في الترغيب والترهيب ومراعات ما يلابس عقولهم من القوة والضعف وانى يتيسر هذا وقد نتج عن كثرة الرواية وحمل الحديث بلا تفقه فيه زيغ العقول عن مقاصد الشرع واجتراء الكذابين على وضع الحديث وشحن الكتب الاسلامية بما لا يرضاه الله والرسول وهو ما كان يحذره عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولهذا نهى في عصره الذي هو خير العصور عن الاكثار من رواية الحديث فما بالك بما يلي عصره من العصور

ذكر الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي الاندلسي في كتابه جامع بيان العلم [1] وفضله في باب ذكر من ذم الاكثار من الحديث دون التفهم له والتفقه فيه ما نصه

عن ابن وهب قال سمعت سفيان بن عيينة يحدث عن بيان عن عامر الشعبي عن قرظة بن كعب قال: خرجنا نريد العراق فمشى معنا عمر الى حرار فتوضأ فغسل اثنتين ثم قال: اتدرون لم مشيت معكم: قالوا نعم نحن اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مشيت معنا: فقال: انكم تأتون اهل قرية

(١) يوجد من هذا الكتاب نسخة خطية في مكتبة الازهر

لهم دويٌ بالقرآن كدويّ النحل فلا تصدوهم بالاحاديث فتشغلوهم . جوّدوا القرآن واقلوا الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم امضوا وانا شريككم: فلما قدم قرظة قالوا حدثنا قال نهانا عمر بن الخطاب اه

ثم قال ابن عبد البر بعد هذا بقليل ما نصه : قول عمر انما كان لقوم لم يكونوا احصوا القرآن فخشى عليهم الاشتغال بغيره عنه اذ هو الاصل لكل علم هذا معنى قول أبي عبيدة في ذلك : ثم قال بعد ذلك ايضاً : ان نهيه عن الاكثار وامره بالاقلال من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما كان خوف الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم وخوفاً ان يكونوا مع الاكثار يحدثون بما لم يتيقنوا حفظه ولم يعوه لان ضبط من قلّت روايته اكثر من ضبط المستكثر وهو أبعد من السهو والغلط الذي لايؤمن مع الاكثار فلهذا امرهم عمر من الاقلال من الرواية اه

﴿ القواد الذين حضروا فتوح الشام ﴾

ممن كان له البلاء الحسن من القواد في فتوح الشام غير القائد العام الذي كان خالد بن الوليد وبعده أبو عبيدة بن الجراح . خالد بن سعيد وعمرو بن العاص ويزيد ابن أبي سفيان واخوه معاوية وحبيب بن مَسْلَمَة الفهري وعياض بن غنم الفهري وشرحبيل بن حسنة وكل هؤلاء من قريش الاّ الاخير فانه حليف بني زهرة من قريش واما غير هؤلاء ممن ليسو من قريش فهم ذو الكلاع الحميري والقعقاع بن عمرو[1] والسمط بن الاسود الكندي وعلقمة بن مُجَزّز وعلقمة بن حكيم الفراسي وعبادة بن الصامت ومالك ابن الاشتر

(١) القعقاع وعياض هما من جند العراق لا الشام ووفد مع خالد بن الوليد ايام مجيئه من العراق وعاد القعقاع بعد فتح دمشق وعياض بعد فتح انطاكية وقيل قبلها الى العراق

النخعي ومسروق بن فلان العكي وأبو أيوب المالكي وغيرهم

هكذا تم فتح هذا القطر السوري لأولئك القواد البواسل وقد رأيت من حسن ترتيبهم للجيوش و إلمامهم بطرق البلاد وتفننهم بأساليب الحرب وقهرهم للعدو ما يدل على علو كعبهم في فن الحرب وخبرتهم بالبلاد حتى كان أمير المؤمنين وهو بالمدينة يصدر أوامره للأمراء في كيف يسيرون وأي المسالك يسلكون وأي البلاد يقصدون كأنما كان ينظر الى هذا القطر على خارطة مصورة بين يديه والعلة في هذا أن القطر السوري بسبب اتصاله بجزيرة العرب من جهة الحجاز كان كجزء طبيعي منها عرف العرب طرقه و بلاده وأحواله كافة كما عرفوا نفس الجزيرة يضاف اليه ان قسما عظيما منه كان مأهولا بالعرب من مضر وكانت صلة الاختلاط والمتاجرة غير منقطعة بين الحجاز وسورية تمتد الى أجيال متطاولة قبل المسيح وكانت قوافل قريش قبل الاسلام تتردد الى سورية اكثر من غيرها لهذا كان كثير من الصحابة ومنهم عمر بن الخطاب عارفين بطرق البلاد وأحوالها ذوي علاقة تجارية بسكانها

خلاصة جغرافية
ونظرة اجتماعية

قد رأينا بعد الفراغ من الكلام على فتح سورية أن نأتي على خلاصة جغرافية للبلاد السورية نضمنها أهم المباحث الجغرافية والاجتماعية المتعلقة بهذا القطر قديما وحديثا مع بيان صنائعه وعدد سكانه وأقسامه وجبايته كل ذلك على وجه الاجمال الذي يسعه المقام اذ التفصيل ليس من شأن التاريخ العام بل هو من شأن التواريخ الخاصة فنقول

يحد سوريا شمالا ولاية أدنه (كيليكا) من آسيا الصغرى وشرقا الفرات

والبادية وجنوباً جزء من بلاد العرب ويقال له تيـه بني اسرائيل وغرباً بحر الروم أي البحر المتوسط وقد قام في هـذا القطر حكومات كثيرة تعددت بتعدد الاقوام القاطنين فيه كالفينيقيين [1] والحثيين والاموريين والكنعانيين وغيرهم من الشعوب ثم رحل اليه بنو اسرائيل من مصر وزاحموا سكان البلاد وأخذوا قسما عظيما منـه وغزاه كثير من الدول القديمة كدولة الفراعنة المصريين والماديين والفرس واليونانيين والرومانيين وعرب الاسلام ولم تثبت فيه قدم دولة من الدول الفاتحة كما ثبتت قدم دولة الرومانيين ودولة الاسـلام فقد كان ابتداء دولة الرومان فيها من سنة ٦٥ ق م . الى سنة (٦٣٣ م) حيث ابتدأ الفتح الاسـلامي في البلاد السورية وكانت نهايته (٦٣٨ م) أو (١٧ هـ) وفيها تقلص ظل الروم عن هذا القطر وقد كان على عهد الرومانيين مقسوماً الى ثلاثة أقسام كبيرة وهو فلسطين وتوابعها ودمشق وتوابعها وانطاكية وتوابعها وكان القسم الشمالي منـه يسمى سورية والقسم الجنوبي يسمى فلسطين فأطلق عليـه اسم سورية منذ تملكه الرومان ولما تملكه المسلمون أطلقوا عليه اسم الشام وقسمه عمر (رض) الى أربعة أقسام القسم الاول الثغور وسماها هارون الرشيد العواصم وهي حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وحاضرة هـذا القسم حمص والقسم الثاني دمشق والقسم

---

(١) الفينيقيون كانوا يسكنون سواحل الشام الجنوبية وبعض الشمالية وكانت عاصمتهم القديمة صيدا ثم ابتنوا صوراً حوالي سنة ١٥٠٠ قبل المسيح بعد خراب صيدا وكانوا من أنشط الشعوب وأعرفهم بسلوك البحار وطرق الاستعمار فاستعمروا معظم جزائر البحر الابيض وذهبوا الى سواحل افريقيا الشمالية وأسسوا هناك مدينة قرطاجنة الشهيرة التي يقال أنها كانت قرب تونس وقطعوا مضيق جبل طارق الى المحيط وبالجملة فقد كانوا أعظم دول البحار في عهدهم ويشبههم بعض المؤرخين بدولة انكلترا لهذا العهد

الثالث الأُردن وحاضرته مدينـة الاردن (طبرية) والقسم الرابع فلسطين وهـذا قسمه الى قسمين قسم حاضرته الرملة وقسم حاضرته ايلياء (القدس) وكل قسم من هذه الاقسام يسمى جنداً وتحت كل قسم أقسام تدعى كوراً وسيأتي الـكلام على هذا بالتفصيل في غير هذا المحل ان شاء الله

وقد توفرت في هـذا القطر أسباب المـكاسب الثلاثة وهي الزراعة والصناعة والتجارة لخصب أراضيه وموقعه الجغرافي ونشاط أهله للعمل الا أن هذه الاسباب كانت تعلو وتسفل بنسبة حال الدول الحاكمة في هذا القطر ومن المقرر أن عمران الممالك تابع لترقي الدول وقد كانت دولة الرومان الشرقية على عهد الفتح الاسـلامي دولة لحقها الهرم والعجز وعفت من ممالـكها آثار التمدن الروماني العظيم لما أصاب أهلها من الانشقاق الديني والاختلاف المذهبي الذي أودى بحياتهم السياسية وفرق جامعتهم الملية ولما تولى الامبراطورية هرقل سنة (٦١٠ م) كان أمر المجادلات الدينية في أشده فخاض الامبراطور نفسه في غماره واشتغل بالامور الدينية تاركا أمور الدولة السياسـية لوزرائه وأرباب دولتـه ومن ثم ظهر الوهن في الدولة في أتم مظاهره فغزتهـا دولة الفرس واكتسحت جزءاً من ممالـكها عظيما وهو آسيا الصغرى وسورية ومصر وكاد الامبراطور هرقل يزايل بكرسيه الامبراطوري القسطنطينية ويتخذ قرطاجنة عاصمة له لو لم يمنعه عن هذا العزم بطريرك القسطنطينية حتى نهض مرة ثانية بجنان ثابت لمحاربة الفرس واسترد منهم ما انتزعوه من ممالكه كما تقدمت الاشارة اليه فيما مر من هذا الـكتاب

ولا ريب في ان ما أصاب هذه المملكة من التقهقر يومئذ كان لسورية منه حظ عظيم ونكبت كما نكب ذلك الملك المريض بسوء السياسة والضعف

والانقسام لاسيما وانها كانت حديثة عهد بمعاهد الفرس التي لم يكن مضى عليها لحين الفتح الا بضع عشرة سنة: إذن فهذه البلاد لم تكن لما دوخها المسلمون راقية مراقي العمران ولم تكن أسباب المكاسب الثلاثة متوفرة عند السكان الا أن استعدادها الطبيعي لقبول العمران وما فيها من بقايا المدنية الغابرة تكفل برقي أهلها في مراقي السعادة مذ بسطت عليها دولة العرب المسلمين جناح السلطان

نعم نحن ليس لدينا نص تاريخي واضح على مبلغ ما وصلت اليه هذه البلاد من الرقي على عهد الخلفاء الراشدين والامويين في صدر الاسلام لما أن أخبار تلك العصور انتهت الينا بالرواية ولم يكن تدوين التاريخ الاسلامي معنياً به في ذلك العصر الا أن هناك من الادلة والاسباب ما يحملنا على الظن بل اليقين بأن البلاد السورية صارت يومئذ الى أبعد غاية من غايات الترقي في أصول المكاسب الثلاثة الصناعة والتجارة والزراعة

من المعلوم بالبداهة ان العدل أساس العمران ومتى تنظمت أصول الجباية ورفع عن الرعية العسف وخففت المظالم وأطلق للأهلين عنان الحرية توفرت لهم أسباب الراحة ونشطوا من عقال الخمول فهبوا للأخذ بأسباب المكاسب وتبسطوا في مناحي العمران وقد رأيت فيما مضى من أخبار الفتح كيف ان سكان البلاد كانوا يصالحون على مقدار معين من الجزية والخراج لم يتجاوز حد العدل والاستطاعة وروعيت فيه بالطبع ثروة البلاد ومقدرة كل فرد من الاهلين وان هذا القدر المعين في عصر الفتح استمر على ما هو عليه مدة الخلفاء الراشدين والامويين وصدراً من خلافة العباسيين وان سببه محافظة الخلفاء على العهود التي بأيدي السكان ويضاف اليه تجنب تلك الدول لأسباب السرف لقرب عهدها بالبداوة وجدتها في تأسيس الملك وعدم حاجتها لهذا السبب الى التعسف في

الجباية والاكثار من المظالم وقد كانت جباية الاقسام السورية الاربعة في عهد الامويين على ترقي العمران في البلاد هي ما يأتي نقلاً عن فتوح البلدان

دينار	
١٨٠٠٠٠	الاردن
٣٥٠٠٠٠	فلسطين
٤٠٠٠٠٠	دمشق
٨٠٠٠٠٠	العواصم (وهي حمص وقنسرين وحلب وانطاكية وتوابعها)
١٧٣٠٠٠٠	الجمع

وهذا المبلغ ليس بشيء بالنسبة لعمران البلاد يومئذ وربما بلغت جباية البلاد في عصور تقهقرها اكثر من ذلك وجبايتها الآن على تدنيها في العمران وفقد الصناعة منها وضعف التجارة والزراعة فيها اكثر من جبايتها في صدر الاسلام كما سترى

وهذا دليل على تناهي الخلفاء يومئذ بالعدل وعدم عسفهم في الرعية يضاف اليه أيضاً جلوس الخلفاء بأنفسهم المظالم الى عهد عمر بن عبد العزيز وإنصافهم للرعية وقيامهم على وسائل العمران وتمصير الامصار وتأسيس الملاجئ كوضع عمر بن الخطاب لدور الضيافات الخاصة بابناء السبيل والمنقطعين وترتيبها في الطرق من الحجاز الى الشام ومنها الى العراق وتأسيس معاوية لمدينة طرابلس الشام وتمصير سليمان بن عبد الملك لمدينة الرملة وتشييد الوليد بن عبد الملك الملاجئ للزمني والمجذمين وأمره ببناء الفنادق للمسافرين فيما بين الاقطار المتباعدة كما صنع عمر بن الخطاب وعنايته اي الوليد باصلاح الطرق المسهلة لنقل التجارة واطلاق الخلفاء لحرية المعتقد بين الطوائف الوطنية من اليهود

والنصارى وعدم إنحياز أحدهم لفريق منهم دون آخر كما كان ينحاز ملوك الروم ويثيرون بين الرعية ثائرة التباغض والشحناء كل هذا وغيره من أسباب الراحة والأمن ودواعي الترقي والعمران يدلنا على رقيّ البلاد على عهد الخلفاء الراشدين والامويين والعباسيين أيضاً وتمتع أهلها بسعادة الراحة والعمران التي لم يتمتع بها هذا القطر في عهد غير دولة المسلمين الا قليلاً على عهد الفينيقيين أيام مجدهم والرومانيين أيام تمدنهم

ولما انقسمت دول الاسلام على بعضها وتداول هذا القطر السوري عدة من الدول كالفاطميين والاتراك والاكراد والجراكسة أخذ بالانحطاط تبعاً لانحطاط الدول الحاكمة وأصيب من النكبات بما لم يصب به غيره من الاقطار الاسلامية اذ هاجمته في أواخر القرن الخامس من الهجرة جيوش الصليب واستعرت في أرجائه نيران تلك الحروب المشئومة مدة جيلين كاملين الله أعلم بما اصاب في غضونها هذا القطر من الخراب والتدمير ثم تبع ذلك هجوم التتار عليها في نصف القرن السابع للهجرة وتخريبهم للمدن والامصار وفعلهم في البلاد واهلها الافعال الكبار وتلى ذلك هجوم تيمورلنك عليها في اواخر القرن الثامن بعد اكتساحه لما في طريقه من ممالك الاسلام وفعل في سورية الافاعيل واجلى عن دمشق خاصة العلم والصناعة واستصحبهم معه في عودته الى سمرقند

على أن موقع هذه البلاد الجغرافي وطبيعة أرضها المشهورة بالخصب وأهلها المعروفين بالجلد حفظ لها ذماء الحياة وأعان أهلها على تحمل المصائب فلم تحط الى الدرجة التي تفقد معها اصول المكاسب بل استمرت حلب ودمشق الى عهد قريب محطاً لحركة القوافل الآتية من العراق تحمل بضائع العجم والهند وتعود بالبضائع الشامية بل والبضائع الغربية أيضاً اذ كان هذا الطريق

قبل فتح ترعة السويس أخصر طريق بين الغرب والشرق

وكذلك الصنائع فانها بقيت حية نامية حتى في العصور المتأخرة على عهد ملوك الطوائف يدلنا على هذا ما بقي منها وما لم يبق ايضاً لوجود اثره الذي ينبيء عنه فأما الباقي منها الى الآن فصناعة الاقمشة الحريرية والقطنية كاقمشة اللبس المعروفة بالشاهية أو القطنية والديما أو العزلية والالاجا والحامدية وغيرها وكاقمشة الزينة كالستاير والمتكئات وغيرها من أقمشة الحرير والصوف والقطن المختصة بالزينة وأخصها الاطلس المعروف قديماً بالدامسقو والى غير ذلك من أنواع الأقمشة كالشراشف والمناشف والكوفيات والاحزمة كل هذا باق الى الآن وهو في أعلى طبقة من دقة الصناعة ورواء المنظر ومتانة النسيج وبهاء الالوان وتناسب النقش وقد اختصت ببعض هذه الصنائع دون البعض الآخر كثير من البلدان السورية كحلب وحماه وحمص ودمشق وطرابلس والذوق (من لبنان) وغيرها

وصناعة الحفر والنقش على الخشب بالصدف المعروفة (بالمفصص) وهي من الصناعة الخاصة بدمشق وقد ترقت الآن فتعدت الصدف الى النقش بقطع الخشب الملون الدقيقة بحيث لا يظنها ناظر اليها الا منقوشة بالدهان لتماسك الاجزاء الصغيرة والتحامها التحاماً لا يظهر منه أن النقوش انما هي أجزاء صغيرة ملتصقة في الخشب الا بعد إمعان النظر فيها والتدقيق في نقوشها

وصناعة الصابون ومعاملها لم تزل تشتغل الى الآن في حلب ودمشق ونابلس وغيرها

وصناعة النشا وفي دمشق معامل كثيرة لها تسمى القاعات لم تزل لهذا العهد تصنع كميات عظيمة من النشا الا انه قل تصديره الى الخارج بسبب

مزاحمة النشا الافرنجي له في البلاد التي كان يصدر اليها كمصر وغيرها

وصناعة الدباغة وهي موجودة في معظم المدن السورية الا أنها ساذجة لم تترق الا في مدينة زحلة التابعة لجبل لبنان فانها تحسنت الآن وكادت تضاهي الجلود التي تصنع في زحلة الجلود التي تصنع في معامل أوربا

وصناعة البناء والحفر في الاحجار ونقشها نقوشاً ناتئة أو مجوفة وهي صناعة قديمة في البلاد تمتد الى زمن الفينيقيين كما يستدل على ذلك بالآثار الحجرية الباقية الى الآن والظاهر أنها كانت تختلف باختلاف حال الدول وحبها للبذخ وميلها للعمران فالبناء في عصر الفينيقيين ومن تلاهم من الدول في سورية كان ظاهر الفخامة عظيم الضخامة متقن النقش والترتيب كهيكل بعلبك الذي بلغ الغاية في إتقان البناء والتصوير الناتئ على الحجر الصلد ومثله هيكل تدمر أيضاً على أننا لم نر أثراً يشبههما لأواخر الدولة الرومانية ولما جاء الاسلام وتبسط الامويون في العمران وابتنى الوليد جامع دمشق وبيت المقدس ظهر ثانية فن اتقان البناء وكان أجمل رواء منه في عصر الرومانيين من حيث النقش الدقيق على الاحجار المعروف لهذا العهد بالحفر والتنزيل وأما في القرون الوسطى الهجرية فقد انحطت هذه الصناعة انحطاطاً قليلاً بدليل ما نشاهده منها في بعض المساجد التي بنيت على عهد الملوك الجراكسة وغيرهم كجامع الملك الظاهر بدمشق ثم نهضت في القرون المتأخرة وترقت من فن البناء صناعة الزخرف والحفر والتنزيل ترقياً عظيماً حتى هذا العهد وقد بني في العام الماضي محراب للجامع الاموي كله من القطع الرخام الملونة الصغيرة فكانت على تناسب أوضاعها واتقان صنعها وترتيب اشكالها معجزة من معجزات الصناعة ومثله المنبر الذي اقيم في جانبه وعلى نمطه ايضاً

وصناعة الزجاج وهي اليوم متدنية جداً لا تتعدى صنع القوارير الساذجة

ومعاملها موجودة في دمشق وغيرها

وصناعة الحبال المتخذة من قشر القنب وهي مترقية عظيمة الخطر وتوجد مصانعها بكثرة في دمشق وتصنع مع الندرة في بيروت وحماة

وصناعة النحاس ونقشه نقوشاً نائثة ومحفورة وكانت فقدت منذ خمسين سنة ثم عادت الآن بسبب كثرة رغبات الاوربيين بالآنية النحاسية التي من هذا النوع

وصناعة الصاغة وهي الآن مترقية في معظم المدن السورية

وصناعة أدوات الخيل وهي الآن مترقية وقد تناولت كثيراً من الصناعات كصناعة الهميانات والصناديق الجلد وغيرها: فهذه الصنائع الباقية الى الآن في سورية ويوجد غيرها أيضاً مما لا أهمية لذكره وأما الصنائع التي اندثرت وانما تدل عليها آثارها فهي صناعة القيشاني وكانت خاصة بدمشق والموجود منها لهذا العهد في بعض المنازل والحمامات والجوامع يدل على ترقي هذه الصناعة في العصور المتأخرة ترقياً عظيماً خصوصاً في القرن التاسع والعاشر الى الثاني عشر وفي جامع الشيخ محيي الدين العربي في الصالحية الذي ابتناه السلطان سليم العثماني في أوائل القرن العاشر نوع منه بلغ الغاية في الاتقان ودقة الصنع وبهاء اللون وتناسق النقوش وكذلك الموجود في جامع الدرويشية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (٩٨٣ هـ) والموجود في جامع السنانية وتاريخ صنعه المكتوب عليه هو سنة (١٠٠٠هـ) وقد دثرت هذه الصناعة في القرن الماضي لانحصارها في عائلة واحدة ضن آخر فرد منها بتعليم هذه الصناعة لسواه ومات فماتت معه والخبر عن هذا متواتر مستفيض الى اليوم عند الدمشقيين والظاهر أن أصل هذه الصناعة فارسية بدليل نسبتها الى قيشان المحرفة عن قاشان بلد في فارس

وصناعة الخزف وقد كانت أيضاً في أعلى طبقة من الدقة وتدل آثارها على أنها كانت مرتقية في القرون الوسطى والمتأخرة الهجرية وانما عرفنا ذلك بمشاهدة قطع من مصنوعات الخزف استخرجها الدكتور (هوردوشانو) من التل المعروف بتل الباب الشرقي خارج دمشق لما اشترى من الحكومة هذا التل وأزاحه من بضع عشر سنة فوجدناها تشابه ما اكتشفته جمعية البعثة الاثرية الفرنساوية في مصر من القطع والآنية الخزفية المصنوعة في عهد الفاطميين والجراكسة[1] وقد شاهدت بعض هذه القطع المصرية عند صديق لي الماني وعليها اسم العامل بالعربية الا أني لم أعثر في القطع الدمشقية على اسم للمعمل ولا العامل وأنا أبحث الآن عن ذلك فاذا عثرت على شيء من هذا القبيل ربما أعود لذكره في مكان آخر على وجه التفصيل

صناعة الفسيفاء وهي قطع صغيرة من الزجاج الملون والمذهب تنقش بها الجدران بأن ترصف على طبقة من الجبس على أشكال شتى جميلة الصنع والترتيب تمثل الانهار والاشجار والابنية الجميلة وهي من أنفس الصنائع التي وجدت بدمشق وهي من مخترعات الروم بدليل ان الوليد بن عبد الملك لما ابتنى الجامع الأموي بدمشق استجلبها من القسطنطينية ورصف جدرانه كلها بالفسيفاء على أشكال شتى تمثل الجامع والاشجار والازهار ولكثرة ما طرأ على الجامع من الحريق تساقطت عن جدرانه الفسيفاء الا قليلا منها في الحائط المقابل للمنبر في الحرم الداخلي والحائط الغربي والشمالي في الحرم الخارجي فأما ما كان منها على الحائط الداخلي فقد تناثر بعضه في الحريق

---

(١) راجع مذكرات البعثة الاثرية الفرنساوية المطبوعة باللغة الفرنساوية في عدة مجلدات

الذي حدث منذ بضع سنين وأما ما كان منها في الحرم الخارجي فقد أدركته في طفوليتي وقد تشعثت القناطر الحاملة للجدار ولما أريد ترميمها اقتلع ما عليها من الفسيفساء اما عمداً عن جهل بقيمته الاثرية واما اضطراراً فكان يجمعه الاولاد وخدمة الجامع يومئذ ويبيعونه للسياح . والظاهر أن صناعة الفسيفساء استمرت في الشام الى ما بعد القرن السابع بدليل ما يشاهد منها في جدران بعض جوامع حلب وجامع الملك الظاهر بيبرس بدمشق الا أن القطع غير متماسكة في التركيب ولا منتظمة في الرصف وليس لها من بهاء الصنع ودقة التناسب في النقش ما كان لمثلها في الجامع الاموي وهو يدل على انحطاط صناعة النقش بالفسيفساء يومئذ انحطاطاً انتهى الى تركها بتاتاً

وصناعة السيوف الدمشقية وقد كان يتنافس بها ويضرب المثل بلين متونها ومضائها وقد دثرت منذ أجلى تيمورلنك صناعها معه الى سمرقند على أنه لم تزل الى هذا العهد صناعة الاسلحة والسيوف موجودة بدمشق وغيرها من مدن سورية الا أنها منحطة عن مرتبتها الاولى

وصناعة الاثواب البيض المعروفة (بالخام الصالحاني) وكانت خاصة بدمشق وبعض قرى جبل قلمون ولم يبق لها اعتبار منذ كثر توارد البضائع الافرنجية التي من نوعها الى سورية وكان من بضع سنين شيخ في صالحية دمشق ومن أرباب هذه الصناعة طاعن في السن قد بلغ من الكبر عتيا يقول ان الصالحية منذ أربعين سنة فصاعداً كانت منازلها كلها أشبه بمعمل واحد يحوك أهله تلك الاثواب البيض من القطن المغزول بالشام وان أهل الصالحية جميعهم كانوا في نعم وغنى زائد من ثمرات هذه الصناعة فأصبحوا الآن في ضنك وعسر لفقدها منهم أو لعدم الحاجة اليها

وقال ذلك الشيخ انه أدرك أسواق دمشق وكل سوق منها لأرباب صناعة مخصوصة كسوق الشماعين واللبادين والغلاينية[1] والخراطين وسوق السلاح والعلبية وسوق المراياتية والقباربن وغير ذلك من الاسواق التي لم يبق لصنائع أهلها الا رسم دارس وعهد طامس اللهم الا العلبية والخراطين فقد بقيت منهم بقية الى الآن لعدم استغناء البلاد عن صناعتهم لهذا اليوم

ومن الصنائع النفيسة التي فقدت من دمشق وكانت خاصة بها صناعة الدهان المعرف عند الدمشقيين (بالعجمي) وهو بأن ينقش باطن سقف الغرفة والجدران المبطنة بالخشب بالجبس الناتئ على أشكال بديعة ويذهب بعضها و بعضها يلوّن بألوان غير زاهية وهي من أدق الصنائع النفيسة وأجملها وكان لهذا النوع تركيب مخصوص من الدهان بحيث يستمر لونه لامعاً ذا بهاء ورونق مهما تطاولت عليه السنون ويوجد لهذا العهد كثير من آثار هذه الصناعة في منازل دمشق ومنها ما هو موجود في منزل أسعد باشا العظم الذي يقصده السياح للفرجة وفي منزل عبد الله باشا ومنزل المرادي ومنها ما مضى على بنائه لهذا اليوم نحو مائة وخمسين سنة ولم يزل الدهان الذي فيه زاهياً جميلا كأنما صنع بالامس . والظاهر أن فقد هذه الصناعة من دمشق قريب عهد لوجود بعض آثارها التي لم يمض عليها الى اليوم اكثر من ستين سنة وانما أهملت في السنين المتأخرة لكثرة ما تحتاج اليه من النفقات التي لا يتحملها الآن أهل الترف والبذخ للفقر الذي ألم بالبلاد منذ انحطت فيها أسباب المكاسب وقد تقدم القاءون ببناء الجامع الاموي لهذا العهد بعد الحريق الذي طرق عليه الى بعض الدهانين الطاعنين في السن الذين يعلمون

(١) صناع الغلايين التي يستعمل بها التبغ

شيئاً من هذه الصناعة بدهن السقفين اللذين يليان القبة من الجنوب والشمال بذلك الدهان فأتقنوا صنعه الا أنهم أدخلوا فيه بعض الالوان الزاهية تخالف أصل الصنعة الا انه جاء جميلا وافياً بالغرض لا عيب فيه

هذا ما أردنا بسطه عن حالة سورية الصناعية والاجتماعية وبقي لنا كلام عن حالتها لهذا العهد من حيث الترقي أو الانحطاط سواء كان في العلوم والمعارف أو في الصناعة والزراعة ودرجة ثروة البلاد من هذه الاشياء ومراتب أهل مدنها منها وعدد نفوسها والسكك الحديدية التي أنشأتها الشركات الاجنبية فيها الى غير ذلك مما يتعلق بالحالة الاجتماعية على العموم في هذه البلاد وبما انها تابعة في هذا كله الى المملكة العثمانية فقد أرجأنا الكلام على ذلك الى الاجزاء التالية التي نخصصها لرجال الدولة العثمانية ونتكلم فيها عن هذه الدولة التي نضرع الى الله تعالى أن يؤيدها بروح القوة والعلم ويصونها عن الزوال بأن يرشد رجالها الى طرق الخير وينزع من نفوسهم حب الشهوات ويزرع فيها حب الملة والوطن لينقذوا الأمة العثمانية من خطر الانحطاط الى دركات الضعف والاضمحلال التي أشرفت عليها لهذا العهد وكاد اليأس من سلامة استقلالها يستولى على نفوس العقلاء من أفرادها الذين بقي فيهم ذماء من الحياة وأثر من الشعور فباتوا يتقلبون على مضاجع الآلام وتساورهم الهموم الجسام ولا سبيل لهم الى اصلاح الحال وتدارك خطر المآل لانهم اذا نصحوا رُموا بالخيانة واذا صدقوا خرجوا في عرف الجهلاء من عهد الامانة وهي حالة يا ربّاه تؤذن بتسفل الاخلاق وضعف العقول وموت الوجدان فأنقذنا اللهم بفضلك منها وارشدنا للتبرئ من عارها الذي جعلنا عبرة في الآخرين وألعوبة في أيدي الغربيين انك مجيب الدعاء

باب

﴿ فتح العراق وفارس ﴾

(انتداب أبي عبيد ووقعة الجسر وغيرها)

تقدم معنا أن أول عمل عمله عمر (رض) في خلافته هو إجلاء أهل نجران وعزل خالد بن الوليد وانتداب الناس لحرب الفرس فأما الخبر عن الامرين الأولين فقد بسطناه فيما سبق واما الخبر عن حرب الفرس فذلك أن المثنى بن حارثة الشيباني الذي خلف خالد بن الوليد على حرب العراق وفد على أبي بكر في حال مرضه ليفاوضه في شأن الهجوم على بلاد فارس ما داموا مختلفين بينهم على من يولونه الملك بعد شهر براز الذي أدّى موته الى تملك سابور ثم قتله وقيام آزرميدخت ثم بوران إلا أن أبا بكر رضي الله عنه لم يسعه إجابة طلب المثنى لمرضه فأوصى عمر بن الخطاب (رض) أن ينتدب الناس بعد توليه منصب الخلافة مع المثنى بن حارثة لحرب الفرس فقام عمر في صبحية اليوم الذي دفن في ليلته أبو بكر وانتدب الناس لقصد العراق فلم ينتدب له أحد لأن وجه فارس كان أكره الوجوه الى المسلمين وأثقلها عليهم لشدة سلطانهم وشوكتهم وقهرهم الأمم فلما كان اليوم الرابع عاد فانتدب الناس وتكلم المثنى بن حارثة فقال يهون على المسلمين خطب الفرس

يا أيها الناس لا يعظمن عليكم هذا الوجه فانا قد تبحبحنا ريف فارس وغلبناهم على خير شق السواد (يعني الشق الغربي الذي هو العراق العربي) وشاطرناهم ونلنا منهم واجترأ من قبلنا عليهم ولها ان شاء الله ما بعدها اه

وقام عمر (رض) في الناس فقال

ان الحجاز ليس لكم بدار الا على النجعة [١] ولا يقوى عليه أهله الا بذلك اين الطُرّاء المهاجرون عن موعود الله سيروا في الارض التي وعدكم الله في الكتاب أن يورثكموها فانه قال(لِيُظْهِرَهُ على الدّين كلّهِ) والله مظهر دينه ومعز ناصره ومولي اهله مواريث الأمم . اين عباد الله الصالحون اه

فكان أول منتدب أبو عبيد بن مسعود الثقفي وثنى سعد بن عبيد وسليط بن قيس فلما اجتمع ذلك البعث قيل لعمر امّر عليهم رجل من المهاجرين والانصار فأبى وقال ان من سبق الى الدفع واجاب الى الدعاء اولى بالرياسة ثم امرّ أبا عبيد على الجيش وقال له : اسمع من اصحاب النبي صلى الله عليه وسلم واشركهم في الامر ولا تجتهد مسرعاً حتى تتبين فانها الحرب والحرب لا يصلحها الا الرجل المكيث الذي لا يعرف الفرصة والكف [٢] ولم يمنعني ان أؤمرّ سليطاً الا سرعته الى الحرب وفي التسرع الى الحرب ضياع الا عن بيان والله لولا سرعته لأمرّته ولكن الحرب لا يصلحها الا المكيث

خرج أبو عبيد في آخر جمادي الأولى او أوائل جمادي الثانية سنة (١٣هـ) ومعه سعد بن عبيد وسليط بن قيس أخو بني عديّ بن النجار والمثني بن حارثة الشيباني فتقدمهم المثني الى الحيرة وكان استقرار امر فارس لبوران فاستدعت رستم من خراسان وتوجهته وجعلت اليه حماية البلاد وسلمته قيادة الجند فكتب رستم الى دهاقين السواد ان يثوروا ودس في كل رستاق رجلا ليثور بأهله وبعث جنداً لمصادمة المثني وبلغ المثني ذلك فضم اليه مسالحه واجتمع اليه المسلمون فسار بهم الى خفّان ونزلها حتى قدم أبو عبيد وكان أول من سار من الدهاقين جابان

---

(١) النجعة طلب الكلأ (اي المرعى) في موضعه كما في القاموس

(٢) يعني الرجل المتأني الذي يعرف ساعة العمل فيعمل وساعة الكف فيكف

في فرات بادَقْلَى فسار اليه أبو عبيد فالتقوا بالنمارق وتقاتلوا فهزم أهل فارس

﴿ موعظة ﴾

لما انهزم الفرس أسر جابان اسره مَطَر بن فِضَّة التَيْمي فخدعه جابان بان وعده بشيء يعطيه له فأمنه وخلّى عنه فاخذه المسلمون فاتوا به أبا عبيد واخبروه انه الملك واشاروا عليه بقتله فقال : اني اخاف الله ان أقتله وقد آمنه رجل مسلم والمسلمون في التوادّ والتناصر كالجسد مالزم بعضهم فقد لزم كلهم: فقالوا له انه الملك وانه هو الذي حاربنا : قال وان كان لا أغدر فتركه

انظر رحمك الله الى هذا الامير العظيم النفس الصادق الايمان الذي ملك ناصية عدوه الذي غدر بالمسلمين وأثار عليهم ثائرة البلاد وقابلهم بنكران الجميل وخرق العهد فابى ان يقتله لعهد سبق له من فرد من افراد المسلمين الذين بلغ بهم التناصر والتواد يومئذ ان اميرهم يقوم بحق صغيرهم ويلتزم بما التزم به حقيرهم فأين تلك النفوس البارة والاخاء المتوثق والوجدان الحساس والتناصر النافع مما طرأ بعد ذلك على المسلمين من فساد الاخلاق وضعف اليقين وانحلال عرى الاخوة حتى باتوا البأ على بعضهم وحرباً على انفسهم يتمزقهم الاعداء ويتغلب عليهم الفاتحون وأمراؤهم في تناكر وتخاذل يتربص بعضهم أذى بعض ويتمنى احدهم زوال ملك اخيه انفراداً باسم الرياسة وطاعة لهوى النفس الشريرة وما يتمنون في الحقيقة الا زوال ملك الاسلام وما يطيعون الا شيطان الخذلان

اللهم قد انفرجت بيننا وبين السلف مسافة الخلف وصوّح نبت الاسلام وتناكرت النفوس وتقطعت أسباب الاخاء وانحطت اخلاق الامراء وتفشى الجهل في قصور العظماء وتنوسيت اصول الدين وغلبت الشهوات وتغلب علينا الأمم وحسبنا من جزائك العادل ما لقيناه من جور امرائنا وتحكم اعدائنا

فاهدنا من الحق والعلم صراطاً نخلص به الى طاعتك فيما أمرت فنوثق عرى الاخاء وننبذ من كانوا سبب التقاطع والشحناء ونجدد عهد التألف ونتمسك بأسباب التناصر والتكاتف انك مجيب الدعاء

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

انهزمت جنود جابان من النمارق ولحقت بكسكر حيث يخيم قائد اسمه نرسي من الأسرة الكسروية فأمر أبو عبيد بالرحيل ورحل بجنده حتى نزل بكسكر وكان أهل كسكر وما حولها من البلاد ينتظرون مجيء الجالينوس مدداً لهم من قبل رستم فعاجلهم أبو عبيد والتقوا بمكان يدعى السقاطية فاقتتلوا قتالا شديداً فانهزم الفرس وهرب قائدهم نرسي وغلب على عسكره وأرضه وأقام أبو عبيد وسرح القواد لاستخضاع من حوله من أهل السواد فجاء فرُّوخ وفرْوَنداذ المثنى بن حارثة وطلبا منه الجزاء والذمة عن باروسما ونهر جوبر فأبلغهما أبا عبيد فصالحاه على شيء معلوم

﴿ موعظة أخرى ﴾

لما تم الصلح بين أبي عبيد وبين فروخ وفرونداذ جاءآه بآنية فيها أنواع أطعمة فارس من الانوان والاخبصة وغيرها فقالوا هذه كرامة أكرمناك بها وقري لك : قال : أأكرمتم الجند وقريتموهم مثله : قالوا : لم يتيسر ونحن فاعلون : فقال أبو عبيد فلا حاجة لنا فيما لا يسع الجند فردوه وخرج حتى نزل باروسما فأتاه الاندَرْزَغر بمثل ما جاء به فروخ وفرونداذ : فقال لهم : أأكرمتم الجند بمثله وقريتموهم : قالوا لا : فرده وقال لا حاجة لنا فيه بئس المرء أبو عبيد ان صحب قوماً من بلادهم أهرقوا دماءهم دونه أو لم يهريقوا فاستأثر عليهم بشيء يصيبه لا والله لا يأكل مما أفاء الله عليهم الا مما يأكل أوساطهم

هكذا كان الامراء وقادة المسلمين يفعلون وبمثل هذه الاخلاق يمتازون وبحب المساواة مع عامة الناس في السراء والضراء يوصفون وبمثل هذه الخصال الجميلة يسودون لا بالاستئثار بفي المسلمين ولا بالترفع عن عامة المؤمنين ولا باستلاب مال البلاد التي أحرزها المجاهدون بسيوفهم وأسالوا على جوانبها دماءهم

وهذا المبدأ الذي تأسس عليه الاجتماع الاسلامي منذ نبت الاسلام في أرض العرب هو مبدأ الاشتراك المعقول الذي يخبط للوصول اليه زعماء هذا المذهب لهذا العهد خبط عشواء لضلالهم عن طريقه المستقيم وغلوّهم فيه غلوّ الجاهل بخوافيه اذ فاتهم ان البداوة وسذاجة الفطرة أصل في قبول الخير والشر وان الانسان اذا أفسدت الحضارة نحيزته وأخذ حب البذخ بمجامع قلبه استحال تقويم أود نفسه وارجاعه عن غلوائه والاقلال من أثرته وكبريائه والاخذ على أيدي قادته وزعمائه مالم يكن هؤلاء هم المربون لشعوبهم القائمون على تقويم أخلاق من دونهم لهذا كان زعماء الامة وخلفاؤها في صدر الاسلام قدوتها الصالحة في تربية تلك النفوس الساذجة على مبدأ حب العدل والمساواة ومشاطرة الخير والشر والكف عن الشهوات وعن حب الأثرة بالغنى والجاه والفخفخة الباطلة كما رأيت في قصة أبي عبيد (رض) وبلغ بعمر بن الخطاب (رض) بغضه بداء حب الأثرة وكرهه لاكتناز البعض للمال دون البعض الآخر ان كان يحصي مال عماله قبل أن يسند اليهم الامارة لكي يناقشهم الحساب بعد ذلك عما يزيد عن مقتناهم من المال قبل الامارة ويصادرهم عليه ثم يرده على المسلمين وبلغ علي ابن أبي طالب رضي الله عنه في خلافته أن عاملا من عماله أسرف في جمع المال ومال الى التنعم وحاد عن سبيل القصد فكتب اليه كتابا طويلا مما جاء فيه قوله أيها المعدود كان عندنا من ذوي الألباب كيف تسيغ شرابا وطعاما

وأنت تعلم انك تأكل وتشرب حراماً وتبتاع الاماء وتنكح النساء من مال اليتامى والمساكين والمؤمنين والمجاهدين الذين أفاء الله عليهم هذه الاموال وأحرز بهم هذه البلاد . فاتق الله واردد الى هؤلاء القوم أموالهم فانك ان لم تفعل ثم أمكنني الله منك لأعذرن الى الله فيك ولأضربنك بسيفي الذي ما ضربت به أحداً الا دخل النار الخ

فأين هذا الخليفة في مشربه القويم ومذهبه المستقيم في تأديب العمال بأدب نفسه وحملهم على طريق القصد وعدم السرف في أموال العباد ممن يربي عماله على العكس من ذلك ويطلق يدهم في أموال الناس بل ويحكمهم في رقاب الرعية ويدني فاجرهم منه ويقصي عفيفهم عنه وكيف يقوم للقائلين بهذا المذهب الآن قائمة بين أقوام أمات شعورهم الاستغراق بالترف وقتلهم الخنوع للشهوات : ان هذا لا يتيسر الآن الا اذا صبغ أديم الارض بنجيع الانسان وتبدل الاشرار بالاخيار وذلك أمر بعيد

﴿ عود الى خبر أبي عبيد ﴾

رحل أبو عبيد من السقاطية وقدم المثنى في تعبيته حتى قدم الحيرة وكان الجالينوس رجع الى رستم ومن أفلت من جنوده واستحثه على مقابلة المسلمين فوجه بهمن جاذويه ورد الجالينوس معه فأقبل بهمن جاذويه ومعه راية كسرى (دِرَفش كابيان) وكانت من جلود النمر[1] وأقبل أبو عبيد حتى

(١) لهذه الراية قصة عجيبة جاءت فى اخبار الفرس وملخصها ان احد ملوك الفرس جار على رعيته واسترسلت حكومته فى الظلم الى حد لا يطاق فقام من رعيته يوماً رجل حداد خامل بين قومه عظيم فى نفسه فخرج من حانوته ورفع على عصا طويلة الجلد الذي يربطه الحداد عادة فى وسطه ونادى فى الناس من لا يطيق الظلم فليتبعني فاتبعه عامة الناس فقتلوا ذلك الملك ورجال دولته واسس ذلك الحداد الدولة الكسروية فاتخذوا ملوكها راية

نزل بالمروحة على صفة النهر المقابلة للضفة التي فيها معسكر الفرس وتسمى قس الناطف فبعث اليه بهمن جاذويه إما أن تعبروا الينا وندعكم والعبور وإما أن تدعونا نعبر اليكم فأشار عليه الناس بعدم العبور وكان من أشدهم إلحاحاً عليه بعدم العبور سليط بن قيس فأبى قبول اشارتهم وترك الرأي وقال لا يكونوا أجرأ على الموت منا وعبر ومعه المسلمون وكان الفرس في عدة لم ير مثلها المسلمون

وهذا وان يكن اقدام من أبي عبيد رضي الله عنه وشمم وشجاعة لا يصدران عن غيره الا انه خطأ وقع فيه لأمر يريده الله وكانت عاقبة هذا الخطأ ان قتل أبو عبيد اذ هجم على فيل من الافيال وضربه فخبطه الفيل وكانت أسرعت السيوف في أهل فارس وأشرفوا على الهزيمة فلما خبط أبو عبيد وقام عليه الفيل جال المسلمون جولة ثم انهزموا وركبهم الفرس فبادر رجل من ثقيف الى الجسر فقطعه قصد ارجاع المسلمين عن الهزيمة فانتهى الناس اليه والسيوف تأخذهم من خلفهم فتهافتوا في الفرات ولما رأى المثني بن حارثة ذلك البطل الجليل هذا الحال بادر هو ونفر من الشجعان فحمى الناس حتى عقدوا الجسر وعبروهم ثم عبروا في آثارهم فأقاموا بالمروحة والمثني جريح وهرب الناس على وجوههم وقتل سليط بن قيس الذي نصح أبا عبيد على عدم العبور وبقي المثني في جمع قليل. ولما انتهى الخبر الى عمر بن الخطاب اشتد عليه الامر وبلغه ان بعض الفارين آوى الى المدينة فخطب فقال: عباد الله اللهم ان كل مسلم في حل مني أنا فئة كل مسلم يرحم الله أبا عبيد لو كان عبر فاعتصم بالخيف أو تحيز الينا ولم يستقتل لكنا له فئة:

واذ كان المسلمون يعلمون ان الفار من القتال آثم لقوله تعالى في

الحداد شعاراً لهم ثم جملوها من جلود النمر وسموها درفش كابيان وكانوا لا يخرجونها الا حين الحاجة القصوى

الكتاب الكريم (ومن يُوَلّهم يومئذ دُبُرَهُ الا متحرفاً لقتال أو متحيزاً الى فئة فقد باء بغضب من الله) الآية فقد ندم المسلمون واستحيوا من الفرار وجزع المهاجرون والانصار جزعاً شديداً ولما رأى عمر رضي الله عنه جزعهم قال: لا تجزعوا يا معشر المسلمين أنا فئتكم انما انحزتم اليّ : وبلغ الجزع بمعاذ القاريء أحد بني النجار ان كان اذا قرأ هذه الآية بكي فيقول له عمر : لا تبك يامعاذ أنا فئتك وانما انحزت اليّ : وذلك تخفيفاً لروعه ودفعاً لجزعه فرحم الله تلك النفوس الطاهرة ما أخوفها من الله وأشدها تمسكا بالكتاب وأجزعها من الوقوع في الخطأ ورضي الله عن عمر بن الخطاب ما أرحم قلبه وأعظم على المسلمين حنانه

كانت جنود الفرس عقب وقعة الجسر حاولت العبور الى الضفة الثانية ومطاردة المسلمين ولكن من عناية الله بالمثني ومن بقي معه من الجند القليل جاء الفرس ما شغلهم عن العبور اذ وصلهم الخبر أن الناس بالمدائن قد ثاروا برستم وانقسموا قسمين قسم معه وقسم مع الفيرزان فتمكن المثني من جمع القبائل التي حوله وأمده عمر (رض) بجرير بن عبد الله البجلي وقد كان قومه أوزاعاً متفرقين في قبائل العرب فجمعهم له عمر وأمّره عليهم وبعث عصمة ابن عبد الله من بني عبد بن الحارث الضبي فيمن تبعه من بني ضبة وكتب الى أهل الردة فلم يوافه منهم أحد الا رمى به المثني وكان ممن قدم على عمر رضي الله عنه بنو كنانة وطلبوا أن يوجهوا الى الشام فقال لهم ذلك أمر قد كفيتموه عليكم بالعراق واستقبلوا جهاد قوم قد حووا فنون العيش لعل الله أن يورثكم بقسطكم من ذلك فتعيشوا مع من عاش من الناس فقام غالب ابن فلان الليثي وعرفجة البارقي وقال كل واحد منهما لقومه يا عشيرتاه أجيبوا أمير المؤمنين الى مايرى وامضوا له فأجابوا الى ذلك فدعا لهم عمر بخير وأمر

على بني كنانة غالب بن عبد الله وعلى الازد عرفجة بن هرثمة وسرحهم فخرج هذا في قومه وهذا في قومه حتى قدما على المثنى

وقدم على عمر (رض) هلال بن علفة التيمي فيمن اجتمع اليه من الرباب فوجهه وقدم عليه المثنى الجشمي جشم سعد فأمره على بني سعد وسرحه وجاء اليه ربعي في اناس من بني حنظلة فأمره عليهم وخرجوا حتى قدم بهم على المثنى ابن حارثة فرأس بعده ابنه شبث بن ربعي وقدم على عمر غير هؤلاء من زعماء العرب فوجههم الى المثنى

وكان الفرس لما أحسوا باجتماع العرب وبكثرة من جاء من النجدة للمثنى ابن حارثة جمعوا كلهم وجاء الفيرزان ورستم الى بوران وأخبراها انهما اتفقا على أن يرسلا الى قتال المسلمين مهران بجيش كثيف واستأذناها بذلك ثم بعثا مهران بجنده حتى نزل من دون الفرات والمثنى وجنده في محل يدعى البويب على شاطئ الفرات الآخر وكانت الجنود اليه متواصلة وجاءه أنس بن هلال النمري ممداً في اناس من نصارى النمر وقدم عبدالله بن كليب التغلبي المعروف ببردى الغمد في اناس من نصارى تغلب فلما رأوا نزول العرب بالعجم قالوا نقاتل مع قومنا وانضموا الى جند المسلمين ولله ماتفعل الجامعة القومية في النفوس

لما اجتمعت جموع العرب والفرس بعث مهران الى المثنى إما أن تعبروا الينا وإما أن نعبر اليكم فقال المسلمون اعبروا الينا فعبروا اليهم وجاؤهم من قبل نهر بني سليم في صفوف ثلاثة ولهم ضوضاء وزجل فقال المثنى للمسلمين ان الذي تسمعون فشل فالزموا الصمت ثم تقدم اليهم المثنى وعلى مجنبتيه بشير وبسر بن أبي رُهم وعلى مجردته المعنى وعلى الرجل مسعود بن حارثة وعلى الطلائع النسير وعلى الردء مذعور وكان على مجنبتي مهران الآزادبه

مرزبان الحيرة ومردان شاه ثم خرج المثني يتعهد صفوف المسلمين ويحضضهم[1] ويأمرهم بأمره ويهزهم بأحسن ما فيهم تحضيضاً لهم ولكلهم يقول اني لأرجو أن لا تؤتي العرب اليوم قبلكم والله ما يسرني اليوم لنفسي شيء الا وهو يسرني لعامتكم فيجيبونه بمثل ذلك وأنصفهم المثني في القول والفعل وخلط الناس في المكروه والمحبوب فلم يستطيع أحد منهم أن يعيب له قولا ولا عملا لا سيما وانه كان على شرفه وعلو منزلته شجاعاً ميمون النقية فكان المسلمون يحبونه ويعجبون بقيادته كما يعجبون بقيادة خالد بن الوليد

ثم أن المثني كبر وكبر المسلمون وكان واعدهم بالهجوم عند رابع تكبيرة فعاجلهم الفرس من الأولى وخالطوهم والتحم القتال وجعل المثني كلما رأى خللا في صف من صفوفه يرسل لاهل الصف رجلا يقول ان الامير يقرأ كم السلام ويقول لا تفضحوا المسلمين اليوم فيقولون نعم ويعتدلون ولما طال القتال واشتد حمل المثني وحمل معه أنس بن هلال ومِرْدَى الفهر وقصد المثني مهران فأزاله حتى دخل في ميمنته واضطربت صفوف الاعاجم ولقي غلام نصراني من تغلب مهران فقتله ثم استوى على فرسه وتضعضع الفرس فانهزموا وبادرهم المثني الى الجسر فنع مرورهم منه فهربوا مصعدين ومصوبين والسيوف تأخذهم من كل جانب وكان ذلك بحسن قيادة ذلك البطل الجليل المثني بن حارثة الذي أظهر من البراعة والشجاعه في هذه الوقعة ما يخلد له طيب الذكر الا أنه أظهر يومئذ ندمه على أخذه بالجسر وقال : لقد عجزت عجزة وفي الله شرها بمسابقتي اياهم الى الجسر وقطعه حتى أحرجتهم فاني غير عائد (يعني الى مثل هذا الخطأ) فلا تعودوا ولا تقتدوا بي أيها الناس فانها كانت مني زلة لا ينبغي احراج احد الاّ من

---

(١) حضضهم كحضهم اي حثهم وأحماهم عليه كما في القاموس

لا يقوى على امتناع: هذا من حسن بصيرته وسديد رأيه وانابته للحق رضي الله عنه

ومات من أعلام المسلمين ممن كانوا جرحوا في هذه الوقعة ناس منهم خالد ابن هلال ومسعود بن حارثة اخو المثني فصلى عليهم المثني وقال والله انه ليهون على وجدى (اي اسفه وحزنه) ان شهدوا البويب . اقدموا وصبروا ولم يجزعوا ولم ينكلوا . وان كان في الشهادة كفارة لتجوز الذنوب

وكان أشد الناس بلاء في هذه الحرب من شهدوا وقعة الجسر مع ابي عبيد لاستحيائهم من الفرار في تلك الوقعة ولما انهزم الفرس في البويب انتدب المثني جرير بن عبد الله البجلي لعبور الفرات وتتبع الفارين فانتدب معه من شهدوا وقعة الجسر وغنموا غنائم كثيرة وعادوا

﴿ شجاعة النساء المسلمات ﴾

ذكر ابن جرير الطبري ان المثني وعصمة وجريراً أصابوا في أيام البويب غنما ودقيقاً وبقراً فبعثوا بها عيالات من قدم المدينة وقد خلفوهن بالقوادس والى عيالات أهل الايام قبلهم وهم بالحيرة وكان دليل الذين ذهبوا بنصيب العيالات الذين بالقوادس عمرو بن عبدالمسيح بن بقيلة فلما رفعوا (أي ظهروا) للنسوة فرأين الخيل تصايحن وحسبنها غارة فقمن دون الصبيان بالحجارة والعمد فقال عمرو ابتهاجاً بهن : هكذا ينبغي لنساء هذا الجيش: وبشروهن بالفتح: وكان على الخيل التي أتتهم بالنزل (الضيافة) النسير فأقام في خيله حامية لهم

ولا جرم فلو لم يكن لجيش المسلمين ثقة بشجاعة نسائهم وامكان دفعهن العدو المفاجئ لما تركوهن في الفلاة بلا حامية وتقدموا هم لحرب الفرس وقد رأيت كيف كانت النساء المسلمات في اليرموك يقاتلن مع الرجال وكذلك قاتلن في القادسية وكن يأخذن الجرحى من ميدان الحرب ويضمدن جراحهن ويمرضهن

ذكر الطبري في معرض كلامه على فتح ميسان ان المغيرة سار الى أهل ميسان وخلف الاثقال فلقي العدو دون دجلة فقالت اردة بنت الحارث بن كلدة (طبيب العرب المشهور) لو لحقنا بالمسلمين فكنا معهم (أي عوناً لهم) فاعتقدت لواء من خمارها واتخذ النساء من خمورهن رايات وخرجن يردن المسلمين فانتهين اليهم والمشركون يقاتلونهم فلما رأى المشركون الرايات مقبلة ظنوا أن مدداً أتى المسلمين فانهزموا واتبعهم المسلمون فقتلوا منهم عدة وهذا العمل من النساء المسلمات لعمري غاية في الجراءة ونهاية في الاقدام وحق لمثلهن أن يدخلن في مصاف الرجال ويأتين بأعظم الاعمال وقد أطنب ادورد جبون في تاريخ الامبراطورية الشرقية بشجاعة النساء المسلمات التي أظهرنها على حصار دمشق ومما قاله عنهن : ان هؤلاء النساء اللاتي تعودن الضرب بالسيف والطعن بالرمح والرمي بالنبل هن اللاتي اذا وقعت احداهن في الاسر تكون قادرة على حفظ عفتها ودينها من أي انسان يريدها بسوء

ولقد صدق فيما قال والا فما كان رجالهن أن يدعوهن يخالطن الرجال في معامع الحرب والقتال ومن البديهي أن الحجاب لم يكن يمنع النساء المسلمات عن مخالطة الرجال في الحل والترحال ولكن كان لهن من الاخلاق الفطرية والعفة الاسلامية ما يغنيهن عن مثل الحجاب الثقيل الذي ابتدعه سكان المدن الاسلامية لما استغرقوا بالرفاه والترف وأفسدت أخلاقهم عوامل الحضارة فاذا كان لنسائنا الآن من العفة وسلامة الاخلاق وطهارة النفس وحسن التربية ما كان لتلك النساء في صدر الاسلام ساغ للقائلين بتخفيف الحجاب في هذا العصر أن يطلبوا إبراز المرأة من وراء الجدر بحلى العفة والكمال ويعطونها حقوق الرجال والا فالكلام عبث لا يجدي والموقف .

حرج ينبغي للخروج منه اناة وبصيرة والله أعلم بمصير الامور

﴿ عود الى خبر المثنى ﴾

لما فرغ المثنى من أمر البويب وتشتت جنود الفرس وعاد جرير بن عبد الله البجلي من غزاته فرق المثنى جنوده في السواد وأخذ يستخضع البلاد التي عصت من قبل وكانت له وقائع كثيرة مع العرب ظفر بها المسلمون بما شاؤا من متاع ومال وبلغت غاراتهم شرقاً الى قرب مدائن فارس وشمالا الى الجزيرة فأوقعوا الرعب في قلوب الاعداء فقام الفرس لذلك وقعدوا

﴿ كلمة على دولة الفرس قبيل الفتح ﴾

ليس أضر على الأمم وأشد خطراً على استقلال الممالك من تنازع السلطة وتهافت الناس على حب الرياسة وميل الزعماء الى الاستئثار بمصالح الملك اذا ضعف جانب الممالك وتشعث بناء الدولة وقل ما انتهت الدول في أواخر عهدها الى هذا الحال من تفرق الرأي وتغلب حب الذات والاستئثار بمصالح الملك ووضع رغبات الجمهور دون رغبات الافراد الا انتهى ذلك بزوال ملكها وتقلص ظل سلطانها وقد كانت دولة الفرس أصيبت في أواخر عهدها بهذا الداء العضال والمرض القتال ولعله بدأ بها على عهد كسرى ابرويز في أواسط الجيل السادس بعد المسيح فقد ذكر المؤرخون ان كسرى هذا عسف الناس وشره الى أموال الرعية واستعمل رجالا على استخلاص بواقي الخراج فعسف الرعية وظلمهم فنفرت قلوبهم منه وتحولت أنظارهم عنه وكان قد بلغ به الامر ان أقصى أولاده الى بابل ومنعهم من التصرف فاغتنم عظماء المملكة ضعف سطوة كسرى وتفرق قلوب الرعية عنه فأحضروا من بابل ولده شيرويه وأرغموا والده على التنازل اليه عن الملك ثم أرغموا ابنه على قتله فقتله ولما صفا له الملك وشعر بتفرق أهواء زعماء

سلطنته وأحس بضعف نفسه أصابه وسواس أفضى الى ان أمر بقتل اخوته وكانوا سبعة عشر أخاً ذوي مشورة وعلم وأدب وأنبه أختاه بوران وازرميدخت على فعلته فندم وأصابه حزن رغم فمات دون السنة من ملكه فملك الفرس عليهم ابنه ازدشير وكان صغير السن فتكفل به أحد المتطلعين الى الرياسة من أرباب الدولة واسمه بهادر جسنس فحسده قائد جنود الثغور وامتعض من عدم استشارته في تولية ازدشير فاتخذ ذلك ذريعة الى التعنت وبسط يد القوة وطمع في الملك فأقبل بجنده نحو المدائن عاصمة الاكاسرة فدخلها وقتل جماعة من الرؤساء وقتل ازدشير فتولى الملك بعده شهر براز وهو من غير بيت الملك ولم يمكث في الملك الا أربعين يوماً وقتله أشياع ازدشير فملكت بعده بوران ثم ملك بعدها رجل اسمه خشنشبنده فأنكر الجند سيرته فقتلوه ثم ملكت ازرميدخت وخطبها والي خراسان فاحتالت عليه حتى قتلته فانتصر له ابنه رستم وجاء بجنده الى المدائن فتمكن من ازرميدخت وسمل عينيها ثم قتلها وأقام مقامها بوران فوقع الخلف بينه وبين الفيرزان أحد عظماء الدولة وتنازعا السلطة وتفشت الفوضى في الملك وظهر الخلل والضعف على الدولة ولما انتزع المسلمون منها العراق ودحر المثني جيوش الفرس وتحفز جند الاسلام للوثوب على عرش الاكاسرة دب في عامة الشعب الفارسي دبيب الشعور بحرج الموقف الذي وقفت فيه دولته وأحسوا بالخطر الذي جره عليهم أمراؤهم وقادتهم فهبوا من سباتهم العميق فأقبل رجالهم وذوو الرأي منهم الى الفيرزان ورستم وقالوا لهما: لم يبرح بكما الاختلاف حتى وهنتما أهل فارس وأطمعتما فيهم عدوهم وانه لم يبلغ من خطركما أن يقركما فارس على هذا الرأي وان تعرضاها للهلكة ما بعد بغداد وساباط وتكريت الا المدائن (يعنون البلاد التي احتلها المسلمون) والله لتجتمعان أو

لنبدأن بكما قبل أن يشمت بنا شامت ووالله ما جر علينا هذا الوهن غيركم يامعاشر الرؤساء لقد فرقتم بين أهل فارس وثبطتموهم عن عدوهم ولولا ان في قتلكم هلاكنا لعجلنا لكم القتل الساعة ولئن لم تنتهوا لنهلكنكم ثم نهلك وقد اشتفينا منكم

لما سمع رستم والفيرزان ما سمعا من القوم تنبها من غفلتهما وخشيا هلاكهما فبحثا مع القوم عن رجل من آل كسرى يولونه الملك ويجمعون عليه كلمة الناس فوجدوا يزدجرد بن شهريار في اصطخر وقد كانت امه غيبته هناك وهو طفل اشفاقاً عليه من القتل فجاؤا به وملكوه وهو ابن احدى وعشرين سنة الا انه كان ضعيف الرأي والقلب ومع هذا فقد أطاعه الناس ونبذ الرؤساء شهواتهم الخبيثة تفادياً من الخطر المحيق بالدولة فالتفوا حوله وأطاعوه وتباروا في معونته فرتبوا المسالح والجنود وشحنوا الثغور بالمقاتلة وأعدوا العدة والعديد لقتال المسلمين

استعداد المثنى

ومسير سعد بن ابي وقاص الى العراق

لما بلغ المثنى بن حارثة اجتماع الفرس على يزدجر وتجهزهم لحرب المسلمين كتب الى عمر (رض) وبينا هو بانتظار الجواب كفر أهل السواد بالعهد ونقضوا ما بينهم وبين المسلمين بدسائس الفرس فخرج المثنى على حامية حتى نزل بذى قار حتى جاء المسلمين كتاب عمر وفيه. (أما بعد فاخرجوا من بين ظهرى الاعاجم وتفرقوا في المياه التي تلي الاعاجم على حدود ارضكم وارضهم ولا تدعوا في ربيعة احداً ولا مضر ولا خلفائهم أحداً من أهل النجدات ولا فارساً الا اجلبتموه فان جاء طائعاً والا حشرتموه احملوا العرب على الجد اذا جد العجم فلتلقوا جدهم بجدكم)

فلما وصل الكتاب اهتم المثنى بأمر عمر وأحسن الرأي الحربي والتدبير فنزل بذي قار وفرّق الجند على خط واحد من الجل وشراف الى غضي[1] حيال البصرى فكانوا في أمواه العراق من أولها الى آخرها مسالح[2] بعضهم ينظر الى بعض ويغيث بعضهم بعضاً أي جعلهم أشبه بحصن واحد ممتد من حيال البصرة الى شراف والجل أي من أول العراق الى آخره وهو ترتيب بلغ الغاية من بعد النظر في فنون الحرب ونظام الجيوش وتنظيم خطوط الدفاع وأعاد الفرس كذلك مسالحهم وشحنوا بالجنود ثغورهم وباتوا خائفين هائبين والمسلمون متحمسون وهم كالاسد ينازع فريسته

وأما عمر بن الخطاب فانه كتب الى عماله على العرب والكور يستحثهم على استنفار العرب وكل من له نجدة وبأس فمضت الرسل بالكتب ووافاه القبائل الى المدينة ممن كان طريقهم عليها ومن كان طريقهم على العراق انضموا الى المثنى وخرج عمر في أول المحرم سنة (١٤) فعسكر على ماء قرب المدينة يدعى صراراً والناس لا يعلمون بشيء مما يريد وكانوا اذا أرادوا أن يسئلوه شيئاً رموه بعثمان أو بعبد الرحمن بن عوف فاذا لم يقدر هذان على علم شيء مما يريدون ثلثوا بالعباس فسأله عثمان عما يريد وعن عزمه فنادى الصلاة جامعة فاجتمع الناس اليه فأخبرهم الخبر ثم نظر ما يقول الناس فقال العامة سر وسر بنا معك فقال استعدوا وأعدوا فاني سائر الا أن يجيء رأي هو أمثل من ذلك ثم بعث الى أهل الرأي فاجتمع اليه وجوه أصحاب النبي

(١) فى معجم البلدان جل الوضع بالبادية على جادة طريق القادسية الى زبالة بينه وبين القرعاء ستة عشرة ميلا وهو بينها وبين الرومانتين وشراف بين واقصة وقرعاء على ثمانية أميال من الاحساء وغضي تصغير الغضا لعامر بن ربيعة وقيل جبال البصرة (٢) جماعة المسلحين وفى اصطلاح الحرب الآن النقط العسكرية أو خطوط الدفاع

صلى الله عليه وسلم وأعلام العرب فقال احضروني الرأي فاني سائر فاجتمعوا جميعاً وأجمع ملؤهم على أن يبعث رجلا من الصحابة ويقيم ويمده بالجنود فان كان الذي يشتهي من الفتح فهو الذي يريد ويريدون والا أعاد رجلا آخر وندب جنداً آخر حتى يجيء نصر الله

﴿ الحكم النيابي في الاسلام ﴾

علم عمر (رض) ان مكافحة الفرس بات أمراً حتمياً لا بد عنه وان القوة والرأي مناط الظفر بدولة هي أعظم دول الارض رهبة لذلك العهد فاذا تيسر هدم بنيانها ونزع سلطانها تمهد للمسلمين سبيل السيادة على الأمم ورفعت أعلام الاسلام على صروح الممالك والا كان الخطر على المسلمين عظيماً والامر جللا بعد اذ هيجوا أمر فارس والروم واحفظوا الدولتين القيصرية والكسروية لهذا رأى من السداد أن لايفوته رأي عامة المسلمين وخاصتهم فيمن يوليه أمر هذه الحرب فاستشار العامة فأشاروا عليه بالمسير بنفسه لانهم بأميرهم ارغب وخليفتهم أطوع واستشار الخاصة فأشاروا عليه بتسليم القيادة لغيره وبقائه في المدينة لانهم بقيمة حياته اعرف وعلى وجوده بعيداً عن ساحات القتال أحرص : وكان تخلف عن الجمع علي وطلحة رضي الله عنهما لان الأول استخلفه عمر على المدينة والثاني كان على مقدمة الجيش فرأى ان لا تفوتهما الشورى فاستدعاهما وجمع الناس جميعاً وقام فيهم خطيباً وهم مستشيراً فقال

أما بعد ان الله عز وجل قد جمع على الاسلام اهله فألف بين القلوب وجعلهم فيه اخواناً والمسلمون فيما بينهم كالجسد لا يخلو منه شيء من شيء اصاب غيره وكذلك يحق على المسلمين ان يكونوا أمرهم شورى بينهم وبين ذوي الرأي منهم فالناس تبع لمن قام بهذا الامر . ما اجتمعوا عليه ورضوا به لزم

الناس وكانوا فيه تبعاً لهم . ومن قام بهذا الامر تبع لأولي رأيهم ما راوا لهم ورضوا به لهم . (يا أيها الناس اني انما كنت كرجل منكم حتى صرفني ذوو الرأي منكم عن الخروج فقد رأيت ان اقيم وابعث رجلاً وقد احضرت هذا الامر من قدمت ومن خلفت) ويعني بما خلف علياً وطلحة لانهما لم يحضرا الرأي الأول كما ذكرنا

لعمرك اي ملك في العالم يبعثه الوجدان الطاهر ان يضع نفسه عن رضى واختيار في موضع فرد من عامة رعيته ويقول كما قال عمر المسلمين (من قام بهذا الامر فانه تبع لذوي الرأي منهم فجعل نفسه تبعاً لذوي الرأي وجعل المسلمين تبعاً لهم فيما يرتأون تمحيصاً للحق والرأي وهذا هو الحكم النيابي الذي تقوم به سعادة الأمم ويرتفع شأن الدول ولم يتوصل اليه قوم الا بعد جهد وجهاد مع قادتهم المستبدين وامرائهم القاهرين وقد وضع أساسه الاسلام وبدأ به ابو بكر وعمر رضي به واخلاصاً لله وارشاداً للمسلمين لما ينفعهم في أمر دنياهم الا ان هذا الحكم لم يدم لان العبرة باستمرار العمل والعمل لم يستمر لارتباطه بوجدان الخلفاء وإخلاصهم وعدم ارتباطه بالروابط القانونية والقيود المعروفة وتركه يترقى بطبعه بترقي الأمة وعلى مقتضى حاجة الزمان لهذا لم يستمر الا باستمرار دولة الخلفاء الراشدين مع ان حالة القوم البدوية وميلهم الفطري للحرية يقتضان استمرار الحكم النيابي في الدول العربية وانما ارغم القوم على مخالفة الفطرة البدوية مذ قامت دولة بني مروان في وسط الممالك الاعجمية وخالط خلفاؤها الاعاجم من الفرس والروم ورأوا مبلغ تبسط يد الحكومة السالفة في الرعية وسلطانها القاهر الذي هو فوق سلطان الوجدان والحاكم على الحرية والعدل لا المحكوم منهما والنفس تتلون احيانا بألوان البيئة وتتبدل اخلاقها بتبدل المنشأ

والمكان فراق أولئك الخلفاء سلطان الحكم المطلق وغلبوا على أمرهم بحكم الوسط فتغلبوا على حكم الفطرة وانقادوا لميل النفوس الى التبسط في السيادة حتى بلغ بعبد الملك بن مروان ان خطب يوما خطبة أشار فيها الى أن من راجعه في أمره فقد تعرض للقتل مع أن عصر بني مروان هو العصر الذى كان يرجي به استثمار البذور الديموقراطية التي بذرها الخلفاء الراشدين لاستغلاظ شأن الاسلام يومئذ وتفرغ الناس الى النظر في الشؤون الادارية بعد انتهاء كهم في الشؤون الحربية واشتغالهم بالفتح وما نخال الباعث للأمة العربية على الانقلاب لشهوات الملوك من بني مروان الا ذلك المزيج الذي تألف منه جسم المجتمع الاسلامي يومئذ وأخصهم الموالي من النبط والفرس والروم الذين كان يسميهم معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه (الحمراء) ويتوقع منهم كثيراً من الشر وفي الحقيقة فقد غلبت يومئذ الأمة العربية على أمرها بتفرق عصبيتها وتشتت قبائلها في فارس والروم والشام ومصر وافريقا والاندلس فلم يفهم ذلك الفتح عن استبداد خلفائهم الذين خلا لهم الجو وتفرق عنهم أنصار الحرية الذين كان يؤمل أن يتعاهدوا ذلك النبات الطيب لانمائه فى عصر الحضارة الاسلامية واجتناء ثمراته الشهية فبسطوا يد القوة وتبسطوا في الاستبداد ولو علموا أن الحكومة النيابية شرط في بقاء الدول وسياج للملك يقيه وثبات الدول الناشئة لما نزعوا منازع الجبروت وهدموا ركن الشورى اذ مطمح نظر الشعوب ومناط سعادة الناس الحرية والعدل ومتى كان هذان اساس الحكم في دولة من الدول فقد تحصل الناس على منتهى ما يرجون من بقاء هذه الدولة سائدة عليهم حاكمة فيهم وليس لهم من وراء ذلك غرض الا الذود عنها والذب عن حوزتها ذوداً عن حرضهم وذباً عن راحة مجتمعهم

لو استمر بنو مروان سائرين على نهج الخلفاء الراشدين الواضح في حكم الناس على أصول الشورى وعدم التسلط على حرية الضمائر والافكار إذن والله لما وجد بنو العباس نصيراً لدعوتهم ولا راغباً في دولتهم وهل يلجئ الناس الى التوثب على الملوك والخروج على الدول والرغبة عنها الى غيرها الا فساد الحكم وافساد قلوب الرعية بالتسلط الجائر والاستبداد القاهر

لعمرك لو أحسن بنو مروان السياسة والتمسوا وسائل سلامة الدولة لجعلوا لأخلافهم تلك الحكومة الديموقراطية الساذجة التي وضعها لهم الخلفاء الراشدون حكومة ثابتة الدعائم منتظمة الشؤون آخذة بأطراف الحاجة بربطها بقوانين خاصة ترسخ عليها دعائمها وتقوم بها أصولها والطريق الى هذا كان سهلا عليهم لو التمسوا اليهم الحيلة باستقصاء أخبار مجاوريهم من الروم الذين قامت لاسلافهم الرومان كثير من الحكومات النيابية كانت آثارها وأخبارها معروفة لذلك الجيل من الروم محفوظة في مؤلفات القوم والذي أتاح لهم وللخلفاء الراشدين قبلهم أخذ اللازم لقيام الدول من الاصول الادارية وغيرها عن الروم والفرس (كوضع عمر (رض) للتاريخ ووضعه للدواوين على أصول الفرس والروم واتخاذ معاوية الحجاب وضرب عبدالملك للنقود وغير ذلك من الامور التي لم يكن لها أثر عند العرب) كان يتيح لهم ترتيب حكومة ثابتة على أصول التجارب التي عاناها غيرهم من الامم التي سبقتهم في الحضارة لو أخلصوا النية ونظروا الى المستقبل بنظر الحكمة والروية ولو فعلوا لوضعوا لدول الاسلام أساساً ثابتاً في نوع الحكم لا يتأتى لأية دولة اسلامية بعد جيلهم ذلك أن تضع مثله البتة لاسباب عديدة أهمها إلصاق الفقهاء بعد كل شيء بالدين وحظرهم على الأمة العمل بأي أمر نافع الا ما سبق للصحابة

والتابعين وكان عندهم كالتنزيل لا يحيد عنه أحد من المسلمين ولو نخر عظامهم فساد الحكم المطاق وأكل لحمهم الظلم وذهب بسلطانهم التباعد عن الانتفاع بأصول الترقي عند الأمم الاخرى كما انتفع الاربيون من المسلمين في كثير من أصول مدنيتهم السالفة أيام الحروب الصليبية وقبلها وهذا بحث طويل نمسك عنه الآن على وعد العود اليه في محل آخر ان شاء الله

﴿ عود الى خبر الشورى ﴾

لما انتهى عمر من خطبته أشار عليه طلحة وعليّ بما أشار عامة الناس ونهاه العباس وعبد الرحمن بن عوف عن هذا الرأي وقال له الثاني . أقم وابعث جنداً فقد رأيت قضاء الله لك في جنودك قبل وبعد فانه ان يهزم جيشك ليس كهزيمتك وانك ان تقتل أو تهزم في أنف الامر خشيت أن لا يكبر المسلمون وأن لا يشهدوا أن لا إله الا الله أبداً :

ونعم هذا الرأي والاخلاص من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه اذ أن المسلمين يومئذ كانوا أحوج الى حياة عمر والاسلام لم يمتد ويتأصل في الجزيرة والفتنة لم تركد فلو أصيب عمر بشيء أصدق ما قاله عبد الرحمن ابن عوف لان هيبة عمر وعزيمته واناة أبي بكر قبله ورويته مهدت لمن جاء بعدهما السبيل ومكنت للاسلام والمسلمين السلطان في الارض

بينا المسلمون في المشورة وافى عمر كتاب سعد بن أبي وقاص وكان عامله على صدقات هوازن بمن انتخبه له من أهل النجدة لحرب الفرس وهم ألف فارس فقال بعض المسلمين لعمر (رض) قد وجدته : قال فمن : قال الاسد عادياً : قال من هو : قالوا سعد : فانتهى الى قولهم فأرسل اليه فقدم عليه فأمره على حرب العراق وانتدب معه الناس فكان أهل اليمن ينزعون الى

الشام وكانت مضر تنزع الى العراق فقال عمر (أي لاهل اليمن) أرحامكم أرسخ من أرحامنا ما بال مضر لا تذكر أسلافها من أهل الشام

﴿ وصية عمر لسعد ﴾

لما أمر عمر سعداً رضي الله عنهما أوصاه فقال

يا سعد سعد بني وهيب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله فان الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء ولكنه يمحو السيء بالحسن فان الله ليس بينه و بين أحد نسب الا طاعته فالناس شريفهم ووضيعهم في ذات الله سواء الله ربهم وهم عباده يتفاضلون بالعافية ويدركون ما عنده بالطاعة فانظر الامر الذي رأيت النبي صلى الله عليه وسلم منذ بعث الى أن فارقنا فالزمه فانه الامر . هذه عظتي اياك ان تركتها ورغبت عنها حبط عملك وكنت من الخاسرين

ثم لما أراد أن يسرحه دعاه فقال

اني قد وليتك حرب العراق فاحفظ وصيتي فانك تقدم على أمر شديد كريه لا يخلص منه الا الحق . فعوّد نفسك ومن معك الخير واستفتح به واعلم ان لكل عادة عتاداً فعتاد الخير الصبر . فالصبر الصبر على ما أصابك أو نابك يجتمع لك خشية الله . واعلم ان خشية الله تجتمع في أمرين في طاعته واجتناب معصيته وانما أطاعه من أطاعه ببغض الدنيا وحب الآخرة وعصاه من عصاه بحب الدنيا و بغض الآخرة . وللقلوب حقائق ينشئها الله انشاء . منها السر . ومنها العلانية . فأما العلانية فان يكون حامده وذامه في الحق سواء . وأما السر فيعرف بظهور الحكمة من قلبه على لسانه وبمحبة الناس فلا تزهد في التحبب فان النبيين قد سألوا محبتهم وان الله اذا أحب

عبداً حببه واذا أبغض عبداً بغضه . فاعتبر منزلتك عند الله تعالى بمنزلتك عند الناس ممن يشرع معك في أمرك

﴿ مسير سعد ﴾

خرج سعد ومعه أربعة آلاف مقاتل منهم ثلاثة آلاف من اليمن وألف من غيرهم وكان فيهم من السراة وزعماء العرب عدد وافر منهم حميضة ابن النعمان البارقي وشداد بن ضمعج الحضرمي وعمرو بن معدي كرب على مذحج ويزيد بن الحارث الصدائي وبشر بن عبد الله الهلالي وشرحبيل بن السمط الكندي وأضرابهم من صناديد العرب وقادتها

وشيعهم عمر رضي الله عنه الى الاعوص وهناك خطب فيهم خطبة أمرهم فيها بالعدل والرحمة واللين وأن ينهوا شؤونهم اليه ولا يؤخروا شيئاً من الشكوى عنه وستأتي الخطبة في باب خطبه ان شاء الله

سار سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه بمن اجتمع لديه من الجنود حتى نزل زرود من أرض العرب مما يلي العراق وأمده عمر بأربعة آلاف مقاتل ووافاه الاشعث بن قيس في ألف وسبعمائة فكان عدد جيشه الذي شهد القادسية نحو ثلاثين ألفاً بمن انضم اليه من جند العراق الذين كانوا مع المثنى ولما رحل سعد عن زرود كتب اليه عمر (رض) : أن ابعث الى فرج[1] الهند رجلا ترضاه يكون بحياله ويكون رداءاً لك من شيء أتاك من تلك التخوم : فبعث المغيرة بن شعبة في خمسمائة فكان بحيال الابلة من أرض العرب ونزل على جرير وهو مرابط هنالك يومئذ . ولما بلغ سعد شراف

(١) هو الثغر وموضع المخافة والابلة هي التي كانت ثغر العراق يومئذ لقربها من مصب الفرات في خليج فارس

نزل وكتب بمنزله الى عمر بن الخطاب (رض) فكتب اليه عمر: اذ جاءك كتابي هذا فعشر الناس وعرف عليهم[1] وأمر على أجنادهم وعبهم ومر رؤساء المسلمين فليشهدوا وقدرهم وهم شهود ثم وجوهم الى أصحابهم وواعدهم القادسية واضمم اليك المغيرة بن شعبة في خيله واكتب اليَّ بالذي يستقر عليه أمرهم

فبعث سعد الى رؤساء القبائل فأتوه فقدّر الناس وعباهم تعبية تشبه بسائر ترتيبها تعبية الجيوش في هذا العصر وسنأتي على تفصيل الخبر عن هذا في غير هذا المحل ان شاء الله ورضي الله عن عمر بن الخطاب ما كان أعلمه بفنون الحرب وأشده احتياطاً على المسلمين وأبعده نظراً في أمور الفتح فانه ما كان يأمر أميراً بحركة مالم يأخذ لها العدة ويسد الفروج ويستوثق من معرفة أحوال البلاد وقوة العدو ومبلغ كفاءة القوّاد والجنود

لما أعد سعد لكل شيء عدته وفرغ من تعبية جيشه كتب بذلك الى عمر وجاءه في غضون ذلك المعني بن حارثة أخو المثني وزوجته خصفة التيمية بوفاة المثني ووصيته لسعد ومؤداها أن لا يقاتل سعد عدوه من أهل فارس اذا اجتمع أمرهم وملؤهم في عقر دارهم وأن يقاتلهم على حدود أرضهم مما يلي أرض العرب ولما انتهى الى سعد رأي المثني ووصيته ترحم عليه وأمر أخاه المعني على عمله وأوصى بأهل بيته وخطب امرأته وتزوجها

وكانت وفاة المثني على أثر انتقاض جراحة كانت أصابته في وقعة الجسر الماضية واستخلف على جيشه بشير بن الخصاصية وقد كان رضي الله عنه على جانب من الشجاعة والاقدام والنظر البعيد في شؤون الحرب لا يدانيه فيه الا خالد بن الوليد وكان منذ وفوده على أبي بكر في أول خلافته يهوّن عليه أمر الفرس حتى

(١) قال في القاموس العريف رئيس القوم أو النقيب وهو دون الرئيس

ولاه قتالهم ثم ولى خالداً فقاتل تحت رايته ثم لما سافر خالد الى الشام وبقي المثني أميراً على ما فتحه وخالد من أرض العراق دفعه الاقدام على أن يتوسع في الفتح ويرمي بسهم المسلمين مملكة الأكاسرة ويدوخ ذلك الملك العريض فوفد على أبي بكر في حال مرضه فلم يسعه اجابة سؤله وأوصى به عمر وأشار عليه بأن يرسل معه الجنود الى فتح بلاد فارس فبعث معه أبا عبيد فكان منه ما كان من الانفراد بالرأي والوقوع في التهلكة وما زال المثني بعده يقاتل الفرس ويستخضع الخارجين من أهل العراق ويسعى بتثبيت دعائم الاسلام ثمة حتى وافاه سعد فوافته منيته قبل أن يراه ويحقق أمله في تدويخ بلاد الفرس فخسر المسلمون بوفاته شهماً مقداماً وقائداً عظيما بلغ من اخلاصه ونصيحته وعلمه بفنون الحرب ان أوصى سعداً قبل وفاته بوصية وافقت رأي الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه فجاء كتابه الى سعد يوصيه به بمثل وصية المثني

وأما نسبه فهو المثني بن حارثة بن سلمة بن ضمضم بن سعد بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة بن صعب بن علي بن بكر بن وائل الربعي الشيباني وكانت منازل قومه في العراق ووفد على النبي صلى الله عليه وسلم سنة تسع مع وفد قومه فرضي الله عنه وأرضاه

انتظر سعد جواب كتابه الذي بعث به الى عمر فجاءه الجواب يوصيه فيه بأن لا يقاتل الفرس الا في أطراف بلاد العراق مما يلي البادية وأن يلاقيهم في القادسية ويوصي جمعه بالامانة والصبر والثبات وأن يتيقظ لخديعة الفرس ومكرهم وستأتي صورة الكتاب في كتبه ان شاء الله

فارتحل سعد بالناس حتى نزل بعذيب الهجانات فوافاه كتاب عمر رضى الله عنه يوصيه به ويسأله عن جغرافية البلاد وعمن يلي أمر الفرس في ميادين

القتال وعن مبلغ قوة العدو وعن منازل المسلمين ومعسكراتهم ذلك لكي يكون على بصيرة فيما يأمره به من الشؤون الحربية في تلك الأصقاع النائية عنه ثم جاءه منه كتاب ثالث يأمره فيه بالتوقف ثم كتاب رابع يوصيه فيه بالوفاء بالعهد والذمة وبان يفي بأمان من يؤمّن من الاعاجم ولو بالاشارة اذا لم يفهموها وظنها أماناً وسنأتي هذه الكتب في بابها الا هذا الكتاب فانا رأينا ان نأتي به هنا لضرورة إيراده وهو بنصه (عن تاريخ الطبري)

اني قد ألقي في روعي انكم اذا لقيتم العدو هزمتموهم فاطرحوا الشك وآثروا التقية عليه فان لاعب أحدمنكم أحداً من العجم بأمان أو قرفه[1] باشارة أو بلسان كان لا يدري الاعجمي ما كلمه به وكان عندهم أماناً فاجروا ذلك له مجرى الامان واياكم والضَّحِك . والوفاء الوفاء فان الخطأ بالوفاء بقية وان الخطأ بالغدر هلكة وفيها وَهْنُكم وقوة عدوكم وذهاب ريحكم واقبال ريحهم واعلموا اني احذركم ان تكونوا (أي بعدم الوفاء) شيناً على المسلمين وسبباً لتوهينهم اه

﴿ كلمة في التاريخ الاسلامي ورأفة عمر بالمحاربين ﴾

هذا الكتاب يدلنا على أمرين الامر الاول أن الرأفة في الحروب ورفع السيف عن المغلوب ليست من خصائص المدنية الجديدة في هذا العصر وحدها بل هي من خصائص الدين الاسلامي أيضاً وقد سبق بها العرب على بداوتهم سبقاً بعيداً لا يشق غبارهم فيه بقية الامم وحسبك من ذلك أن من شرط الاستئمان في الحروب القانونية عند الامم المتمدنة لهذا العهد القاء السلاح ورفع الراية البيضاء وكان شرطه عند المسلمين أهون من ذلك وهو ان مجرد الاشارة ولو

---

(١) قال في القاموس لاعبه اي لعب معه والقرف بالتحريك من المقارفة والقراف للمخالطة

نشأت عن هزل او سوء تفاهم كانت تحتم على المسلم اجراءها مجرى الامان

والامر الثاني ان ما يتخرّص به بعض المؤرخين من الغربيين وما يذكرونه من المثالب الشائنة عن الفتح الاسلامي، منشؤه اما الغيظ والضغينة وأما سوء الفهم المتأتي عن تشويش التاريخ الاسلامي وإلقاء المؤرخين من المسلمين الكلام على عواهنه وخلطهم غثه بسمينه بحيث يصعب الوقوف على مجرى الشؤون الحربية والسياسية يومئذ وتفريق الحق من الباطل ومعرفة النافع من الضار الا لمن يدقق النظر و يستقصي حوادث التاريخ استقصاء الناقد البصير وماذلك الا لتجنب مؤرخي الاسلام لفلسفة التاريخ واكتفاء أكثرهم بالتافه من الحوادث وتوسعهم في أخبار الحروب الاسلامية دون الذرائع العلمية التي ترقت بها الامة في الشؤون الاجتماعية والعمرانية والسياسية حتى ان المدنية الاسلامية التي طبقت شهرتها الافاق كادت تكون مع قرب عهدها وبقاء آثارها وآثار أهلها الى الآن اشبه في الغموض بمدنية الامم البائدة التي ينقب الباحثون في تاريخها عن دفائنها الارضية وآثارها العافية ليقفوا على تاريخها الغابر بل بلغ بغموض تاريخنا و إغماض طرف مؤرخينا عن حاجات التاريخ ان احدنا لو أراد أن يعلم كيف كانت حالت قومه الاجتماعية منذ قرن مضى لا يجد الى ذلك سبيلا هذا فيما قرب عهده من العصور فما بالك بالقديم والا فأين هو لعمرابيك التاريخ الذي يفصل لنا أخبار السلف التي تتعلق بمدنيتهم الغابرة واصول معيشتهم وصنائعهم وعوائدهم وازيائهم وأصول حكومتهم المتعلقة بالادارة والقضاء والسياسة والجندية واصول التعليم والمدارس والمصانع وغير ذلك مما يتعلق بترقي هذه الامة وحالتها الاجتماعية التي ادهشت اهل المغرب ايام الحروب الصليبية فرأوا عندها من النظام السائد والتبسط في العمران والقيام على شؤون

الادارة والحرب ما لم يخطر لهم في بال

اللهم انا لا نرى في التواريخ الاسلامية خبراً من هذا القبيل الا بطريق العرض مستوراً في ثنايا الاخبار وربما ألم بعض المؤرخين بشيء من ذلك كالخطيب في تاريخ بغداد والمسعودي في تاريخه الكبير الا اننا لسوء الحظ لم نر من هذه التواريخ الا شذرات منقولة في تضاعيف الكتب والاصل مفقود العين الا أجزاء من تاريخ الخطيب متفرقة في بعض المكاتب لا تشفي الغليل

فاذا كان هذا شأن التاريخ الاسلامي في عصور الترقي والحضارة وذلك شأن المؤرخين في اغفال تدوين المهم من أخبار التاريخ وتبسطهم في سرد أخبار الحروب فلا جرم أن يظن الجاهل والعدو أن الامة الاسلامية انما وجدت لازعاج العالم بالحرب والقتال وأن تتشوش الحقائق المندمجة في أخبار الفتح فيصعب وقوف الناس على مجرى السياسة والحرب يومئذ ومبلغ نظامهما في عصر الخلفاء الراشدين وأخصهم عمر بن الخطاب (رض) الذي يشهد ذلك القليل الذي وصلنا من أخبار سياسته انه وضع للحرب والسياسة أصولا بلغت الغاية من الرأفة والعدل لو استقصيت ودونت في كتاب على حدة وعمل بها الخلفاء والسلاطين في كل عصر وأضافوا اليها ما تمس اليه الحاجة التابعة لترقي الدول والزمان لما وجد الاعداء سبيلا للقدح في الفتح الاسلامي وكذلك لو عني المؤرخون أيضاً بذكر وتدوين الوسائط المدنية في عصور الترقي الاسلامية لكانت لهذا العهد منوالا تنسج عليه الامة أو منبهاً يحرك فيها باعث الجد لاسترجاع ما فات والتوثق من حفظ استقلالها وصون حياتها مما هو آت

خبر القادسية وغيرها

لما انتهى سعد الى عذيب الهجانات قدم امامه زهرة بن الحوية الى

القادسية[1] وجاء على أثره بعد ان ترك خيلا وجنداً تحوط الحريم فلم يجد في القادسية جنداً من الفرس فأخذ يبث السرايا للغارة والارهاب ووقف مكانه موقف المدافع تبعاً لاشارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) وبعث عيونه الى الحيرة وغيرها ليأتوا له بالخبر فعادوا فأخبروه ان كسرى قد ولى رستم بن الفرخزاد الارمني حربه وأمره بالعسكرة فكتب بذلك الى عمر (رض) فكتب اليه عمر

أما بعد لا يكربنك ما يأتيك عنهم ولا ما يأتونك به واستعن بالله وتوكل عليه وابعث اليه رجالا من أهل النظر والرأي والجلد يدعونه فان الله جاعل دعاءهم توهيناً لهم وفلجاً[2] عليهم واكتب اليّ في كل يوم

وأما رستم فانه جاء حتى عسكر بساباط بين المدائن والقادسية بمائة ألف مقاتل أو يزيدون كما في رواية البعض وتقدم سعد الى نفر من قادة المسلمين ذوي منظر وآراء وعليهم مهابة فبعثهم الى يزدجرد يدعونه الى الاسلام أو الجزية وهم النعمان بن مقرن وبسر بن أبي رهم وحملة بن جوية الكناني وحنظلة بن الربيع التميمي وفرات بن حيان العجليّ وعدي بن سهيل والمغيرة ابن زرارة بن النباش وعطارد بن حاجب والاشعث بن قيس والحارث بن حسان وعاصم بن عمرو وعمرو بن معدي كرب والمغيرة بن شعبة والمعني بن حارثة فخرجوا من العسكر حتى قدموا المدائن دعاة ليزدجرد فطووا رستم حتى انتهوا الى باب يزدجرد فحبسوا ريثما جمع يزدجرد وجوه دولته واستشارهم

---

(١) القادسية على حافة البادية وحافة سواد العراق لهذا اختارها الخليفة عمر لمقام جيش سعد لقربها من البادية وعدم اقدام الفرس على التوغل فيها فيما لو تقهقر أمامهم جيش المسلمين (٢) قال في القاموس الفلج الظفر والنصر

فيما يجيبهم به فلما اجتمع رأيهم أذن لهم فأدخلوا عليه وجرى بينه وبينهم كلام طويل سيرد معنا في سيرة سعد بن وقاص (رض) ولما لم يجب يزدجرد طلب المسلمين أرسل سعد المغيرة بن شعبة الى رستم وكان رجلا داهية ذا بصيرة ورأي الا انه أبى أن يجيب الى الاسلام أو الجزية تبعاً لرأي قومه ومشورتهم فأعلن الحرب على المسلمين وكانت بينه وبين المسلمين الى أن قتل حروب شديدة انتهت بفل جموع الفرس في القادسية وتقدم جيش المسلمين الى عاصمة الاكاسرة كما سترى تفصيل الخبر في سيرة سعد بن وقاص ان شاء الله وكان مقام المسلمين في القادسية منذ وصلوا الى أن ظفروا شهرين

لما فرغ سعد من حرب القادسية أقام فيها بعد الفتح شهرين وكتب الى عمر فيما يفعل فكتب اليه عمر يأمره بالمسير الى المدائن فسار الى المدائن لأيام بقين من شوال سنة (١٥) وقيل (١٦) والتقى بجيش للفرس في مكان يدعى برس فهزمه فانضم الى فالة القادسية في بابل فأرسل اليهم زهرة بن الحوية فقاتلهم وهزمهم ثم سار سعد الى المدائن وهي بهرسير[١] ودخلها بعد حصار شهرين وهرب منها كسرى الى حلوان فغنم المسلمون من ذخائر كسرى وأموال الفرس في المدائن مالا يعد ثم دعا سعد الدهاقين الى الاسلام أو الجزية ولهم الذمة فلم يبق غربي دجلة الى أرض العرب سوادي الا آمن واغتبط بملك الاسلام ثم بعد ان ملك المسلمون إيوان كسرى جعلوه مسجداً وان سعداً ليصلي فيه بالناس والتماثيل من الجص قائمة فيه ثم أرسل سعد جيشاً من المسلمين بقيادة ابن أخيه هاشم بن عتبة بن أبي وقاص الى حلوان وماسبذان فافتتحهما وفر كسرى من

(١) المدائن هي عاصمة الاكاسرة وموقعها على دجلة على مرحلة من الجنوب الغربي من بغداد وتسمى قديماً طيسفون ويسميها الافرنج اكطزيفون

حلوان الى الراي وقيل الى أصفهان وكان ذلك سنة (١٦) وأقام سعد في المدائن الى سنة (١٧) وفتحت جيوشه في غضونها تكريت والموصل ثم تحول الى الكوفة بعد ان اختطها بأمر عمر بن الخطاب (رض) كما سيأتي ذكره في محله ان شاء الله

مسح سواد العراق وترتيب الجزية والخراج

كيف يكون الاستعمار

ان من الاصول السديدة في الفتح والاستعمار أن يؤسس على مبدأ حفظ الثروة المحلية لأهلها لتكون هذه الثروة مادة ينتفع منها الفاتح واصلاً تنمو بنمائه ثروة الدولة وتدوم بدوامه مادة العمران وكلما تبسط أهل المملكة في العمران وجد المستعمر من وسائل الكسب عندهم ما لم يجده فيما لو نضب معين ثروتهم وانكمشت عن العمل أيديهم وقل أن تراعي الدول الفاتحة هذا الاصل السديد والمرمى البعيد في الممالك المفتتحة بل معظم الفاتحين الى هذا العهد يعتبرون البلاد التي أخذت عنوة ملكا حلالا لهم يجوز انتزاع الثروة من أهلها بطريق الاكراه التدريجية ليستأثر بها أهل ملتهم ويستغني منها وطنهم على زعمهم ولم نعهد في هذا العصر دولة من الدول المتمدنة الاوربية تراعي حفظ الاصل في الثروة لأهله في المستعمرات الافريقية والاسيوية الا دولة انكلترا فربما كانت أحسن الدول قياماً على ذلك الأصل في مستعمراتها الكثيرة الشاسعة وأخفهن وطأة على الرعية مع ان دعوى التمدن العريضة تستدعي الرأفة والعناية بسكان المستعمرات من سائر الدول الاوربية وتستلزم مراعاة الاصول الاقتصادية في حكم البلاد المفتتحة كما هي مرعية في الممالك الاوربية وهيهات هيهات فان غلبة الشهوات تمحو عن لوح الذاكرة كل علم نقشته عليه أقلام العلماء في ديار المدنية وليت جهلة الكتاب من الافرنج الذين يرمون الفتح الاسلامي وأهله بوصمة التخريب

والتدمير ويسمونهم بسمات البداوة يحثون في التاريخ الاسلامي عن أصول الاستعمار والفتح عند العرب ويتعلمون منهم ما يفيدون به دولهم المتمدنة في وضع اساس العدالة وحفظ اصول الثروة لاهلها في الممالك المفتتحة

إن مبدأ الفتح الاسلامي الذي يسم جهلة الافرنج اهله بالبداوة والتخريب انما كان في عهد عمر بن الخطاب الخليفة الثاني للمسلمين الذي قهرت جيوشه دولتي الفرس والروم ورفعت أعلام دولته على أخصب ممالك الارض لعهده فكان من جميل سياسته في هذه الممالك وعظيم عدله في الرعية ان حفظ على الاهلين مادة ثروتهم وكف يد المسلمين عن انتزاع ارضهم وراعى في ترتيب الجزية والخراج ثروت الافراد وخصب الارض وجدبها ونوع النبات والشجر المستنبت فيها وكان شديد الحرص على استبقاء الفلاحين يعتملون في أرضهم لا يرضى بمزاحمة المسلمين لهم ولا انتزاع أرضهم منهم ومن ذلك ما رواه في آثار الاول وترتيب الدول عن عبدالله بن هبيرة أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه امر مناديه ان يخرج الى أمراء الاجناد يتقدمون الى الرعية بان عطاءهم قائم ورزق عيالهم سائل فلا يزرعون ولا يزارعون

وعن شريك بن عبدالرحمن ان شريك بن ابي سمي العطبفي اتى الى عمرو ابن العاص فقال انكم لا تعطونا ما يحسبنا (يكفينا) أفتأذن لي بالزرع فقال له عمرو ما أقدر على ذلك: فزرع شريك من غير اذن عمرو فلما بلغ ذلك عمراً كتب الى عمر بن الخطاب يخبره ان شريك بن سمي العطبفي زرع بارض مصر. فكتب اليه عمر بن الخطاب ان ابعث الي به فلما انتهى كتاب عمر الى عمرو بن العاص أقرأه شريكا: فقال شريك لعمرو قتلتني يا عمرو فقال له عمرو أنا قتلتك أنت صنعت هذا بنفسك فقال له اذا كان هذا من رأيك فأذن لي بالخروج من غير كتاب .

ولك عهد الله ان اجمل يدي في يده (يعني انه لايهرب) فأذن له بالوقوف فلما وقف على عمر قال : تؤمني يا أمير المؤمنين : قال ومن أي الاجناد انت : قال من جند مصر : قال فلعلك شريك بن سمي : قال نعم يا أمير المؤمنين قال : لاجعلنك نكالاً لمن خلفك : قال أو تقبل مني ما قبل الله من العباد : قال أو تفعل : قال نعم : فكتب الى عمرو أن شريكا جاءني تائباً فقبلت منه

وأخرج في فتوح البلدان عن ابراهيم التيمي قال لما افتتح عمر السواد (يعني سواد العراق) قالوا له اقسمه بيننا فانا فتحناه عنوة بسيوفنا فأبى وقال فما لمن جاء بعدكم من المسلمين وأخاف ان قسمته إن تتفاسدوا بينكم في المياه : قال : فأقر أهل السواد في أرضهم وضرب على رؤسهم الجزية وعلى أرضهم الطسق (الخراج) ولم يقسم بينهم

وأخرج عن يزيد بن حبيب : قال : كتب عمر بن الخطاب الى سعد ابن أبي وقاص حين فتح السواد (أما بعد) فقد بلغني كتابك تذكر ان الناس سألوك ان تقسم بينهم ما أفاء الله عليهم فاذا أتاك كتابي فانظر ما اجلب عليه أهل العسكر بخيلهم وركابهم من مال أو كُراع فاقسمه بينهم بعد الخمس واترك الارض والانهار لعمالها ليكون ذلك في اعطيات المسلمين فانك ان قسمتها بين من حضر لم يكن لمن يبقى بعدهم شيء وفي كتاب الخراج لابي يوسف بحث طويل بهذا الصدد فليرجع اليه

وبلغ من حرص عمر رضي الله عنه على حقوق أهل العراق وحفظ ارضهم لهم أن أحد بني الحارث بن كلدة طلب من عمر ارضاً يفتلي[1] فيها خيله فكتب الى أبي موسى الاشعري ان اباعبدالله سألني ارضاً على شاطىء دجلة يفتلي فيها خيله فان

(١) في القاموس فلا الصبي والمهر فلواً وفلاه عزله عن الرضاع او فطمه كافلاه وافتلاه

كانت في غير أرض الجزية ولا يجزأ اليها ماء الجزية فاعطه اياها وقيل بل كتب بذلك الى المغيرة بن شعبة في ولايته كتاباً غير هذا وهو بمعناه كما تراه في محله ان شاء الله وهذا وأيم الله من الاغراق في العدل وحقه ان يكون شرعة حق يسلكها في هذا العصر دول الاستعمار مع المسلمين وهيهات هيهات: وأما كيفية ترتيب عمر للجزية والخراج في العراق فهو انه لما زال عن العراق ملك الفرس وتوطدت دعائم الاسلام وانبسط عليه عدل عمر بن الخطاب رأى ورأيه العدل ان ينظم شؤونه الادارية ويرتب فيه الوضائع على نحو ترتيب كسرى أنوشروان الا أنه خوفاً من اجحاف العراقيين أو تظلمهم رأى أن تمسح أرض السوداء وتفرز أجزاء بنسبة الخصب وما يحمله كل جزء من الشجر وان يحصي السكان فتضرب عليهم الجزية على نسبة حال الافراد من الغنى والفقر فبعث عثمان بن حنيف الانصاري الى العراق العربي وحذيفة بن اليمان الى العراق العجمي فمسحا الارض ووضعا عليها الخراج بنسبة حالها ومذدرعها فجعلا على جريب[1] النخل عشرة دراهم وعلى جريب الكرم عشرة دراهم وعلى جريب القصب ستة دراهم وعلى جريب البر أربعة دراهم وعلى جريب الشعير درهمين وكتبا بذلك الى عمر فأجازه وفي رواية لابي يوسف انه جعل على جريب النخيل ثمانية دراهم

وأخرج أبو يوسف والبلاذري عن الشعبي ان عثمان بن حنيف لما مسح السواد وجده ستة وثلاثين ألف ألف جريب (اي ستة وثلاثين مليوناً) وفي رواية أنه استثنى النخيل وفي رواية ان عمر الغى النخل في ولاية

---

(١) في القاموس الجريب اسم لمكيال وللمزرعة واما مساحته فقد ذكر الطبري في تاريخه ان المسلمين لما غنموا بساط كسرى وجدوه ستين ذراعاً طولا وستين عرضا قال وهو مقدار جريب فعلى هذا تكون مساحته ٣٦٠٠ ذراعاً مربعاً

المغيرة بن شعبة على العراق والظاهر انه أراد باستثناء النخل من الخراج تسهيل تجارته واصداره الى البلاد لانه مادة التجارة في العراق .

وبلغ خراج العراق في ولاية عثمان بن حنيف مائة ألف ألف درهم (أي مائة مليون درهم) وذلك عد الصوافي التي اصطفاها عمر لبيت المال وكانت لآل كسرى أو لمن هرب وترك أرضه وبلغ خراجها سبعة آلاف ألف درهم (أي سبعة ملايين) واقطعت هذه الصوافي بعد ذلك للصحابة

وأما الجزية فقد أحصى عثمان بن حنيف من تجب عليه من سكان السواد فبلغوا خمسمائة وخمسين ألف شخص فجعلها على ثلاث مراتب ثمانية واربعين وأربعة وعشرين واثنى عشر وذلك بنسبة حال الافراد فاذا اعتبرنا في هذا العدد متوسط الجزية الذي هو أربعة وعشرون درهماً فيكون مجموع الجزية ثلاثة عشر مليونا ومائتي ألف درهم اذا أضيفت الى مبلغ الخراج بما فيه خراج الصوافي فيكون مجموع الجباية في العراق على عهد عمر بن الخطاب (رض) مائة وعشرين مليون درهم ومائتي ألف درهم[1] كانت تنفق في اعطيات الجند وارزاق المسلمين مما عدا الخمس فانه يرسل الى المدينة وينفق ما يلزم من الجباية لاصلاح الجسور وحفر الانهر ومن الانهر التي احتفرها عمر في العراق النهر المعروف بنهر معقل قرب البصرة ونهر سعد بن عمرو بن حرام قرب الانبار وغيرهما

وأخرج الامام أبو الفرج بن الجوزي في مناقب عمر عن عمر بن ميمون

---

(١) ورأيت في مناقب عمر للامام ابي الفرج بن الجوزي ان جباية العراق العربي المعروف بالسواد والعراق العجمي المعروف ببلاد الجبل بلغت مائة وعشرين مليونا (واق) قال والواق درهم ودانقان ونصف هذا ما قاله ابن الجوزي واما الدانق فقد كان كل درهم اربعة دوانق وهو الدرهم البغلي واما الدرهم الطبري فقد كان ثمانية دوانق وقيل بالعكس

قال : رأيت عمر بن الخطاب قبل أن يصاب بالمدينة وقف على حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف فقال كيف فعلتما (يعني بالعراق) أخاف أن تكونا حملتما الارض ما لا تطيق: قالا لا فقال عمر لئن سلمني الله لأدعن أرامل أهل العراق لايحتجن الى أحد بعدي أبداً فما أتت عليه الأربعة إلا أصيب وروى أبو يوسف في الخراج أن عمر كان يجبي الخراج ثم يخرج كل سنة عشرة من أهل الكوفة وعشرة من أهل البصرة يشهدون أربع شهادات بالله انه من طيب مافيه ظلم مسلم ولا معاهد: وهل بعد هذا العدل عدل يؤثر عن الملوك والخلفاء ويذكر عن الدول لا والله. هكذا كان مايسمونه الاستعمار الآن على عهد عمر بن الخطاب إذ تأسس على قاعدة حفظ الثروة المحلية لاهلها لتكون مادة ينتفع منها الفاتح وأصلا تنمو بنمائه ثروة الدولة وانما أخذ عمر (رض) هذه القاعدة من القرآن الكريم الذي هو أول كتاب إلهي قرر هذه القاعدة وذلك ان عمر لما ألح عليه بعضهم بقسمة الارضين في العراق والشام أبى الا ابقائها بيد أهلها وانتفاع المسلمين بخراجها فقط وقال كيف بمن يأتي من المسلمين فيجدون الارض قد حيزت وقسمت ما هذا برأي وجمع الناس للشورى واحتج على من رأى قسمة الارضين بالكتاب الكريم كما ترى ذلك مبسوطاً في كتاب الخراج لأبي يوسف وقال اني قد وجدت حجة الله تعالى في كتابه وتلي الآيات التي نصت على الفيء وقسمته وعلى مستحقيه من المسلمين وهي (ما أفاء الله على رسوله) الى ان قال بعد ذكر ذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والمجاهدين والانصار (والذين جاؤا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان ولا تجعل في قلوبنا غلا للذين آمنوا ربنا انك رؤف رحيم) وقال لهم عمر (رض) هذه الآية عامة لمن جاء بعدهم (أي بعد من ذكروا في الآيات) فقد صار هذا الفيء بينهم

جميعاً فكيف تقسمه لهؤلاء (يعني الفاتحين) وندع من تخلف من بعدهم بغير قسم فأجمع على تركه وجمع خراجه ووافقه على ذلك المخالفون وتم الامر ان تبقى الارضين بيد أهلها لتكون مادة يستمد منها أهلها والفاتحون مادة الحياة وهذا هو قانون الاستعمار العادل وأساسه المتين

لما تمهد أمر العراق لعمر بن الخطاب (رض) بعث عتبة بن غزوان والياً على البصرة وولى سعد بن أبي وقاص الصلاة وأمارة الحرب العامة على كل ما غلب عليه من البلاد وجعل مقره الكوفة ولما عزله ولى عمار بن ياسر ثم المغيرة بن شعبة ثم أبا موسى الاشعري ثم عمر بن سراقة وغيرهم وولى على الخراج النعمان بن مقرن على ما سقت دجلة وسويدا أخاه على ماسقى الفرات ثم ولى عملهما حذيفة بن أسيد وجابر بن عمرو ثم حذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وهما اللذان مسحا العراق كما تقدم

(عود الى خبر الفتح)

غزوة فارس من البحرين

كان العلاء بن الحضرمي أحد أبطال حروب الردة عاملا لعمر على البحرين وهي من بلاد العرب مما يلي خليج فارس وكان يباري سعد بن أبي وقاص لصدع صدعه القضاء بينهما وطار عليه بالفضل في أيام حروبه في الردة فلما ظفر سعد بالفرس ودوخ عاصمة ملكهم واستولى وجاء بأعظم مما جاء به العلاء رأى العلاء أن يباري سعداً ويؤثر أثراً في الاعاجم ونعمت المباراة والمنافسة في الفتح والجهاد لو لم تكن بدون اذن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي كان لا يأذن بخوض جيوشه في البحار تربصاً بهم لأوان الفرصة وانتظاراً للوقت المناسب وأما العلاء فقد تسرع وندب الناس لمهاجمة الفرس من جهة البحر فأجابوه فجهز

جيشاً عدته ١٢ ألف مقاتل فيهم من الرؤساء الجارود بن المعلى والسوّار بن همام وعلى الجميع خُليد بن المنذر بن ساوي فحملهم في البحر الى فارس فخرجوا الى اصطخر وعليها المرابطة وعليهم قائد اسمه الهربذ فما عتم ان قابلهم الفرس حتى حالوا بينهم وبين سفنهم واجتمعت عليهم جموع فارس فقاتلوهم قتالا شديداً وشجعهم خليد بخطبة خطبها فيهم فتراموا على الموت وقتل الجارود وسوّار فاستمات ابناهما عبد الله بن السوّار والمنذر بن الجارود فقاتلا حتى قتلا وجعل خليد يومئذ يرتجز ويقول

يالَ تميم اجمعوا النزولَ وكاد جيش عمر يزولُ
وكلكم يعلم ما أقولُ

فنزلوا واقتتل القوم وقتل من الفرس مقتلة عظيمة ثم خرجوا يريدون البصرة وقد غرقت سفنهم فلم يجدوا الى الرجوع سبيلا وأخذ الفرس عليهم الطرق فلما أحسوا بالخطر عسكروا وامتنعوا ودافعوا العدوّ مدافعة الابطال الصناديد

وكان لما بلغ عمر بن الخطاب تسيير العلاء لهذا الجيش أدرك بفراسته مايصير اليه من الهلاك في تلك البلاد النائية فاشتد غضبه على العلاء وكتب اليه بعزله وأمره بأثقل الاشياء عليه وذلك أن ينضم بمن معه الى سعد بن أبي وقاص ويكون تحت امارته وكتب الى عتبة بن غزوان والي البصرة بالخبر وأمره أن يندب الناس الى نصرتهم قبل أن يجتاحهم الفرس فندب عتبة الناس وأخبرهم بكتاب عمر فانتدب عاصم بن عمر وعرفجة بن هرثمة وحذيفة بن محصن والاحنف بن قيس وأمثالهم من قادة العرب وفرسانهم فخرجوا في اثني عشر ألفاً على البغال يجنبون الخيل كي لا يفنيها الركوب وعليهم أبو سبرة بن أبي رهم أحد بني مالك وساحل (أي مشي على الساحل) أبو سبرة والساحل في الاهواز وهم

رده له حتى التقى بخليد بحيث عسكر وأخذت عليه الطرق وحصر هو وجنوده الليوث البواسل فاستصرخ أهل اصطخر أهل فارس على المسلمين فأقبلوا عليهم من كل فج فالتقوا هم وأبو سبرة وتوافت للمسلمين أمدادهم وتواصلت جنودهم فلم يتمكن الفرس من حصرهم أو قطع المادة عنهم وقاتلهم المسلمون وغنموا منهم غنائم كثيرة وعادوا بذلك الجيش المحصور ببركة رأي عمر وأخذ الحيطة اللازمة لسلامة جيش يريد التوغل في بلاد العدو وكان لأهل البصرة فضل عظيم بانقاذ جيش العلاء والظفر بالفرس

ولما رجع الجيش الى البصرة استأذن عتبة عمر بالحج فأذن له فلما قضى حجه استعفاه فأبى أن يعفيه وعزم عليه أن يرجعن الى عمله فانصرف على غير رضاه فمات في بطن نخلة فدفن وبلغ عمر وفاته فأثنى عليه بفضله وولى مكانه أبا سبرة بن رهم بقية السنة ثم استعمل المغيرة بن شعبة في السنة الثانية فاستمر فيها الى ان جرى بينه وبين أبي بكرة ماجرى مما سيأتي في محله ان شاء الله فعزله عمر واستعمل مكانه أبا موسى الاشعري

خبر الهرمزان

وفتح الاهواز وتستر والسوس وغيرها

كان الهرمزان أحد البيوتات السبعة في أهل فارس وكان شهد القادسية مع الفرس وانهزم بهزيمتهم فجاء الى الاهواز[1] وتولى أمرها وأخذ يغير على

---

(١) الاهواز اسم ولاية واقعة بين ولاية البصرة وولاية فارس ونحن نلخص هنا ما ذكره فى شأنها ياقوت في معجمه وهو

الاهواز جمع هوز وفي قول جمع خوز فهي على القول الاول محرفة عن حوز والحوز مصدر حاز الرجل الشيء يحوزه حوزاً اذا حصله وملكه والحوز فى الارضين ان يتخذها رجل ويبين حدودها فيستحقها فلا يكون لاحد فيها حق فذلك الحوز .

اهل ميسان فتلق منه عامل البصرة عتبة بن غزوان فاستمد سعداً فأمده بنعيم
ابن مقرن ونعيم بن مسعود وأمرهما ان يأتيا أعلى ميسان ودستميسان ووجه
عتبة سلمى بن القين وحرملة بن مريطة وكانا من المهاجرين فنزلا على حدود
أرض ميسان وهناك قوم من العرب يقال لهم بنو العم بن مالك فاتفقوا معهم
على المعاضدة وان يثوروا بالهرمزان وكان من زعمائهم غالب الوائلي وكليب بن
وائل ونعيم ونُعيم وبلغ ذلك الهرمزان فسقط في يده فانهزم فتبعه المسلمون
وقتلوا من قومه ما شاؤا حتى انتهى الهرمزان الى جسر سوق الاهواز فعبره
وأقام بها ونزل المسلمون بحياله فلما رأى ما لا طاقة له به طلب الصلح فكتبوا
الى عتبة بن غزوان بذلك فأجاب عتبة الى الصلح على الاهواز كلها ما خلا
نهر تيري ومناذر وما غلبوا عليه من سوق الاهواز فانه لا يرد عليهم وجعل
سلمى بن القين على مناذر مسلحة وأمرها الى غالب وحرملة على نهر تيري وأمرها
الى كليب فكانا على مسالح البصرة وكتب عتبة بذلك الى عمر وفد اليه وفداً
منهم سلمى وحرملة وكانا من الصحابة وغالبا وكليبا وأوفد معهم بعض وجوه
أهل البصرة وفيهم الاحنف بن قيس فأمرهم عمر ان يرفعوا حوائجهم فكلهم
قال : أما العامة فأنت صاحبها ولم يبق الا خواص انفسنا : فطلبوا لانفسهم
الا الاحنف بن قيس فانه تكلم فاغرب وأعرب عن حاجات البصريين فأجابه
عمر اليها وقال : هذا الغلام سيد أهل البصرة : ثم كتب الى عتبة بن غزوان

وعلى القول الثاني الاخواز مواضع في خوزستان ـ وموقع الاهواز بين البصرة
وفارس وكورها أي اقسامها سوق الاهواز ورامهرمز وايذج وعسكر مكرم وتستر
وجند يسابور وسوس وسرق ونهر تيري ومناذر وكان خراجها ثلاثين الف الف
(٣٠ مليون) درهم وكانت الفرس تقسط عليها خمسين الف الف وعاصمة هذا
القسم هرمزدار سابور أو سوق الاهواز

فيه بان يسمع منه ويشرب برأيه . وقيل بل احتبسه عنده في المدينة وسيأتي الكلام على هذا في سيرة الاحنف ان شاء الله

ثم ان عمر رد سُلمى وحرملة وغالباً وكليباً الى مناذر ونهر تيري فكانوا عدة فيه لكون ان كان

ثم وقع بين الهرمزان و بين غالب وكليب اختلاف في حدود الارضين فحضر ذلك سلمى وحرملة لينظر فيما بينهم فوجدا غالباً وكليبا محقين والهرمزان مبطلا فحالا بينه و بينهما فكفر الهرمزان ايضاً ومنع ما قبله واستمان بالاكراد فكثف جنده فكتب الامراء الى عتبة بذلك فكتب عتبة الى عمر (رض) فامدهم عمر بحرقوص بن زهير السعدي وكانت له صحبة وأمره على القتال وعلى ماغلب عليه من البلاد فجاء فقاتل الهرمزان فهزمه ففر الى رامهرمز وافتتح حرقوص سوق الاهواز واقام بها واتسقت له بلاد سوق الاهواز الى تستر و وضع الجزية وكتب بالفتح الى عمر ثم بعث جزء بن معاوية في أثر الهرمزان بامر عمر فانتهى الى قرية الشغر وأعجزه بها الهرمزان فمال جزء الى دورق (وهي مدينة سرق) وفيها قوم لا يطيقون منها فأخذها جزء صافية وكتب الى عمر بذلك والى عتبة وانه دعا من هرب الى الجزاء والمنعة فأجابوه فكتب عمر اليه والى حرقوص ابن معاوية بن زهير بلزوم ما غلبا عليه وبالمقام حتى يأتيهما أمره وذكر الطبري في غضون هذا الخبر ان جزء بن معاوية استأذن عمر (رض) في عمران البلاد فأذن له فشق الانهار وعمر الموات : وهكذا كان دأب هؤلاء الفاتحين الذين يرميهم الاعداء بالهمجية والتدمير والتخريب فانهم ما وطئوا أرضاً الا عمروها وأنصفوا أهلها في الحكم والمعاشرة والجوار

وأما الهرمزان فأقام في رامهرمز وطلب الصلح فصولح على مالم يغلب عليه

المسلمون من ارضه فأقام الهرمزان على صلحه يجبي الى الامراء ويمنعونه وان غار عليه اكراد فارس منعوه وكان ذلك في سنة (١٧) وقيل في سنة (١٦) ثم كفر (أي جحد) مرة أخرى وذلك ان كسرى يزدجرد حرضه على العصيان وحرض أهل الاهواز عامة فانهى ذلك الى الامراء فكتبوا الى عمر (رض) والى المسلمين بالبصرة فكتب عمر الى سعد أن أبعث الى الاهواز بعثاً كثيفاً مع النعمان بن مقرن وعَجِّل وابعث سويد بن مقرن في نفر من وجوه المسلمين ذكرهم له: وكتب بمثل ذلك الى أبي موسى الاشعري وكان عاملا على البصرة بعد عتبة بن غزوان وأمره ان يسرّح الى الاهواز جنداً كثيفاً وفيهم نفر من سادة المسلمين ذكرهم له ومنهم البطل الشهير البراء بن مالك وعَرْفَجة بن هَرْثَمة وحذيفة بن محصن وأشباههم وان تكون امارة الجيشين جيش الكوفة وجيش البصرة الى ابي سبرة بن ابي رهم فخرج النعمان في اهل الكوفة فأخذ وسط السواد حتى قطع دجلة بحيال ميسان ثم أخذ البر الى الاهواز وانتهى الى نهر تيري فجازها ثم جاز سوق الاهواز وخاف حرقوصا وسلمي وحرملة أمراء الاهواز ثم سار الى رامهرمز وبها الهرمزان ولما سمع الهرمزان بمسير النعمان اليه بادره الشدة ورجا ان يقتطعه وقد طمع الهرمزان في نصر أهل فارس وقد اقبلوا نحوه ونزلت اوائل امدادهم بتستر فالتقى النعمان والهرمزان بأربك فاقتتلوا قتالاً شديداً انتهى بانتصار المسلمين وانهزام الهرمزان الى تستر ثم توافى الامراء واجتمعوا على تستر وكتب ابوسبرة يستمد أمير المؤمنين فأمدهم بأبي موسى والظاهر ان جنود الفرس التي كانت جاءت مدداً للهرمزان كانت كثيرة العدد لهذا حاصروهم اشهراً وقتل البطل الصنديد البراء بن مالك مائة مبارز في غضون مدة الحصار وقتل مثل ذلك مجزاة بن ثور ومثله كعب بن سور وقتل مثل

ذلك كثير من أبطال البصرة والكوفة وعند نهاية الحصار جاء رجل الى النعمان فاستأمنه على ان يدله على مدخل للمدينه فندب النعمان نفراً من الشجعان فدخلوا معه المدينة وأناموا من على الباب وفتحوه ودخلها الجنود فلما شعر بذلك الهرمزان فر الى القلعة واعتصم بها ثم طلب الامان على ان ينزل منها على حكم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فنزل فأوثقوه واقتسموا ما أفاء الله عليهم فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف وقتل ليلتئذ جمع من المسلمين فيهم البراء بن مالك ومجزاة بن ثور قتلهما الهرمزان بنفسه

وخرج ابو سبرة في أثر الفل الى السوس وأحاط بها بجنده وكتب بذلك الى عمر فكتب عمر برد ابي موسى الى البصرة وان يسير زر بن عبدالله ابن كليب الى جندي سابور وأمر على جند البصرة المقترب الاسود بن ربيعة احد بني ربيعة بن مالك

ثم ان أبا سبرة أوفد الى المدينة وفداً فيهم انس بن مالك والاحنف بن قيس ومعهم الهرمزان فلما اقتربوا من المدينة ألبسوه حلته الملوكية وتاجه ودخلوا به المدينة ليراه المسلمون على هذه الصفة وانطلقوا الى المسجد يطلبون أمير المؤمنين فوجدوه نائماً في ميمنة المسجد متوسداً برنسه فجلسوا دونه وليس في المسجد غيره : فقال الهرمزان أين عمر : فقالوا : هوذا : فقال أين حرسه وحجابه: قالوا ليس له حارس ولا حاجب ولا ديوان فقال فينبغي ان يكون نبياً: فقالوا بل يعمل عمل الانبياء وكثر الناس فاستيقظ عمر بالجلبة فاستوى جالساً ثم نظر الى الهرمزان فقال الهرمزان : قالوا نعم : فتأمله وتأمل ما عليه وقال: الحمد لله الذي أذل بالاسلام هذا وأشياعه يامعشر المسلمين تمسكوا بهذا الدين واهتدوا بهدي نبيكم ولا تبطرنكم الدنيا فانها غرارة ثم قال هيه ياهرمزان

رأيت وبال الغدر وعاقبة أمر الله : فقال يا عمر إنا وإياكم في الجاهلية كان الله قد خلى بيننا وبينكم فغلبناكم اذ لم يكن معنا ولا معكم فلما كان معكم غلبتمونا : فقال عمر انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا

هذا هو القول الحق الذي لامراء فيه اذ ما محق الامم وذهب باستقلال الشعوب الا التفرق وما مهد المسلمين سبيل النصر على الدول الا اجتماع تلك القبائل المتفرقة على كلمة الاسلام وتمسكهم بعرى الاخوة والوئام هـذا على اغراقهم في البداوة وبعدهم عن أسباب الحضارة وجدتهم في سياسة الملك وبالله لو استمرت عرى اجتماعهم متوثقة وأمور دولتهم متنسقة الى عهد الحضارة الاسلامية التي استراح فيها المسلمون من عناء الفتح وأخذوا أنفسهم بالعلوم وتبسطوا في مناحي العمران لما تطرق اليهم الوهن ولما فترت منهم الهمم ولكن ساط عليهم أمراؤهم ففرقوا كلمتهم وأفسدوا عليهم أمرهم فتباغضوا تباغض الاعداء وتناسوا يارباه روابط الاخاء التي ربطت تلك القبائل البدوية بعراها ففتحت لهم ممالك الارض أقصاها وأدناها وبعد فان المسلمين لم يكونوا في عصر أحوج الى الوئام وافقر الالتئام منهم في هذا العصر الذي ملأ فراغ الوجود عبراً تهز أعصاب الاموات وتثير في النفوس الخامدة بواعث الشعور بما هو آت ومع هذا فلا يزال أولياء أمورهم في تخاذل وتباغض لا يودون اجتماعاً ولا يقبلون نصحاً ولا تؤثر فيهم الزواجر ولا تعظهم العبر يفرقون بين الاخ وأخيه والوطن وبنيه تزاحماً على اسم الرياسة وتواطؤاً مع الزمان على هذه الامة الاسلامية التي تمزقها الاعداء والفاتحون وزاحمها على أرضها الغربيون وطاردها في حماها المتغلبون وهي مستغرقة في بحران الغفلة مستسلمة لاحكام القضاء استسلام الجبان للعدو القاهر لا تلتمس لها مخرجاً من هذا الضيق ولا تفتأ تعبد رؤساءها

الذين قذفوا بها الى هذا المكان السحيق وقالوا بعداً للقوم الجاهلين

ثم ان عمر رضي الله عنه قال للهرمزان ما عذرك وما حجتك في انتقاضك مرة بعد مرة فقال أخاف ان تقتلني قبل ان اخبرك قال لا تَخَفْ ذلك فاستسقى الهرمزان ماء فأتي له به في قدح غليظ فقال لو مت عطشاً لم أستطع ان أشرب في مثل هـذا فأتي به في أناء يرضاه فأظهر الجزع وقال اني أخاف ان أقتل وأنا أشرب الماء. فقال عمر: لا بأس عليك حتى تشربه: فاكفأه فقال عمر: أعيدوا عليه ولا تجمعوا عليه القتل والعطش: فقال لا حاجة لي في الماء انما أردت ان استأمن به فقال له عمر: اني قاتلك: قال: قد آمنتني: فقال كذبت فقال أنس صدق يا أمير المؤمنين قد آمنته: قال ويحك يا أنس أنا أؤمن قاتل مجزأة والبراء والله لتأتيني بمخرج أو لأعاقبنك: قال: قلت له لا بأس عليك حتى تخبرني وقلت لا بأس عليك حتى تشربه: وقال له من حضر مثل ذلك فاقبل على الهرمزان وقال خدعتني والله ولا أنخدع الا لمسلم فاسلم الهرمزان وفرض له على الفين وأنزله المدينة. وربما كان بعض الوفد هو الذي علمه هذه الحيلة شفقة عليه من القتل والا فما نخاله يعلم من اخلاق العرب الوفاء الى هذا الحد والله أعلم

خشي عمر رضي الله عنه أن يكون سبب خروج الهرمزان على المسلمين عدة مرار مع كونه عاهدهم ودخل في ذمتهم ناشئاً عن سوء معاملة المسلمين لاهل ذمتهم في فارس والعراق فاستدعى الوفد الذي وفد عليه مع الهرمزان وسألهم عن ذلك وقال لعلَّ المسلمين يفضون الى أهل الذمة بأذى: فقالوا لا ما نعلم الا وفاء وحسن ملكة: قال فكيف هذا وما سبب غدر أهل فارس: فلم يجد عند أحد منهم شيئاً يشفيه ويبصر به مما يقولون الا ما كان من الاحنف بن قيس فقال: يا أمير المؤمنين أنا أخبرك انك نهيتنا عن الانسياح في البلاد وأمرتنا الاقتصار على ما في

أيدينا وان ملك فارس حي بين أظهرهم وانهم لا يزالون يساجلوننا ما دام ملكهم فيهم ولم يجتمع ملكان فاقتتما حتى يخرج احدهما صاحبه وقد رأيت انا لم نأخذ شيئاً بعد شيء الا بانبعاثهم وان ملكهم هو الذي يبعثهم ولا يزال هذا دأبهم حتى تأذن لنا فلنسح في بلادهم حتى نزيله عن فارس ونخرجه من مملكته وعز امته فهنالك ينقطع رجاء اهل فارس ويضربون جأشاً : فقال عمر صدقتني والله وشرحت لي الامر عن حتمه ونظر في حوائجهم وسرحهم: وقدم الكتاب على عمر باجتماع اهل نهاوند فتحرك في نفسه أن يأذن بالانسياح بعد ان كان متوقفاً فيه لقلة جيوش المسلمين بالنسبة لاهل فارس وعظيم قوتهم وضخامة سلطانهم

قدمنا ان اباسبرة ذهب في أثر المنهزمين من جنود الهرمزان الى السوس وحاصرها فسلمت له وقيل بل كان على حصارها ابو موسى الاشعري وكان يزدجرد بعث أحد قواده واسمه سياه في ثلثمائة مقاتل فيهم نحو سبعين رجلا من أشراف فارس وعظمائهم الى السوس وأمره ان ينتخب من كل بلدة مر بها من أحب فمضى سياه الى السوس وقد سلمت ودخلت في حوزة المسلمين فتحول سياه ونزل بين رامهرمز وتستر وقد عظم عنده أمر المسلمين وعلم بفراسته انهم ظافرون بالدولة الفارسية لا محالة فدعا الرؤساء الذين كانوا معه وقال لهم : قد علمتم انا كنا نتحدث ان هؤلاء القوم أهل الشقاء والبؤس سيغلبون على هذه المملكة وتروث دوابهم في ايوانات اصطخر ومصانع الملوك ويشدون خيولهم بشجرها وقد غلبوا على ما رأيتم وليس يلقون جنداً الا فلوه ولا ينزلون بحصن الا فتحوه فانظروا لانفسكم

قالوا رأينا رأيك . قال فليكفني كل رجل منكم حشمه والمنقطعين اليه فاني أرى أن ندخل في دينهم . وانما أمرهم بان يكفوه الجند تلافياً لما عساه يحدث منهم

فيما لو اسلم أشرافهم فلبى الرؤساء أمره ثم وجهوا أحدهم واسمه شيرويه الى أبي موسى في عشرة من الاساورة فقدم عليه وقال له : انا قد رغبنا في دينكم فنسلم على أن نقاتل معكم العجم ولا نقاتل معكم العرب وان قاتلنا أحـد من العرب منعتمونا منه وننزل حيث شئنا ونكون فيمن شئنا منكم وتلحقونا باشراف العطاء[1] ويعقد لنا الامير الذي هو فوقك بذلك : فقال أبو موسى بل لكم ما لنا وعليكم ما علينا : قالوا لا نرضى : فكتب بذلك الى عمر بن الخطاب فكتب اليه ان اعطيهم ماسألوه ورأى منهم مرة تقصيراً في الحرب فلامهم على ذلك فاعتذروا اليه بقلة العطاء فكتب بذلك الى عمر (رض) فكتب اليه ان الحقهم على قدر البلاء في أفضل العطاء واكثر شيء أخذه العرب: ففرض لمائة منهم في الفين ولستة منهم في الفين وخمسمائة فقال الشاعر

ولما رأى الفاروق حسن بلائهم وكان بما يأتي من الأمر أبصرا
فسن لهم الفين فرضاً وقد رأى ثلاثمئين فرض عكٍ وحميرا

وفي هذه الابيات استحسان لما صنعه عمر رضي الله عنه بالحاق القوم بأفضل العطاء تأليفاً لقلوبهم وحذراً من أمر يأتي من قبلهم ولا جرم ان الانتفاع بناس كهؤلاء لا يفوت ذلك الخليفة العظيم الذي ادهش بحسن سياسته يومئذ ملوك الفرس والروم فرضي الله عنه وجزاه عن هذه الأمة خير الجزاء

﴿ خبر جندي سابور ﴾
﴿ وأمان عبد امضاه جيش المسلمين ﴾

روى الطبري ان أبا سبرة لما فرغ من السوس خرج في جنده حتى نزل

---

(١) كذا في تاريخ الطبري ولعله بأشرف العطاء أي أعلاه أو بالاشراف من أهل العطاء والعطاء هو في عرفنا الان المرتب أو الماهية وسيأتي الكلام عليه في هذا الكتاب

على جندي سابور وزر بن عبد الله بن كليب محاصرهم فأقاموا عليها يغادونهم ويراوحونهم القتال فلم يفجأهم يوماً الا وأبواب البلد تفتح ثم خرج الناس وخرج الاسواق وانبث أهلها فخار المسلمون من ذلك وأرسلوا فسألوهم ان مالكم: قالوا رميتم الينا بالامان فقبلناه وأقررنا لكم بالجزاء على ان تمنعونا: فقال المسلمون مافعلنا: فقال أهل جندي سابور ونحن ما كذبنا: فسأل المسلمون فيما بينهم فاذا عبد يدعى مكنفاً كان أصله منها هو الذي كتب لهم: فقالوا انما هو عبد: فقالوا لا نعرف حركم من عبدكم قد جاءنا أمان فنحن عليه قد قبلناه ولم نبدل فان شئتم فاغدروا: فامسكوا عنهم وكتبوا بذلك الى عمر فكتب اليهم

ان الله عظم الوفاء فلا تكونون أوفياء حتى تفوا ما دمتم في شك أجيزوهم وفوا لهم: فوفوا لهم وانصرفوا عنهم

ولو لم يعلم هذا العبد من اخلاق اولئك الفاتحين السامية انهم يجيزون أمانه وان أخلاقهم الكريمة ونفوسهم الشريفة فوق كل فاتح محارب لما رمى لقومه بالامان واستنزلهم من المعاقل ولو أنصف جهلة المتعصبين من المؤرخين وتدبعوا أخبار هذا الفتح وبحثوا عن سيرة أولئك الفاتحين وأخلاقهم البارة بالانسانية لكفوا أنفسهم مؤنة التهجم على ثلب المسلمين ووصفهم بالهمجية والتخريب في أيام فتوحهم العظيمة ولكن ما الحيلة وانها لا تعمى الابصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور

﴿ الانسياح في بلاد فارس ﴾

أشرنا فيما تقدم الى ما رآه الأحنف بن قيس من لزوم انسياح[1] الجيوش الاسلامية في بلاد فارس تخلصاً من عصبية الملك واستخصاعاً للفرس وقد انتهى

---

(١) الانسياح هو الذهاب في الارض

عمر (رض) الى رأي الاحنف وعرف فضله وصدقه فأعد لذلك العدة وقسم الجيوش وأمر الامراء من أهل الكوفة والبصرة فأمر أبا موسى الاشعريّ ان يسير من البصرة الى منقطع ذمة البصرة أي آخرها فيكون هنالك حتى يبعث اليه و بعث بألوية من ولى مع سهيل بن عدي حليف بني عبد الاشهل فقدم سهيل بالألوية ودفع لواء خراسان الى الأحنف بن قيس : ولواء ازدشير خره وسابور الى مجاشع بن مسعود السلمي : ولواء اصطخر الى عثمان بن العاص الثقفيّ : ولواء فسا ودار بجرد الى سارية بن زنيم الكنانيّ : ولواء كرمان مع سهيل بن عدي : ولواء سجستان الى عاصم بن عمر : ولواء مكران الى الحكم عمير التغلبيّ : فخرجوا في سنة (١٧هـ) فعسكروا ليسيروا الى هذه الكور فلم يتيسر مسيرهم حتى دخلت سنة (١٨) وأمدهم عمر (رض) بجماعة من جند الكوفة : فأمد سهيل بن عدي بعبد الله بن عبد الله بن عتبان : وأمد الأحنف بعلقمة بن النضر و بعبد الله بن ابي عقيل و بربعي بن عامر وبابن ام غزال : وأمد عاصم بن عمرو بعبد الله بن عمير الاشجعي : وأمد الحكم بن عمير بشهاب بن المخارق المازني

سارت هذه الجيوش كل جيش في وجهته وافتتحت في غضون خمس سنين اعني الى نهاية خلافة عمر (رض) القسم الاعظم من بلاد فارس الشرقية والغربية صلحاً وحرباً فبلغت ولاية اذربيجان شمالاً وسجستان (من ولاية افغانستان) ومكران (من ولاية بلوخستان أي السند) شرقاً و بحر الهند وخليج فارس جنوباً وكردستان والجزيرة غرباً وكانت أعظم وقائع المسلمين في فارس بعد انسياح الجيش وقعة نهاوند وأحسن الفتح فتح خراسان : فأما فتح خراسان فقد اختلف فيه هل كان في خلافة عمر بن الخطاب أو خلافة عثمان رضي الله عنهما لهذا نرجئ الكلام عليه الى سيرة الاحنف بن قيس : وأما فتح نهاوند فنذكر طرفاً

من خبره هنا لاهميته ولكثرة ما عاناه المسلمون في هذا الفتح من المشاق وما لاقوه من شدة العدو وعدته فنقول نقلا عما رواه الطبري في تاريخه

(خبر نهاوند)

كان الذي هيج امر نهاوند كسرى يزدجرد فانه جمع اليه عظماء الفرس وخوفهم من اجتماع الجيوش الاسلامية على فارس وانذرهم بذهاب الملك اذا لم ينهضوا نهضة رجل واحد لصد المسلمين فأجمعوا رأيهم على اعداد الجيوش في نهاوند وكتبوا الى البلاد فحشروا الجنود الفارسية الى نهاوند وكانت عدتها ١٥٠٠٠٠ مقاتل فلما انتهى الخبر الى موبذان حلوان كتب بذلك الى سعد بن ابي وقاص وكتب هذا الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) فجمع عمر الصحابة واستشارهم في الامر فمنهم من أشار عليه بالنهوض بنفسه الى فارس ومنهم من أشار عليه بالمقام و بتسريح جنود الشام ومنهم من رأى غير ذلك وممن رأى أن يذهب الى حرب القوم بنفسه عثمان بن عفان (رض) فانه قام فقال [1] بعد أن تشهد أرى يا أمير المؤمنين ان تكتب الى أهل الشام فيسيروا من شامهم وتكتب الى اهل اليمن فيسيروا من يمنهم ثم تسير أنت بأهل هذين الحرمين الى المصرين البصرة والكوفة فتلق جمع المشركين بجمع المسلمين فانك اذا سرت بمن معك

(١) هكذا كانت العادة عند المسلمين اذا اجتمعوا عند الخليفة للشورى يقوم احدهم عند ابداء الرأي خطيباً ويشير بما يراه ويشبهه في هذا العصر حال مجالس الشورى عند الامم الاوربية ولكن شتان بين أهل شورى يفضي بهم البحث لاختلافهم في المنازع والغايات الى المجادلة ثم المنازعة والمقارعة ثم الضرب والملاكمة وبين أهل شورى وجهتهم واحدة وأخلاقهم رزينة ونياتهم سليمة فلا يسفه احدهم رأى الآخر ولا يتطاول في الكلام على سواه بل يبدي رأيه مع الادب والرزانة فان قبل كان بها والا فلغيره أن يقول ما يشاء

وعندك . قل في نفسك ما قد تكاثر من عدد القوم وكنت أعزّ عزاً وأكثر.
يا أمير المؤمنين انك لا تستبقي من نفسك بعد العرب باقية (١) ولا تمتّع من
الدنيا بعزيز ولا تلوذ منها بحريز . ان هذا اليوم له ما بعده من الايام فاشهد
برأيك وأعوانك ولا تغب عنه : ثم جلس فعاد عمر فقال

ان هذا اليوم له ما بعده من الايام فتكلموا : فقام عليّ بن ابي طالب
رضي الله عنه فقال

أما بعد يا امير المؤمنين فانك إن أشخصت أهل الشام من شامهم
سارت الروم الى ذراريهم (٢) . وان أشخصت أهل اليمن من يمنهم سارت
الحبشة الى ذراريهم . وانك إن شخصت من هذه الارض انتقضت
عليك الارض من أطرافها وأقطارها حتى يكون ما تدع وراءك أهم اليك
مما بين يديك من العورات والعيالات . أقرر هؤلاء في أمصارهم واكتب
الى أهل البصرة فليتفرقوا فيها ثلاث فرق فلتقم فرقة لهم في حرمهم
وذراريهم ولتقم فرقة في أهل عهدهم لئلا ينتقضوا عليهم ولتسر فرقة الى
اخوانهم بالكوفة مدداً لهم . ان الاعاجم ان ينظروا اليك غداً قالوا هذا
أمير العرب وأصل العرب فكان ذلك أشد لكلبهم وألبتهم على نفسك .
واما ما ذكرت من مسير القوم فان الله هو اكره لمسيرهم منك وهو أقدر
على تغيير ما يكره . واما ما ذكرت من عددهم فانا لم نكن نقاتل فيما مضى

(١) يريد لاتبالي بنفسك اذا أصيب العرب بشيء وفي قوله هذا ومن بقية الخطبة
دليل على ما أعده الفرس من القوة والعدة لمكافحة المسلمين يومئذ مما استكبر أمره
الصحابة ورأوا لزوم اعداد القوة المماثلة لقوة الفرس الحاسمة لخطر هجومهم على
المسلمين (٢) جمع الذرية وهو ولد الرجل والنساء الواحد والجميع ومراده ان الروم
يسيرون الى الشام حيث لا يبقى الا النساء والاطفال فيكتسحون البلاد ويسبون الذرية

بالكثرة ولكنا كنا نقاتل بالنصر :

فقال عمر : أجل والله لئن شخصت من البلد لتنتقضن عليّ الارض من أطرافها وأكنافها ولئن نظرت الى الاعاجم لا يفارقن العرصة وليمدنهم من لم يمدهم وليقولن هذا أصل العرب فاذا اقتطعتموه اقتطعتم أصل العرب فأشيروا عليّ برجل أولّه ذلك الثغر غدا واجعلوه عراقياً : قالوا أنت أفضل رأياً وأحسن مقدرة وأنت أعلم بأهل العراق : فقال أما والله لأولين أمرهم رجلا ليكونن لأول الأسنة اذا لقيها غداً : فقيل من يا أمير المؤمنين: فقال النعمان بن مقرن المزني . فقالوا هو لها :

وكان النعمان[1] يومئذ بالمدينة وقيل كان بالبصرة مع القواد الذين أمده بهم عمر لما افتتح رامهرمز وقيل بل كان على خراج كسكر وكان كتب الى عمر يستعفيه من امارة الخراج ويطلب منه الحاقه بجيش من جيوش المسلمين وذلك لان امارة الحرب كانت أحب الى اقيال الصحابة من امارة الخراج لاعتبارهم الثانيـة من دواعي الراحة والرفاهية اللتين لم تألفهما نفوسهم العالية لميلها الى اكتساب الفضيلة والشرف من ساحات الحرب والقتال . واليك كتاب النعمان الى أمير المؤمنين ومنه ترى بماذا شبه نعيم كسكر وكيف كان يأنف ذلك النعيم أما بعـد ان مثلي ومثل كسكر كمثل رجل شاب الى جنبه مومسة تلون له وتعطره فأنشدك الله لما عزلتني عن كسكر وبعثتني الى جيش من جيوش المسلمين فكتب اليه عمر أن ائت الناس بنهاوند فاني قد

(١) هذا البطل الجليل هو النعمان بن مقرن بن عائذ بن سيحان ويتصل نسبه بأد بن طابخة المزني نسبة الى مزينة من ولد عثمان بن عمرو قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أربعمائة من مزينة وقيل هاجر ومعه سبعة اخوة له وكان معه لواء مزينة يوم فتح مكة وحضر حرب القادسية وغيرها من حروب الفرس واستشهد بنهاوند

وليتك حربهم فسر من وجهك ذلك حتى تأتي ماه فاني قد كتبت الى أهل الكوفة أن يوافوك بها فاذا اجتمع لك جنودك فسر الى الفيرزان ومن تجمع اليه من الاعاجم من أهل فارس وغيرهم واستنصروا الله وأكثروا من قول لا حول ولا قوة الا بالله

وكتب الى الكوفة بشخوص الجيش الى نهاوند وعليهم حذيفة بن اليمان حتى يلتقي بالنعمان فتكون له أمارة الجيش وكتب الى سلمى بن القين وحرملة بن مربطة وغيرهم من الامراء الذين كانوا بالعراق العجمي وفارس أن يشغلوا الفرس عن جيش نهاوند فتقدم بعضهم الى تخوم أصبهان و بعضهم الى تخوم فارس فقطعوا عن نهاوند أمداد فارس ولما قدم جيش الكوفة على النعمان جاءه كتاب عمر أن معك حد العرب ورجالهم في الجاهلية فأدخلهم دون من هو دونهم في العلم بالحرب واستعن بهم واشرب برأيهم وسل طليحة وعمراً وعمراً ولا تولهم شيئاً

ويعني بالعمرين عمرو بن معدي كرب الزبيدي وعمرو بن أبي سلمى العنزي وهما وطليحة بن خويلد الاسدي من زعماء العرب في حروب الردة لهذا أمره عمر باستشارتهم ونهاه عن تأميرهم لانه رضي الله عنه كان لا يرى تأمير أحد من زعماء الردة وان أذن لأهل الردة بالجهاد واستنفرهم للفتح وكان أبو بكر رضي الله عنه لا يرى هذا ولا ذاك كما رأيت فيما مر من سيرته وانما ساغ لعمر (رض) أن يأذن لهم بحضور الفتوح للحاجة اليهم في إبان الفتح ولحصول الاطمئنان من جهتهم سيما بعد تبسط المسلمين في البلاد وحصول العرب على ذلك الملك العريض بفضل الاسلام

تقدم النعمان وتقدم أمامه عمرو بن أبي سلمى وطليحة الأسدي

لاستكشاف حال العدو فخاف عمرو التوغل ورجع ومضى طليحة على وجهه وكان بطلا شجاعاً حتى بلغ نهاوند وعاد فأخبر النعمان بأن ليس بينه وبين نهاوند شيء يخشاه فتقدم النعمان حتى نزل على نهاوند وعلى جيوش الفرس قائد اسمه الفيرزان وآخر اسمه بهمن جاذويه ووافى النعمان امداد أهل المدينة فيهم المغيرة بن شعبة وكذلك وافى أهل نهاوند كل من غاب عن القادسية والأيام قبلها من أهل الثغور ونزلوا ونزل النعمان ولما أريد بناء فسطاط للنعمان بادر أشراف أهل الكوفة فبنوا له فسطاط (وهو السرادق) وهم أربعة عشر منهم حذيفة بن اليمان وعقبة بن عمرو والمغيرة بن شعبة وبشير بن الخصاصية وحنظلة الكاتب بن الربيع وابن الهوبر وربعي بن عامر وعامر بن مطر وجرير بن عبد الله الحميري والأقرع بن عبد الله الحميري وجرير بن عبد الله البجلي والاشعث بن قيس الكندي وسعيد بن قيس الهمداني ووائل بن حجر فلم ير بناء فسطاط بالعراق كهؤلاء. وفي هذا دليل على حسن الرابطة التي جعلها الاسلام بين أشراف العرب

وأنشب النعمان القتال فاقتتلوا يوم الأربعاء ويوم الخميس والحرب بينهم في ذاك سجال وفي يوم الجمعة لجأ الفرس الى خنادقهم وحصرهم المسلمون فأقاموا عليهم ما شاء الله والأعاجم لا يخرجون الا اذا أرادوا الخروج فاشتد ذلك على المسلمين وخافوا أن يطول عليهم الامر فجمع النعمان أهل الرأى والنجدة للشورى فاجتمعوا وأبدى كل واحد منهم رأيه وكان من رأي طليحة الاسدي أن يبعث النعمان خيلا تفاجئ الاعداء في خنادقهم وتخالطهم ثم تخرج بهم وتستطرد لهم حتى يقاربوا الجيش فيبادرهم القتال ويقطع عليهم خط الرجوع فانتهى النعمان الى رأي طليحة فأمر القعقاع بن عمرو وكان على المجردة ففعل وأنشب القتال مع العجم فلما خرجوا نكص وما زال يتأخر ناكص شبه المنهزم حتى اقترب بهم من

جيش المسلمين وكان النعمان على تعبية فاخذ يمر على الصفوف ويحرض المسلمين على القتال وكلهم سامعون مطيعون ثم حمل النعمان وحمل الناس وراية النعمان تنقض نحوهم انقضاض العقاب فاقتتلوا بالسيوف اقتتالا شديداً وكانت وقعة لم يسمع بمثلها قط وسال الدم في أرض المعركة فزلق به الناس والدواب وأصيب فرسان من فرسان المسلمين في الزلق وزلف فرس النعمان في الدماء فصرعه وتناول الراية نُعَيْم بن مقرن ثم دفعها الى حذيفة وجاء المغيرة بن شعبة وقال اكتموا مصاب اميركم لئلا يهن الناس واقتتلوا الى الليل وتمت الهزيمة على الفرس فانكفأوا في الخنادق فقتلوا ولم يفلت منهم الا الشريد ونجا الفيرزان فاتبعه نعيم بن مقرن وقدم القعقاع قدامه فادركه عند ثنية همذان فتوقل الجبل فتوقل القعقاع في أثره وأخذه ولما بلغ الفل همذان جاءت خيل المسلمين في آثارهم فنزلوا عليها فخرج اليهم خسرو شنوم فاستأمنهم وضمن لهم همذان ودستبي وان لا يؤتي المسلمون من قبلهم فأجابوهم الى ذلك وآمنوهم فأقبل كل من كان هرب واطمئن الناس

وقتل في وقعة نهاوند ناس من المسلمين ويقال أن ممن قتل يومئذ طليحة الاسدي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي ودخل المسلمون المدينة بعد هزيمة الفرس واحتووا ما فيها وما حولها وجمعوا الاسلاب الى صاحب الاقباض (١) وهو السائب بن الاقرع وجاءهم الهربذ صاحب بيت النار مستامناً ودلهم على ذخيرة لكسرى كانت عنده على شرط أن يعطوه الامان على نفسه وعلى من شاء فاعطاه حذيفة ذلك فأخرج له تلك الذخيرة في سفطين (٢) وهي جوهر ثمين

(١) امين المال والغنائم (٢) قال في القاموس السفط محركة كالجوالق أو القفة اهـ قوله الجوالق معربة عن جوال التركية وهو ما يسميه الشاميون الآن العدل أو الكيس وما يسميه المصريون الزكيبة

كان اعده لنوائب الزمان فاجمع رأي المسلمين على رفعه الى عمر وقسم حذيفة الغنائم فكان سهم الفارس ستة آلاف وسهم الراجل الفين ورفع ما بقي من الاخماس الى السائب بن الاقرع فقبض السائب للاخماس فخرج بها الى عمر مع ذخيرة كسرى وتقدم الرسول بخبر الفتح وهو طريف بن سهم أخو بني ربيعة وكان عمر متململا ينتظر أخبار نهاوند فلما جاءه الرسول واخبره خبر الفتح واستشهاد النعمان بكي حتى اخضلت لحيته وترحم على النعمان وكان رضي الله عنه رقيق القلب محبا للمسلمين حريصا على حياة القواد يحزن حزنا شديداً اذا أصيب أحد منهم.

ثم وصل السائب بالاخماس فوضعت في المسجد وامر عمر نفر من أصحابه منهم عبد الرحمن بن عوف بالمبيت فيه ودخل منزله فاتبعه السائب بالسفطين واخبره خبرهما وان الناس رضوا بأن يكونا له فقال له عمر: يامليكة والله ما دروا هذا ولا أنت معهم فالنجاء النجاء عودك على بدئك حتى تأتي حذيفة فيقسمهما على من أفاءهما الله عليه: فأقبل راجعا حتى انتهى الى حذيفة فأقامهما فباعهما فأصاب أربعة آلاف الف (أربعة ملايين)

هذه هي العفة التي قل أن تكون في بشر فضلا عن ملك يكون له من السلطة على الناس ما كان لذلك الخليفة العظيم ولقد صدق والله من قال للهرمزان أن عمر ليس بنبي ولكنه يعمل أعمال الانبياء وحقاً أن هذه الاخلاق اخلاق الانبياء الذين استهانوا بالدنيا ومتاعها والا فاي حرج على عمر رضي الله عنه لوقبل هدية خصه بها المسلمون ورضي الجيش كله برفعها اليه وان كانت من فيئهم ومما غنموه بسيوفهم لو لم يكن متخلقا بأخلاق النبوة المحمدية مخلصاً لله في السر والعلانية ليس له رغبة في غير الكفاف من العيش وسعادة المسلمين وغناهم وراحتهم فرضي الله عن نفسه الطاهرة ما أشرفها واسماها ومن للامة بعمر ثان

ترد اخراها الى أولاها ويبذل نفسه في سبيل سعادتها

ثم لما جيء بسبي نهاوند الى المدينة جعل أبو لؤلؤة فيروز غلام المغيرة لا يلقى منهم صغيراً الا مسح رأسه وبكى وقال : أكل عمر كبدي : وكان نهاوندياً فأسرته الروم أيام حربهم مع الفرس واسره المسلمون بعد فنسب الى حيث سبي

ولما تم فتح نهاوند جاء أهل الماهين ماه بهرذان وماه دينار وطلبوا من حذيفة الايمان على أن يؤدوا الجزية فكتب لاهل كل ماه عهداً هذه صورته (عن الطبري)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا ما أعطى حذيفة بن اليمان أهل ماه دينار أعطاهم الايمان على أنفسهم واموالهم وارضيهم لا يغيرون عن ملة ولا يحال بينهم وبين شرائعهم ولهم المنعة[1] ما أدوا الجزية في كل سنة الى من واليهم من المسلمين على كل حالم في ماله ونفسه على قدر طاقته . وما أرشدوا ابن السبيل وأصلحوا الطرق وقروا (أضافوا) جنود المسلمين من مرّ بهم فآوى اليهم يوماً وليلة ونصحوا . فان غشوا وبدلوا فذمتنا منهم بريئة . شهد القعقاع بن عمرو ونعيم بن مقرن وكتب في المحرم سنة ١٩

---

(١) قد مر معنا لفظ المنعة في عهود أهل الذمة عدة مرار في هذا الكتاب ولم نذكر شيئاً عنها ونقول هنا المنعة محركة هي الحماية والامتناع بالعشيرة وكان المسلمون يشترطون على انفسهم للذميّ المنعة اي انه يصير كواحد منهم يمنعونه من كل غاصب ومحارب ومن كل من اراده بسوء ولهذا السبب لم يكلف أهل الذمة بالدخول مع المسلمين في محاربة اعداء وطنهم دفاعاً عن الحوزة لتحمل المسلمين ذلك دونهم من عهد الفتح وهذه هي العلة في ان الدول الاسلامية لا تعمم احكام الجندية ولا تأخذ ن أهل الذمة عسكراً لحراسة البلاد أو للحرب مع اعدائها من أي جنس كانوا وهي نعمة لا يزال يقدرها قدرها كثير من عقلاء المسيحيين في المشرق ويتمنون اصلاح حال الحكومات الاسلامية لتدوم عليهم بدوامها سلطة الاسلام

ومما يستنبط من هذا الكتاب ان العرب لما أمعنوا في بلاد فارس وكثرت مخالطتهم للفرس والروم أخذوا بأصول الحضارة وتمكنوا من سياسة الملك وعرفوا لوازم العمران فجعلوا اصلاح الطرق التي هي عون الامم التجارية والحربية اجبارياً على أهل البلاد كما رأيت في هـذا الكتاب وكما جاء في كتاب عياض بن غنم لأهل الرها من الجزيرة وكان فتحها في سنة ١٨ في السنة التي فتحت بها نهاوند والماه وربما كانوا رأوا الطرق في التشعث والخراب تابعة لسائر العمران في مملكتي الفرس والروم يومئذ لما كانتا عليه من التناهي في الظلم واغفال شؤون العمران فاشترطوا على أهل البلاد اصلاحها وانما قلنا انهم شعروا بهذه الحاجة لما أمعنوا في البلاد وكثرت مخالطتهم لتلك الأمم لأنا لم نر في كتب العهد السابقة على ذلك التاريخ شرطاً كهذا الشرط وهو وجوب اصلاح الطرق وهذا يخبرنا عن بدء انتظام الشؤون العمرانية في الدولة العربية لاسيما اذا أضفنا اليه انصراف همة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه منذ السنة السادسة عشر للهجرة الى تمصير الامصار في العراق وشق الأنهر وإصلاح الجسور كما رأيت وسترى في هذا الكتاب

وكان الذي عقد صلح الماه مع المسلمين أحد أبناء البيوتات من آل قارن واسمه دينار وبه سمي الماه الواحد ماه دينار وكان سبب صلحه ان أحد أبطال المسلمين وهو سماك بن عبيد العبسي أسره عقب فراره من وقعة نهاوند ثم من عليه بالاطلاق فعرف له هذا الجميل وطلب منه ان يقدمه الى الامير ليصالحه على بلده فقدمه الى حذيفة فكتب له حذيفة ذلك الكتاب وجعله على عمله فوفى للمسلمين بالعهد وأحسن الجوار وكان يختلف الى الكوفة كلما كان عمله تابعاً لعامل الكوفة فاختبر أخلاق المسلمين أيام الفتح وعرف أحوالهم ووقف على سيرتهم

ولما كان من أهل الكوفة ما كان من الانشقاق والخروج على العمال ومنابذة الخلفاء، قدم عليهم دينار في خلافة معاوية فقام بالناس في الكوفة فقال

يامعشر أهل الكوفة أنتم أول مامررتم بنا كنتم خيار الناس فعمرتم بذلك زمان عمر وعثمان ثم تغيرتم وفشت فيكم خصال أربع . بخل وخب (أي خداع) وغدر وضيق (الشك والتردد) . ولم يكن فيكم واحدة منهن فرمقتكم فاذا ذلك في مولديكم فعلمت من أين أتيتم فاذا الخب من قبل النبط والبخل من قبل فارس والغدر من قبل خراسان والضيق من قبل الاهواز :

وانما أحببت إيراد هذه الحكاية هنا لما لها من العلاقة بما قام في فكري منذ ولعت بالتاريخ من جهة تغير أخلاق أهل العراق من العرب دون أهل الشام في أيام الخلفاء علي ومعاوية رضي الله عنهما ومن بعدهما وسأبسط الكلام على هذا في محله ان شاء الله

والى هنا نقف بالقلم عن التبسط في تاريخ فتح بلاد العجم اكتفاء بما أجملناه من خبر انسياح الجنود الاسلامية في تلك البلاد والاطراف التي بلغوها في خلافة عمر رضي الله عنه وانما توسعنا في بعض الاخبار دون البعض الآخر التماساً لبعض الشوارد التاريخية التي لها مناسبة بما علقناه وسنعلقه عليها من الشروح والاستنباطات التاريخية والدينية والاجتماعية ولو أوردنا كل أخبار الفتح وعلقنا عليها الشروح وتتبعنا المناسبات لاحتجنا لكتابة أكثر من مجلدين في سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه وفي هذا من المشقة ماربما يبطئ بنا كثيراً في ابراز هذا التاريخ على ان الفائدة التي قصدناها حاصلة ان شاء الله وفي القليل أحياناً مايغني عن الكثير وفيما يأتي من هذا الجزء غنية عما تركناه والله وليّ التوفيق

باب

فتح الجزيرة

الجزيرة هي الجزء الشمالي من الاراضي الواقعة بين الفرات ودجلة وأما الجزء الجنوبي فانه العراق وكلاهما كانا من منازل العرب من بكر وربيعة ومضر وكان رحيل العرب الى هذه البلاد من أزمان متطاولة قيل إنها تمتد الى ما بعد سيل العرم حيث رحلت هذه القبائل ونزلت بهذا القسم من الارض وقاعدة الجزيرة هي الموصل وقد كان فتحها وفتح تكريت في سنة (١٦ هـ) على يدي عبد الله بن المعتم وربعي بن الافكل وكان بعثهما سعد بن أبي وقاص من العراق وقيل بل كان فتح الموصل على يدي عياض بن غنم[1] لما فتح الجزيرة بين سنة ١٨ وسنة عشرين وتحرير الخبر أنا ذكرنا في فتوح الشام كيف أن هرقل ملك الروم هاجم المسلمين في حمص بعد استقرارهم في بلاد الشام وان عمر كتب الى سعد بن أبي وقاص بأن يمد أبا عبيدة في حمص بالقعقاع بن عمرو ويشغل جيوش الجزيرة عن امداد هرقل بجيوش من المسلمين عليها عياض بن غنم فسار القعقاع حتى أدرك أبا عبيدة في حمص وقد ظفر بالروم وتفرقوا وحاصر عياض بعد مدن الجزيرة

(١) قد مر معنا كثيراً اسم هذا الفاتح الكبير في هذا الكتاب لهذا رأينا هنا بمناسبة فتحه للجزيرة ان نذكر شيئاً من نسبه وسيرته فهو عياض بن غنم بن زهير ابن أبي شداد بن ربيعة بن هلال بن وهيب بن ضبة بن الحارث بن فهر القرشي ابو سعد وقيل ابو سعيد وابو عبيدة بن الجراح بن عمه وقد قاتل معه بالشام ومع خالد بالعراق كما رأيت في هذا الكتاب وصار اليه فتح الجزيرة وولاية أبي عبيدة بالشام وتوفي سنة عشرين وكان صالحاً فاضلاً شجاعاً سمحاً يسمونه لكرمه زاد الركب لانه كان يطعم الناس زاده فاذا نفد نحر لهم جمله وكان اسلامه قبل الحديبية رضي الله عنه وارضاه

ثم لما بلغه شخوص عمر (رض) للجابية شخص للسلام عليه هو وخالد وأبو عبيدة ومعظم الامراء فطلب أبو عبيدة من عمر رضي الله عنهما أن يعينه بعياض ففعل وأبقاه عنده ولما مات أبو عبيدة في طاعون عمواس سنة (١٨) استخلف عياضاً فورد عليه كتاب عمر بتوليته عمل أبي عبيدة وهو حمص وقنسرين وأضاف اليه الجزيرة وأمره بالمسير الى فتحها فسار ومعه من القواد ميسرة بن مسروق العبسي وسعيد بن عامر بن حذيم الجمحيّ وصفوان بن المعطل السلمي ويقال وخالد بن الوليد والاصح ان خالداً لم يسر تحت لواء أحد بعد أبي عبيدة

وقد تضاربت الروايات في زمن مسير عياض الى فتح الجزيرة وفي هل سار من قبل سعد وهو في العراق أم من قبل أبي عبيدة والصحيح الذي يستنتج من مجموع تلك الروايات هو ما ذكرناه

وكان فتح الجزيرة كله صلحاً ومنه ما كان بعد قتال قليل وأهم البلاد التي فتحت هي الرقة والرها (اورفا) ونصيبين وحرّان وسميساط وسنجار وقرقسيا (وكان فتح هذه على يدي حبيب بن مسلمة الفهري) وسروج وجسر منبج والموصل وآمد وغيرها وهكذا حتى بلغ عياض بادية الشام غرباً وأرمينيا وكردستان شرقاً ثم دخل الدرب [1] فبلغ بدليس (بتليس الآن) من كردستان وجازها الى خلاط وانتهى الى العين الحامضة ثم عاد فضمن صاحب بدليس خراج خلاط ثم عاد الى الرقة وانصرف منها الى حمص ومات سنة ٢٠ فولى عمر مكانه سعيد بن عامر بن حذيم فلم يلبث إلا قليلا حتى مات فولى عمر عمير بن سعد بن شهيد الانصاري أحد الأوس وقيل هو

(١) قال في القاموس الدرب باب السكة الواسع والباب الاكبر وكل مدخل الى الروم اهـ وهو المقصود بقولهم أدرب اي دخل الدرب

عمير بن سعد بن عبيدة وقتل أبوه سعد يوم القادسية

ففتح عمير عين الوردة ويقال لها رأس العين وهي مجتمع العيون التي يجري منها نهر الخابور ويصب في الفرات ثم سلك الخابور حتى أتى قرقيسيا وقد نقض أهلها فافتتحها وصالح أهلها على صلحهم الاول ثم أتى حصون الفرات حصناً حصناً ولم يلق فيها كيداً حتى بلغ الناوسة وآلوسة وهيت فوجد سعد بن عمرو بن حرام الانصاري وقد بعثه أمير الكوفة ليغزو ما فوق الانبار فلما اجتمع عمير وسعد صالح عمير أهل هيت وانصرف الى الرقة

وكان عياض بن غنم رضي الله عنه أعطى كتباً في الصلح لأهل الجزيرة وقد تقدم معنا في أواخر باب فتح بلاد العجم بمناسبة الكلام على العمران في عصر عمر ان من تلك الكتب ما اشترط فيه على أهل الذمة اصلاح الطرق والجسور وها نحن ننقل هنا كتاباً منها كتبه لاهل الرها وهو بنصه عن فتوح البلدان

(بسم الله الرحمن الرحيم) هذا كتاب من عياض بن غنم لاسقف الرها انكم ان فتحتم لي باب المدينة على ان تؤدوا اليّ عن كل رجل ديناراً ومدي قمح فأنتم آمنون على أنفسكم وأموالكم ومن تبعكم وعليكم ارشاد الضال وإصلاح الجسور والطرق ونصيحة المسلمين شهد الله وكفى بالله شهيداً :

باب

فتح مصر وبرقة

كان عمرو بن العاص شديد التطلع الى مصر راغباً في فتحها لانه جاءها مرة في الجاهلية ورأى من ثروة أهلها وسهولة أمرها ما أطمعه في فتحها فلما قدم عمر

ابن الخطاب الجابية في سنة (١٨) اختلى به وفاتحه بما في نفسه وهون عليه أمر مصر ورغب اليه ان يوليه فتحها فتردد عمر رضي الله عنه في الامر لأن جيوشه متفرقة في الشام والجزيرة وفارس تكافح دولة الفرس والروم فما زال به عمرو حتى استرضاه وأذن له بقصدها وجهز معه أربعة آلاف مقاتل كلهم من عك وقال له سر وأنا مستخير الله في مسيرك وسيأتيك كتابي ان شاء الله تعالى فان أدركك كتابي وأمرتك فيه بالانصراف عن مصر قبل أن تدخلها أو شيئاً من أرضها فانصرف وان أنت دخلتها قبل ان يأتيك كتابي فامض لوجهك واستعن بالله واستنصره

فسار عمرو بن العاص ووافاه كتاب عمر يأمره فيه بالانصراف فلم يفتحه حتى دخل أرض مصر وسيأتي الكلام على هذا في سيرة عمرو ثم تقدم عمرو حتى بلغ الفرماء فقاتله بها الروم نحواً من شهر فهزمهم وتقدم الى القواصر ولا يدافع الا دفاعاً خفيفاً ثم الى بلبيس ثم أتى أم دنين ثم مصر وأبطأ عليه الفتح فاستمد عمر فأمده بأربعة آلاف ثم استمده مرة أخرى فأمده بأربعة آلاف آخرين وكتب اليه اني قد أمددتك بأربعة آلاف رجل منهم رجال مقام الالف . الزبير بن العوام . والمقداد بن الاسود . وعبادة بن الصامت . ومسلمة بن مخلد . واعلم ان معك اثنى عشر ألفاً ولا تغلب اثنا عشر ألفاً من قلة :

كان القبط في مصر يكرهون سيادة الروم ويودون التخلص منها ولو بسيادة المسلمين فلما بلغ عمرو مصر وظفر بجنود الروم تواطأ على صلحه المقوقس مع قومه وصالحوه على شيء معلوم وبعد ان تم الصلح شخص عمرو بجنده الى الاسكندرية وكان فيها جمع كثيف من الروم فحاصرها مدة طويلة ثم أخذها عنوة وكتب بالفتح الى عمر واستقرت قدمه في البلاد فأخذ في تنظيم شؤونها وترتيب خراجها وتقرير أسباب الراحة والامان بين أهلها وما زال واليا عليها حتى عزله

عثمان بن عفان رضي الله عنه وقد رأينا أن نرجىء تفصيل الكلام على فتح مصر وجغرافيتها وحالتها الاجتماعية على عهد ذلك الفاتح العظيم عمرو بن العاص الى سيرته التي نوفيها حقها من البيان ان شاء الله

لما استتب لعمرو الامر بمصر سار الى برقة وتسمى قديماً انطابلس وهي واقعة بين مصر وطرابلس الغرب ومن فرضها الشهيرة بنغازي فصالحه أهلها على الجزية وسار الى طرابلس الغرب ففتحها عنوة وكتب الى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب : أما بعد انا قد بلغنا طرابلس وبينها وبين أفريقيا[1] تسعة أيام فان رأى أمير المؤمنين ان يأذن لنا في غزوها فعل : فنهاه عمر فولى على برقة عقبة ابن نافع الفهريّ وعاد وربما ذكرنا ذلك في سيرته ببيان أطول ان شاء الله :

انتهى ما أردنا ايراده من أخبار الفتح في خلافة عمر (رض)

باب

﴿ تعبية الجيوش وبراعة القواد ﴾

(وديوان الجيش)

وعدنا فيما سبق ان نفرد فصلاً خاصاً في هذا الكتاب نبين فيه كيفية تعبية الجيوش على عهد عمر بن الخطاب وبراعة قواده وتفننهم في أساليب الحرب ووفاء بالوعد أفردنا هذا الفصل لهذه الغاية ولبيان أصول التجند وديوان الجيش على عهده فنقول

---

(١) يريد بافريقيا تونس وهكذا كان يسميها الرومان ثم سماها العرب بهذا الاسم أيضاً والظاهر ان الجغرافيين سموا القارة كلها بهذا الاسم بعدُ من قبيل تسمية الكل باسم الجزء

اعلم ان العرب أمة حربية قل ان يماثلها في ذلك العصر شعب من الشعوب في الشجاعة والاقدام والتعود على أساليب القتال لدأب أفرادها منذ نعومة الاظفار على الفروسية وتعلم فنون الحرب. وائتلافهم للقتال وحبهم للغارة التي تقتضيها حالتهم الاجتماعية وعوائدهم البدوية الا انه كانت تنقصهم الجامعة والعدة أي آلات الحرب فكانوا مع كونهم أمة واحدة من جنس واحد قبائل متفرقة الاهواء والمنازع يقاتل بعضها بعضاً ويثب بعضها على بعض ولم يكن عندهم من آلات الحرب والقتال وأنواع السلاح الا الرمح والسيف والدرع والسهم ولم يكن لعامتهم حظ بالجيد من أنواع هذا السلاح لفقرهم وربما كان أجودهم سلاحاً أهل اليمن لخصب أرضهم وتقدم بلادهم في الحضارة وعراقتهم في الملك من عصور التبابعة ولذلك كان الفرس في واقعة القادسية يشبهون سهام العرب بالمغازل لدقتها وسذاجة صنعها ولما جاء الاسلام جمع هذه الامة على كلمته وضم قبائلها الى رايته فلم يلبثوا ان دبت فيهم روح الاجتماع وشعروا بالحاجة الى الطاعة والانقياد والتكاتف والاتحاد وكان من ذلك ان خضدوا شوكة الدولتين فارس والروم لما دفعهم أبو بكر وعمر الى قتال الامم وفتح الممالك وأظهروا في قتال جنود الدولتين من التفنن في أساليب الحرب والتعود على الطعن والضرب مارأيت فيما تقدم من هذا الكتاب مما جعل النصر حليفهم والقوة رائدهم في كل مكان

فمن ذلك انهم كانوا لا يقتحمون جنداً ولا يمعنون في داخل البلاد مالم يجعلوا وراءهم رداء أي مدداً يحمي ظهورهم ويؤمن طريق الرجعة ولا يمكن العدو من ان يقطع على موادهم كما رأيت ذلك في وقعة اليرموك حيث كان ردءهم يزيد بن أبي سفيان وعند مسير الجيش الى اصطخر لانقاذ العلاء حيث قامت المسالح من البصرة الى الاهواز يمد بعضها بعضاً ويواصل بالمدد ذلك الجيش كي لا يقطع عليه

الفرس طريق الرجوع ويهلك مع جيش العلاء

ومنها انهم كانوا لايحاصرون مدينة مالم يقطعوا عنها طرق المواصلة مع جيش العدو كما رأيت في فتوح دمشق حيث أرسل أبو عبيدة عشرة قواد ومعهم الجيوش فنزلوا بين فحل ودمشق وأرسل ذا الكلاع بجيش فكان بين حمص ودمشق وبعث علقمة بن حكيم ومسروقاً فكانا بين فلسطين ودمشق ثم زحف هو وخالد ويزيد بن أبي سفيان على دمشق وحاصرها حتى فتحها ثم سار منها الى فحل

ومنها انهم كانوا يبدأون العدو بالقتال في أطراف بلاده التي تلي البادية كي اذا أصابهم هزيمة تكون جزيرة العرب من ورائهم فلا يسع جيش العدو تتبع أثرهم واقتحام صحاري بلادهم كما رأيت ذلك في عملهم باليرموك والقادسية وكانوا يجتهدون ان يجعلوا هذه الوقائع الأولى كبيرة عظيمة لتكون مقدمة للنصر وباعثاً على توهين شوكة العدو والقاء الرعب في قلوب جيشه لهذا كانت وقعة القادسية واليرموك من أهم مادون في تاريخ الحروب الاسلامية وكل ما كان بعدهما من النصر انما تأتي عن كسر حدة الجيوش الرومية والفارسية وخضد شوكتهم واضعاف قوتهم في هاتين الواقعتين

ومنها براعتهم في اقامة خطوط الدفاع على طول البلاد اذا أراد مهاجمتها العدو كما صنع المثنى بن حارثة الشيباني في العراق حيث رتب المسالح من أوله الى آخره بحيث ينظر بعضها الى بعض ويمد بعضها بعضاً : ومنها ترقب الفرص واغتنامها كما صنع خالد في فتح دمشق واستعمال التأني والحيلة في الحرب توصلا للفتح كما صنع ذلك عمرو بن العاص بدخوله بنفسه على جيش الارطبون بحجة انه رسول من قبل المسلمين ليقف من حال جيشه على مالم

يقف عليه بواسطة الرسل وكما صنع عبادة بن الصامت في فتح اللاذقية باظهار القفول عنها وحفره الاسراب لاختفاء جنده فيها

ومنها اليقظة الدائمة لحركات العدو وسكناته والاستعداد لصد غاراته كما كان ذلك لما حاول هرقل مهاجمة جيش المسلمين من جهة الجزيرة ووقف المسلمون على خبره قبل ان يبدأ بشيء من ذلك فأدربت عليه الجنود من جهتين من جهة الشام بقيادة خالد بن الوليد ومن جهة العراق بقيادة ذكر في محله من القواد حتى أوقفوه عن حركته ولم يمكنوه من المهاجمة ولا الوصول الى الجزيرة

ومنها توهينهم قوة العدو باشتغال جيوشه بالحرب عن ان يمد بعضها بعضاً عند الحاجة كما كان ذلك لما هاجم هرقل حمص واستنجد بأهل الجزيرة فأسرعت القواد من العراق وشغلت أهل الجزيرة عن نصرة هرقل ريثما تمت هزيمته وغاب عليه جيش أبي عبيدة بن الجراح

ومنها براعتهم في سرعة اجتماع جيوشهم بعضها الى بعض عند وجود الخطر الكبير ومظنة الخوف من غلبة العدو على جيوشهم اذا كانت متفرقة كما كان ذلك في اجتماع الامراء على اليرموك بعد ان تفرقوا في أنحاء البلاد وإنما يتيسر لهم هذا الاجتماع بمحافظتهم على خط الرجوع وعدم تمكن العدو من قطع طرق المواصلات بين تلك الجيوش و بين الردء الذي هو جيش يزيد بن أبي سفيان هذا وأشباهه من مكائد الحرب التي مر ذكرها في غضون أخبار الفتح كلها تدل على براعة القواد المسلمين يومئذ وتفوقهم في أساليب الحرب واصول القيادة على قواد جيوش الروم والفرس لاسيما الخليفة عمر بن الخطاب الذي كان مع بعده عن مواقف القتال يصدر أوامره الى القواد في الاعمال الحربية وكيفية الهجوم

والدفاع على وجه يدل على أنه من أعاظم قواد الجيوش في العالم هـذا فضلا عما كان يوصي بها القواد من الرفق وحسن المعاملة مع المغلوبين وعدم التسلط بالايذاء عليهـم وبدوام اليقظة والسهر والرفق بجيوش المسلمين وعدم القائهم في المهالك والتريث في الحرب والتبصر في أمور القتال الى غير ذلك مما مر بيانه في هذا الـكتاب ولا حاجة لاعادته هنا

واما تعبية العرب للجيوش في إبان الفتح الذي مر ذكره في هذا الـكتاب فقد بلغ الغاية في الترتيب وحسن النظام والانتظام ونحن نذكر لك هنا ما لم يسبق معنا ذكره في هذا الـكتاب من تعبيتهم للجيوش في وقائعهم الشهيرة وهي وقعة اليرموك و وقعة القادسية ومنهما تظهر لك مرتبتهم في فنون الحرب ومكانهم من البصيرة في تعبية الجيوش التي تشبهها من كل الوجوه تعبية الجيوش في هذا العصر كالطلائع والمجردات (الـكشاف) والميمنة والميسرة (الجناحين) والقلب والساقة والرد‌ء (المدد) والرجل (المشاة) والركبان (الفرسان) وكان الغالب على العرب قبل الاسلام حب المبارزة والمهاجة عند الالتقاء مع العدو فصاروا في الاسلام يفضلون الزحف صفوفاً (كراديس) لقوله تعالى « ان الله يحب الذين يقاتلوا في سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » وكان الامراء والقواد يتفاوتون في المراتب فنهم الامير العام (المشير الآن) ويليه خليفته (الفريق الآن) ويليهما امراء التعبية كامير الميمنة والميسرة والقلب وغيره (وهم الالوية الآن) ويليهم خلفاؤهم (الميرالآيات الآن) ويليهم أمراء الـكراديس (الصفوف) ويليهم العرفاء وامراء الاعشار (الجاويش) والنقباء ولعلهم رؤساء المائة وفضلا عن هذا فقد كان يكون مع الجيش الرائد الذي يرتاد المواضع الموافقة لنزول الجيش والقاضي وأمير الاقباض أي الذي ينتهي اليه حفظ الغنائم وقسمة الفيء والترجمان

والكاتب والاطباء لمداواة الجرحى كما ترى ذلك كله مبسوطاً فيما يلي من ذكر تعبية الجيوش في اليرموك والقادسية

روى الطبري في تاريخه أن خالد بن الوليد عبى جيش المسلمين يوم اليرموك تعبية لم تعب العرب مثلها لجعل القلب كراديس واقام فيه أبا عبيدة وجعل الميمنة كراديس وعليها عمرو بن العاص وفيها شرحبيل بن حسنة وجعل الميسرة كراديس وعليها يزيد بن أبي سفيان وجعل على كل كردوس من هذه الكراديس قائداً لجعل القعقاع بن عمرو على كردوس من كراديس أهل العراق ومذعور بن عدي على كردوس وجعل غير هذين بضعة وثلاثين قائداً كل قائد على كردوس منهم عياض بن غنم القرشي وحبيب بن مسلمة القرشي وسهيل ابن عمرو القرشي وعكرمة بن أبي جهل القرشي في عدة مثلهم من قريش واما من كان من غير قريش فنهم ذو الكلاع الحميري والسمط بن الاسود الكندي وضرار بن الازور الاسدي وجارية بن عبد الله الاشجعي واضرابهم من صناديد العرب الذين نضرب صفحاً عن ذكر أسمائهم حباً بالاختصار وكان القاضي أبو الدرداء والقاص[1] أبو سفيان بن حرب وكان على الطلائع قباث بن أشيم الكناني وكان على الاقباض عبد الله بن مسعود وكان القارئ المقداد بن عمرو كان من السنة أن تقرأ سورة الانفال عند القتال وكان أبو سفيان يسير فيقف على الكراديس ويحرض المسلمين على القتال

هكذا كانت تعبية الجيش على اليرموك واما على القادسية فربما كانت أرقى من ذلك وأحسن نظاماً وترتيباً فقد ذكر الطبري أن سعد بن أبي وقاص قدر

(١) في القاموس القاص من يأتي بالقصة ولعله هنا الذي يحمل اوامر الامير الى الصفوف ويأتيه باخبارهم

الناس وعباهم بشراف كما أمره عمر (رض) فأمر أمراء الاجناد وعرف العرفاء على كل عشرة رجالا كما كانت العرافات أزمان النبي صلى الله عليه وسلم: قال الطبري وكذلك كانت الى فرض العطاء: وامر على الرايات رجالا من أهل السابقة وعشر الناس وأمر على الاعشار رجالا من الناس ولهم وسائل من الاسلام وولى الحرب رجالا فولى على مقدماتها ومجنباتها وساقتها ومجرداتها وطلائعها ورجلها وركبانها فلم يفصل (أي من شراف) الا بتعبية فاما أمراء التعبية فاستعمل زهرة ابن عبد الله بن قتادة بن الحوية من ملوك هجر فقدمه ففصل بالمقدمات من شراف حتى انتهى الى العذيب: واستعمل على الميمنة عبد الله بن المعتم: واستعمل على الميسرة شرحبيل بن السمط الكندي وكان غلاما شابا وكان قاتل أهل الردة فعرف ذلك له (مر خبره في ذلك في سيرة أبي بكر) وجعل خليفته خالد بن عرفطة وجعل عاصم بن عامر التميمي ثم العمري على الساقة وسواد بن مالك التميمي على الطلائع وسلمان بن ربيعة الباهلي على المجردة وعلى الرجل حمال بن مالك الاسدي وعلى الركبان عبد الله بن ذي السهمين الخثعمي فكان أمراء التبيعة يلون الامير (أي بعده في المرتبة) والذين يلون أمراء التعبية امراء الاعشار والذين يلون أمراء الاعشار أصحاب الرايات والذين يلون أصحاب الرايات والقواد رؤس القبائل: قال الطبري وبعث عمر الاطبة[1] وجعل على قضاء الناس عبد الرحمن ابن ربيعة الباهلي ذا النور وجعل اليه الاقباض وقسمة الفيء وجعل داعيتهم[2] ورائدهم سلمان الفارسي والترجمان هلال الهجري والكاتب زياد بن أبي سفيان

(١) جمع طبيب وهو جمع قلة وذلك لان الاطباء يومئذ قليلون فكان يرسل مع الجيش ولو عددا قليلا لمداواة جرحى الحرب (٢) داعيتهم اي الذي يدعو الى دينهم ويبلغ العدو مطالبهم ورائدهم الذي يرتاد لهم مواضع النزول

وأنت ترى من هذا أن تعبية الجيش على عهد عمر بن الخطاب كانت وافية بالغرض من كل الوجوه وما نخال أن تعبية جيوش الدول المتمدنة يومئذ كالفرس والروم كانت أرقى من تعبية جيوش المسلمين وانما كان الفرق بين الجيشين بالعدد الحربية كما قدمنا ومع ذلك فان العرب لما خالطوا تلك الجيوش ورأوا ما عندها من أدوات الحرب وعددها كالأوهاق[1] والمجانيق والسلالم وغيرها من أدوات الحصار وما شابهها بادروا الى استعمالها في حروبهم معهم كما رأيت ذلك في الكلام على حصار دمشق وبالطبع كما أنهم استعملوا أمثال هذه الآلات فقد استعملوا أيضا أنواع السلاح الجيد الذي كانوا يغنمونه من هذه الجيوش ومن ثم تكافأ المسلمون بالقوى الحربية يومئذ مع أعدائهم وانما كانت تفضلهم جيوش الفرس والروم بكثرة العدد ويفضلهم العرب بالشجاعة العربية التي فاقت حد الوصف وألقت الرعب يومئذ في قلوب الأمم كما رأيت ذلك في أخبار الفتح يضاف اليه علم أمير المؤمنين عمر (رض) ويقظته وسهره الدائم على أمور المسلمين وتعزيزه جانب الملك بسد الثغور وإعداد المرابطة واقامة المسالح في الاطراف التي يأتي من قبلها الخطر وأمره للعمال بادرار أرزاق الجند ومواصلته بالاخبار وشحن الاماكن المخوفة بالجنود واقامة الحراث على المناظير التي توقد فيها النيران لتخبر عن الجهة التي يقبل منها العدو . وبالجملة صرفه العناية في كل ما يعود بالقوة والعز على المسلمين ويرفع شأن الخلافة كما رأيت وترى ذلك في هذا الكتاب. ويضاف اليه براعة القواد المسلمين وتفوقهم في أساليب الحرب واعتقاد المسلمين بالنعيم الاخروي الذي كان يحبب اليهم الموت في ميادين الحرب ونيل الشهادة بين صفوف الاعداء : وصبرهم على المكاره وتحملهم لشظف العيش

(١) الحبل يرمي في أنشوطة فتؤخذ به الدابة والانسان كما في القاموس

ورضاهم بالكفاف من القوت واستخفافهم بجنود الاعداء قلوا أو كثروا واعتقادهم بالحصول على النصر الذي وعدهم الله به اذا نصروا الحق وعدلوا بين الناس

كل هذه من الاسباب التي رجحت جانب المسلمين على جانب الاعداء ومهدت طرق الغلبة لجيوش العرب والذي وفر هذه الاسباب انما هو اجتماع العرب بعد التفرق واتحادهم على كلمة الاسلام بعد التخاذل والانقسام كما عرفت ذلك مما قاله عمر للهرمزان وهو : انما غلبتمونا في الجاهلية باجتماعكم وتفرقنا : وحسبك في مهاجمة الامة العربية لدولتي الفرس والروم ، وإقدامهم على التغلغل في أحشاء المملكتين القديمتين في آن واحد ومهابتهم التي خامرت النفوس دليلا يؤيد قول عمر بن الخطاب (رض) وشاهداً يشهد بفضل الاسلام الذي جمع على كلمته تلك القبائل المتفرقة التي ما كانت لتحلم بالسيادة على الشعوب لولا ذلك الاجتماع : هـذا وأما اصول التجنيد في عهد عمر (رض) واعطيات الجند وديوان الجيش فالكلام عليه طويل وانما نجتزىء عنه بما يأتي

الجهاد فرض على المسلمين يحتم عليهم حماية الدعوة والذب عن حوزة الاسلام الا انه من فروض الكفاية التي اذا قام بها البعض سقط عن الكل وعلى هذه القاعدة بني التجنيد في الاسلام فكان أبو بكر وعمر يستنفران الناس للجهاد فمن أجاب كان جنديا له حظ في الفيء والغنائم واستمر ذلك في ولده الى ما شاء الله ولا يؤخذ من هذا ان الجندية على هذا الوجه اختيارية بل هي باعتبار كونها فرضاً اجبارية وللخليفة اذا تخلف المسلمون عن هذا الفرض اجبارهم عليه عند الحاجة وكان أبو بكر رضي الله عنه يسوّي بين الناس في قسمة الفيء ويضرب في المغانم للفارس منهم ثلاثة أسهم سهمان لفرسه وسهم له وللراجل سهم ولا يفضل الخيل بعضها على بعض وبقي الحال على ذلك صدراً من خلافة عمر (رض) أي الى سنة

(١٥) حيث دون عمر الدواوين وفرض العطاء كما سترى في باب آثاره في الخلافة ولم يسوّ في قسمة الفيء بين الجند بل جعلهم على مراتب وطبقات باعتبار السابقة فقد روى ابن جرير الطبري ان عمر لما فرض العطاء فرض لاهل بدر خمسة آلاف خمسة آلاف ثم فرض لمن بعد الحديبية الى ان أقلع أبو بكر عن أهل الردة ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف في ذلك من شهد الفتح وقاتل عن أبي بكر ومن ولى الايام قبل القادسية (أي الحروب التي كانت قبلها) كل هؤلاء ثلاثة آلاف ثلاثة آلاف ثم فرض لاهل القادسية وأهل الشأم ألفين ألفين وفرض لأهل البلاء (أي الذين عرف بلاؤهم في الحرب) البارع منهم ألفين وخمسمائة ألفين وخمسمائة وفرض لمن بعد اليرموك والقادسية ألفاً ألفاً وكانت هذه الطبقات هي الاصل في ترتيب العطاء ومن جاء بعدهم من الطبقات ممن لم يشهد تلك المشاهد الكبيرة كان يلحق كل قوم منهم بأهل طبقة من تلك الطبقات يسمون الروادف والرديف لغة التبع وقد فرض لهؤلاء الروادف على درجاتهم للمثنى منهم خمسمائة خمسمائة ثم للروادف الثليث بعدهم ثلثمائة ثلثمائة وسوى كل طبقة في العطاء قويهم وضعيفهم عربهم وعجمهم وفرض للروادف الربيع مائتين وخمسين مائتين وخمسين وفرض للنساء مثل ذلك أيضاً فجعل لنساء الجند من الخمسمائة الى المائتين وجعل الصبيان مائة وعلى هذا الترتيب ضبطت أعطيات الجند في ديوان الجيش وكان من أراد الالتحاق بالجيش بعد تدوين عمر (رض) للديوان يقيد في ديوانه على هذا الترتيب ثم كان على عهد عثمان رضي الله عنه ومن بعده يزاد وينقص العطاء على مقتضى الظروف والاحوال كما سترى بعد . وأما المغانم فقد ضرب أحد عماله بالشام للفارس بسهمين وللراجل بسهم فأجازه

ويظهر مما تقدم ان عمر (رض) كان يسوي بين الجنود الاعاجم من الفرس والروم الذين تأخر اسلامهم وبين العرب كل منهم في طبقته باعتبار السابقة أيضاً بل ربما ميز بعضهم أحياناً في العطاء تأليفاً لقلوبهم كما صنع ذلك مع سياه الفارسي وقومه لما أسلم وأسلم واهمعه كما رأيت ذلك في خبر فتح تستر والسوس

وكانت أصول اعطاء العطاء لأهله على ما في رواية ابن جرير الطبري هكذا يدفع العطاء الى أمراء الاسباع وأصحاب الرايات والرايات على أيادي[1] العرب فيدفعونه الى العرفاء والنقباء والامناء فيدفعونه الى أهله في دورهم: ولنا كلام آخر على تدوين الديوان والفيء وحكمه سيأتي في باب آثاره في الخلافة ان شاء الله

باب

علائق عمر مع الملوك

كانت علائق عمر قبيل وفاته مع ملك الفرس حربية كما رأيت وتوفى رضي الله عنه وجيوشه تطارد يزدجر في بلاده وتدوخ ملكه وأما علائقه مع ملك الروم فقد كانت سلمية واستقر بين دولتيهما الصلح منذ أتم عمر (رض) فتح الشام والجزيرة وجرت بينه وبين ملك الروم المكاتبات الودادية وذكر مؤرخو العرب ان هذه المكاتبات كانت مع هرقل ولكن لم يذكروا هل كانت مع هرقل الاول الذي انتزع منه عمر بلاد الشام أم مع ابنه هرقل الثاني المعروف بهرقل قسطنطين. لان هرقل الاول توفي سنة (٦٤١م) الموافقة سنة (٢١ﻫ) وتولى الملك ابنه المذكور في هذه السنة أي قبل وفاة عمر (رض) بسنتين وسواء كان حصل التواد والمكاتبة مع هرقل الاول أو الثاني فقد بلغ من توثق عرى العلائق الحبية يومئذ بين الفريقين ان كان تتردد بينهما الرسل بالمكاتبة

---

(١) كذا في الاصل

وان أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه وزوج عمر بن الخطاب أرسلت مرة مع رسول جاء المدينة من قبل ملك الروم هدية من الطاف المدينة الى أمبراطورة الروم امرأة هرقل وأرسلت لها هذه في نظيرها عقداً نفيساً من الجواهر فأخذه منها عمر ورده الى بيت المال هذا على مافي رواية نقلها في كنز العمال وأما الطبري فذكر ان أم كلثوم أرسلت تلك الهدية مع بريد عمر ونص رواية الطبري بتصرف واختصار

قالوا وترك ملك الروم الغزو وكاتب عمر وقاربه وسأله عن كلمة تجتمع فيها العلم كله. فكتب اليه أحب للناس ماتحب لنفسك واكره لهم ما تكره لها تجتمع لك الحكمة كلها واعتبر الناس بما يليك تجتمع لك المعرفة كلها. الى ان قال بعد ان أورد مكاتبات أخرى جرت بينهما. وبعثت أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب الى ملكة الروم بطيب ومشارب وأحفاش من أحفاش النساء ودسته الى البريد فأبلغه لها وأخذ منه وجاءت امرأة هرقل وجمعت نساءها وقالت هذه هدية امرأة ملك العرب وبنت نبيهم وكاتبتها وكافأتها وأهدت لها وفيما أهدت لها عقد فاخر فلما انتهى به البريد الى عمر أمره بامساكه ودعا الصلاة جامعة فاجتمعوا فصلى بهم ركعتين وقال انه لاخير في أمر أبرم من غير شورى ثم أخبرهم الخبر وسألهم عن أمر العقد فكلهم أشار بدفعه لام كلثوم. فقال ولكن الرسول رسول المسلمين والبريد بريدهم فأمر برده الى بيت المال ورد على أم كلثوم منه بقدر نفقتها

وقد ذكر الطبري هذه الرواية في أخبار سنة (٢٨) في غضون الكلام على غزو المسلمين في البحر وان عمر ترك غزو البحر فترك ملك الروم غزوه وكاتبه وسالمه وهو دليل على رهبة ذلك الخليفة العظيم التي دبت في قلوب الملوك فرأى هرقل ان مسالمته خير من مناوأته ففعل وكان من الغانمين

باب

أهم الاحداث في عصره

أهم الاحداث في خلافة عمر رضي الله عنه طاعون عمواس وعام الرمادة فاما طاعون عمواس فاختلف في سنة حدوثه هل كانت في سنة ١٧ أو سنة ١٨ وروى الطبري انه ظهر في العراق ومصر واستقر بالشام وفتك بالناس فتكاذر يعاومات به في الشام عدة من أعلام المسلمين منهم أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان ولما اشتدت على الناس وطأته خطب الناس عمرو بن العاص فقال : أيها الناس ان هـذا الوجع اذا وقع فانما يشتعل اشتعال النار فتجبلوا منه في الجبال ثم خرج وخرج الناس فتفرقوا في الجبال ورفعه الله عنهم

وروى الطبري عن ابن عباس أن عمر خرج في تلك السنة غازياً وخرج معه المهاجرون والانصار فلما بلغ سرغ وافاه أمراء الاجناد في الشام وأخبروه خبر الطاعون وأشاروا عليه بالرجوع فجمع الناس واستشارهم في الرجوع فمنهم من أشار عليه به ومنهم من أشار عليه بالقدوم وكان ممن أشار عليه بالرجوع مهاجرة الفتح فأصبح وقد عزم على الرجوع فقال له أبو عبيدة بن الجراح أفراراً من قدر الله : قال نعم فراراً من قدر الله الى قدر الله أرأيت لو أن رجلا هبط واديا له عدوتان (صفتان) أحدهما خصبة والاخرى جدبة أليس يرعى من رعى الجدبة بقدر الله ويرعى من رعى الخصبة بقدر الله : ثم قال لو غيرك يقول هذا يا أبا عبيدة ثم خلا به بناحية دون الناس فبينا الناس على ذلك اذ أتى عبد الرحمن بن عوف وكان مختلفاً عن الناس لم يشهدهم بالامس فقال ما شأن الناس فأخبر الخبر فقال عندي من هذا علم : فقال عمر فأنت عندنا الامين المصدق فماذا عندك : قال

سمعت رسول الله يقول (اذا سمعتم بهذا الوباء ببلد فلا تقدموا عليه واذا وقع وأنتم به فلا تخرجوا فراراً منه) فقال عمر فلله الحمد انصرفوا أيها الناس فانصرف بهم [1]

ولما زال الطاعون وبلغ عمر ما أصاب الناس من كثرة الموت حتى كادت تضيع المواريث قدم الشام ونزل الجابية وقسم المواريث وسد الثغور واستعمل بدل من ماتوا من العمال كما سترى ذلك في الباب التالي وكانت هذه المرة هي المرأة الرابعة التي قدم بها الشام ولم يأتها بعد ذلك

واعلم أن طاعون عمواس كان عظيم الخطر على المسلمين وأفنى منهم أكثر من عشرين ألفاً وهو عدد يوازي نصفهم بالشام وربما تخوف من ذلك المسلمون يومئذ واستشعروا الخطر من قبل الروم وفي الحقيقة لو تنبه الروم لهذا النقص الذي أصاب جيش المسلمين في سورية يومئذ وهاجموا البلاد لصعب على الجيوش المرابطة دفعهم ولكن ربما كان اليأس تمكن من نفس هرقل فأقعده عن مهاجمة المسلمين خصوصاً اذ كان أهل البلاد راضين بسلطة المسلمين مرتاحي القلوب الى سلطانهم العادل وسيرتهم الطيبة الحسنة وبدون الاستعانة بهم لا يتيسر لهرقل مهاجمة البلاد لا سيما اذا أضفنا الى هذا ملل القوم من الحرب واخلادهم الى الراحة من عناء المقاومة لقوم أصبح النصر حليفهم في كل مكان ودب الرعب من سطوتهم في قلب كل انسان

وأما عام الرماد فسمي بذلك لريح كانت تسفي تراباً كالرماد وأصاب الناس بالحجاز مجاعة شديدة وكان قحط عظيم أهلك الضرع والزرع وعانى عمر (رض) بسبب ذلك النصب وآلى ان لا يأكل سمناً ولا عسلاً حتى يحيي الناس ويكون واياهم

---

(١) اتخذ المتأخرون هذا الحديث ورجوع عمر الى الحجاز حجة على مشروعية الحجر الصحي المعروف بالكورنتينا

سواء بالخصب والجدب وجعل يأكل الزيت حتى قرقر بطنه فقدمت السوق يوماً عكة سمن ووطب [1] من لبن فاشتراهما غلام لعمر باربعين درهماً ثم أتى عمر فقال يا أمير المؤمنين قد أبرّ الله يمينك وعظم أجرك قدم السوق وطب من لبن وعكة من سمن ابتعتهما بأربعين درهماً فقال عمر تصدق بهما فاني اكره ان آكل اسرافاً وقال كيف يعنيني شأن الرعية اذا لم يصبني ما اصابهم وكتب عمر الى أمراء الامصار يستغيثهم فبعث عمرو بن العاص الطعام الى المدينة وبعث أمير الشام باربعمائة راحلة عليها الطعام وقالوا انه ابوعبيدة بن الجراح وهو خطأ لان عام الرمادة كان بعد طاعون عمواس الذي توفي به أبوعبيدة بن الجراح ويدلك على هـذا ارسال عمرو بن العاص الطعام من مصر وانما كان فتح مصر بعد الطاعون اذ كان عمرو بن العاص عام الطاعون بالشام ولما قدم عمر بن الخطاب لقسمة المواريث استأذنه بقصد مصر وأذن له وسار وكان ذلك سنة ١٧ أو سنة ١٨ والذي دعا عمرو بن العاص لاحتفار الترعة الموصلة بين النيل وبحر القلزم انما هو عام الرمادة وقال بعضهم ومنهم ابن الاثير ان عمراً أصلح بحر القلزم وأرسل فيه الطعام وهو غير مفهوم وانما ارسل الطعام في البر ثم استأذن عمر بحفر الترعة ووصل بين النيل وبين بحر القلزم احتياطاً من مثل ذلك الحادث وتقريباً للمسافة بين المدينة وبين مصر وسنستقصي الخبر عن ذلك في سيرة عمرو بن العاص إن شاء الله تعالى

ولما اشتد الضيق على المسلمين استسقى عمر بالناس ودعا ودعا معه العباس رضي الله عنهما ففرج الله على الناس وأرسل عليهـم من سماء رحمته السحاب الثقال فسقت الارض وانعشت النفوس وانفرجت الازمـة ولحـديث

(١) العكة القربة الصغيرة والوطب سقاء اللبن اي وعاؤه

الاستسقاء كلام طويل بين العلماء لا نحب الخوض فيه فليرجع اليه من شاء في كتب المحدثين

باب
﴿ آثاره في الخلافة ﴾
(كتابة التاريخ الهجري)

لم يكن للعرب قبل الاسلام تاريخ يؤرخون به الا الحوادث الشهيرة عندهم فانها كانت بمثابة التاريخ فكانوا يقولون حدث ذلك في عام الفيل مثلاً وولد فلان بعد عام الفجّار بكذا وهلمّ جراً واستمر ذلك في الاسلام الى مضي سنتين ونصف من خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه أي الى سنة ست عشرة من الهجرة وفيها رأى عمر لزوم وضع التاريخ لضبط الحوادث بعد إذ انتشر الاسلام وكثر الفتح ومست الحاجة لضبط الشؤون والاعمال في الحكومة الاسلامية فجمع الصحابة الكرام واستشارهم في ذلك وسألهم من أي يوم نكتب التاريخ فأشار عليه عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه بأن يجعل التاريخ من السنة التي هاجر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم الى المدينة ففعل

﴿ تدوين الدواوين وفرض العطاء ﴾

من البديهيّ ان حاجات الدولة تترقى بترقي العمران وامتداد السلطان وقد كانت دولة الاسلام في خلافة أبي بكر وصدراً من خلافة عمر في مبادىء الظهور وسذاجة البيئة وعدم اتساع السلطان ولم يكن لها من الدخل والخرج إلا الصدقة التي كانت تؤخذ من الاغنياء وترد على الفقراء[1] وأما الغنائم والفيء فكانت قليلة لم

(١) علمت من هذا الفصل وغيره حكم الفيء في الاسلام ووجوه صرفه التي أبانها

تحوج أخماسها التي يبعث بها للمدينة الى صرف العناية في ترتيب الشؤون الادارية على أصول الدول المترقية يومئذ كفارس والروم وإنما كانت العناية منصرفة الى الشؤون الحربية والفنون العسكرية ولما توسع المسلمون في الفتح وانتشروا في الممالك وكثرت موارد الدولة وتبسطت في مناحي العمران وأخذ يزداد الفيء من الخراج والجزية زيادة لاطاقة للخليفة وأمرائه بضبطها ولا قبل لهم

الكتاب الكريم وزيادة في الفائدة نشرح لك هنا حكم الصدقة ووجوه الصرف التي قررها للصدقة الاسلام ومنها تعلم ان الأمة الاسلامية انما سعدت واعتزت وقويت في صدر الاسلام بالعمل بهذا واشباهه من قواعد الاسلام التي ترمي كلها لغرض واحد وهو سعادة المسلمين : الصدقة تؤخذ على السائمة من غنم وابل وبقر بنسبة معلومة في كتب الشريعة لا محل لبسطها هنا وهي ليست كالفيء من حق سائر المسلمين بل هي والعشور التي تؤخذ من المسلمين لمن سمى الله عز وجل في كتابه الكريم بقوله تعالى (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل) قال ابو يوسف اما المؤلفة قلوبهم فقد ذهبوا واما العاملون عليها (يعني ولاة الصدقة) يعطيهم الامام ما يكفيهم من غير سرف ولا تقتير وبقية الصدقة للفقراء والمساكين سهم وللغارمين وهم الذين لا يقدرون على قضاء ديونهم سهم وفي ابناء السبيل المنقطع بهم سهم يحملون به ويعانون وفي الرقاب سهم في الرجل يكون له الرجل المملوك أو أب مملوك أو أخ أو أخت أو أم أو ابنة أو زوجة أو جدة أو عم أو عمة أو خال أو خالة وما أشبه هؤلاء فيعان في شراء هذا ويعان منه المكاتبون وسهم في اصلاح طرق المسلمين : في كلام طويل يرجع اليه ان شاء في كتاب الخراج وانما نقول هنا ان الامة الاسلامية لو عملت بالكتاب الكريم ولم يحد أولياء أمورها عن هذا النهج القويم لما عرف فرد من أفرادها شقاء الحياة التي تعانيها الطبقة النازلة الآن وأي شريعة في العالم تقضي على الامة بوفاء دين العاجزين عن وفاء ديونهم من أفرادها واعالة فقرائها ومواساتهم بقسم من مالها وأي شريعة في العالم تأخذ من الاغنياء قسماً من مالهم لتشتري به الارقاء وتجعلهم احراراً سعداء اللهم ليس غير هذه الشريعة شريعة تجعل الناس في سعادة الحياة كلهم سواء وتريد المسلمين على التكافر والتضافر والاخاء ولكن أضاعها أهلها فخسروا وكانوا من النادمين فانا لله وانا اليه راجعون

باحصاء مستحقيها وتوزيع الاعطيات (المرتبات) على أربابها بالعدل الا بضبطها وترتيبها على أصول ثابتة وقيدها في قيود خاصة دعا عمر رضي الله عنه الصحابة واستشارهم في كيفية تدوين الديوان . فقال علي بن أبي طالب تقسم كل سنة ما اجتمع اليك من مال ولا تمسك منه شيئاً وقال عثمان : أرى مالاً كثيراً يسع الناس . وان لم يحصوا حتى يعرف من أخذ ممن لم يأخذ خشيت أن ينتشر الامر (ينبسط أو يلتبس) : فقال له الوليد بن هشام بن المغيرة قد جئت الشام فرأيت ملوكها قد دونوا ديواناً وجندوا جنداً[1] فدون ديواناً وجند جنداً : فأخذ بقوله فدعا عقيل بن أبي طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم وكانوا من نبهاء قريش فأمرهم بتدوين الديوان ففعلوا والديوان هو الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية كما في القاموس وتوسعوا بمسماه بعد فأطلقوه على كل دفاتر الحكومة الادارية وغيرها ثم على المكان الذي يكون فيه الديوان فسموه ديواناً

ولما كتبت الدواوين كتب ديوان الشام بالرومية وديوان العراق بالفارسية واستمر كذلك الى عهد عبد الملك بن مروان في الشام والحجاج ابن يوسف عامله على العراق فنقل عبد الملك في الشام الديوان الى العربية ونقله الحجاج في العراق الى العربية وسببه كما نقل ذلك في فتوح البلدان ان عبد الملك بن مروان بلغه عن أحد كتاب الروم أمر ساءه فأمر سليمان بن سعد بنقل الديوان الى العربية فسأله ان يعينه بخراج الاردن سنة ففعل ذلك

---

(١) قال في القاموس الجند بالضم العسكر والاعوان والمدينة وصنف من الخلق على حدة اهـ والعرب كانوا يسمون كل ناحية لها جند يقبضون أرزاقهم به جنداً فيقولون جند قنسرين وجند الاردن وغيرها وهي من ترتيب عمر بن الخطاب (رض) كما سترى

وولاه الاردن فلم تنقض السنة حتى فرغ من نقله وأتى به عبد الملك بن مروان فدعا بسرجون كاتبه فعرض عليه ذلك فغمه وخرج من عنده كئيباً فلقيه قوم من كتاب الروم فقال اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة فقد قطعها الله منكم

وكذلك فعل الحجاج في العراق والذي نقله له الى العربية هو صالح ابن عبد الرحمن مولى بني تميم وكان يكتب بين يدي زادان فروخ الفارسي كاتب الحجاج ولما قصد نقل الديوان الى العربية بذل له مردان شاه بن زادان مائة ألف درهم على أن يظهر العجز عن نقل الديوان ويمسك عن ذلك فأبى ونقله والقصة طويلة سترد في سيرة الحجاج ان شاء الله

وأنت تعلم ان قوام الدولة هو المال وروحها التي تختلج في جسمها فتدير حركته هو الديوان ومع هذا فلما لم يكن العرب يومئذ في الدرجة التي تؤهلهم لادارة شؤون الديوان على أصول الدول المترقية في الحضارة عهد الخلفاء بهذا العمل الى الاعاجم من الفرس والروم ورضوا بكتابة الديوان بلغة الكتاب الغريبة عن لغتهم مع ما في هـذا من الغبن الظاهر وتعريض أموال الدولة لتلاعب الكتاب وإنما دعاهم الى تسليم الدواوين الى الاعاجم وترتيبها على نحو ترتيب دواتي الفرس والروم ضرورة التوسع في الفتح والترقي في مراقي الحضارة والخروج عن حالة البداوة الى حالة تستلزم تقليد الأمم الراقية في وسائل العمران إذ لم يروا لهم مندوحة عن هـذا الامر كما لم يروا مانعاً في الدين يمنعهم من مباراة الأمم في أصول الحضارة والمدنية وأخذ العلم النافع ولو عن مشركي الفرس : ومن البلاء ان ألصق بعض الفقهاء بعدُ كل شيء من أمورنا الدنيوية بالدين وحرموا على الامة العمل بأي شيء نافع مادام لم يصبغ بصبغة اسلامية ولو تمحلاً : ولو كان الدين يضيق على هذه الامة الى

الحد الذي توهمه أولئك الفقهاء، لمَا قلد عمر رضي الله عنه الفرس والروم فيما اقتضته حاجة الدولة في عصره من وضع التاريخ والديوان وترتيب الجيوش واعداد العدة الحربية ونحو ذلك واذا قيل ان عمر رضى الله عنه مجتهد له ان يفعل بما يرى فيه المصلحة وعلى الأمة ان تعمل فكيف ساغ لمثل الحجاج بن يوسف ان يبدل أمراً اجتهد به الخلفاء الراشدون وأقروه فأصبح شرعاً لاينبغي لأحد سواهم التصرف فيه والعدول عنه

أللهم ان طبيعة الاجتماع تقضي بأخذ الأمم بعضها عن بعض كل ما يصلح للترقي في مراقي الكمال وشأن الأمم هذا شأن الافراد في إحراز العلم بالمسابقة والاكتساب ومعاذا الله ان يرضى الاسلام بالحرج للسلمين ويمنعهم عن المسابقة مع السابقين ليكونوا أدنى الأمم والشعوب وإنما توهم بعضهم ان من لوازم الدين صبغ كل شيء بصبغة الدين جعلنا نحكم بعقولنا القاصرة في الدين ونعتقد ان الاخذ بأي سبب نافع من أسباب المدنية التي نتوصل بها الى مسابقة الامم والغلبة على الدول زيغ عن صراط الدين حتى بلغ بنا هذا الاعتقاد الفاسد ان صرنا نحرّم الامر الذي يدعونا الدين اليه ويحثنا عليه وأقرب شاهد من هـذا القبيل نتلوه عليك هذا الشاهد الملخص من تاريخ السلطان سليم الثالث العثماني رحمه الله تولى هذا السلطان العاقل منصب السلطنة في أوائل الجيل الماضي وقد اضطرب أمر الدولة وأشرفت على السقوط في هوة الدمار لتغلغل الفساد في جسم الفرق اليكجرية يومئذ وانحلال قوى الدولة بانحلال قوى الجندية العثمانية وانحطاط نظامها في جانب نظام الجند الاوربي الذي ظهر يومئذ بمظهر جديد مبنيّ على الاصول العلمية والاختبارات الفنية نخشي السلطان ان هو لم يأخذ بأصول الجندية الجديدة

ولم يبار بترتيب الجيوش المنظمة جيرانه من الدول الاوربية أن تكتسح هذه الدول مملكته العظيمة إذ ظهرت له بوادر الخطر يومئذ باحتلال نابليون لمصر وتحفز الروس للوثوب على القسطنطينية ونزوع أهالي المورة للثورة فعزم عزماً أكيداً على تنظيم الجندية العثمانية وقبول الاصلاحات الاوربية في البحرية والعسكرية والغاء الجندية الينيچرية ورأى ان تعريض حياته الشخصية للخطر مع جنود الينيچرية خير من تعريض المملكة لهجوم الدول الاوربية ومصير الدولة العثمانية للزوال وهو شمم وعلو نفس وأقدام قل أن صدر مثله عن أحد من الملوك إلا في النادر إذ معظمهم يجعلون حياة الدولة والملك فداء على حياتهم الشخصية ولا جرم فان لكثير من أفراد هذه الاسرة العثمانية كثيراً من الايادي البيضاء على الأمة وكل امرئ يذكر بفعله واجهل المؤرخين من يغمط فضل الرجال لما سنحت الفرصة لذلك الملك المقدام وأراد إبراز هذا العمل من القوة الى الفعل كان أول المقاومين له علماء الدين وفي مقدمتهم عطاء الله أفندي شيخ الاسلام في عصره فحرضوا عليه العامة وأثاروا عليه الضغائن بحجة انه يريد التشبه بالافرنج وما زالوا يكافحونه مع الينيچرية ويكافحهم حتى تغلبوا عليه وخلعوه ثم قتلوه وجرت بعد ذلك أمور يطول شرحها على عهد خلفه السلطان مصطفى والذي يليه السلطان محمود وكان قصاراها إهراق سيول من الدماء أنفذ بعدها السلطان محمود رحمه الله بماضي عزيمته إرادته في الاصلاح وقضى على نظام الينيچرية وأهلها شر قضاء ونالله لو لم يفعل ذلك لما بقي لدولة آل عثمان باقية الى الآن إذ هي الآن على ضخامة قوتها وترتيب جندها على النظام الجديد ومجاراته لأحسن جنود الدول في فنون الحرب قد غلبت على أمرها وانتزعت الدول الاوربية كثيراً من ممالكها الاوربية والافريقية فكيف بها لو كانت على حالها القديم من ضعف الجندية وفساد النظام

لاجرم انها كانت ذهبت لاقدر الله مع الذاهبين وأصبحت مثلا في الغابرين ولو سئل ساعتئذ عطاء الله أفندي هل بهذا يأمر الدين ويريد تلاشي المسلمين لاجابك بالبراءة الى الله من ذنبه واستغفر الى ربه

على ان الدول العثمانية حرسها الله قد قدت هذه القيود الثقال وقبلت من الاصلاح في أمورها السياسية وأمور الامة المعاشية ما جعلها تدخل في مصاف الدول الاوربية وان كانت الامة العثمانية لم تزل في دور الانحطاط وأما غيرها من الدول الاسلامية كدولة مراكش مثلا فانها لم تزل الى الآن على ما كانت عليه منذ مئات من السنين فليس لديها نظام للجندية ولا للادارة ولا للقضاء وليس عندها مدارس تعلم الناشئين الفنون الحديثة والاصول الحربية وتكسب الامة ملكات العلم بحاجات العصر وترشد الدولة الى أسباب المنعة والقوة والمانع من هذا كله هو زعم تحريم الدين لمثل هذه المنافع الدنيوية ومعاذ الله أن يكون الدين رائد هلاك الامة والمانع من ترقي المسلمين ولو كشفت الامة المراكشية عن بصائرها حجاب الغفلة وقامت دولتها بواجب الخدمة الصحيحة فنبذت عنها أوهام الواهمين وتخرصات الجاهلين فأخذت بحظ من أصول المدنية النافعة لكانت أحسن دول الاسلام حالا وأعظمهن قوة لخلو بلادها من أهل الملل من غير المسلمين الذين تجعلهم الدول الاوربية في الممالك الاخرى ذريعة لمد يدها الشؤون الداخلية والتعرض بالاذى للدول الاسلامية وتالله ان أمة يبلغ عددها الثمانية ملايين كلهم من جنس واحد ودين واحد لو رزقها الله سائسا عظيم النفس عالي الهمة محبا للاصلاح يرتب شؤون دولته على نمط جديد ويصرف همته في أعزاز شأن الملك لكانت أمة عزيزة الجانب منيعة الجناب ولكان لها جيش منظم يزيد عدده عن النصف مليون يحمي ذمارها ويرد الغارة عن ديارها ولكن

أين من يسمع ويعقل ومن ينصف ويعمل

هذا وأما فرض العطاء، فان عمر أمر بأن يحصى الناس بالديوان ويبدأ من ذلك بالعباس عم النبي صلى الله عليه وسلم ومن يليه من ذوي القربى ثم بأهل السابقة والذين حضروا الفتوح على درجاتهم التي اختارها لهم عمر ثم بالفقراء والمساكين والنساء والاطفال كما هو مبين في مظانه من كتب الاحاديث والتاريخ وقد أشرنا اليه في باب ديوان الجيش : وقال قائل لعمر يومئذ ياأمير المؤمنين لو تركت في بيوت الاموال عُدّة لكون إن كان : فقال كلمة ألقاها الشيطان على فيك وقاني الله شرها وهي فتنة لمن بعدي بل أعد لهم ما أمرنا الله ورسوله . طاعة لله ورسوله فهما عدتنا التي بها أفضينا الى ما ترون فاذا كان هذا المال ثمن دين أحدكم هلكتم :

على ان العطاء على ذلك الوجه لم يستمر إلا مدة الخلفاء الراشدين ثم لما تغير حال الدول وانتشر الاسلام وكثر المسلمون خصّ الخلفاء العطاء من غير الخمس بطبقة الجند فقط على نسبة اختاروها لا على نسبة الفيء كله أي خصصوا لهذا قدراً مخصوصاً من الفيء يختلف باختلاف الدول واستأثروا بالباقي وبالخمس لانفاقه في وجوه المصالح العامة لان العطاء كان يعطى للمسلمين باعتبار انه فيء أخذوه بسيوفهم إذ كانوا كلهم جنوداً محاربين فاتحين ثم لما خصصت الجندية بطبقة مخصوصة من الناس تغير نظام العطاء أيضاً واضطر الدول بحكم الضرورة لاقتصاد الأموال وادخارها في بيت المال لانفاقها على المصالح الأخرى التي تقوم بها الدول وتقتضيها أبهة الملك هذا بقطع النظر عما خصص منها للانفاق على ترف الدولة وشهوات الملك لأن هذا تابع بالطبع لحال الملوك من عفة وشره وإمساك وبذل

وأما الكلام على الفىء الذي هو أصل العطاء، وعلى حكمه وحكم الخمس وماهو وحكم الجزاء أو الجزية المستثناة من الخمس الى غير ذلك مما يتعلق بهذا البحث فمبسوط في كتب الفقه وكتب التفسير المطولة فليرجع اليه من أحب

وانما زيادة في الفائدة نقول هنا إن الفئ هو كل ماصالح عليه العدو بعد وضع الحرب أوزارها وحكمه أن يرفع منه الخمس الى الامام ليقسمه بين أهله الذين نص عليهم القرآن والباقي يوزع على الجند الفاتحين للبلاد والمرابطين في الثغور والقائمين على حراسة الدولة إلا الجزية فانها مستثناة من حكم الخمس أي لايرفع منها الخمس بل تعطى للجند القائمين بحماية أهل الذمة وحراسة البلاد

واعلم ان الاسلام هو أول شريعة نصت على مصرف الفئ أي وجوه الصرف والانفاق من أموال بيت المال ووضع ما يعرف الآن (بالبودجه) ومعناها تقرير وجوه النفقات السنوية للحكومة فقد روى الطبريّ في تاريخه عن ابن عباس قال : لما فتحت القادسية ودمشق قال عمر للناس اجتمعوا فاحضروني علمكم فيما أفاء الله على أهل القادسية وأهل الشام فاجتمع رأي عمر وعليّ على ان يأخذوا من قبل القرآن فقالوا (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) يعني من الخمس (فلله وللرسول) من الله الامر وعلى الرسول القسم (ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) الآية ثم فسروا ذلك بالآية التي تليها (للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم) الآية فأخذوا الاربعة الاخماس على ماقسم عليه الخمس فيمن بدئ به وثنى وثلث وأربعة أخماس لمن أفاء الله عليه المغنم ثم استشهدوا على ذلك أيضاً بقوله تعالى: (انما غنمتم من شئ فان لله خمسه) فقسم الاخماس على ذلك واجتمع على ذلك عمر وعلي وعمل به المسلمون بعد هذا ماذكره الطبري وانما كان عمل المسلمين بذلك مدة الخلفاء

الراشدين وأما من يليهم الى أواسط الدولة العباسية فقد عملوا بهذا بما وصل اليه الامكان ثم لما توسع أمر الدول وتبسط الخلفاء في مناحي الحضارة أخذ يتغير ذلك الترتيب كما علمت هذا مما تقدم وربما بدأ هذا التغيير في عهد ولاية معاوية على الشام كما سترى في قصته مع أبي ذر فيما يلي من هذا الكتاب

﴿ ترتيب العمال ﴾
﴿ وتقسيم الولايات ﴾

لما تولى الخلافة عمر بن الخطاب كانت الحرب قائمة في الشام وكانت الامراء من علمنا مما تقدم في محله فجعل امارة مايفتح من الشام الى أبي عبيدة وجعل امارة الحرب في كل جهة لأمير مخصوص فجعل إمارة الحرب في دمشق ليزيد بن أبي سفيان وامارة الاردن لشرحبيل بن حسنة وإمارة فلسطين لعمرو بن العاص وقد مر تفصيل ذلك وبيانه إلا ان الامارة العامة كانت لأبي عبيدة فالمخابرة والصلح وكل مايتعلق بأمور الحرب السياسية كان منوطاً به ولما تم فتح الشام واستقرت فيها قدم المسلمين أبقى أبا عبيدة أميراً عاماً على الشام وجعل مقره حمصاً وأضاف اليه جند قنسرين ثم أضيف الى هذا القسم جزء من الجزيرة لما فتحها عياض بن غنم وولي جند قنسرين بعد وفاة أبي عبيدة ثم جعل دمشق جنداً وعليها يزيد بن أبي سفيان ثم معاوية بعده ثم جعل الاردن كذلك جنداً وفلسطين جنداً وقسمه الى قسمين أحدهما حاضرته إيلياء والآخر حاضرته الرملة وقد مر الكلام على ذلك فلا حاجة للتفصيل والمراد من الجند هو انهم كانوا يسمون كل ناحية بها جند يقبضون رزقهم منها جنداً فبدلا من ان يقولوا ولاية قنسرية مثلا يقولون جند قنسرين ويسمون الولاية أيضاً كورة جمعها كور وروى الطبري في أخبار سنة (١٧ هـ) ان عمر لما جاء الشام في هذه السنة رتب الشواتي والصوائف

(أي الجنود التي تغزو في الصيف والجنود التي تغزو في الشتاء) وسدّ فروج الشام ومسالحها [1] وأخذ يدور بها واستعمل عبد الله بن قيس على السواحل من كل كورة (أي على السواحل جميعها سواء كانت تابعة لكورة دمشق أو غيرها)

وجعل أبا عبيدة على حمص وخالد بن الوليد تحت يديه على قنسرين وعلى دمشق يزيد بن أبي سفيان وعلى الاردنّ معاوية (بعد شرحبيل) وعلى فلسطين علقمة بن مجزِّر وعلى الاهراء [2] عمرو بن عبسة وجعل على كل عمل عاملاً فقامت مسالح مصر والشام والعراق على ذلك الترتيب الذي رتّبه عمر (رض) الى عهد العباسيين

وذكر في فتوح البلدان ان معاوية كتب الى عمر بعد موت أخيه يزيد يصف له حال السواحل فكتب اليه في مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها واقامة الحرس على مناظرها [3] واتخاذ المواقيد لها

(١) تقدم معنى المسالح والفروج في خبر فتوح سعد بن أبي وقاص
(٢) المخازن التي تخزن فيها الحبوب وغيرها من اموال الفيء
(٣) المناظر وتسمى لهذا العهد المناطير هي قباب مبنية على رؤس الجبال العالية بين كل بلد وآخر بحيث يتقارب بعضها من بعض ويشرف بعضها على بعض وكان يقام فيها حراس يوقدون النار عند ما يرون اقبال العدوّ من جهتهم فيوقد حراس المنظار الذي يليهم كذلك وهكذا حتى يصل الخبر الى المدينة أو الثغر أو المسلحة في زمن قليل فيسرعون لامداد الجهة التي أقبل منها العدوّ ولم تزل آثارها قائمة الى الآن في كثير من انحاء سورية وقد شاهدت بنفسي المناظر القائمة على الجبال بين دمشق وحماه الى ما فوق ومعظم الموجود من بقاياها الى الآن هو من آثار الدول التركمانية والكردية والجراكسة التي شيدوها في أيام الحروب الصليبية وعنوا بها اعتناء عظيماً جداً

وكذلك كان تقسيم العراق وفارس فكان ذلك الوجه قسمين قسم تابع للبصرة وعليه عُتْبة بن غزوان ثم المغيرة بن شعبة ثم أبو موسى الاشعري وقسم تابع للكوفة وعليه سعد بن أبي وقاص ثم عمار بن ياسر ثم غيره وغيره وكانت عمالة عامل هذا القسم أي قسم الكوفة كما في رواية ابن جرير الطبري تمتد ما بين الكوفة وحلوان والموصل وما سبذان وقرقيسياء الى البصرة ثم امتدت هذه العمالة حتى تجاوزت فارس الغربية وكانت تقسم الى أقسام عليها عمال من قبل عامل الكوفة وكانت مسالحها وثغورها مما يلي الجزيرة وأرمينيا الموصل وقرقيسياء وثغورها فيما يلي فارس تابعة لتقدم الجيوش في الفتح وتجاوزها حدود البلاد الاسلامية بالطبع

وكان يتبع كل أمير حرب كاتب وقاض يقضي بين الناس كما رأيت في باب تعبية الجيش وغيره ويتبعه أمير يسمى عامل الاقباض يحصي الغنائم فاذا فتحت البلاد وتقررت الجباية كان عامل الخراج وكان عامل الاقباض في حرب فارس السائب بن الاقرع وعامل الخراج النعمان بن مقرّن ثم غيره وغيره وقد مر بيان ذلك في غضون أخبار الفتح فلا حاجة للمزيد

وأنت ترى ان ذلك الترتيب هو غاية في اصابة الغرض و بعد النظر في تنظيم شؤون الدولة بالنسبة لذلك العصر وربما نحا عمر (رض) في بعضه نحو فارس والروم ولعله بدئ ساذجاً ثم ترقي بترقي المسلمين وتقدمهم في الفتح في خلافة عمر (رض) بحيث تم هذا الترتيب في سنة (١٧) كما رأيت

(ضرب النقود)

كانت العرب قبل الاسلام تتعامل بالنقود الفارسية والرومية من الدرهم والدينار واستمر ذلك الى ان جاء الاسلام ومضى صدر من خلافة عمر وكان الشائع استعماله بينهم يومئذ الدراهم البليغة وهي دراهم فارس وكان وزن هذا الدرهم

زنة مثقال من الذهب فلما كانت سنة (١٨ هـ) ضرب عمر الدراهم على نقش الكسروية وشكلها بأعيانها غير انه زاد في بعضها الحمد لله وفي بعضها محمد رسول الله وجعلها في أواخر خلافته كل عشرة دراهم بزنة سبعة مثاقيل كما ذكر ذلك المقريزي في النقود الاسلامية الآن عمر (رض) لم يضرب الدينار وإنما ضربت الدنانير على عهد عبد الملك بن مروان. وأما نسبة الدرهم الى الدينار فقد كانت تختلف باختلاف الزمان كما سنذكر ذلك في سيرة عبد الملك بن مروان ان شاء الله: وأما نسبة الدرهم والدينار الى نقود هذا الوقت لا باعتبار الوزن بل باعتبار قيمة المقومات من كل شيء بالدرهم أو الدينار فذلك يحتاج أولاً الى الوقوف على نسبة حقيقة لاجور العمال بالدرهم في صدر الاسلام ليقاس عليها مثلها في هذا العصر وتعلم القيمة الاعتبارية يومئذ للدرهم وتقاس على مثلها في هذا العصر وكل ما قيل من هذا القبيل اذا لم يُبْنَ على ذلك التقدير الصحيح فحدس وتخمين ليس من الحقيقة على شيء لان الدرهم من الفضة دنيء القيمة الآن إذ ربما ساوى كل أربعين درهماً باعتبار الوزن ديناراً والدينار يتراوح ثمنه بين ١٢ فرنكاً و ١٦ فرنكاً وهذه القيمة ربما كانت في بعض بلاد أوروبا لهذا العهد قيمة أجرة عاملين أو ثلاثة وفي بعض بلاد المشرق قيمة أجرة أربعة عمال الى الثمانية من ذوي المهن لا ما يسموه العمل البسيط

فالدرهم والدينار لا يصح ان يكون قيمتهما الاعتبارية في صدر الاسلام كقيمتهما الآن بل أغلى ربما كان الدينار أجرة عشرين عاملاً أو أكثر والفرق بينهما لا يعلم إلا من تحقيق عمل العامل في ذلك الوقت وعسانا نتوفق الى الوقوف على حقيقة ثابتة من هذا القبيل فنبسطها عند الكلام على النقود الاسلامية في خلافة عبد الملك بن مروان ان شاء الله

(وضع البريد)

البريد اسم للمسافة التي بين كل محطة وأخرى من محطات البريد وهي أربعة فراسخ أو اثنا عشر ميلا ثم أطلق على حامل الرسائل وتوسعوا به الآن فأطلقوه على أضبار (أكياس) البريد وأصله على ما يقال من وضع الفرس والذي رتبه دارا ملك الفرس في القرن الخامس قبل الميلاد ثم استعمله الرومان وغيرهم من الأمم وربما نأتي على شيء من تفصيل خبره في غير هذا المحل

ثم استعمل في الاسلام وأقيم له عامل مخصوص يسمى عامل البريد وهو منفصل عن سلطة الولاة مكلف خلا عن أعمال البريد بنقل أخبار الولاة والبلاد لدار الخلافة وان يكتب المهم من هذه الاخبار للخليفة ليكون على علم من أحوال الرعية والولاة وقد كانت هذه الوظيفة تارة لصاحب البريد وتارة منفصلة عنه يسمى عاملها صاحب الاخبار وسنستقصي الكلام على هذا عند وصولنا الى الكلام على دولة الخلفاء من بني امية و بني العباس ان شاء الله

وروى المؤرخون ان أول من وضع البريد في الاسلام هو معاوية بن أبي سفيان ولعله هو أول من رتبه على أصول معروفة ووضع له الخيل وأقام له المحطات والا فالبريد استعمله عمر بن الخطاب رضي الله عنه قبل معاوية إذ قد جاء ذكره كثيراً في سيرته ومنه ما مر في فصل علاقته مع الملوك عندما قال عن الرسول الذي أتى بالعقد هدية من امبراطورة الروم انه بريد المسلمين وفي مناقب عمر للامام ابن الجوزيّ أنّ عمر لما أبعد نصر بن حجاج عن المدينة الى البصرة بسبب تغزل بعض النساء به قلق نصر للرجوع الى المدينة وكتب عمر الى عامله بالبصرة كتابا فمكث الرسول عنده أياما ثم نادى مناديه الا انّ بريد المسلمين يريد ان يخرج فمن كانت له حاجة فليكتب فكتب نصر بن حجاج كتاباً ودسه في الكتب الى أمير المؤمنين

فمن هذا الخبر وغيره يستدل على أن أول واضع للبريد في الاسلام هو عمر ابن الخطاب الا انه ربما لم يكن على الوجه الذي كان بعد ولم يبلغ من الاتقان مبلغه في عصر الامويين والعباسيين وإنما هو بدئ ساذجا ثم ترقى بترقي الزمان

﴿ تمصير البصرة والكوفة ﴾

مصرت البصرة سنة (١٥ ﻫ) عن يد عتبة بن غزوان بأمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب وكان في مكانها محل يسمى الخريبة تقيم فيه مسالح كسرى لتمنع العرب من العيث ومصرت الكوفة سنة (١٧ ﻫ) عن يد سعد بن أبي وقاص وكان البناء أولا بالقصب فدب الحريق في الكوفة والبصرة فأرسل سعد الى عمر نفراً يستأذنونه في البنيان باللبن (الطوب) فقال افعلوا ولا يزيد أحدكم على ثلاثة أبيات ولا تطاولوا في البنيان وكتب الى أهل البصرة بمثل ذلك فخططوا المناهج (الشوارع) على عرض عشرين ذراعاً وطول أربعين ذراعاً والازقة سبعة أذرع والقطائع ستين ذراعاً وبنوا المسجد الجامع في الوسط بحيث تتفرغ الشوارع وكان أمرهم عمر بتخطيط الشوارع على ذلك الوجه الا انه لما ازدحمت السكان في المدينتين أخلوا بذلك الاصل ولم يراعوا حالة التنظيم فتقدموا في البناء في الشوارع والساحات حتى ازدحمت المنازل وضاقت الشوارع واختلت أصول التنظيم التي وضعها لهم عمر رضي الله عنه وإنما كان الباعث على ذلك بعد القوم عن أسباب الحضارة وعدم مراعاتهم لاصول التأنق في البنيان لقرب عهدهم بالبداوة وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا بهذا الصدد في مقدمته الشهيرة أغنانا عن الكلام فليرجع اليه من شاء

﴿ التوسعة في المسجدين ﴾

في سنة (١٧ ﻫ) حج عمر (رض) فبنى المسجد الحرام ووسع فيه وهدم على

قوم أبوا ان يبيعوا دورهم ووضع أثمان دورهم في بيت المال حتى أخذوها واستأذنه أهل المياه التي على الطريق بين مكة والمدينة في ان يبنوا منازل في هذا الطريق فأذن لهم وشرط عليهم ان ابن السبيل أحق بالظل والماء وكذلك صنع بمسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانه هدمه ووسع فيه وأدخل دار العباس فيما زاد فيه

جملة مآثر

ومن مآثره ان أقام دور الضيافات وأدر عليها الارزاق: عن ابن سعد قال اتخذ عمر دار الدقيق فجعل فيها الدقيق والسويق والتمر والزبيب وما يحتاج اليه يعين به المنقطع ووضع فيما بين مكة والمدينة في الطريق ما يصلح من ينقطع به وفي بعض الروايات انه فعل مثل ذلك أيضاً بالطريق بين الشام والحجاز (ومنها) انه مر يوم مجيئه الشام على قوم من المجذمين ففرض لهم شيئاً من بيت المال ومنعهم بذلك عن التكفف بين الناس (ومنها) أمره عمرو بن العاص بمصر بحفر الترعة التي وصلت بين النيل وبين البحر الاحمر في عام الرمادة واستمرت كذلك الى عهد الفاطميين ثم ردمت كما سترى تفصيل الخبر عنها في سيرة عمرو بن العاص (ومنها) ماتقدم ذكره من حفر الترع واقامة الجسور في العراق العربي والعراق العجمي (ومنها) ماتقدم ذكره أيضاً من وضع الديوان واقامة الكتاب له وفرض العطاء للعساكر والمجاهدين وتقسيم الجيوش وترتيبها كما ستراه مفصلا في سيرة سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وغير ذلك من الآثار الجليلة التي تمكن من إيجادها ذلك الخليفة العظيم مع اشتغاله بالفتوح وانصراف همته لتوسيع نطاق سلطان الاسلام جزاه الله عن هذه الأمة خير الجزاء وربما نأتي على اجمال آخر من آثاره عند ذكر أوائله في غير هذا الباب ان شاء الله

باب

أخلاقه ومناقبه

(سياسته وعدله)

كانت العرب على جانب من خشونة الطباع وجفاء الخلق والاعتزاز بالعشيرة والأنفة عن الخضوع لحكم السلطان يعلمه من وقف على تاريخ هذه الأمة ولما جاء الاسلام هذب أخلاق فريق منهم وهم الصحابة لمعاشرتهم للنبي عليه الصلاة والسلام و وقوفهم على حقائق الدين و إشراب قلوبهم حب الإيمان والفريق الآخر الذين لم يتمكن من قلوبهم الاسلام لقرب عهدهم منه بقي في نفوسهم شيء من آثار الجاهلية لاينتزعه إلا تمادي الزمان لهذا لم يسع أبا بكر الصديق رضي الله عنه الا ان يعاملهم بالقوة الممزوجة بالرفق كما رأيت ذلك فى سيرته وأخباره معهم أيام الردة ولما استخلف عمر رضي الله عنه وجد أن لامناص له من ان يحذو في معاملتهم بالشدة عند الحاجة حذو أبى بكر خوف النزوع الى الثورة والخروج عن حدود الاسلام وقيود الاخوّة والرجوع الى الفرقة والشقاق والعصبية المضرة وقد كان رضي الله عنه شديداً بطبعه فساس أولئك الاقوام بمزيد الشدة والارهاب لما كان يتوقعه من حصول الفتن والدسائس ولو لم يقابل شدته اغراقه في العدل وكرمه في بذل المال وحكمته في وضع الثواب في محله والعقاب في محله لما استقام له أمر الخلافة كما انه لو يستعمل مع العرب تلك السياسة لما استقام أمر المسلمين ولخيف من حصول فتن كبرى تنكمش لها أعصاب الاسلام كما حصل ذلك بعد وفاته رضي الله عنه الا انه لم يتأتّ عن تلك الفتن من الضرر

مايوازي الضرر الذي كان يتأتى عنها فيما لوحصل ذلك في أوائل خلافة عمر (رض) وانما خف ضرر تلك الفتن بعدُ لان الاسلام كان ملأ أكناف الارض والعرب كلهم تفرقوا في أنحاء البلاد واشتغلوا بأمور الفتح وذاقوا لذة الملك والسلطان وأسسوا ذلك الملك العريض الذي استحال ان تدك أساسه عواصف الفتن في خلافة عثمان وعلي ومعاوية رضي الله عنهم وانما كان الفضل في هذا لعمر بن الخطاب الذي أخذ على الأمة سبيل النزوع الى الجاهلية الأولى ودفعها في غمار الفتح وشغلها بمحاربة الامم عن محاربة نفسها وربَّاها على الخضوع لأولي الامر فيما لا يكون به حيف على النفوس ولا مساس بالدين ولا حجر على الحرية ولا تمييز بين الطبقات وهذا منتهى ماتوصف به رجال السياسة من الفضل والدهاء والعلم بسياسة الأمم وإحكام أمور الدول وحسب عمر انه كان كالشمس المشرقة على الآفاق لا تخفى عليه خافية من أمور الرعية ولا يفوته ظالم فينتصف منه أو مظلوم فينصفه حتى قيل ان علمه بمن نأى من عماله كان كعلمه بمن كان عنده لانه جعل عليهم عيوناً حيثما كانوا ينقلون اليه أخبارهم في معاملة الرعية حتى كانت أخبار الجهات كلها عنده تأتيه بها البرد صباح مساء[1] وياويح العامل الذي تبدر منه بادرة أذى لاحد من

(١) هكذا حال الدول عند ما تبدأ في سلم الصعود ومتى انقلبت الى الهبوط انقلبت عندها هذه القاعدة رأساً على عقب فجعل الامراء العيون على الرعية لا على العمال ليكونوا عوناً للولاة على الرعية كما هي الحال الآن في ممالك الاسلام حيث لا يستطيع أحد ان يشكو ظلم العمال وسوء الاحوال حتى اوغل الولاة في الظلم وساموا الناس سوء العذاب وخربوا العمران وانتثر أمر الدول الاسلامية في الشرق والغرب واختل الملك وقوي عليها العدو وياويح من تبدر منه بادرة شكوى من هذا الخطب فانه للحال يزج به في ظلمات السجون أو ينفى من الارض وهذا ماجعل الاوربية لهذا العهد تتسلط على الممالك الاسلامية وترمي المسلمين بوصمة العجز عن ادارة شؤون الحكومات

الرعية أو يهفو هفوة في شأن من الشؤون فانه لا يلبث أن يأتيه نذير عمر بالعزل أو التأنيب من حيث لا يشعر فلهذا ملأت رهبته القلوب وخافه العمال وانقاد له الناس واستكانت لديه النفوس العاتية

أخرج ابن الجوزي في المناقب عن عمر بن مرة قال : لقي رجل من قريش عمر فقال لن لنا فقد ملئت قلوبنا مهابة . فقال. أفي ذلك ظلم. قال لا. قال فزادني الله في صدوركم مهابة . وأخرج عن عبد الله بن جبير انه سمع عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يحدث قال . مكثت سنة وأنا أريد أن أسأل عمر بن الخطاب رضي الله عنه عن آية فلا أستطيع أن أسأله هيبة . وأخرج ابن جرير في تاريخه عن زيد بن أسلم عن أبيه أن نفراً من المسلمين كلموا عبد الرحمن بن عوف فقالوا : كلم عمر بن الخطاب فانه قد أخشانا حتى والله مانستطيع أن نديم اليه أبصارنا : قال فذكر ذلك عبدالرحمن بن عوف لعمر : فقال أوقد قالوا ذلك فوالله لقد لنت لهم حتى تخوفت الله في ذلك ولقد اشتددت عليهم حتى خشيت الله في ذلك. وايم الله لأنا أشد منهم فرقاً (خوفاً) منهم مني: وأخرج ابن عساكر هذا الحديث من طريق آخر وزاد عليه قول عمر: فأين المخرج وقام يبكي يجر رداءه ويقول عبدالرحمن بيده أف لهم بعدك : والظاهر ان عمر رضي الله عنه انما استعمل مع العرب هذه الشدة لعلمه باخلاقهم الجافية

وتلصق بهم عار الانحطاط الى دركات الضعة والذل واستسلامهم لعقيدة الرضا بالقضاء والصبر على الضيم ولو تخطفهم الامم وأصبحوا يساقون بعصا الاستعباد كاليهود وقد شافهني مرة أحد علماء الالمان بكلام من هذا القبيل علمت منه مرتبتنا في نظر العالم المتمدن بين الامم وكنت والله لا أعلم اننا انتهينا في نظرهم الى هذا الحد فانا لله وانا اليه راجعون

وانهم ان تظاهر لهم باللين فقد فتح لهم باب الادلال والتعجرف المعروف فيهم يدلك على هذا ما رواه الحافظ بن عساكر عن الاصمعي قال : كلم الناس عبد الرحمن بن عوف ان يكلم عمر بن الخطاب في ان يلين لهم فانه قد أخافهم حتى اخاف الابكار في خدورهن : فكلمه عبد الرحمن فالتفت عمر اليه فقال : ياعبد الرحمن اني لا اجد لهم الا ذلك والله لو انهم يعلمون ما لهم عندي من الرأفة والرحمة والشفقة لاخذوا ثوبي من عاتقي : والذي زاد عمر هيبة في النفوس انه كان لا يراعي في الحق كبيراً ولا يبالي شريفاً ولا أميراً الا فيما تقضي به الضرورة السياسية وهذا فيما لا يمس به حق من حقوق الرعية ومن هذا القبيل حكايته المشهورة مع جبلة بن الايهم ملك غسان فانه لما أسلم و وفد على عمر بن الخطاب بأبهة الملك وحشمه تلقاه عمر بالترحيب وبينما هو يطوف يوما وطئ على إزاره اعرابيٌّ من بني فزارة فضربه على وجهه فشكاه الاعرابي الى أمير المؤمنين فاستدعى عمر جبلة وقال له اما ان ترضيه واما ان يضربك كما ضربته فكبر ذلك على جبلة وقال الا تفرقون بين الملك والسوقة : قال لا قد جمع بينكما الاسلام : فاستمهله الى الغد ثم أخذ قومه وفر بهم ليلا ولحق بالامبراطور هرقل بالقسطنطينية فارسل عمر من يسترضيه فابى الرجوع وهذه مرتبة من انصاف الرعية واقادتهم حتى من الملوك لم يبلغها أحد غير عمر بن الخطاب رضي الله عنه : ومن بدائع اخباره في انصاف افراد الرعية من الولاة ما نقله في حسن المحاضرة عن أنس قال أتى رجل من أهل مصر الى عمر بن الخطاب فقال يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم : قال عذت معاذاً : قال سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته فجعل يضربني بالسوط ويقول أنا ابن الاكرمين : فكتب عمر الى عمرو يأمره بالقدوم عليه ويقدم بابنه عليه فقدم : فقال عمر أين المصريّ خذ السوط فاضرب فجعل

يضربه بالسوط ويقول عمر اضرب ابن الأكرمين ثم قال للمصري ضعه على صلعة عمرو : قال يا أمير المؤمنين انما ابنه الذي ضربني وقد اشتفيت منه فقال عمر لعمرو : مذكم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم احراراً : قال يا امير المؤمنين لم اعلم ولم يأتني (يعني) المصري

هذا منتهى الانصاف للرعية والعدل بين طبقات الامة وبمثله علم الناس ان لا كبير فوق الحق ولا امير الادون الشريعة حتى نفسه رضي الله عنه فقد كان ينصف غيره منها ولا يعتبر نفسه امام الحق والعدل الا كواحد من الناس فقد جاء في كنز العمال عن الشعبي قال كان بين عمر وبين أبي بن كعب خصومة فقال عمر اجعل بيني وبينك رجلا . فجعلا زيد بن ثابت فأتياه فقال عمر اتيناك لتحكم بيننا وفي بيته يؤتى الحكم . فلما دخلا عليه وسع له زيد عن صدر فراشه فقال ههنا يا أمير المؤمنين . فقال له عمر هذا اول جور جرت في حكمك ولكن اجلس مع خصمي فجلس بين يديه فادعى أبي وانكر عمر فقال زيد لأبي اعف لامير المؤمنين من اليمين وما كنت لاسألها لاحد غيره فحلف عمر ثم اقسم لا يدرك زيد القضاء حتى يكون عمر ورجل من عرض الناس عنده سواء (وفيه) عن عبد الله بن عكيم قال قال عمر بن الخطاب . انه لا حلم احب الى الله تعالى من حلم امام ورفقه ولا جهل ابغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه ومن يعمل بالعفو فيما بين ظهريه تأتيه العافية ومن ينصف الناس من نفسه يعطي الظفر في أمره والذل في الطاعة أقرب الى البر من التعزز بالمعصية : وخلا هذا فقد كان رضي الله عنه حريصا على ان لا يشكي منه ويرشد الى كل ما فيه راحة الناس وسلامة الامة وتنكب طرق الخطأ او الجور حتى بلغ به الامر ان كان كلما اجتمع اليه ناس من الامصار او جماعة من كبار الصحابة يسألهم عن سيرته بين الناس ويستطلع

طلع ضمائرهم من جهة سياسته في الرعية ولا يأبى قبول النصيحة (ومن) ذلك ماجاء في كنز العمال عن النعمان بن بشير ان عمر بن الخطاب قال في مجلس وحوله المهاجرون والانصار . أرأيتم لو ترخصت في بعض الامور ما كنتم فاعلين فسكتوا فقال ذلك مرتين أو ثلاثا . فقال بشير بن سعد لو فعلت ذلك قومناك تقويم القِدَح (وهو السهم المعوج قبل ان يراش وينصل) فقال عمر . أنتم إذن أنتم إذن (استحسانا لقولهم) . وفي المناقب عن عبد الجبار بن عبد الواحد التنوخي قال قال عمر (رض) وهو على المنبر أنشدكم الله لايعلم رجل مني عيباً الآ عابه فقال رجل نعم ياأمير المؤمنين تديل بين البردين وتجمع بين الأدمين ولا يسع ذلك الناس قال فما أدال بين بردين ولا جمع بين أدمين حتى لقي الله . وقوله يديل بين بردين أي يلبس قميصاً ويخليه ويلبس غيره (وذكر) بعض المؤرخين انه خطب يوماً فقال . أيها الناس من رأى منكم فيَّ اعوجاجاً فليقومه . فقام رجل فقال . والله لو وجدنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا . فقال عمر . الحمد لله الذي أوجد في المسلمين من يقوّم اعوجاج عمر بسيفه

الآ انني لم أقف على سند لهذه الخطبة وهي ان صحت فربما تكون من قبيل الخبر الاول لاخطبة . وأنت ترى من هذه الاخبار الى أية درجة بلغت حرية الضمائر وحب العدل بالمسلمين يومئذ ومنها تعلم انهم إنما سادوا بقول الحق وتعشق الحرية واستقلال الضمائر لابالذل والخنوع والتقيد بقيود العبودية التي ماتقيد بها قوم الا ضربتهم بالهلاك وسودت عليهم الامم كما سودت الغربيين الآن على مائتي مليون من المسلمين اتخذوا رؤسائهم أولياء من دون الله فقذفوا بهم الى هوة الدمار وأقفروا من آثار ملكهم العظيم الديار .

وفي كنز العمال عن سلمة بن شهاب العبديّ قال قال عمر بن الخطاب

أيتها الرعية إن لنا عليكم حق النصيحة بالغيب والمعاونة على الخير وانه ليس شيء أحب الى الله تعالى وأعم نفعاً من حلم امام ورفقه وليس شيء أبغض الى الله تعالى من جهل امام وخرقه

(ومن سياسته) في تقويم أخلاق الناس وحملهم على المحجة الواضحة في الاعمال وان لهم ماتكنه السرائر ماجاء في كنز العمال أيضاً من حديث عبتة بن مسعود قال . سمعت عمر بن الخطاب يقول . ان ناساً كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وان الوحي قد انقطع وإنما نأخذكم الآن بما ظهر من أعمالكم فمن أظهر لنا خيراً آمناه وقربناه وليس لنا من سريرته شيء الله يحاسبه في سريرته . ومن أظهر لنا شراً لم نأمنه ولم نصدقه وان قال ان سريرته حسنة . وإنما يعرض بهذا بالمنافقين تنبيهاً لهم الى انه مراقب لأعمالهم

ومع انه كان يأخذ الناس بهذه الطريقة ويحملهم على الاستقامة في الاعمال فانه كان يحذرهم من خيانة السرائر وينهاهم عن التردد في الامور ويرشدهم الى الجمع بين العزيمة والنية سوقاً لهم الى الاستقامة في العمل والحزم في الرأي فقد أخرج ابن جرير الطبري في تاريخه عن عمر بن مجاهد قال . قال عمر بن الخطاب القوة في العمل ان لا تؤخر عمل اليوم لغد . والامانة ان لا تخالف سريرة علانية واتقوا الله عز وجل فانما التقوى بالتوقي ومن يتق الله يقه .

وهكذا رضي الله عنه كان في رعيته كالوالد الرؤف يواليهم بالنصائح ويرشدهم الى سبيل الخير والسعادة ويأمرهم بالتقوى والعدل والتألف والاجتماع وينهاهم عن التحزب والتفرق وخصوصاً قريشاً فانه كان لاينام لهم على أمر ولا يدعهم ساعة من نصيحة لانهم قدوة الناس وأئمة العرب

أخرج الطبري عن ابن عباس أن عمر قال لناس من قريش بلغني انكم

تخذون مجالس لايجلس اثنان معاً حتى يقال من صحابة فلان من جلساء فلان حتى تحوميت المجالس وأيم الله ان هذا لسريع في دينكم سريع في شرفكم سريع في ذات بينكم ولكأني بمن يأتي بعدكم يقول هذا رأي فلان . قد قسموا الاسلام أقساماً . أفيضوا مجالسكم بينكم وتجالسوا معاً فانه أدوم لالفتكم وأهيب لكم في الناس اللهمَّ ملوني ومللتهم وأحسست من نفسي وأحسوا مني ولا أدري بأينا يكون الكون وقد أعلم انَّ لهم قبيلا منهم فاقبضني اليك .

ومن جميل سياسته انه كان يعلم من نفسه الشدة فلا يرضى لعماله ان يكونوا مثله لهذا عزل خالد بن الوليد عن الامارة وجعل بدله أبا عبيدة بن الجراح وكان عماله جميعهم ممن عرفوا باللين والاناة كأبي عبيدة وسعد بن أبي وقاص وعتبة بن غزوان وحذيفة بن اليمان وعثمان بن حنيف وأضرابهم الآ بعض القواد فربما كانوا على شيء من الشدة وذلك يكون في مثلهم بالطبع ومع شدته رضي الله عنه فقد كان يوصي عماله بالرفق والعدل والاناة وعدم الايغال في العقوبة وبلغ به كرهه الايغال في العقوبة ان أرسل مرة الى أبي موسى الاشعري وقد اشتد في العقوبة على بعضهم يهدده بالعقاب اذا عاد الى مثلها

جاء في كنز العمال عن ابن عمر قال : كنت مع عمر في حج (أو عمرة) فاذا نحن براكب : قال عمر أري هذا يطلبنا : فجاء الرجل فبكى : قال ماشأنك ان كنت غارماً أعناك وان كنت خائفاً أمناك الآ ان تكون قتلت نفساً فتقتل بها وان كنت كرهت جوار قوم حولناك عنهم : قال اني شربت الخمر وأنا أحد بني تيم وأنا أبا موسى جلدني وحلقني وسود وجهي وطاف بي الناس وقال لاتجالسوه ولا تؤاكلوه فحدثت نفسي باحدى ثلاث . أما ان اتخذ سيفاً فاضرب به أبا موسى . وأما ان آتيك فتحولني الى الشام

فانهم لا يعرفونني : وأما ان ألحق بالعدو فآكل معهم وأشرب : فبكى عمر . قال ما يسرني انك فعلت وان لعمر كذا وكذا واني كنت لاشرب الناس لها في الجاهلية وانها ليست كالزنا . وكتب الى أبي موسى ما صورته

سلام عليك أما بعد فان فلان ابن فلان التيمي أخبرني بكذا وكذا وأيم الله اني ان عدت لاسوّدن وجهك ولاطوفنّ بك في الناس فان أردت أن تعلم حق ما أقول فعد . فأمر الناس أن يجالسوه ويؤاكلوه فان تاب فاقبلوا شهادته . وحمله عمر (أي أركبه) وأعطاه مائتي درهم

ومن جميل سياسته اهتمامه بأهل الذمة الذين دخلوا في عهد المسلمين وسلطانهم من الشعوب غير المسلمين ووصاياه للعمال بالحرص على راحتهم وتجنب ظلمهم وأذاهم وبلغ اهتمامه بهم ان كان اذا غابت عنه أخبارهم أو بلغه أقل شيء عنهم يستدعي ذوي أمانة من المسلمين الذين أقاموا في بلادهم ويسألهم عن أحوالهم ويستقصي سيرة العمال معهم ومن ذلك مارواه الطبري في تاريخه أن عمر (رض) كتب الى أمير البصرة أن يبعث له جماعة من ذوي الرأي والبصيرة فأرسل اليه وفداً فيهم الاحنف بن قيس فسألهم عن أهل الذمة وهل يشكون ظلماً أو حيفاً فأجابوه بالسلب ولم يطمئن لقولهم حتى استوثق من الاحنف وكان يثق بصدقه ثم صرفهم

ومن أجمل مايؤثر عنه من الرفق بأهل الذمة ماجاء في كنز العمال أن عمر مرَّ بشيخ من أهل الذمة يسئل على أبواب المساجد فقال ما أنصفناك كنا أخذنا منك الجزية في شبيبتك ثم ضيعناك في كبرك ثم أجرى عليه من بيت المال مايصلحه

ومن حسن سياسته تقدمه الى قواده بأن لا يمسكوا الجند في الغز وأكثر من أربعة أشهر وسببه انه كان يطوف ليلة بالمدينة على عادته فسمع امرأة من وراء بابها تقول

تطاول هذا الليل واسودّ جانبه وأرقني أن لا خليل ألاعبهُ
فلولا حذار الله لا شيء مثله لزُحزح من هذا السرير جوانبهُ

فكتب عمر الى عماله ان لا يغيب أحد بالغزو : ونعم الرأى

ومن سياسته وتوقيفه الحدود عن الضرورة الداعية لذلك فقد أخرج ابن أبي شيبة في المصنف عن حكيم بن عمير قل كتب عمر بن الخطاب ألا لايجلدنّ أمير جيش ولا سرية أحداً الحد حتى يطلع الدرب لئلا تحمله حمية الشيطان ان يلحق بالكفار

ومن سياسته انه كان يحبس عن العمل كثيراً من كبار الصحابة منهم من كان لا يستعمله خوفاً على دينه من ان يدنسه بالولاية فقد أخرج ابن سعد عن عمران بن عبد الله قال : قال ابي بن كعب لعمر بن الخطاب ما لك لا تستعملني : قال اكره ان تدنس دينك

ومنهم من لا يستعمله خشية ان يحمله على رقاب الناس أو خشية ان تحدثه نفسه بالامارة اذا ابعد عن مراقبته وهؤلاء هم بنوهاشم لما كان يتفرسه فيهم من التطلع الى الامارة ففي مروج الذهب للمسعودي عن عبد الله بن عباس ان عمر أرسل اليه فقال يا ابن عباس ان عامل حمص هلك وكان من أهل الخير وأهل الخير قليل وقد رجوت ان تكون منهم وفي نفسي منك شيء لم أره منك وأعياني ذلك فما رأيك في العمل قال لن أعمل حتى تخبرني بالذي في نفسك . قال وما تريد الى ذلك . قال أريده فان كان شيء أخافه على نفسي خشيت منه عليها الذي خشيت وان كنت بريئاً من مثله علمت اني لست من أهله فقبلت عملك هنالك فاني قلّما رأيت أو ظننت شيئاً الا عاينته : فقال يا ابن عباس اني خشيت ان يأتي عليّ الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلم الينا ولا هلم اليكم دون غيركم :

اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وتركم : قال (اي ابن عباس) والله قد رأيت من ذلك فلم تراه فعل ذلك : قال (أي عمر) والله ما ادري أضن بكم عن العمل فأهل ذلك أنتم أم خشي أن تبايعوا بمنزلتكم منه فيقع العقاب ولا بد من عتاب فقد فرغت لك فما رأيك قال : (أي ابن عباس) أراني لا أعمل لك : قال ولم : قلت وان عملت لك وفي نفسك ما فيها لم أبرح قذى في عينيك قال : فأشر عليّ : قلت اني أرى تستعمل صحيحا منك صحيحا لك

ومن سياسته تقدمه الى العمال بان لا يأذنوا لاحد من جنود المسلمين ان يزرع أو يزارع في البلاد المفتتحة وان لا يقطعوا أرضاً لاحد منهم البتة وذلك لامور الامر الاول كي لا يزاحم المسلمون أهل الذمة والعهد في أرضيهم ويضيقوا عليهم في معيشتهم والامر الثاني كي لا يألف الجند الاعمال في الارض في إبان الفتح فتميل نفوسهم الى الراحة من عناء الحرب والأمة حربية لم يأن لها اطراح لامة القتال واعتزال الحرب والاخلاد الى الراحة والترف والامر الثالث كي تبقى الارض في يد أهلها مادة تستمد منها الدولة ما يقوم بشؤونها العسكرية والادارية ولا يحتكرها المقتطعون من جنده فتعدم مادة القوة عن الدولة الاسلامية فيما بعد ولا تجد من المال ما يكفي لمن يقوم من الجند بحراسة البلاد وقد مرّ الشاهد في سياسته هذه في غير محل من هذا الكتاب ومنه ما كتبه الى عمال العراق وعمرو بن العاص في مصر كما رأيت ذلك في فصل (كيف يكون الاستعمار) وأخباره في سياسته طويلة نكتفي منها بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ نظرة في بعض الاخبار المتعلقة بأهل الذمة ﴾

قد رأيت في هذا الباب وفي باب اجلاء عمر لأهل نجران وسترى في باب أخباره وأقواله كيف كانت سياسة عمر مع أهل الذمة وكيف كان شديد الحرص

على راحتهم حاثاً للعمال على انصافهم وعدم ايذائهم ومن كان هذا شأنه مع القوم فيستحيل على العقل التصديق بما يناقض سيرته هذه معهم وقد اورد بعض ارباب السير ونقلة الحديث خبرين عن عمر يتعلقان بأهل الذمة احدهما امره لعامله في العراق بختم رقاب أهل الذمة من الفرس بالرصاص : والثاني تقدمه الى العمال ان لا يحدث النصارى في امصار المسلمين (أي التي مصرها المسلمون خاصة كالبصرة والكوفة) بيعة ولا يرفعوا صليبا على ان هذين الخبرين وما شابههما قد وهن روايتها أهل الحديث وحفاظه وقالوا إنها موضوعة وقد اورد الامام الشوكاني في نيل الاوتار الحديث الثاني عن البيهقي وعن الحافظ الحراني باختلاف بينهما باللفظ وقال عن الاول في اسناده ضعف وعن الثاني في اسناده حنش وهو ضعيف . ويريد بحنش احد المطعون بهم في رواية الحديث .

فلا ندري ما هو الباعث لفريق الوضاعين على وضع امثال هذه الاحاديث أهو الجهل بمقاصد الاسلام الذي جاء للتأليف بين القلوب والتعارف بين الشعوب (يا أيها الناس انّا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان أكرمكم عند الله اتقاكم) ام ذلك شيء دس في الاخبار وتناقله الرواة مع الغفلة عن مقاصد الشرع

ليس بعجيب على الكذابين أو المنافقين أو الجاهلين ان يدسوا ماشاؤا في الاخبار انما العجيب ان ينقلها بعض المؤرخين والعلماء الأعلام على علاتها كما نقل ابن الجوزي وهو امام معروف الخبر الثاني في مناقب عمر دون التنبيه على ضعفه وانما جرّ بلاء التشيع ونفث روح التفرق وانسى المسلمين اصول التألف والتحابب حتى بين انفسهم انتشار امثال هذه الاحاديث والاخبار في كتب الخاصة مع علمهم بان منها الكاذب ومنها ضعيف السند وانما دعاهم الى نقلها نوهم

انها قربى يتقرب بها الى الدين او يتعصب بها له مع ان التعصب للدين هو التمسك به والذود عن حوضه واعزاز جانبه وجانب أهله بارشادهم الى ان السيادة على الامم انما هي بمسابقتهم في مضمار الحياة الاجتماعية الا بايذاء الغير في دينه وحريته والله تعالى يقول (لكم دينكم ولي دين) ولو اراد الاسلام ايذاء الذمي في حريته الدينية والشخصية لامر باكراه أهل الكتاب على الاسلام كما أمر باكراه مشركي العرب . ومن ثم فلو فرض ورود امثال تلك الاخبار سواء عن عمر (رض) أو عن غيره فلا ينبغي لها ان تحمل على ما يناقض اصول الدين بل تحمل على الضرورة السياسية التي ربما تدعو اليها سياسة الفتح كما يدل عليه تخصيص امر عمر لو صح الخبر عنه بمصر مخصوص اذ لا بد لكل فاتح من اظهار الشدة في بادئ الامر بما يشبه ما يسمونه الآن الادارة العرفية او العسكرية ريثما تثبت قدمه في البلاد وتسكن الى حكمه نفوس المغلوبين هذا من جهة ومن جهة ثانية فربما كان لجدة العرب في الدين وعدم تمكن عامتهم منه لقرب عهدهم به دخل في مثل تلك السياسة التي يراد بها المحافظة على عقائد العرب يومئذ من ان يتطرق اليها أهل جوارهم من الكتابيين بشيء من الافساد لقرب عهدهم بالوثنية واغراقهم في الجهل كما كان لهذه السياسة دخل في اجلاء أهل نجران ومن هذا القبيل الخبر الذي نحن بصدد الكلام عليه وهو خبر تقدم عمر الى عماله بعدم احداث النصارى بيعاً في الامصار التي مصرها المسلمون هذا على فرض صحته وهو لم يصح كما رأيت وعلى هذا القصد ينبغي ان يحمل كل ما جاء من الاحاديث والاخبار التي من هذا القبيل لا على قصد ايجاد النفرة بين المسلمين وأهل الكتاب لاسيما والمحذور الذي كان يدور في خلد الصحابة ويخشاه النبي صلى الله عليه وسلم على العرب يومئذ كان قد زال بزوال اسبابه ولا يحمل هذه الاخبار على غير هذا المحمل الذي بسطناه

الا جاهل بمقاصد الاسلام غير عالم بأن الدين الذي يأمر أهله بمعاشرة أهل الذمة بالمعروف ومعاملتهم بالانصاف وعدم إيذائهم في حال من الاحوال لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم لا يناقض نفسه ويأتي بما يخالف عدله ولكن العقلاء الذين يضعون الامور موضع النقد والمحاكمة قليل وآفة العلم الفهم بما يوافق الهوى لا الحق والسلام

أخباره مع عماله
ووصاياه لهم

كان رضي الله عنه شديد المراقبة لعماله كثير السؤال عن سيرتهم وأخبارهم وبلغ به ذلك ان أقام عليهم العيون يوافونه بأخبارهم وجعل أحد الصحابة وهو من أهل التقى والصدق واسمه محمد بن مسلمة قاصاً أي محققاً لأخبارهم ومقتصاً لآثارهم فاذا شكا أحد من الرعية أحداً من العمال أرسل محمداً المذكور يقتص الخبر ويحقق الشكوى تحقيقاً علنياً لا في السر كي لا يؤخذ العامل بوشاية واش أو سعاية مفترٍ فيذهب ويجمع اليه الناس في المسجد وربما طاف عليهم في أحيائهم يسألهم عن علمهم بسيرة الامير وبأسباب الشكوى منه ومن ذلك ما ذكره الطبريّ في تاريخه عند الخبر عن ارسال الجيوش الى نهاوند في أخبار سنة (٢١) قال ونزل بسعد (أي ابن أبي وقاص) أقوام والبواعليه فيما بين تراسل القوم واجتماعهم الى نهاوند ولم يشغلهم ما دهَم المسلمين من ذلك وكان ممن نهض الجراح بن سنان الاسديّ في نفر فقال عمر ان الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم في هذا الأمر وقد استعد لكم من استعد وايمُ الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وان نزلوا (يعني الفرس) بكم فبعث عمر محمد بن مسلمة والناس في الاستعداد للاعاجم والاعاجم في الاجتماع وكان محمد بن مسلمة هو صاحب العمال الذي يقتص آثار

من شكى زمان عمر [1] فقدم محمد على سعد ليطوّف به على أهل الكوفة والبعوث تضرب على أهل الامصار الى نهاوند فطوّف به على مساجد أهل الكوفة لايتعرض للمسئلة عنه في السر وليست المسئلة في السرّ من شأنهم إذ ذاك . وكان لايقف على مسجد فيسئلهم عن سعد إلا قالوا لا نعلم إلا خيراً ولا نشتهي به بدلا ولا نقول فيه ولا نعين عليه : إلا من مالأ الجراح ابن سنان وأصحابه فانهم كانوا يسكتون ولا يقولون سوءًا الا ان قال الطبري وخرج محمد به (أي بسعد) وبهم الى عمر حتى قدموا عليه فأخبره الخبر فسأله عمر عن أوجه الشكوى فأنكرها ولم يسعهم إثباتها فردهم عمر وخشى اذا أبقى سعداً على الكوفة أن يكون بينهم وبينه أمر فعزله احتياطاً وسأله من خليفتك على الكوفة فقال له عبد الله بن عبد الله بن عتبان فأقرّه

ومنه تعلم كيف كان رضي الله عنه مراقباً لعماله كثير التحقيق عن أخبارهم لا يتعجل في أمرهم اذا جاءته شكاية على أحدهم بل يتثبت الخبر بنفسه ويحققه بمواجهته فان ثبت عليه شيء مما يدعيه الشاكي عزله وله بهذا الصدد أخبار كثيرة مع عماله ربما نأتي على شيء منها في سيرة أشهر المشهورين من رجاله ان شاء الله تعالى

وكان رضي الله عنه لا يحب أن يفرق عماله في المعاملة بين الحر والعبد ولا بين القويّ والضعيف أخرج ابن جرير الطبري عن الاسود بن يزيد قال كان الوفد اذا قدموا على عمر (رض) سألهم عن أميرهم فيقولون خيراً فيقول هل يعود مرضاكم فيقولون نعم فيقول هل يعود العبد فيقولون نعم فيقول كيف صنيعه بالضعيف وهل يجلس على بابه فان قالوا لا عزله

---

(١) وظيفة محمد بن مسلمة هذه تشبه وظيفة المفتشين لهذا العهد

وكان رضي الله عنه لايغفل عن أن يرسل الأوامر الى عماله تباعاً في أن يعدلوا ولا يظلموا ولا يأخذوا بالظنة ولا يبغوا أو يغدروا ومن ذلك انه لما وفد عليه الاحنف بن قيس وسأله عن حالة الذمة في ولاية البصرة وصرفه كما تقدم الخبر عن ذلك في الفصل السابق كتب معه كتاباً الى عتبة بن غزوان أمير البصرة يوصيه فيه بأهل الذمة هذه صورته (عن تاريخ الطبري)

أعْزِب الناس عن الظلم واتقوا واحذروا ان يدال عليكم لغدرٍ يكون منكم أو بغي فانكم انما أدركتم بالله ما أدركتم على عهد عاهدكم عليه وقد تقدّم اليكم فيما أخذ عليكم فأوفوا بعهد الله وقوموا على أمره يكن لكم عوناً وناصراً وبلغه مرة ان حرقوصاً عامله على الاهواز نزل جبل الاهواز والناس يختلفون اليه والجبل كؤود يشق على من رامه فكتب اليه ما صورته نقلاً عن تاريخ الطبري في حوادث سنة (١٧)

(أما بعد) بلغني انك نزلت منزلاً كؤداً لا تؤتى فيه إلا على مشقة فأسهل ولا تشق على مسلم ولا على معاهد وقم في أمرك على رجل تدرك الآخرة وتصفُ لك الدنيا ولا تدركنك فترة ولا عجلة فتكدّر دنياك وتذهب آخرتك

هذه لعمري الرأفة بالرعية وهذا منتهى الحنان وغاية الحرص على راحة الناس فاللهم ان خليفة لا يغفل حتى عن أمثال هذه الجزئيات لخليفة لا يخلفه الزمان ولا يوهن له سلطان ولا يمحى ذكره عن صفحات الجنان فرضي الله عنه وأرضاه

ومن وصاياه للعمال ما أخرجه الطبريّ عن أبي عمران الجونيّ قال كتب عمر الى أبي موسى: انه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائجهم فأكرم من قبلك من وجوه الناس وبحسب المسلم الضعيف من العدل ان ينصف في الحكم وفي القَسم

ومراده بهذه الوصية أن يكرم أبو موسى وجوه الناس ليألفوه ويرفعوا اليه حوائج المسلمين وأمور الضعفاء كي يكون عارفاً بحاجات الرعية من كل الطبقات فينصف هذا في الحكم وذلك في القسم ولا يفوت عدله فرداً من أفراد الرعية الذين لايصلون اليه

وأخرج عن أبي فراس قال خطب عمر بن الخطاب فقال : يا أيها الناس اني والله ما أرسل عمالاً اليكم ليضربوا أبشاركم ولا يأخذوا أموالكم ولكني أرسلهم اليكم ليعلموكم دينكم وسنتكم (وفي رواية ويقضوا بينكم بالحق ويحكموا بينكم بالعدل) فمن فعل به شيء سوى ذلك فليرفعه إلي فوالذي نفس عمر بيده لاقصنه منه[1] فوثب عمرو بن العاص فقال يا أمير المؤمنين أرأيت ان كان رجل من امراء المسلمين على رعيته فأدب بعض رعيته انك لتقصه منه : قال أي والذي نفس عمر بيده اذاً لأقصنه منه وكيف لا أقصه منه وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقص من نفسه . ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم ولا تجمروهم فتفتنوهم ولا تمنعوهم حقوقهم فتكفروهم ولا تنزلوهم الغياض فتضيعوهم

وعن أبي رواحة قال كتب عمر بن الخطاب الى العمال : اجعلوا الناس عندكم في الحق سواء قريبهم كبعيدهم وبعيدهم كقريبهم إياكم والرشا والحكم بالهوى وان تأخذوا الناس عند الغضب فقوموا بالحق ولو ساعة من نهار

وروى الطبري ان عمر كان يقول في عماله : اللهم اني لم أبعثهم ليضربوا أبشارهم من ظلمه أميره فلا امرة عليه دوني : ومع كل هذا التشديد على العمال فانه رضى الله عنه كان دائماً قلقاً على الرعية خائفاً من ان يجار عليهم بأمر لا يصله

---

(١) يعني يمكن خصمه من الاقتصاص منه أو يقتص له منه

خبره لهذا عزم قبُيل قتله ان يسافر ويطوف على العمال جميعهم ليبحث عن أمور الرعية ويقضي حاجاتهم : فقد أخرج الطبريّ عن الحسن قال : قال عمر بن الخطاب لئن عشت ان شاء الله لاسيرنّ في الرعية حولا فاني أعلم ان الناس حوائج تقطع دوني أمّا عمالهم فلا يرفعونها اليّ وأما هم فلا يصلون اليّ فأسير الى الشام فأقيم بها شهرين ثم أسير الى الجزيرة فأقيم بها شهرين ثم أسير الى مصر فأقيم بها شهرين ثم أسير الى البحرين فأقيم بهاشهرين ثم أسير الى الكوفة فأقيم بهاشهرين ثم أسير الى البصرة فأقيم بها شهرين والله نعم الحول هذا . ونحن نقول نعم الخليفة هذا ولا والله لا يخلفه خليفة في المسلمين ولا يدانيه ملك من ملوك الارض أجمعين

هكذا كان قلقه على الرعية وتطلعه الى أخبار العمال مع تحريه في انتخابهم أهل الامانة والتقى والكفاءة لولاية أمور الرعية حتى كان أكثر عماله ناهجين في العدل منهجه سالكين في الزهد والورع والعفة طريقه فمن عماله سلمان الفارسي وكان عامله على المدائن وكان على جانب من الزهد والتقى والصلاح عظيم فكان يلبس الصوف ويركب الحمار ببردعته بغير إكاف ويأكل خبز الشعير فلما احتضر بالمدائن قال له سعد بن أبي وقاص يا أبا عبدالله أذكرك الله عند همك اذا هممت وعند لسانك اذا حكمت وعند يدك اذا قسمت : فجعل سلمان يبكي فقال يا أبا عبد الله ما يبكيك : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ان في الآخرة عقبة لا يقطعها الا المخفون وأرى هذه الاساودة (جمع سواد وهو المال الكثير) حولي فنظروا فلم يجدوا في البيت الاّ دواة وركوة ومطهرة

وكان عامله على الشام أبا عبيدة بن الجراح وكان يظهر للناس وعليه الصوف الجافي فعذل على ذلك وقيل له انك بالشام وأمير المؤمنين وحولنا الاعداء فغير من زيك وأصلح من شارتك : فقال ما كنت بالذي أترك

ما كنت عليه في عصر رسول الله صلى الله عليه وسلم

وكان عامله على حمص سعيد بن عامر بن حزيم فشكاه أهل حمص اليه وسألوه عزله : فقال عمر اللهم لا تفل فراستي فيهم . ماذا تشكون منه : قالوا لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار ولا يجيب أحداً بليل وله يوم في الشهر لا يخرج الينا : فقال عمر عليّ به فلما جمع بينه وبينهم فقال ما تنقمون منه : قالوا لا يخرج الينا حتى يرتفع النهار : فقال ما تقول يا سعيد : فقال يا أمير المؤمنين انه ليس لاهلي خادم فاعجن عجيني ثم اجلس حتى يختمر ثم اخبز خبزي ثم أتوضأ وأخرج اليهم : قال وماذا تنقمون منه . قالوا لا يجيب بليل . قال قد كنت أكره أن أذكر هذا اني جعلت الليل كله لربي وجعلت النهار لهم . قال وماذا تنقمون منه . قالوا له يوم في الشهر لا يخرج الينا . قال نعم ليس لي خادم فاغسل ثوبي ثم اجففه فامسي . فقال عمر الحمد لله الذي لم يفل فراستي فيكم يا أهل حمص فاستوصوا بواليكم خيراً . ثم ان عمر بعث اليه بألف دينار وقال استعن بها . فقالت له امرأته قد أغنانا الله عن خدمتك فقال لها ألا ندفعها الى من يأتينا واحوج ما كنا اليه قالت بلى فصرها صراراً ثم دفعها الى من يثق به وقال انطلق بهذه الى فلان وبهذه الى يتيم بني فلان ومسكين آل فلان حتى بقي منها شيء يسير فدفعه الى امرأته وقال أنفقي هذه ثم عاد الى خدمته فقالت له امرأته ألا تبعث بذلك المال فتشتري لنا منه خادماً فقال سيأتيك أحوج ما تكونين اليه

هكذا كان معظم عمال رضي الله عنه فكيف لا يكون عصره أسعد العصور على المسلمين وأعظمها بركة على الرعية ولا جرم فالخليفة الصالح لا يختار من العمال الا الصلحاء العدول والناس على دين ملوكهم والعمال يسلكون طرائق سلوكهم فان كان الملوك ظالمين ظلم العمال وان كانوا عادمين عدلوا

وكان رضي الله عنه يكره احتجاب العمال عن الرعية ويبالغ في حب ظهورهم للناس فان بلغه أن عاملا احتجب عن الرعية نكل به أشد تنكيل فقد روي الطبري أن سعد بن أبي وقاص لما بني دار الامارة في الكوفة وكانت الاسواق قريبة منه وغوغاؤهم تمنع سعداً الحديث ادعى الناس عليه ما لم يقل وقالوا قال سعد سكّن عني الصويت و بلغ عمر ذلك وان الناس يسمون الدار قصر سعد فدعا محمد بن مسلمة فسرحه الى الكوفة وقال أعمد الى القصر حتى تحرق بابه ثم ارجع عودك على بدْئك فخرج حتى قدم الكوفة فاشترى حطباً ثم أتى به الى القصر فأحرق الباب وأتى سعد فأخبر الخبر فقال . هذا رسول أرسل لهذا الشأن و بعث لينظر من هو فلما عرفه أرسل اليه رسولا بان أدخل فأبى فخرج اليه سعد فأراده على الدخول والنزول فأبى وعرض عليه نفقة فلم يأخذ ودفع كتاب عمر الى سعد وفيه

بلغني انك بنيت قصراً اتخذته حصناً و يسمى قصر سعد وجعلت بينك وبين الناس باباً فليس بقصرك ولكنه قصر الخبال انزل منه منزلاً مما يلي بيوت الاموال وأغلقه ولا تجعل على القصر باباً يمنع الناس عن دخوله وتنفيهم به عن حقوقهم ليوافقوا مجلسك ومخرجك من دارك اذا خرجت :

فحلف له سعد ما قال الذي قالوا ورجع محمد بن مسلمة من فوره حتى أذا دنا من المدينة فَنِيَ زاده فتبلغ بِلحاء الشجر. فقدم عمر فسأله فأخبره الخبر كله فقال هلا قبلت من سعد : فقال لو أردت ذلك كتبت لي به أو أذنت لي فيه : فقال عمر ان اكمل الرجال رأيا من اذا لم يكن عنده عهد من صاحبه عمل بالحزم أو قال به ولم ينكل

وأخبره محمد بيمين سعد وقوله فصدق سعداً وقال : هو أصدق ممن

روي عليه وأبلغني

جاء في كنز العمال عن عاصم بن أبي النجود أن عمر بن الخطاب كان اذا بعث عماله شرط عليهم ان تركبوا برذوناً ولا تأكلوا نقياً ولا تلبسوا رقيقاً ولا تغلقوا ابوابكم دون حوائج الناس. إن فعلتم شيئاً من ذلك فقد حلت بكم العقوبة. ثم يشيعهم فاذا أراد أن يرجع قال: اني لم أسلطكم على دماء المسلمين ولا على أعشارهم ولا على أبشارهم [1] ولا على اعراضهم ولا على اموالهم ولكني بعثتكم لتقيموا بهم الصلاة وتقسموا فيهم فيئهم وتحكموا بينهم بالعدل فان أشكل عليكم شيء فارفعوه اليّ: ألا فلا تضربوا العرب فتذلوها ولا تجمروها [2] فتفتنوها ولا تعتلوا عليها فتحرموها جوّدوا القرآن: (وفي رواية) وأقلوا من الرواية

وكان اذا بلغه عن أحد من عماله أمر يخل بالمروءة عزله في الحال في المناقب لأبي الفرج بن الجوزي عن ابن سعد قال. كان عمر بن الخطاب استعمل النعمان بن نضلة على ميسان وكان يقول الشعر فقال.

ألا هل أتى الحسناء ان حليلها بميسان يسقى في زجاج وحنتم

في أبيات يقول في ختامها

لعل أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

فلما بلغ عمر قوله قال. نعم والله انه ليسوءني من لقيه فليخبره اني قد عزلته: فقدم عليه رجل من قومه فأخبره بعزله فقدم على عمر فقال والله ما أحب شيأ مما قلت ولكن كنت أمرءاً شاعراً وجدت فضلا من قول فقلت فيه الشعر فقال عمر والله لا تعمل لي على عمل ما بقيت. وفي رواية عن عثمان الخرامي عن أبيه قال

---

(١) كناية عن أجسامهم وأموالهم (٢) قال في القاموس جمره تجميرا جمعه والقوم على الامر تجمعوا الى ان قال والجيش حبسهم في أرض العدو ولعله هو المراد

لما بلغ عمر بن الخطاب هذا الشعر كتب الى النعمان بن نضلة (بسم الله الرحمن الرحيم) حم تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول لا إله إلا هو اليه المصير. أما بعد فقد بلغني قولك

لعلّ أمير المؤمنين يسوءه تنادمنا بالجوسق المتهدم

وأيم الله انه ليسوءني وعزله

ومن عجيب سياسته مع العمال انه كان يحصي أموالهم قبل العمل وما زاد بعده يصادرهم على كله أو بعضه ومن هذا ما رواه الطبري ان عمر استعمل عتبة بن أبي سفيان على كنانة فقدم المدينة بمال فقال له ما هذا يا عتبة قال مال خرجت به معي وتجرت فيه . قال ومالك تخرج المال معك في هذا الوجه فصيره في بيت المال .

وروى ان خالداً لما أدرب هو وعياض الى بلاد الروم انتجعه من العراق رجال منهم الاشعث بن قيس فوصله بعشرة آلاف درهم فبلغ ذلك عمر فكتب الى أبي عبيدة أن يحصي مال خالد ويصادره على النصف فدعاه وتلا عليه أمر أمير المؤمنين وصادره على نصف ماله حتى الخفين أخذ منهما واحداً وترك له الآخر . وكان خالد بن الوليد أميراً على قنسرين من قبل أبي عبيدة لا من قبل عمر ففي رواية أخرى للطبري أن عمر كان لا يخفى عليه شيء في عمله فكتب اليه من العراق بخروج من خرج من الشام وبجائزة من اجيز فدعا البريد وكتب معه الى أبي عبيدة ان يقيم خالداً ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الاشعث أمن ماله أم من اصابة أصابها (يعني من المغنم) فان زعم انها من اصابة أصابها فقد أقرّ بخيانة وان زعم انها من ماله فقد أسرف وأعزله على كل حال واضمم اليك عمله . فكتب أبو عبيدة الى خالد فقدم عليه ثم جمع الناس وجلس لهم على المنبر فقام البريد فقال أمن مالك أجزت بعشرة آلاف أم من اصابة فلم يجبه حتى أكثر عليه

وأبو عبيدة ساكت لايقول شيئاً فقام بلال (مولى رسول الله) صلى الله عليه وسلم اليه فقال ان أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا ثم تناول قلنسوته فعقله بعمامته وقال ماتقول أمن مالك أم من اصابة قال لا بل من مالي فأطلقه وأعاد قلنسوته ثم عممه بيده ثم قال (نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا) وأقام خالد متحيراً لايعلم أمعزول هو أم غير معزول وأبو عبيدة لايخبره كرامة له وكأن عمر لما أبطأ عليه الخبر علم بالذي كان فكتب الى خالد بالقدوم عليه فعتب خالد على أبي عبيدة لأنه لم يعلمه بأمر عمر من قبل فقال أبي عبيدة إني والله ما كنت لأروعك ماوجدت لذلك بداً وقد علمت ان ذلك يروعك. ثم ان خالداً رجع الى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم وتحمل ثم أقبل الى حمص فخطبهم وودعهم ثم خرج نحو المدينة حتى قدم على عمر فشكاه وقال لقد شكوتك الى المسلمين وبالله انك في أمري غير مجمل [1] يا عمر فقال عمر من أين هذا الثرى . قال من الانفال والسهمان مازاد على الستين ألفاً فلك فقوم عمر عُروضه [2] فخرجت اليه عشرون ألفاً فأدخلها بيت المال ثم قال ياخالد والله انك عليَّ لكريم وانك اليَّ لحبيب ولن تعاتبني بعد اليوم على شيء. ثم ان عمر كتب الى الامصار اني لم أعزل خالداً عن سخطة ولا خيانة ولكن الناس فتنوا به فخفت ان يوكلوا اليه ويبتلوا به فأحببت ان يعلموا ان الله هو الصانع وان لايكونوا بعرض [3] فتنة. ويقال انه عوضه عما أخذه منه وكتب الى الناس. وهكذا أيضاً شاطر سعد بن أبي وقاص على ماله وشاطر أبا هريرة ولما أبى ان يشاطره ضربه وصادر غيرهم أيضاً ورد أموالهم لبيت المال . وهذا أمر لايعجب من صدوره عن عمر (رض) على شهرته بالعدل لانه لابدَّ أن يكون له في هذا رأي سديد ومرمى بعيد ولعل الحامل

---

(١) مجمل من أجمل في الطلب أتأد واعتدل ولم يفرط (٢) متاعه (٣) بطريق

له على ذلك هو لانه كان يرى أن هذا المال حق المسلمين فينبغي له ان يكون لعامة المسلمين حتى لايتكاثر به الاغنياء ويتعالوا به على الفقراء ويدلنا على هذا ما رواه ابن جرير الطبري في تاريخه عن السائب بن يزيد قال . سمعت عمر بن الخطاب يقول والله الذي لا إله إلا هو (قالها ثلاثا) مامن أحد إلا له في هذا المال حق أعطيه أو منعه وما أحد أحق به من أحد إلا عبد مملوك وما أنا فيه إلا كأحدهم ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم والرجل وبلاؤه في الاسلام والرجل وقدمه في الاسلام والرجل وغناؤه (كفايته) في الاسلام والرجل وحاجته والله لئن بقيت ليأتين الراعي بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه

وأخرج عن حبيب بن ابى وائل قال . قال عمر بن الخطاب لو استقبلت من أمري ما استدبرت لأخذت فضول أموال الاغنياء فقسمتها على فقراء المهاجرين

ولايخفى على من له إلمام بأصول المذاهب الاشتراكية القائمة في هذا العصر في أوروبا ان من الاغراض التي ترمي اليها جعل الأموال حقاً يشترك فيه الناس من كل الطبقات والاسلام قد قرر قاعدة الاشتراك إلا ان بين مذهب الاشتراكيين ومذهب المسلمين فرقاً في ان المسلمين يعتبرون في هذا الحق في ثمرة رأس المال وهي الفضول وان الاشتراكيين يعتبرونه في رأس المال نفسه وهو خطأ أداهم اليه الافراط والغلو كما شرحنا ذلك في كتابنا تنبيه الافهام . وبالله لو علم اؤلئك الناس ان الاسلام قرر قاعدة الاشتراك على أصول الحق والعدل التي لا تصادم نواميس الاجتماع وان أهله باتوا لا يعرفون شيئاً من هذه القاعدة ولا غيرها من القواعد التي تضمن سعادتهم

الاجتماعية وحياتهم الملية لأخذتهم الحيرة من هذا الأمر وربما تنبه قادتهم وزعماؤهم الى قبول الاسلام وجعله أساساً للسعادة التي ينشدونها للانام واكتفوا في بث دعوتهم مؤنة المقاومة التي يلاقونها من أهل الجدل والخصام

﴿ كلمة في الحرية والطاعة ﴾

(أو الحكومة العسكرية والحكومة القانونية)

أخذت على نفسي أن لا أغفل في هذا الكتاب خبراً يمر على القارئ من الاخبار التاريخية المهمة مالم اردفه ببيان مفيد لاسيما فيما يرجع للاخلاق ويمثل صورة الفضائل والرذائل ويفرق بين السعادة والشقاء ومما ينبغي ان لا يفوتنا النظر فيه حادث خالد بن الوليد الذي هو أهم حادث في تاريخ الحرية العربية في الاسلام وكيف لا يكون كذلك وهو يمثل نتائج الحرية والعدل في صورة من الكمال تتزلزل لها أقدام الظلم وتخشع أمامها قوى الكون البشري الهابطة من أعلى عليين والصاعدة من أسفل سافلين ألا وهي الطاعة للرئيس والخضوع للقانون

الحرية فضيلة معناها تخلص الانسان من الاسر وتملصه من ضيق الحجر وجواز تصرفه في كل حق من حقوق الانسانية التي سوّغها العقل وقضت بها أصول الاجتماع والتعاون بحيث يكون الانسان مالكا لارادته لا بهيمة تحرك بارادة سواه مالكا لثمرة عمله لاحق لآخر بحرمانه منها مالكا لأمنه لا سلطان لآخر فى سلبه منه ومتى فقد الشخص واحدة من هذه الثلاث سلب منه معنى الحرية وصار كالحيوان يتعب ليأكل سواه ويشقى ليسعد غيره ويسمن ليموت هو ويحيا من عداه

ربما يتوهم ان الحرية بهذا المعنى هي الانطلاق عن كل قيد مادام ليس لارادة النفس على مايعلم من حالها من قيد وليس الامر كذلك إذ كما ان التفريط بالحرية طرف للرذيلة كذلك الافراط أيضاً وفي كلا الطرفين رجوع للبهيمية

وفقد لفضيلة الحرية وانما هناك وسط ترجع اليه وقيد تتقيد به بل قيدان وهما القيد النفسي والقيد الخارجي فاما القيد النفسي فهو إما الزاجر الديني وإما الفضيلة الذاتية والقيد الخارجي هو الوازع وليس في كلا القيدين معنى للعبودية أو منع للحرية وانما هو إمساك للنفس عن الاندفاع مع تيار الهوى والشهوة الذي يلحق الانسان بالبهائم ففي مطاوعة الارادة للزاجر النفسي مطاوعة للفضيلة ووقوف عند حد الانسانية وفي مطاوعتها للوازع مطاوعة للشرع وخضوع للقانون

الانسان ميال بطبعه للسعادة اذا ارشد اليها وحثّ عليها والشرائع انما هي شرعة السعادة البشرية وقوام الحياة الاجتماعية فالوازع الذي يزع الناس بالشريعة لا يحاول بما يزع به قهراً للنفوس ولا حجراً على الارادة بل يماشي الارادة ويساعد النفوس على نيل السعادة لهذا فطاعة الوازع من مستلزمات السعادة لا يأباها العقل ولا يهضم بها حق من حقوق الحرية مادامت طاعته يراد بها طاعة القانون الذي هو أصل في السعادة لا طاعة الوازع نفسه من حيث كونه آمراً بهواه وشهواته لا مأموراً من القانون ومهيمنا عليه

اذا تقرر هذا فاعلم ان الأمة العربية كانت في جاهليتها على جانب من الاغراق في الحرية يكاد يكون إفراطاً فيها كما يعلم ذلك كل مطلع على تاريخ هذه الأمة لان حب الحرية خلق تأصل في نفوسها منذ نشأت في فضاء البوادي المتسع مطلقة عن كل حجر . ومن هذا الافراط نشأ ما يسمونه العصبية ذلك لانهم كانوا أشتاتاً في التجزؤ الى بطون وقبائل لا تجمعهم جامعة الجنس وليس ثمة وازع يضمهم الى كلمة واحدة فكانوا يفزعون عند الحاجة الى العصبية بان تتحد العشيرة الواحدة ضد الأخرى دفاعاً عن الحوزة وصداً لغارة أو جلبا لمغنم ومع ما في هذا الامر من ضعف النظام الاجتماعي وفقد الرابطة القانونية فانهم كانوا به والعين عليه

حريصين لانه نتيجة مغالاتهم في الحرية وحبهم للانطلاق عن كل قيد. ولما جاء الاسلام ببيانه وبسط عليهم جناح حنانه وجمعهم على كلمته وضم شتيتهم الى رايته كان من مبادئه الاولى في النصح والارشاد تحذيرهم من التفرق وتعليمهم لأصول الطاعة وأمرهم بالخضوع الى الوازع ليكونوا يداً واحدة وقوة واحدة ومن ذلك قوله تعالى في الكتاب الكريم «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الامر منكم» وانما أرادهم على الطاعة لأولي الامر لانها طاعة للشرع الذي فيه سعادتهم بردهم في الحرية الى حد الوسط بلا شطط عليهم في التقييد ولا ارسال لهم منه ولا حمل لهم على طاعة الوازع لنفسه بل لما يزعهم به من الشرع العادل يدلك على هذا قول اول خليفة في الاسلام وهو أبو بكر (رض) في احدى خطبه التي مر ذكرها في الجزء الاول «أطيعوني ما أطعت الله (في تنفيذ أوامره) فيكم فاذا عصيته فلا طاعة لي عليكم» وقول الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رض) أعينوني على نفسي بالامر بالمعروف وإحضاري النصيحة واعينوني على انفسكم بالطاعة وقوله أنه لم يبلغ حق ذي حق «يعني نفسه» ان يطاع في معصية الله وكثير من أمثال هذا الكلام مما مر في باب خطبه وغيرها من هذا الكتاب واذ كانت البداوة اصلاً في سلامة الفطرة وقبولها للخير وقد رأى القوم ان هناك نظاماً يضم اشتات الافكار الى وجهة واحدة ويقوم بحراسة الحقوق قياماً يغني عن العصبية مع استبقاء ما الفوه من الاصول الديموقراطية في حالتهم الاجتماعية لم تأنف نفوسهم السامية من مثل تلك الطاعة وخضعوا لحكم الاسلام واجتمعوا على الرضا بسيادة الخلفاء ومن ثم تعلم ان دولة المسلمين في عهد الخلفاء الراشدين كان قيامها بالقانون لا بالقوة وحياتها بالشريعة لا بالسيف وبعبارة اوضح انها كانت دولة قانونية تستند الى الشرع الالهي لتقوم لا دولة عسكرية

تستند الى القوة الجبرية لتسقط وتنحل وشتان بين دولة تستند الى القانون الذي هو سيف لا يفل حده وبين دولة تستند على قوة القهر التي لا تلبث ان تنى أو تنحل وتهوى بالدولة الى حضيض الاضمحلال وتعالجهم بالانحلال

لما علمت الامة العربية يومئذ ان الطاعة على ذلك الوجه ركن من أركان الحرية لا سبب لسلبها منهم وان ليس فيها سلب لارادتهم ولا قهر لنفوسهم ولا حيف عليهم ولا هضم لحقوقهم وان ليس للوازع فوق الامر بالمعروف والنهي عن المنكر أمر يراد به الاشطاط عليهم والاستئثار بالامر دونهم راضت لاولياء الامر نفوسهم العاتية ولانت اخلاقهم الجافية فألفوا طاعتهم في الحق ومعاونتهم على المعروف واليك الدليل

خالد بن الوليد من سادات قريش وابن عم عمر بن الخطاب وفي مرتبته في الشرف الذي انتهى الى الرهط من قريش فوصله في الاسلام كما رأيت في صدر الجزء الاول من هذا الكتاب وخلا هذا فانه كان محبوباً من المسلمين كبير الجاه عند الناس له من قلوب الجند مكانة ليست لسواه اذا أمر طاعوا واذا أشار قبلوا جاءه أمر أمير المؤمنين بالشخوص الى حيث يقيم أبو عبيدة فامتثل وسئل فتردد وهابه أبو عبيدة وهو ابن عمه وأميره ان يأمر فيه بأمر الخليفة فقام اليه مولى (عبد) من موالي رسول الله (صلى) فنزع عمامته عن رأسه وعقله بها وسأله ما سأله حتى أجاب فأعاد قلنسوته الى رأسه وعممه بيده وقال نسمع ونطيع لولاتنا (يعني عمر) ونفخم موالينا [1] « يعني خالداً » هذا كله على ملأ الناس ومشهد من عامة المسلمين فما الذي اسكت مثل هذا الامير الجليل في مثل هذا الموقف فلم ينتصر لنفسه ولم ينصره احد

(١) المولى يطلق على السيد وعلى العبد

من المسلمين هذا على ما عرف به من علوّ النفس وإباء الضيم

اسكته امران الاول علمه ان لا يطاوع بسكوته وخضوعه هوى أمير المؤمنين بل يطاوع وجدانه ويطيع قانونه ودينه والامر الثاني علمه بانه فيما صنع غير مسلوب الارادة بقوة عمر (رض) ولا مغلوب له على أمره بل هو حر في انّ يناقشه الحساب ويسأله عن سبب ما صنع وينتصف لنفسه منه اذا اشتط عليه أو جار وقد كان ذلك كما رأيت وانصفه عمر (رض) ولولا ان يعلم خالد ان له سلطاناً في نفسه يناقش به عمر وارادة لا يغلبه عليها لا الحق لاستحال على عمر ان يعامل مثله بتلك الشدة لما يعرفه في القوم من حب الحرية واستقلال الارادة وعزة النفوس وحسبك دليلا على هذا ان أمير المؤمنين عمر (رض) لم يسعه بعد ان عامل خالداً بتلك المعاملة الا ان يعتذر عما صنع للناس ويجهر بالسبب على ملأ المسلمين دفعاً لشبه الضمائر وإعلاناً لسلامة حريتهم من مساس القوة والحجر وذلك انه قام يوماً فخطب فيهم خطبة في شأن العطاء : رواها ابن الجوزي في المناقب : قال في آخرها

واني اعتذر اليكم من خالد بن الوليد فاني امرته ان يحبس هذا المال ضَعَفَة المهاجرين فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان فنزعته وامرت أبا عبيدة بن الجراح

فقام أبو عمرو بن حفص بن المغيرة (ابن عم خالد) فقال والله ما اعتذرت يا عمر ولقد نزعت عاملا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم واغمدت سيفاً سله رسول الله «صلى» ووضعت امراً نصبه رسول الله «صلى» وقطعت رحما وحسدت ابن العم

فقال عمر (رض) انك قريب القرابة حديث السن مغضب في ابن عمك

ثم نزل ولم يزد على ان رد عليه رداً جميلاً

وهذا نهاية ما يقال في اطلاق الحرية للرعية يناقشون بها عن أنفسهم ويكفون الأيدي عن حقوقهم ومع وصول العرب الى هذا الحد من الجرأة في الرد على مثل عمر بن الخطاب ومناقشته الحساب فانهم كانوا أطوع له من بنانه لعلمهم بأنهم إنما يطيعون بطاعته الله والرسول في الشرع الذي كان عمر منفذاً له، مهيمناً عليه ولو كانت الحكومة ثمة حكومة عسكرية لكان خالد أول من لجأ الى القوة وضرب بجيوشه وجه الدولة وناصب خليفة المسلمين العداوة وتوثب على الخلافة ومعاذ الله ان يحدث خالد نفسه بشيء من ذلك ما دام لا أمر يومئذ للقوة وإنما كان الآمر الناهي عند سائر المسلمين هو الشرع والوجدان لا القوة ولا الرئاسة ولقد بلغ بفريق من المسلمين في دولة الخلفاء الراشدين غلوهم في الخضوع للوجدان والشرع دون الوازع وهم الحرورية وغيرهم من فرق الخوارج ان قالوا لعليّ رضي الله عنه قولهم المشهور « لا حكم إلا الله » وتغالوا في هذا القول حتى أنكروا لزوم الخلافة وسفكوا دماء آلاف من الناس في سبيل تأييد معتقدهم الشاذ حتى أفضى الأمر الى فنائهم كما سترى بعد

اذا تمهد هذا علمنا ان حكومة الخلفاء الراشدين قامت على دعامة الشريعة لا القوة وكانت حكومة دستورية لا عسكرية وان الحرية لازم من لوازم الطاعة وسبب متين يتوصل به الى السعادة وشد عرى الصلة والاتفاق بين الحاكم والمحكوم لهذا كانت دولة الخلفاء الراشدين من أعظم الدول قياماً على الحق والحرية والعدل وبلغ المسلمون على عهدها مبلغاً من القوة والغنى وقهر الأمم وفلّ جيوش الدول ما عهد مثله في تاريخ دولة قبلهم ولا بعدهم قط ومذ اختلط العرب بالاعاجم وابذعروا في أطراف البلاد وتفرقوا على قلتهم في الممالك وضعفت

عصبيتهم عن مقاومة أعداء الحرية من المتوثبين على الخلافة والدخلاء في دولتهم من الأمم الأخرى الذين ألفوا الاستعباد وفطروا على حب الاستبداد انحطت دول الاسلام عن مقامها وأخذت بالتقهقر في سيرها وانقطعت صلة الاتفاق بينها وبين رعيتها فأصبحت ورعيتها على طرفي نقيض تريدهم على الخضوع لهوى الامراء وشهواتهم ويريدونها على العدل والاستقامة واتباع الشرع والقانون وهذا خطب عظيم اذا طال أمره والعياذ بالله في أمة دمرها تدميراً إذ لا يزال يضرب الامراء عقلاءها بجهلائها وفضلاءها بسفهائها حتى يفنى الفريقان كما فنيت أمة الرومان واليونان وعرب المسلمين هذا اذا أبقى الاستبداد لافراد الامة أفئدة تهوى الى الحرية ونفوساً تطلب النزوع الى الحياة الطيبة والرقي الى مرتبة الانسانية وأما اذا بلغ الاستبداد من عامة الامة مبلغه فأصابها الفالج العام الذي يصيب الامم في أواخر عهدها فيذهب بقواها ويميت أعضاءها عن الحركة وعقولها عن الادراك فدمارها يكون بيد غيرها لا بيدها والمآل الى هذا أشنع والموت بيد المتغلبين أفظع وحسبك دليلا على هذا ما يقاسيه المسلمون من ضروب القهر والشقاء من بعض الدول الاوربية التي آل اليها لذلك السبب ملك المسلمين وتسلطت على أقوام كثيرين منهم ولو كان ثمة قوم لهم قلوب يفقهون بها وآذان يسمعون بها فاذا ذكروا يذكرون لما خنعوا لهذا الاستعباد ولكانوا أنداد الأمم الأوربية في مضمار المنافسة الحيوية ولكن يا لحرقة الفؤاد قومنا في واد والغربيون في واد

حضه الناس على الكسب

الانسان مدني بالطبع يتعاون على العمل ويتبادل مع أخيه العوض والعوض انما هو ثمرة العمل فكل يعمل للآخر ليبادله العوض ورب صنعة يتعاون عليها جمع

من الناس كل فرد منهم يشتغل بفرع منها فاذا ترك أحدهم نصيبه من العمل بذلك الفرع خسر الكل لهذا كان أس الحياة الاجتماعية العمل وأصلها الكسب وليس في الوجود شرع ينهي عن الكسب بل كل الشرائع تأمر به ولو مع الرفق في الطلب والاسلام من الشرائع التي حتمت السعي للرزق وأمرت بالكسب الا انه أمر بالرفق في الطلب والتوكل على الله مع السعي ليكون الرجاء بالكسب أقوى والقناعة لجرثومة اليأس أقطع والعزيمة على السعي أمضى واذ كان عمر رضي الله عنه أعلم الصحابة بالدين وأفقههم فيه وخشي أن يلابس نفوس العامة شيء من ظواهر الآيات التي أمرت بالتوكل والقصد ورأى بعضهم حمل معنى التوكل على محمل الزهد وترك السعي جعل دأبه حض الناس على السعي وحثهم على العمل والكسب ومن ذلك ما جاء في كنز العمال عن معاوية ابن قرة قال : لقي عمر بن الخطاب ناساً من أهل اليمن فقال ما أنتم فقالوا متوكلون : فقال كذبتم ما أنتم متوكلون إنما المتوكل رجل ألقى حبه في الارض وتوكل على الله . وفي المناقب لأبي الفرج بن الجوزي عن محمد بن سيرين عن أبيه قال شهدت مع عمر بن الخطاب المغرب فأتى عليّ ومعي رزيمة [1] لي فقال ماهذا معك فقلت رزيمة لي أقوم في هذا السوق فأشتري وأبيع فقال يامعشر قريش لايغلبنكم هذا وأشباهه على التجارة فانها ثلث الامارة

وفيه عن حواب التيمي قال: قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه يامعشر القراء ارفعوا رؤسكم فقد وضح الطريق واستبقوا الخيرات ولا تكونوا عيالاً على المسلمين

وفيه عن الحسن قال : قال عمر رضي الله عنه من تجر في شيء ثلاث مرات فلم يصب فيه شيئاً فليتحول الى غيره

(١) تصغير رزمة وهي الكارة من الثياب

وفيه عن الاكيدر العارض قال : قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه تعلموا المهنة فانه يوشك ان يحتاج أحدكم الى مهنة

وفي كنز العمال عن عمر قال : لولا هذه البيوع صرتم عالة على الناس

وفي المناقب عن بكر بن عبد الله قال : قال عمر مكسبة فيها بعض الدناءة خير من مسألة الناس

وفيه عن ذكوان قال : عمر اذا اشترى أحدكم جملا فليشتره عظيما سميناً فان أخطأه خيره لم يخطه سوقه

وفيه عن محمد بن عاصم قال : بلغني انّ عمر بن الخطاب كان اذا رأى فتىً فأعجبه حاله سأل عنه هل له حرفة فان قيل لا سقط من عينه

وفي العقد : قال عمر بن الخطاب لايقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني وقد علم ان السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وان الله تعالى إنما يرزق الناس بعضهم من بعض وتلا قول الله جلّ وعلا (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)

وفيه : قال عمر بن الخطاب يامعشر القراء التمسوا الرزق ولا تكونوا عالة على الناس

وفيه : قال عمر بن الخطاب حَسَبُ الرجل وكَرَمهُ دينه ومروئه خُلقه

نهيه عن التنطع
وتحذيره من الابتداع

الاسلام دين اليسر ودين الفطرة يأمر بالاعتدال في كل الأعمال حتى العبادة وينهي عن التنطع الناشىء عن التوسع والابتداع ولم يكن العرب على صلابتهم في الدين يعرفون هذا التنطع الذي ابتدعه الاعاجم بعد لعدم توسعهم في

التأويل ووقوفهم عند ظاهر الشرع لهذا لما انتشر الاسلام في انحاء الارض وعم سائر الشعوب في دولة الخلفاء الامويين والعباسيين وأكثر الاعاجم من الابتداع وغالوا بالتنطع والتشدد بما ليس من الدين كان يعيبهم العرب على ذلك ويهزأون بهم ويتباعدون عن بدعهم فقد ذكر ابن عبد ربه في العقد الفريد عن الاصمعي قال . قدم أبو مهدية الاعرابيّ من البادية فقال له رجل يا أبا مهدية أتتوضؤن بالبادية قال والله يا ابن أخي لقد كنا نتوضأ فتكفينا التوضئة الواحدة ثلاثة أيام والاربعة حتى دخلت علينا هذه الحمراء (وهي الموالي من الاعاجم) فجعلت تليق استاها بالماء كما تلاق الدواة

وانما اراد بقوله فتكفينا التوضئة الواحدة الخ الاغراق بالتهكم على تنطع الاعاجم لانهم (اي العرب) كانوا حقيقة يفعلون ذلك بالوضوء معاذ الله ان يكون في هذه المرتبة من التهاون بالفرائض وهم ابناء أولئك الذين نشروا هذا الدين وعلى عهدهم أنزل القرآن . ومن هذا تعلم ان التنطع امر لا يريده الدين وانما كان منشؤه الابتداع والتوسع ومن هذا القبيل توسعهم في حديث السواك وهو (لولا ان أشق على أمتي لامرتهم بالسواك) ومع ان الحديث يتضمن الندب والاستحباب فقد كاد بعضهم ينزله منزلة الواجب وكتبوا فصولاً وأبواباً مخصوصة في فوائده واستعماله وحمله الى آخر ما قالوه في شأنه مما لم يكن منشؤه الا التنطع حتى فيما ليس من الدين

كان من الصحابة نفر ولعوا بالعبادة وانقطعوا الى التهجد لكن بما لا يخرج عما جاء به الكتاب ورأوه من نبيهم عليه الصلاة والسلام فخشي عمر ان يسري الى العامة حب الانقطاع الى العبادة والتنطع في الدين فينشأ عن ذلك تعطيل لوظائف الاجتماع الدنيوية وتوسع في التأويل وتجرؤ على الابتداع فجعل ينهي الناس عن

التنطع ويحذرهم من الابتداع ومن نهيه عن التنطع ما أخرجه أبو الفرج بن الجوزيّ عن محمد بن عبد الله القرشي عن أبيه قال . نظر عمر الى شاب قد نكس رأسه فقال له يا هذا ارفع رأسك فان الخشوع لايزيد على مافي القلب فمن اظهر للناس خشوعاً فوق ما في قلبه فانما اظهر للناس نفاقاً على نفاق

وأخرج عن أبي عمرو الشيباني قال . خبر عمر بن الخطاب برجل يصوم الدهر فجعل يضربه بخفقته وجعل يقول كلْ يا دهر كلْ يا دهر

وعن سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب قال عجلوا الفطر ولا تنطّعوا تنطّع أهل العراق

وعنه عن أبيه قال كنت جالساً عند عمر (رض) اذ جاءه راكب من أهل الشام فطفق يسأله عن حالهم فقال . هل تعجل أهل الشام الافطار . قال نعم . قال لن يزالوا بخير ما فعلوا ذلك ولم ينتظروا النجوم انتظار أهل العراق

وعن محمد بن سيرين ان عمر بن الخطاب خرج من الخلاء يقرأ القرآن فقال له أبو مريم يا أمير المؤمنين أتقرأ القرآن وانت غير طاهر : فقال له مسلمة (هكذا) أمرك بهذا

واما تحذيره من الابتداع فقد أخرج الامام أبو الفرج أيضاً عن عابس ابن ربيعة قال . رأيت عمر نظر الى الحجر فقال . أما والله لولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك ثم قبله

وعن عبد الله بن سرجيس قال . كان الاصلع (يعني عمر) اذا استلم الحجر قال : اني لا علم انك حجر لا تضر ولا تنفع ولولا اني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك

وعن نافع قال : كان الناس يأتون الشجرة التي بايع رسول الله صلى الله عليه

وسلم تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها فبلغ ذلك عمر فأوعدهم فيها وأمر بها فقطعت : وهذا الاثر يوافق ما قدمناه في فصل (لا وثنية في الاسلام)

وليت عمر يأتي في هذا العصر بدرته وسيفه وينظر الى مصير صار اليه المسلمون من تقديس الاحجار والاشجار واذا كانت تلك شجرة واحدة وبويع تحتها رسول الله صلى الله عليه وسلم فعندنا الآن عدد لا يحصى من الاشجار كالجميز في مصر والميس والزيتون في الشام من الاشجار التي كانت تعتبر مقدسة عند الوثنيين القدماء، فقدس عوام المسلمين بعضها بحجة ان هذه دفن تحتها فلان الصالح وتلك لمسها فلان الشيخ الى غير ذلك من الاعذار التي ينتحلونها بعقولهم القاصرة عن مرتبة التوحيد التي وضع الله فيها مثل أبي بكر وعمر فانا لله وإنا اليه راجعون

وأخرج عن عمرو بن ميمون عن أبيه قال : أتى عمر بن الخطاب رضي الله عنه رجل فقال : يا أمير المؤمنين انا لما فتحنا المدائن أصبت كتابا فيه كلام معجب : قال أ من كتاب الله : قال لا فدعا بالدرة فجعل يضربه بها ويقول (الر تلك آيات الكتاب المبين انا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) الى قوله تعالى : وان كنت من قبله لمن الغافلين : ثم قال انما أهلك من كان قبلكم انهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوارة والانجيل حتى درسا وذهب ما فيهما من العلم اه

﴿ أدبه وتأديبه ﴾

﴿ أدبه مع رسول الله ﴾

تقدم معنا في باب صحبته كلام على أدبه مع رسول صلى الله عليه وسلم وحبه له وقيامه دائماً بين يديه يغني عن الاسهاب في هذا الباب وحسبه أدباً مع رسول الله صلى الله عليه وسلم تفانيه في حبه تفانياً أذهله عن حقيقة موته فقال في ذلك اليوم (من قال ان محمداً قد مات علوت رأسه بسيفي هذا) والقصة طويلة مر معنا في

هذا الكتاب ملخصها

﴿ أدبه مع نفسه ﴾

عن أنس قال دخلت حائطاً (بستاناً) فسمعت عمر يقول وبيني وبينه جدار: عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ بخ والله لتتقين الله ابن الخطاب أو ليعذبنك الله

وقال السيوطي قال عبد الرحمن بن عامر بن ربيعة رأيت عمر أخذ تبنة من الارض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ياليتني لم أك شيئاً ليت أمي لم تلدني:

وعن سفيان بن عيينة قال: قال عمر بن الخطاب أحب الناس اليّ من رفع الي عيوبي. وأخرج الطبريّ عن سلمان ان عمر قال له أملك أنا أم خليفة فقال له سلمان إن جبيتَ من أرض المسلمين درهماً أو أقل أو اكثر ثم وضعته في غير حقه فأنت ملك غير خليفة فبكى عمر: ولشد ما كان وأبو بكر يهربان من صفات الملوك ويقومان بحقوق الخلافة خوف الاتسام بسمة الملوك الجبارين التي يأباها الاسلام وتنهي عنها شريعة محمد عليه الصلاة والسلام

﴿ تأديبه لنفسه ﴾

كان عمر رضي الله شديداً على الناس سريع العقوبة يتناول المسيء بالدرة التي قيل فيها «لدرة عمر أهيب من سيوفكم» ومع هذا فقد كان سريع الانابة رقيق القلب لا يلبث أن يعاقب حتى يندم لطهارة وجدانه وسلامة قصده

اخرج الحافظ عز الدين الجزري في أسد الغابة عن أبي غنية يحي بن عبد الملك بن سلامة بن صبيح التيميّ قال: قال الأحنف بن قيس: كنت مع عمر ابن الخطاب فلقيه رجل فقال يا أمير المؤمنين انطلق معي فاعذني على فلان فانه قد ظلمني فرفع عمر الدرة فخفق بها رأسه: فقال: تدعون أمير المؤمنين وهو معرض لكم حتى اذا شغل في أمر من أمور المسلمين أتيتموه اعذني اعذني: قال فانصرف

الرجل وهو يتذمر قال « أي عمر » عليّ الرجل « أي ردوه عليّ » فألقى اليه المخفقة . وقال امتثل « أي أقتص بمثل الضربة » فقال لا والله ولكن ادعها لله ولك : قال ليس هكذا أما ان تدعها لله ارادة ماعنده أو تدعها لي فاعلم ذلك : قال أدعها لله : قال « أي الأحنف » فانصرف ثم جاء يمشي حتى دخل منزله ونحن معه فصلى ركعتين وجلس فقال « يخاطب نفسه » ياابن الخطاب كنت وضيعاً فرفعك الله وكنت ضالاً فهداك الله وكنت ذليلا فأعزك الله ثم حملك على رقاب الناس فجاءك رجل يستعديك فضربته ما تقول لربك غداً اذا أتيته : قال فجعل يعاتب نفسه في ذلك معاتبةً حتى ظننا انه خير أهل الارض

وأخرج ابن جرير في تاريخه عن اياس بن سلمة عن أبيه قال : مر عمر ابن الخطاب (رض) في السوق ومعه الدرّة فخفقني بها خفقة فأصاب طرف ثوبي فقال امطْ عن الطريق فلما كان في العام المقبل لقيني فقال . ياسلمة تريد الحج . فقلت نعم فأخذ بيدي فانطلق بي الى منزله فأعطاني ستمائة درهم وقال استعن بها على حجك واعلم انها بالمخفقة التي خفقتك . قلت ياأمير المؤمنين ما ذكرتها قال وأنا ما نسيتها :

هذه هي الفضيلة وذاك هو الوجدان الحساس الذي جعل ذلك الخليفة العظيم يطلب العفو من شخص عن خفقة أصابت ثوبه لم يقصد بها أذاه وإنما قصد تنبيهه الى كشف الاذى عن طريق الناس والله أعلم بما عانى من القلق ريثما آن أوان الحج ووجد سبيلا لاسترضاء ذلك المسلم عنه وطلب الصفح منه مع انه خليفة المسلمين الذي انيط به العقاب فعاقب بمعروف ولم يتجاوز في مس طرف الثوب بدرّته حد التنبيه الى اماطة الضرر عن الطريق فأين هذا الانصاف والرحمة من جبروت الخلفاء والسلاطين الذين بسطوا يد

القوة بعد على الناس وتحكموا فيهم تحكم المالك في العبيد لا رحمة تشفع ولا جاه ينفع ولا فضيلة تمنع : وسيعلم الذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون

(تأديبه للمسلمين)

بلغ برأفة عمر بالمسلمين وحملهم على الطريق الواضحة وتأديبهم بآداب النبوّة ان كان اذا أراد تنبيههم الى أمر نافع وصرفهم عن أمر ضار يتقدم الى أهله بذلك التنبيه ليكون قدوة الناس وأسوة المسلمين في التأديب ومن ذلك ما أخرجه ابن جرير في تاريخه عن سالم وابن عساكر في تاريخه عن ابن عمر قال كان عمر اذا صعد المنبر فنهى الناس عن شيء جمع أهله فقال : اني نهيت الناس عن كذا وكذا وانّ الناس ينظرون اليكم نظر الطير الى اللحم وأقسم بالله لا أجد أحداً منكم فعله الاّ أضعفت عليه العقوبة لمكانه مني

وروى عن عكرمة بن خالد قال دخل ابن لعمر بن الخطاب عليه وقد ترجل ولبس ثياباً حساناً فضربه عمر بالدرة حتى أبكاه فقالت له حفصة لم ضربته قال رأيته قد أعجبته نفسه فأحببت ان أصغرها اليه

ومن أخباره في التأديب التي تدل على عظيم رحمته وحنانه وشدة عقوبته لغلاظ القلوب ماجاء في كنز العمال عن أبي عثمان النهدي قال : استعمل عمر بن الخطاب رجلا من بني أسد على عمل فجاء يأخذ عهده فأتى عمر ببعض ولده فقبله . فقال الأسديّ : أتقبل هذا يا أمير المؤمنين والله ماقبَّلْتُ ولداً قط : قال عمر فأنت والله بالناس أقل رحمة هات عهدنا لاتعمل لي عملا أبداً : فرد عهده

جوزي هذا العامل بالعزل والابعاد بتاتاً عن العمل «التوظف» لكلمة قالها لعمر (رض) أحس منها عمر بغلاظة فؤاده فخشي إن هو عهد اليه بالعمل ان يكون فظاً غليظ القلب على الرعية فعزله : فهل كان للامراء والسلاطين

من بعد بصر يبصرون به أو سمع يسمعون به فيعلموا أنّ عمر بن الخطاب الذي أرهب أبناء الحرية وصناديد العرب وسادات قريش واستخضع لحكمه الفرس والروم الصابئة منهم وأهل الكتاب فكانوا كلهم بالسمع والطاعة له سواء انما ساسهم بمثل هذه السياسة وكان بهم رؤفاً كرأفة الوالد بالبنين وعليهم عطوفاً كعطف المرضع على الطفل

أجل كان منهم من علم ذلك وعمل به وهم الخيرة الطيبون الذين ساسوا وعمروا وجاء غيرهم فخربوا ودمروا فكانوا صواعق من العذاب انقضت على المسلمين فقضت على ما شيّده غيرهم بالدمار وشوّشت نظام الملك وقتلت العقول وجردت سيوف الاستبداد على الأمة فأعدمتها رشدها وأفسدت أخلاقها وذهبت بعلومها وطأمنت من أشرافها وأفقدتها عزها وشممها فأذلتها ذلاً ها نحن اولاء نشاهد نتائجه الآن بالعيان حيث نظلم ونهان من كل إنسان وليس فينا روح تدب ولا نائم يهب بل كلنا أموات يحسبنا العالم المتمدن من الرفات قلوبنا متفرقة وأهواؤنا شتى ونفوسنا خامدة الا عن السفاسف وخطانا قاصرة الا عن أماكن الفساد وشأننا كله شأن من رضي بالذل وانغمس في الجهل واستسلم للقضاء حتى ساعة الفناء فات

ومن ينم عن شؤون كلها خطر فليس يخطىء من ينعيه للناس

ومن تأديبه لأشراف قريش وقهره لنفوسهم مع ما عرفوا به من الكبرياء والسيادة ما رواه ابن الجوزي عن الحسن قال حضر باب عمر (رض) سهيل بن عمرو بن الحرث بن هشام وأبو سفيان بن حرب في نفر من قريش من تلك الرؤوس . وصهيب وبلال وتلك الموالي الذين شهدوا بدراً فخرج إذن عمر فأذن لهم (أي للموالي) وترك أولئك .فقال أبو سفيان لم أر كاليوم قط يأذن لهؤلاء

العبيد ويتركنا على بابه لا يلتفت الينا: فقال سهيل بن عمرو وكان رجلا عاقلا أيها القوم اني والله أرى الذي في وجوهكم ان كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم دعي القوم ودعيتم فاسرعوا وأبطأتم فكيف بكم اذا دعوا على أنفسكم يوم القيامة وتركتم : وكان هذا شأنه رضي الله عنه مع كبار قريش الذين تأخر اسلامهم الى ما بعد الفتح أخرج أبو الفرج أيضاً عن يحيى بن عبد الرحمن بن أبي حاطب عن أبيه قال قدمنا مكة فاقبل أهل مكة يسعون . يا أمير المؤمنين أبو سفيان حبس مسيل الماء علينا ليهدم منازلنا فأقبل عمر ومعه الدرة فاذا أبو سفيان قد نصب أحجاراً فقال ارفع هذا فرفعه ثم قال وهذا وهذا حتى رفع أحجاراً كثيرة خمسة أو ستة ثم استقبل عمر الكعبة فقال الحمد لله الذي جعل عمر يأمر أبا سفيان ببطن مكة فيطيعه : ومن علم ما هي سلطة أبي سفيان بمكة وكيف كان تحكم قريش في رقاب الناس علم فضل الاسلام في تأسيسه قاعدة المساواة وعدله بين الناس ومحوه آثار التفاضل بالانساب . ومن أخباره في التأديب ما نقله في العقد الفريد ان عمر (رض) قال لرجل من سيد قومك : قال أنا : قال كذبت لو كنت كذلك لم تقله

﴿ أدبه مع المسلمين وتواضعه لهم ﴾

اذا أردت ان تعلم أدب الرجال العظام الذين رفع الله نفوسهم لا بالكبرياء وسودهم على الأمم لا بالغطرسة والتجبر وحببهم الى الناس لا بالخيلاء فاسمع ما أخرجه الطبري في تاريخه عن الحسن قال : قال عمر اذا كنت في منزلة تسعني وتعجز الناس فوالله ما تلك لي بمنزلة حتى أكون أسوة للناس

هذا الخليفة العظيم الذي دوخ ملك فارس والروم وأرهبت سطوته الأمم

وامتد ظل سلطانه الى حدود الهند شرقاً وأفريقيا الشمالية غرباً ومنحه الله هذا الملك العريض والسلطان العظيم لا يرضى لنفسه منزلة فوق منزلة الناس حتى من أدنى رعاياه انّ هذا لهو العدل الذي ليس فوقه عدل ولا جرم فبمثل ذلك عظم قدره وشاع ذكره وملأ الاذهان خبره حتى عده المؤرخون من أعظم رجال الاسلام وحتى اننا لنفخر به على ملوك الارض فرضي الله عنه وأرضاه

ومن تواضعه ما أخرجه الطبريّ عن ابن أبي سليمان عن أبيه : قال قدمت المدينة فدخلت داراً من دورها فاذا عمر بن الخطاب (رض) عليه ازار قطريّ يدهن ابل الصدقة بالقطران

وأخرج عن زهير بن سالم انّ كعب الاحبار قال : نزلت على رجل يقال له مالك وكان جاراً لعمر بن الخطاب فقلت له كيف بالدخول على أمير المؤمنين: فقال ليس عليه باب ولا حجاب يصلي الصلاة ثم يقعد فيكلمه الناس

وفي المناقب عن الحسن (رض) قال كان بين عمر بن الخطاب وبين رجل كلام في شيء فقال له الرجل اتق الله فقال رجل من القوم أتقول لامير المؤمنين اتق الله فقال له عمر دعه فليقلها لي نعم ما قال لا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نقبلها

وليس قول عمر هذا من قبيل التواضع فقط بل هو من قبيل العلم بوجوب النصيحة على المسلمين وبوجوب انتصاح الامام منهم ورضاه بنصحهم وتذكيرهم له بالتقوى والعدل وذكر أرباب السير ان عمر (رض) كان أيام القادسيه شديد التطلع الى أخبار جيوش المسلمين كثير الاهتمام بأمرهم فكان يخرج كل يوم خارج المدينة يترقب الاخبار ويتنسمها ثم يرجع الى أهله فلما لقيه البشير سأله من أين فأخبره فقال يا عبد الله حدثني قال هزم الله العدوّ :

وعمر يخب معه ويستخبره والآخر يسير على ناقته ولا يعرفه حتى دخل المدينة فاذا الناس يسلمون عليه بامرة المؤمنين فقال الرجل : فهلاّ أخبرتني رحمك الله انك أمير المؤمنين وجعل عمر يقول لا عليك يا أخي

وذكروا ان عمر لما قدم الشام عرضت له مخاضة فنزل عن بعيره وخلع نعليه فامسكهما بيده فخاض الماء ومعه بعيره فقال له أبو عبيدة (رض) قد صنعت صنيعاً عظيماً عند أهل الارض (يعني أهل الشام) فصك عمر في صدره وقال أواه لو غيرك يقولها يا أبا عبيدة انكم كنتم أذل الناس وأحقر الناس وأقل الناس فأعزكم الله بالاسلام فمهما تطلبوا العزة بغير الله يذلكم الله

وروى الطبري ان عمر لما قدم الشام في أيام الطاعون اتخذ أيلة طريقاً حتى اذا دنا منها تنحّى عن الطريق واتبعه غلامه فنزل فبال ثم عاد فركب بعير غلامه وعلى رحله فرو مقلوب واعطى غلامه مركبه فلما تلقاه اوائل الناس قالوا اين أمير المؤمنين : قال امامكم يعني نفسه وذهبوا هم الى امامهم فجازوه حتى انتهى هو الى أيلة فنزلها وقيل للمتلقين قد دخل أمير المؤمنين أيلة ونزلها فرجعوا اليه (وذلك لانه لما قال لهم امامكم : وعنى نفسه لم يعرفوه وظنوا انه يشير الى انّ الامير غيره وقد تقدمه الى الامام)

وروى عن مولى لعثمان بن عفان (رض) قال كنت رديفاً لعثمان بن عفان حتى أتى على حظيرة الصدقة في يوم شديد الحر شديد السموم فاذا رجل عليه ازار ورداء قد لف رأسه برداء يطرد الابل يدخلها الحظيرة حظيرة إبل الصدقة فقال عثمان من ترى هذا قال فانتهينا اليه فاذا هو عمر ابن الخطاب : فقال هذا والله القوي الامين

وفي كنز العمال عن الفضل بن عميرة ان الاحنف بن قيس قدم على عمر بن

الخطاب في وفد من العراق قدموا عليه في يوم صائف شديد الحر وهو محتجز[١] بعباءة[٢] بعيراً من ابل الصدقة فقال له يا أحنف ضع ثيابك وهلمّ فأعن أمير المؤمنين على هذا البعير فانه من ابل الصدقة فيه حق اليتيم والارملة والمسكين فقال رجل يغفر الله لك يا أمير المؤمنين فهلا تأمر عبداً من عبيد الصدقة يكفيك هذا : فقال عمر : يا ابن فلانة واي عبد هو أعبد مني ومن الاحنف هذا انه من ولي أمر المسلمين فهو عبد للمسلمين يجب عليه لهم مايجب على العبد لسيده من النصيحة واداء الامانة في المداراة .

تالله ان هذا خلق يعلو بصاحبه عن وصف الواصفين ومرتبة لا يبلغها أحد من الخلفاء والسلاطين ومن يعد نفسه عبداً للرعية اذا ملكها وخادماً لها اذا أمرته عليها ويقوم على خدمتها قيام التابع على خدمة المتبوع في جزئيات أمورها وكليات سياستها لجدير بهان يقال هذا ملك كريم لاملك عظيم وحقيق بمثله الافتخار وعليه البكاء والى مثله الحنين ولا مثل لعمر جباراً على الظالمين رحيما بالمستضعفين قويا على الحق كريما على الناس باراً بالرعية يتعب لتستريح ويسهر لتنام ويجوع لتشبع ويفتقر لتستغني فنسأل الله له الرحمة والرضوان كما نسأله لانفسنا العافية من الظلم والسلامة من عاقبة الجور انه مجيب السؤال

﴿ اهتمامه بأمور الرعية ﴾

(وعسه بالليل)

كان عمر رضي الله عنه من حرصه على راحة الرعية يتفقدهم بنفسه ويهتم بشؤونهم اكثر من اهتمامه بشؤون بيته وبلغ ذلك به ان كان لا ينام عنهم بالليل كما

(١) ملتف (٢) بحي

كان لا يغفل عنهم ساعة من نهار فليله ونهاره في خدمة الرعية سواء، اذا كان أكثر لياليه يعس بالمدينة بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد احوالهم شأن الامراء الذين يعرفون انهم بما فوض اليهم من امر الهيمنة على القانون خدام للرعية مسؤلون عن راحة الامة وسعادتها لا ان الرعية خدام لهم عبيد لشهواتهم

روى الطبري في تاريخه عن بكر بن عبد الله المُزَني: قال جاء عمر بن الخطاب الى باب عبد الرحمن بن عوف فضربه فجاءت المرأة ففتحته ثم قالت له لا تدخل حتى ادخل البيت واجلس مجاسي فلم يدخل حتى جلست ثم قالت ادخل فدخل ثم قال هل من شيء فأتته بطعام فأكل وعبد الرحمن قائم يصلي: فقال له تجوّز ايها الرجل فسلم عبد الرحمن حينئذ ثم اقبل عليه فقال: ما جاء بك في هذه الساعة يا أمير المؤمنين: قال رفقة نزلت في ناحية السوق خشيت عليهم سُرّاق المدينة فانطلق فلنحرسهم: فانطلقا فأتيا السوق فقعدا على نشز (مرتفع) من الارض يتحدثان فرفع لهما مصباح فقال عمر الم انهَ عن المصابيح بعد النوم: فانطلقا فاذا هم قوم على شراب لهم: فقال انطلق فقد عرفته فلما اصبح ارسل اليه فقال يا فلان كنت واصحابك البارحة على شراب: قال وما علّمك يا أمير المؤمنين: قال شيء شهدته: قال اولم ينهك الله عن التجسس: قال فتجاوز عنه

قال بكر بن عبد الله وانما نهى عمر عن المصابيح لان الفأرة تأخذ الفتيلة فترمي بها في سقف البيت فيحترق وكان اذ ذاك سقف البيت من الجريد

وأخرج عن زيد بن أسلم عن أبيه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب الى حرة حتى اذا كنا بصرار اذا نار تؤرّث (تتقد) فقال: يا أسلم اني أرى هؤلاء ركباً قصر بهم الليل والبرد انطلق بنا: فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم فاذا امرأة معها صبيان لها وقدر منصوبة على النار وصبيانها يتضاغون (يتصايحون) فقال

عمر السلام عليكم يا أصحاب الضوء وكره أن يقول يا أصحاب النار : قالت وعليك السلام : قال أأدنو : قالت ادن بخير أو دع . فدنا فقال ما بال هؤلاء الصبية يتضاغون : قالت الجوع قال وأي شيء في هذه القدر : قالت ما أسكتهم به حتى يناموا : الله بيننا وبين عمر : قال أي رحمك الله ما يُدري عمر بكم : قالت يتولى أمرنا ويغفل عنا : فأقبل عليَّ (أي على أسلم) فقال انطلق بنا فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق فأخرج عدلاً فيه كبة شحم فقال احمله عليّ فقلت أنا أحمله عنك قال احمله عليَّ مرتين أو ثلاثاً كل ذلك أقول أنا أحمله عنك ، فقال في آخر ذلك أنت تحمل عني وزري يوم القيامة لا أمَّ لك : فحملته عليه وانطلق وانطلقت معه نهرول حتى انتهينا اليها فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً فجعل يقول لها ذرّي عليّ وأنا احرك لك وجعل ينفخ تحت القدر وكان ذا لحية عظيمة فجعلت أنظر الى الدخان من خلل لحيته حتى انضج وادم القدر ثم أنزلها وقال ابغني شيئاً : فأتته بصحفة فأفرغها فيها ثم جعل يقول اطعميهم وأنا أسطح لك فلم يزل حتى شبعوا ثم خلّى عندها فضل ذلك وقام وقمت معه فجعلت تقول :جزاك الله خيراً أنت أولى بهذا الأمر من أمير المؤمنين :فيقول قولي خيراً انك اذا جئت أمير المؤمنين وجدتِني هناك ان شاء الله ثم تنحى ناحية عنها ثم استقبلها وربض مربض السبع :فجعلت أقول انَّ لك شأناً غير هذا وهو لا يكلمني حتى رأيت الصبية يصطرعون ويضحكون ثم ناموا وهدأوا فقام وهو يحمد الله ثم أقبل عليّ فقال : يا اسلم ان الجوع أسهرهم وأبكاهم فأحببت ان لا أنصرف حتى أرى ما رأيت منهم

وفي مناقب عمر للامام أبي الفرج بن الجوزي عن انس بن مالك قال : بينا عمر يعس المدينة اذا مرّ برحبة من رحابها فاذا هو ببيت من شعر لم يكن

بالأمس فدنا منه فسمع أنين امرأة ورأى رجلاً قاعداً فدنا منه فسلم عليه ثم قال من الرجل: فقال رجل من أهل البادية جئت الى أمير المؤمنين أصيب من فضله: فقال ما هذا الصوت الذي أسمعه في البيت قال انطلق يرحمك الله لحاجتك قال عليَّ ذاك ماهو قال امرأة تمخض قال هل عندها أحد : قال لا قال (أي انس) فانطلق حتى أتى منزله فقال لامرأته أم كلثوم بنت علي رضي الله عنهما هل لك في أجرٍ ساقه الله اليك : قالت وما هو : قال امرأة عربية تمخَّض ليس عندها أحد: قالت نعم ان شئت: قال فخذي معك ما يصلح المرأة لولادتها من الخرق والدهن وجيئيني ببرمة وشحم وحبوب: قال فجاءت به فقال لها انطلقي وحمل البرمة ومشت خلفه حتى انتهى الى البيت فقال لها ادخلي الى المرأة وجاء حتى قعد الى الرجل فقال له اوقد لي ناراً ففعل فأوقد تحت البرمة حتى أنضجها وولدت المرأة فقالت امرأته يا أمير المؤمنين بشر صاحبك بغلام : فلما سمع (أي الرجل) يا أمير المؤمنين كأنه هابه فجعل يتنحى عنه فقال له مكانك كما أنت فحمل البرمة فوضعها على الباب ثم قال (أي لأم كلثوم) اشبعيها ففعلت ثم أخرجت البرمة فوضعتها على الباب فقام عمر رضي الله عنه فأخذها فوضعها بين يدي الرجل فقال كلْ ويحك فانك قد سهرت من الليل ففعل ثم قال (أي عمر) لامرأته اخرجي وقال للرجل اذا كان غد فأتنا نأمر لك بما يصلحك ففعل الرجل فأجازه وأعطاه

لله أيّ نفس طاهرة بارة هذه النفس وأي حنان خالص من شوائب التصنع هذا الحنان وأيّ خليفة عظيم بعد عمر يحمّل نفسه مثل هذا العناء ويضع نفسه في هذه المرتبة من التواضع والرحمة ويأخذ نفسه بهذا الادب والاهتمام بأفراد الرعية وهو يحتاج الى التجرد عن شهواة الملك وعظمة السلطان والتنزل عن مرتبة التسلط والكبرياء الى منزلة التساوي بأفراد الرعية وهيهات هيهات

فان الجبروت ملكة في نفوس الملوك لايمحوها إلا الرغبة في الله كرغبة عمر أو الرهبة من الشعب كرهبة ملوك الافرنجة من رعيتهم لهذا العهد

﴿ ورعه وزهده ﴾

تقدم معنا في سيرة أبي بكر (رض) ان طريقة الصحابة في الزهد هي العفة عن الفضول والقناعة بالكفاف وان ليس منهم الا من كان له سبيل للارتزاق وعمل اليد سواء كان في التجارة والصناعة وقدكان عمر كما في رواية النخعي تاجراً و إنما هو كأبي بكر رضي الله عنهما ترك التجارة لما ولي أمر المسلمين واقتنع من بيت المال بالكفاف وقال أصحاب السير ان عمر (رض) لما كتب نفسه في العطاء أقام نفسه مقام الاجير وأخرج ابن جرير الطبري في تاريخه وابن الجوزي في المناقب عن نافع عن ابن عمر قال : جمع عمر الناس بالمدينة حين انتهى اليه فتح القادسية ودمشق فقال اني كنت امرءاً تاجراً وقد شغلتموني بأمركم هذا فماذا ترون انه يحل لي من هذا المال فأكثر القوم وعليّ رضي الله عنه ساكت : فقال ياعليّ ما تقول : قال مايصلحك ويصلح عيالك بالمعروف ليس لك من هذا الامر غيره : فقال القول ما قال عليّ بن أبي طالب

وأخرجا عن أسلم قال : قام رجل الى عمر بن الخطاب (رض) فقال ما يحل لك من هذا المال : فقال ما أصلحني وأصلح عيالي بالمعروف وحلة للشتاء وحلة للصيف وراحلة عمر للحج والعمرة ودابة لحوائجه وجهاده

وروى الطبري ان هذا العطاء الذي رضيه عمر لنفسه وفرضه له المسلمون لم يكفه واشتدت به الحاجة فاجتمع نفر من المهاجرين منهم عثمان وعلي وطلحة والزبير وتشاوروا في زيادة يزيدونها لعمر في رزقه من بيت المال فهابوا مقابلته بذلك فأتوا بنته حفصة وأمروها ان تخبره بالخبر وترى رأيه فيه ولا تذكر له

أسماءهم فلما أخبرته بذلك عرفت الغضب في وجهه وقال لها من هؤلاء :
قالت لاسبيل الى علمهم حتى أعلم رأيك فقال لو علمت من هم لسؤت وجوهم
أنت بيني وبينهم أنشدك بالله ما أفضل ما اقتنى رسول الله صلى الله عليه
وسلم في بيتك من الملبس (وكانت زوجته) قالت ثوبين ممشقين كان
يلبسهما للوفد ويخطب فيها للجمع قال فأي الطعام ناله عندك ارفع : قالت
خبزنا خبزة شعير فصببنا عليها وهي حارة أسفل عكة[1] فجعلناها هشة[2] دسمة
فأكل منها وتطعم استطابة لها : قال فأي مبسط كان يبسطه عندك كان
أوطأ[3] قالت كساء لنا ثخين كنا نربعه في الصيف فنجعله تحتنا فاذا كان
الشتاء بسطنا نصفه وتدثرنا بنصفه قال ياحفصة فابلغيهم عني ان رسول الله
صلى الله عليه وسلم قدّر فوضع الفضول مواضعها وتبلغ بالترجية واني قدّرت
فوالله لأضعنّ الفضول مواضعها ولأتبلّغن بالترجية[4] وانما مثَلي ومثَل
صاحبيّ كثلاثة سلكوا طريقاً فمضى الأول وقد تزوّد زاداً فبلغ ثم اتبعه
الآخر فسلك طريقه فافضى اليه ثم اتبعه الثالث فان لزم طريقهما ورضي
بزادهما لحق بهما وكان معهما وان سلك غير طريقهما لم يجامعهما

هكذا كان شأن عمر رضي الله عنه في العفة والقناعة والرضى
بالكفاف مما يسد الجوع ويستر العرى وروي في المناقب عن الحسن قال
خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه ازار فيه اثنتا عشرة رقعة . وفي المناقب
أيضاً عن أبي عثمان النهدي قال رأيت عمر بن الخطاب يطوف بالبيت وعليه
ازار فيه اثنتا عشرة رقعة إحداهن بادم (جلد) أحمر : وفيها عن قتادة ان

---

(١) قربة السمن الصغيرة (٢) طرية (٣) ألين (٤) قال في القاموس تبلغ بكذا اكتفى به والترجية والرجاء بمعنى واحد وهو ضد اليأس

عمر بن الخطاب أبطأ على الناس يوم الجمعة ثم خرج فاعتذر اليهم في احتباسه وقال إنما حبسني غسل ثوبي هذا ولم يكن لي ثوب غيره

وفيها عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص قال . قالت حفصة بنت عمر ابن الخطاب لعمر يا أمير المؤمنين لو لبستَ ثوباً هو ألين من ثوبك هذا وأكلت طعاماً هو ألين وأطيب من طعامك فقد وسع الله من الرزق وأكثر من الخير . فقال إني سأخاصمك الى نفسك أما تذكرين ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى من العيش : فما زال يذكّرها حتى أبكاها

ومن هذا وغيره من أخبار عمر الكثيرة في الزهد نعلم انه (رض) انما سلك هذا الطريق من الزهد اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وبأبي بكر الصديق ولم يكن يرضى لعامة المسلمين بمثل هذا الزهد والتقشف وانما هو كان يحملهم على الطريق الوسطى كي لا ينغمسوا في النعيم ويسترسلوا في الشهوات فتفسد أخلاقهم وتفتر هممهم ولا ينقطعوا عن العمل ويعرضوا بتاتاً عن نعيم الحياة فتجمد ملكاتهم وتتعطل أمور معاشهم ومن يرى كتابه الذي كتبه الى أبي عبيدة بن الجراح (وستأتي صورته في باب كتبه) يلومه فيه على شدته في منع المسلمين عن التنعم يتضح له مذهبه في حمل المسلمين على طريق الوسط وعدم حملهم على الزهد وانما هو كان يشدّد على العمال فقط في النهي عن التنعم ويحملهم على طريقته في الزهد كي لا يتبسطوا في نعيم الحضارة ويتوسعوا في أسباب الرفاهة فيحملهم ذلك على السرف الذي يحتاج الى كثرة المال وربما حملت أحدهم حاجة السرف الى تناول المال من غير طرقه المشروعة فتتأذى بهم الرعية ويضطرب نظام العدل الذي لم يكن شيء في الدنيا أحب اليه منه

كلمة في بيت المال

علمت مما مر في الفصل السابق ان عمر رضي الله عنه إنما سلك في زهده وتعففه طريق النبوة ولم يأخذ من بيت المال الا مقدار الحاجة للمعيشة الساذجة التي تليق بزهده كما ان المسلمين إنما راعوا في فرضهم العطاء له حالة معيشته ولما اشتدت به الحاجة رأوا لزوم الزيادة في عطائه ليعادل نفقته فأبى عليهم هذه الزيادة ورعا وزهداً وعمل الصحابة هذا يدل على جواز تناول الأمير من بيت المال ما فيه الكفاية له في معيشته بنسبة حاله فيما لو ترقت أصول معيشته إذ ليس في طاقة كل خليفة ان يسلك مسلك عمر وأبي بكر في التقشف والزهد ويتأدب مثلهما بآداب النبوّة وليس ذلك بواجب على كل خليفة بل الواجب هو القصد في المعيشة والامساك عن البذل الى حد السرف والتعفف عن فضول أموال الأمة ووضعها في مواضعها المشروعة كما كان ذلك من الخليفة عثمان رضي الله عنه فانه لما لم يستطع المسير على قدم من سبقه جاز له ان يتوسع في المعيشة ويتناول من بيت المال ما يكفيه من غير صرف ولا تقتير

وقد رأيت ان الصحابة رضوان الله عليهم لما تشاوروا في أمر الزيادة في عطاء أمير المؤمنين عمر بن الخطاب (رض) انما راعوا حاجته الضرورية التي كانت تناسب معيشته وتقضي بتلك الزيادة ولم يراعوا نفس المنصب او يريدوا التوسعة عليه بفضول الاموال كما انه هو لم يرض بتلك الزيادة خشية ان يكون فيها شيء من السرف في الاموال وحبذا لو نظر الخلفاء بعد هذا النظر وراعوا في بيت المال أوامر الشريعة وسنة السلف من الصحابة فان فيها كل الحكمة وليست في ذاتها بمانعة لهم عن تناول مقدار الحاجة مهما بلغ وانما هي تمنع من تناول الفضول والتوسع في البذل والسرف في المعيشة

الى حد الاستئثار بأموال بيت المال وتبديدها في سبيل الشهوات ووضعها في غير مواضعها المشروعة التي بها قوام الامة كلها لا الخليفة وحده ولقد بلغ تجاوز هذه الحدود المعقولة في دول الاسلام مبلغاً يدهش عقول الباحثين وما نظن الا ان أكثر البلاء الذي حل بهذه الامة والضعف الذي انتابها في العصور القديمة والحديثة ناشئ عن اسراف أمرائها وسلاطينها وتبديدهم للاموال في طرق الشهوات وليست هذه الآفة خاصة بدول الاسلام وانما هي عامة في كل دول الارض وانما هي تتفاوت بتفاوت الامم بمعرفة حقوق الرؤساء وحقوقها وتتباين بتباين صفة الحكومة في كل قوم

وأشقى الامم من هذا القبيل الأمم التي لا حد لسلطة رؤسائها يعرف ولا غاية لسلطانهم توصف وانما هم أرباب اليد المطلقة في أموال الرعية يأخذون منها ما شاءوا ويمنعون من شاءوا وينفقون الأموال فيما شاءوا ليس عليهم من الامة رقيب عتيد ولا من الوجدان زاجر عنيد وقلّما منيت مملكة بهذا النوع من الحكم وبهذا البلاء من التسلط الا فني زادها وساء معادها والشاهد على هذا من دول الاسلام سيأتي في هذا الكتاب وأما من دول أوروبا فيكفي فيه ان يقال ان الامبراطور شارلكان الذي قام في أوروبا في أوائل القرن السادس عشر بعد المسيح وملك معظم الديار الاوربية وتسلط على سائر الشعوب والدول لما لم يكن لسلطته حد في بيوت الاموال جعل ينفق منها في سبيل سيادته على الملوك في عصره مالا يدخل تحت حساب حتى اذا أحس بالعجز عن سياسة ذلك الملك العريض لفقر بيوت أمواله وانهاك قوى رعيته انزوى في دير من الاديرة ولم يلبث ان مات فيه وانكشف بموته عن سماء الممالك الاوربية ظل الاسبانيول واندك أساس ما ابتناه شارلكان لنفسه من الملك الكبير حتى

كأنه ما كان . لهذا لما تنبهت الشعوب الاوربية من سنة الغفلة ووضعوا حداً لسلطة الرؤساء والأمبراطرة أخذوا على أيديهم فيما أخذوا التسلط على بيوت الاموال وفرضوا لكل منهم كفايته منها بنسبة حاله في المعيشة وحال بلاده من الثروة كما كان ذلك على عهد الخلفاء في صدر الاسلام فكان من ذلك ان عم اليسر خزائن الدول الاوربية وتوفرت على القيام بشؤون الرعية الحربية والعلمية واعتزت بفضول المال بأسباب المنعة والجاه والقوة فبسطت جناح السلطان على معظم ممالك الارض وهذا شأن الحياة في الامم اذا دب دبيبها في جسمها ونبهت دورة الدم في عروقها والعكس بالعكس

ومن عجيب الامور ان يد الحاكم متى أطلقت في بيت المال يتفشى الخلل فى سائر فروع الحكومة تفشيا وبيلا بحيث لو أراد الحاكم نفسه ان يتلافى ذلك الخلل لتعذر عليه ذلك بأي سبب من الاسباب ولو مهما كان قادراً ومملكته غنية وأقرب شاهد نذكره للشرقي هنا ما كان في عهد المرحوم اسماعيل باشا الخديوي الاسبق في مصر من الخلل العظيم في سائر فروع الحكومة المصرية بسبب تسلطه على أموال الحكومة وسرفه فيها وتبديده لها في الوجوه التي لا تستلزمها حياة الامة ولا الملك حتى كان من ذلك ان بات العامل في الحكومة والجندي في الثكنة لا يتناولان مرتبهما الا كل بضعة شهور مرة مع غنى البلاد وثروتها ومع ماحملها من الديون التي تزيد عن مائة مليون من الليرات (الجنيهات)

ولما أحس بالخطر الذي أشرفت عليه البلاد والضيق الذي استحوذ على مالية الحكومة وهب لتلافي ذلك الخطر وأخذ في تنظيم شؤون البلاد تعذر عليه ذلك مع طول باعه في السياسة وحنكته في الامور ووجود رجال يساعدونه على ذلك القصد ثم فشل فشله المعروف في التاريخ وانتهى الامر بعزله عن أمارة

مصر باتفاق كل الدول صاحبات الديون في مصر مع الدولة العلية صاحبة الشأن فيها ولما ولي الامارة ابنه المرحوم توفيق باشا وأقبل منها على أمر جلل لايقوم به الا العفيف الحازم الرأي وأراد ان ينقذ البلاد من ورطة العوز والحكومة من خلل النظام فأول ما بدأ به ان كفّ يده عن بيوت الاموال وأمر بتنظيم شؤون الجباية وقيد نفسه بقانون مخصوص من جهة ما يتناوله وأبناء عشيرته من الامراء من مال الحكومة وكان ذلك باشارة بعض مندوبي الدول صاحبات الشأن في المالية وهو لحسن قصده لم يقاوم رأيهم أو يأبى قبول اشارتهم ومن ثمّ ظهرت في الحكومة علائم الاصلاح وبدت في الحال ثمرة تنظيم الشؤون المالية حتى حدث ما حدث في مصر من أسباب الثورة العرابية واحتلال الدولة الانكليزية فى البلاد ثم مضى الامر لهذا العهد على وجهه واستمر نظام المالية في نموّ وجباية البلاد في ازدياد حتى بلغت الى هـذا العهد عشرة ملايين ونصفاً ونيفاً من الجنيهات وانتظمت سائر فروع الحكومة انتظاماً يحسدها عليه كثير من الشعوب الشرقيين وحكوماتهم وكل ذلك نتيجة كف يد الحاكم عن بيوت الاموال وضبط أصول الجباية وحسابات الحكومة والله يوفق من شاء الى ما شاء

هذا وأما واضع بيت المال في الاسلام فانه أبو بكر (رض) كما مر في سيرته وإنما كان ساذجاً تحشر اليه الاموال من الفيء والصدقة ثم توزع في أماكنها المشروعة وعلى الوجوه التي أمر بها الله في الكتاب الكريم الذي وضع للمسلمين أصول التوزيع (المعروفة الآن بميزانية الحكومة المالية) وقد مر ذكر ذلك إلا انه لم يكن ثمّة ضابط ولا قيد فى ديوان وقد رأيت فيما مضى من سيرة عمر رضي الله عنه كيف نهض لوضع الديوان لما كثر الفيء والخراج وازدادت الجباية ضبطاً لامور بيت المال وتقييداً للنفقات وانما كان

ديوان بيت المال هو الدفتر الذي يضبط فيه الحساب ثم ما زال يترقى الحال حتى تفرغ عن بيت المال عدة دواوين على عهد الخلفاء من بني أمية وبني العباس كافرادهم ديوان العطاء وحده وكذلك ديوان الخراج وديوان الاقطاع وسنستقصيها عند الكلام على رجال هذه الدول ان شاء الله وكل هذه الدواوين كانت تابعة لبيت المال وقد توسع الأئمة والفقهاء بعدُ في وضع الضوابط والقوانين التي تتعلق ببيت المال وكلها كانت استنباطاً من أصول الشريعة وعمل الصحابة مثل كتاب الخراج لأبي يوسف وما يشبهه من الكتب الواردة في مؤلفات الفقه الاسلامي الآن أمر بيوت الاموال تقلب بعد ذلك بتقلب الدول الاسلامية وتغير بتغير الزمان وخرجت ضوابطه عن طوق الفقهاء واستأثر بها الامراء قلباً وإبدالاً ومحواً وإثباتاً على مقتضى الظروف والاحوال الى الآن

﴿ حسبته ﴾

أصل الحسبة هي مشارفة السوق والنظر في موازينه ومكاييله ومنع الغش والتدليس فيما يباع ويشرى فيه من المأكول والمصنوع وغيره ورفع الضرر عن الطريق ودفع الحرج عن السابلة وتنظيف الازقة وبالجملة هي كل الوظائف المتعلقة بما يعرف الآن بالمجالس البلدية ولها في الاسلام ولاية خاصة تسمى ولاية الحسبة وأول من وضعها على مايظهر هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقد جاء في كنز العمال في حديث أخرجه ابن سعد عن الزهري ان عمر بن الخطاب استعمل عبد الله بن عتبة على السوق : وقال العلماء هذا أصل ولاية الحسبة

ومن ثم ترقت الحسبة في الاسلام ترقياً عجيباً حتى كانت من أهم الشؤون التي عنى بها الخلفاء والفقهاء وقد توسع بعض العلماء بتوسع الحاجة في وظيفة والي الحسبة فجعلوها تشمل كل أمر بمعروف ونهي عن منكر ومن هؤلاء

شيخ الاسلام ابن تيمية فقد أجاز التوسع في ولاية الحسبة حتى في اقامة الصلوات الخمس في مواقيتها وتعاهد الأئمة والمؤذنين و إلزامهم بأداء وظائفهم على مقتضى الشرع وحجته في جواز التوسع بهذه الوظيفة ما قاله عن الولايات في كتاب الحسبة في الاسلام المطبوع حديثاً في مصر ونصه

عموم الولايات وخصوصاً وما يستفيده المتولي بالولاية يتلقى من الالفاظ والاحوال والعرف وليس لذلك حد في الشرع فقد يدخل في ولاية القضاء في بعض الامكنة والازمنة ما يدخل في ولاية الحرب في مكان وزمان آخر وبالعكس وكذلك الحسبة وولاية المال اه

ومن هذا ترى مبلغ عناية القوم بهذه الوظيفة السامية وتوسعهم فيها وإتقانهم لهم حتى انا رأينا من بعض آثار الحسبة على عهد الفاطميين قطعاً مستديرة من الزجاج ومزيجاً آخر معه على وزن الدينار والدرهم مكتوباً عليها وزن واف أو ماهو بمعناه ومثلها للاوزان الخفيفة وكلها كانت تصدر من والي الحسبة أو المحتسب على تعبير المتأخرين لاجل ان يضبط بها الناس عيار الدراهم والدنانير والاوزان على مايظن منعاً للتلاعب والغش الا اننا لم نقف على التاريخ الذي النى فيه إسم المحتسب ولعله منذ أنشئت المجالس البلدية في المملكة العثمانية وسنتكلم عليها في مكان آخر بأوسع من هذا ان شاء الله

أما حسبة عمر رضي الله عنه فقد قدمنا انه استعمل لها عبد الله بن عتبة ومع ذلك فقد كان يقوم بنفسه بوظائف المحتسب ويشارف السوق ويراقب المكايل والموازين ويأمر باماطة الاذى عن الطريق

أخرج الامام ابن الجوزي عن المسيب بن دارم قال : رأيت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يضرب جمالاً ويقول حملت جملك ما لا يطيق

وفي كنز العمال عن زيد بن فياض عن رجل من أهل المدينة قال دخل عمر بن الخطاب السوق وهو راكب فرأى دكاناً قد أحدث في السوق فكسره

وفيه عن عبد الله بن ساعدة الهذلي قال : رأيت عمر بن الخطاب يضرب التجار بدرّة اذا اجتمعوا على الطعام بالسوق حتى يدخلوا سكك أسلم ويقول لا تقطعوا علينا سابلتنا

وفيه عن علي انه كان يأمر بالمثاعب[1] والكنف تقطع عن طريق المسلمين

وفيه عن القاسم بن محمد ان عمر بن الخطاب مرّ بحاطب بسوق المصلّي وبين يديه غرارتان فيهما زبيب فسأله عن سعرها فسعر مدّين بكل درهم فقال له عمر : حدثت بعير مقبلة من الطائف تحمل زبيباً وهم يعتبرون بسعرك فأما ان ترفع في السعر وأما ان تدخل زبيبك البيت فتبيعه كيف شئت فلما رجع عمر حاسب نفسه ثم أتى حاطباً في داره فقال ان الذي قلتُ ليس بعزمة ولا قضاء وإنما هو شيء أردت به الخير لأهل البيت فحيث شئت فبع وكيف شئت فبع (أخرجه الشافعي في السنن)

وله أخبار غير هذه في الحسبة وقد اكتفينا بما تقدم دلالة على الباقي

﴿ قضاؤه ﴾

كتبنا في سيرة أبي بكر فصلا عن القضاء في الاسلام وكيف كان يقضي أبو بكر وعمر رضي الله عنهما فلا نرى حاجة للمزيد هنا إلا بعض أخبار عمر في القضاء فانا نأتي بها إتماماً للفائدة

كان عمر رضي الله عنه يتولى القضاء بنفسه وينيب عنه غيره لما هو معروف من ان القضاء في الاسلام وظيفة من وظائف الامام يجوز له ان يتولاها بنفسه

(١) مسايل الماء كما في النهاية

وان ينيب بها عند الحاجة غيره وكان تحريه للعدالة في انتخاب القضاة كتحريه في انتخاب الولاة لا يراعي في كليهما إلا الاهلية والاستعداد والتقوى والعدل ويعلم ان اثم الظالم اذا ظلم على موليه فقد أخرج ابن الجوزي في المناقب عن عبد الملك بن عمير قال : قال عمر بن الخطاب رضوان الله عليه من استعمل رجلاً لمودة أو لقرابة لا يستعمله إلا لذلك فقد خان الله ورسوله والمؤمنين

وأخرج عن عمران بن سليم عن عمر قال : من استعمل فاجراً وهو يعلم انه فاجر فهو مثله

وكما كان يتحرى في استقال العمال والقضاة التقوى والعدالة يتحرى العلم والمعرفة والذكاء ويبغض خرق العامل وجهله

أخرج ابن الجوزي عن محارب بن دثار عن عمر بن الخطاب انه قال لرجل قاض من أنت قال قاضي دمشق : قال كيف تقضي : قال أقضي بكتاب الله : قال فاذا جاءك ماليس في كتاب الله قال أقضي بسنة رسول الله : قال فاذا جاءك ما ليس في سنة رسول الله : قال أجتهد رأيي وأوامر (أي أشاور) جلسائي قال أحسنت : وقال فاذا جلست فقل اللهم اني أسئلك ان أفتي بعلم وان أقضي بحكم . وأسئلك العدل في الغضب والرضى : قال فسار الرجل ما شاء الله ان يسير ثم رجع الى عمر : فقال مارجوعك : قال رأيت الشمس والقمر يقتتلان مع كل واحد منهما جنود من الكواكب : فقال مع أيهما كنت : قال مع القمر : قال يقول الله عز وجل (وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة) لا تلي لي عملا

وإنما عزله لجهله وأبعده عن العمل لسخافة قوله وهكذا كان شأنه مع عماله رضي الله عنه

وكان لا يحب تعجيل الفصل في الخصومة رجاء ان يصطلح الخصمان

وتمحى آثار الضغائن من النفوس فقد جاء في كنز العمال عنه رضي الله عنه انه قال ردوا الخصوم حتى يصطلحوا فان فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس : وأما كلامه فى القضاء ووصاياه للقضاة فتظهر من الكتابين التاليين

﴿ كتابه في القضاء الى شريح القاضي ﴾

أما بعد اذا جاءك شيء في كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال فان جاءك أمر ليس في كتاب الله فانظر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاقض بها فان جاءك أمر ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله فانظر ما اجتمع عليه الناس فخذ به . فان جاءك ما ليس في كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ولم يتكلم فيه أحد قبلك فاختر أي الامرين شئت . ان شئت ان تجتهد رأيك وتقدم فتقدم . وان شئت ان تأخر فتأخر ولا أرى التأخير الا خيراً لك اه (من كنز العمال)

﴿ كتابه في القضاء الى أبي موسى الاشعري ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم (أما بعد) فان القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة فافهم اذا أدلي اليك [1] فانه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له آس [2] بين الناس في مجلسك ووجهك حتى لا يطمع شريف في حيفك [3] ولا يخاف ضعيف من جورك والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر والصلح جائز بين المسلمين الا صلحاً حرم حلالاً أو أحل حراماً . ولا يمنعك قضاء قضيته بالامس راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك ان ترجع عنه فان الحق قديم ومراجعة الحق خير من التمادي في الباطل . الفهم الفهم عندما يتلجلج [4] في صدرك مما لم يبلغك في كتاب الله ولا سنة النبي صلى الله عليه وسلم . أعرف الامثال والاشباه وقس الامور عند

---

(١) رفع لك الأمر وجيء به اليك (٢) أعدل وساو (٣) الحيف الجور والظلم كما في القاموس (٤) التلجلج التردد في الكلام كما فى القاموس

ذلك ثم اعمد الى أحبها الى الله وأشبهها بالحق فيما ترى واجمل للمدعي حقاً غائباً أو بينة أمداً ينتهي اليه (أي وقتاً محدوداً) فان أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا وجهت عليه القضاء، فان ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ في العذر. المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً في حد أو مجرباً عليه شهادة زور أو ظنيناً[1] في ولاء أو قرابة فان الله قد تولى منكم السرائر ودرأ عنكم بالشبهات. ثم إياك القلق والضجر والتأذي بالناس والتنكر للخصوم في مواطن الحق التي يوجب الله بها الأجر ويحسن بها الذخر فانه من يخلص بها نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفه الله ما بينه وبين الناس ومن تزين للناس بما يعلم الله خلافه منه هتك الله ستره وأبدى فعله والسلام (من البيان والتبيين)

وهذا الكتاب على إيجازه هو الذي تدور عليه أحكام القضاء الى هذا العهد

وأما أقضيته فكثيرة لا يسعها هذا الكتاب فليرجع اليها من أحب في كتب الحديث وقد خالف في بعض أحكامه ما قضت به السنة مراعاة للحال والمصلحة فلم يؤاخذ على ذلك لحسن قصده منها حكمه بتحريم المتعة وقد أحلت في ظروف مخصوصة ومنها حكمه بوقوع الطلاق الثلاث اذا صدر عن شخص مرة واحدة مع ان السنة قضت بوقوعه طلقة واحدة وأراد بهذا قهر النفوس على تجنب الطلاق لما يحصل عند المطلق من الندامة اذا أحس بألم الحكم بوقوع الطلاق الثلاث وغير ذلك من الاحكام النافعة التي أخذ بها بعد كثير من أئمة المسلمين اقتداء بحسن رأيه وجميل قصده فليرجع اليها في مظانها من كتب الأئمة والمحدثين من شاء

---

(١) هو المتهم بسبب قرابته أو ولائه

﴿ فراسته وذكاؤه ﴾

كان رضي الله عنه حديد الذكاء شديد الفراسة يكاد بفراسته يستطلع خبايا القلوب ويستخرج ماتكنه النفوس وقد ساعده تفرسه في الناس على وضع الشدة في مواضعها واللين في مواضعه حتى أخذ بنواصي الناس واستكانت له رغبة ورهبة وكان أشد الناس حذراً منه قريش كما كان هو أشد الناس حذراً منهم واستكناها لكنه ضمائرهم ليحسن الى محسنهم ويأخذ على يدي مسيئهم لهذا دبت في قلوبهم هيبته وفعلت في نفوسهم فراسته

لما جاء عمرو بن العاص من جيفر وأخبر المسلمين بكثرة من تجمع لهم من جيوش الردة في خلافة أبي بكر تفرق المسلمون وتحلقوا حلقاً وأقبل عمر للتسليم على عمرو فمر على حلقة فيها نفر من المهاجرين وهم عليّ وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد فلما دنا عمر منهم سكتوا : فقال فيم أنتم فلم يجيبوه فاستطلع طلع بواطنهم وأدرك بفراسته ماهو دائر بينهم من الكلام فقال لهم : انكم تقولون ما أخوفنا على قريش من العرب : قالوا صدقت : قال فلا تخافوهم أنا والله منكم على العرب أخوف مني من العرب عليكم والله لو تدخلون معاشر قريش جحراً لدخلته العرب في آثاركم فاتقوا الله فيهم ومضى

ولا يخفى مافي هذا الكلام من المغامز خلا مافيه من الاستخفاف بقوة العرب وإنما أدرك ماخامر نفوسهم من أخبار الردة فأراد ان يستفز منهم صدق العزيمة لمضافرة أبي بكر ومكاتفته على استخضاع العرب ويبين لهم انهم قدوة العرب وأئمة الناس فحيثما اتجهوا اتجه معهم الناس طوعاً أو كرهاً وهذا هو الحق الذي تشهد له الحوادث العظمى التي حدثت بعد خلافة أبي بكر وعمر وسيق بها العرب الى ماسيقوا اليه ودخلوا مع قريش الى حيث

دخلوا كما هو معروف في التاريخ وسنشير اليه في محله ان شاء الله

وحسب عمر من سعة المدارك و بعد النظر والذكاء قيامه ببيعة أبي بكر ومبادرته الى ذلك قبل اخوانه من المهاجرين مع تحققه ان أمر البيعة منوط بالشورى متوقف على اتفاق المهاجرين وغيرهم من اهل الحل والعقد لهذا اعتدها بعد ذلك فلتة وقى الله المسلمين شرها كما سترى في احدى خطبه التي تجيء في باب الخطب وانما عجل ببيعة أبي بكر لما كان يتفرسه في وجوه القوم ويتوقعه من المهاجرين من الاختلاف كما كان ذلك من الانصار ويا ويح الأمة لو حدث من الخلاف بين المهاجرين في ذلك العهد ما حدث في خلافة عثمان وما بعده اذ كان الاسلام غضاً طرياً والناس لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم في اضطراب والعرب على قدم القيام على المسلمين وإنما تلافى هذا الخطر وحال دون ذلك الخلاف عمر رضي الله عنه بمبايعته لابي بكر لعلمه انه أقدم المهاجرين اسلاماً وأكبرهم سناً وأضعفهم عصبية فاذا تعجل بمبايعته قطع آمال المتطلعين الى الخلافة من أولي العصبيات الكبيرة فكانوا باجمعهم عصبية لابي بكر يذودون عن حوضه ويفون بحق طاعته لا سيما وان ليس لاحد منهم غاية بعد تقرير أمر الخلافة الا نصرة الدين والقيام على الحق شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مدى حياته وانما هم تزاحموا على الخلافة بعدُ لاعتزاز كل فرد منهم بعصبيته او سابقته في الاسلام وكونه يرى نفسه أولى بخدمة المسلمين وأحق بامرة المؤمنين لانهم كما قدمنا في غير هذا المحل كانوا كالحلقة المفرغة لا يدري أين طرفاها . اي كلهم أهل للخلافة وجدير بخدمة ذلك المنصب فقيام عمر ببيعة أبي بكر قطع جهيزة قول كل خطيب وجعلهم كلهم راضين بها لعلمهم بسابقته وفضله وعزيمته ولاطمئنان ضمير كل فرد من المتطلعين اليها بصرفها عن الآخر وهذا

الذي دعا لارتياحهم جميعاً لخلافة أبي بكر وإنما كان القائم بها العارف بلزومها عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين

ومن عجيب فراسته التي كان كأنه ينظر منها بعين الغيب ما ذكره ابن عبد ربه في العقد قال : قال أبو بكر بن أبي شيبة كان عبد الله بن عباس من أحب الناس الى عمر بن الخطاب وكان يقدمه على الاكابر من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ولم يستعمله قط فقال له يوماً كدت أستعملك ولكن أخشى ان تستحل الفيء على التأويل فلما صار الامر الى عليّ استعمله على البصرة فاستحل الفيء على تأويل قول الله تعالى (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى) واستحله من قرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تفرس فيه ذلك عمر من قبل

هكذا كان مبلغ فراسة عمر رضي الله عنه خصوصاً في بني هاشم وقد كان يتفرس فيهم القيام يوماً لطلب الخلافة واثارة غبار الفتن والاستحواذ على ذلك المنصب الذي كانوا يرون أنفسهم احق الناس به على خلاف ما كان يراه جلة المهاجرين الذين يعلمون ان رسول الله صلى الله عليه وسلم منعهم من أن يعملوا له عملا كي لا يحدثوا أنفسهم بشيء من الامارة لانها غير النبوة ومن ذلك ما ذكره في العقد ان العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم طلب منه ولاية فقال له (يا عم نفس تحييها خير من ولاية لا تحصيها)

وكان عمر لتفرسه فيهم التطلع الى الامارة لا يستعمل أحداً منهم كما لم يستعملهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويجاهر بظنه هذا فيهم وقد جاهر به لعبد الله بن عباس مراراً ومنه ماتقدم ذكره في باب سياسته اذ قال له : يا ابن عباس اني خشيت أن يأتي عليَّ الذي هو آت وأنت في عملك فتقول هلمّ الينا ولا هلمّ اليكم دون غيركم :

ولقد تحققت فراسته في بني هاشم بعدُ اذ قضوا عصوراً طويلة في مكافحة الملوك ومزاحمة الخلفاء على الخلافة وأسسوا عدة دول أضخمها العباسية في بغداد والفاطمية في أفريقيا واهرقوا سيولاً من دماء اشياعهم واشياع غيرهم في سبيل نيل هذه البغية. وتأتي عن هذه المزاحمة من التشويش في امور الدول الاسلامية والاضطراب في المسلمين ما الله به عليم: على انهم لو اتعظوا بعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم اذ صرف أسلافهم عن الامارة وصرفها عنهم لما أقدموا على شيء من ذلك بل لكانوا اذا استمر في نفوسهم شيء من التطلع الى الخلافة سلكوا اليها سبيلا غير ذلك السبيل وجعلوا الأمة باجمعها طامحة الانظار اليهم ساعية بنفسها لاسناد منصب الخلافة لاهل الجدارة منهم وحسبهم موعظة وذكرى انَّ عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه على صلاحه وتقواه وسابقته في الاسلام وقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم وشهرته بالعدل والورع والزهد (ومن كعلي بعده) لم يتوفق لجمع كلمة الأمة على الرضى بخلافته لالقصور فيه معاذ الله وانما هو لما وقر في نفوس الأمة يومئذ من ان الهاشميين بسبب قرابتهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم لاينفكون عن الادلال على الناس وحب الاستعلاء على الكافة والناس يومئذ في ابان نشأة الاسلام وعز الحرية وحظيرة المساواة والاخاء التي حشرهم اليها الاسلام بقوله تعالى (انما المؤمنون اخوة) وبقول النبي صلى الله عليه وسلم (لافضل لعربي على عجمي الا بالتقوى) فتوهمُّوا ان يسلبهم بنو هاشم شيئاً من هذه النعمة بالاستعلاء عليهم كانوا غير ميالين لاستخلاف احد منهم بدلك على صدق هذا القول ماذكره في العقد عن عبدالله بن عباس قال: ماشيت عمر ابن الخطاب يوماً فقال لي يا ابن عباس ما يمنع قومكم منكم وأنتم أهل البيت خاصة: قلت لا أدري: قال لكنني ادري انكم فضلتموهم بالنبوة فقالوا ان

فضلوا بالخلافة مع النبوة لم يبقوا لنا شيئاً وان أفضـل النصيبين بأيديكم بل ما اخالها الا مجتمعة لكم وان نزلت على رغم انف قريش (يريد الخلافة)

﴿ نبذٌ من فنون اقواله واخباره ﴾

من اخباره في الشفقة ورقة القلب ما أخرجه في المناقب عن الاحنف بن قيس قال وفدنا على عمر رضي الله عنه بفتح عظيم فقال أين نزلتم : فقلت في مكان كذا فقام معنا حتى انتهينا الى مناخ رواحلنا فجعل يتخللها ببصره ويقول : الا اتقيتم الله في ركابكم هذه أما علمتم ان لها عليكم حقاً ألا اخليتم عنها فأكلت من نبت الارض : فقلنا يا أمير المؤمنين انا قدمنا بفتح عظيم فاحببنا التسرع الى أمير المؤمنين بما يسره

عن نافع قال دخل شاب قويٌّ المسجد وفي يده مشاقص[1] وهو يقول من يعينني في سبيل الله فدعا به عمر فأتى به فقال من يستأجر مني هـذا يعمل في أرضه فقال رجل من الانصار : انا يا أمير المؤمنين : قال بكم تأجره قال كل شهر بكذا وكذا قال خذه فانطلق به : فعمل في ارض الرجل اشهراً ثم قال عمر للرجل : ما فعل أجيرنا : قال صالح يا أمير المؤمنين : قال ائتني به وبما اجتمع له من الاجر : فجاء به وبصرة من دراهم : فقال (عمر للرجل) خذ هذه فان شئت فالآن اغز وان شئت فاجلس

وشفقته على هذا الرجل هي من جهة انه رآه قوياً واهلا للعمل فأعطاه لمن يستأجره كي لا يكون عالة على الناس

ومن جميل أخباره في تأديب الناس على ستر العورات وكتمان ما يمس بشرف الصيانة ما جاء في المناقب عن الشعبي قال اتى عمر بن الخطاب رجل فقال ان

---

(١) قال في القاموس المشقص كمنبر نصل عريض او سهم فيه ذلك والنصل الطويل او سهم فيه ذلك يرمي به الوحش.

ابنة لي كنت وأدتها [1] في الجاهلية فاستخرجناها قبل ان تموت فأدركت معنا الاسلام فاسلمت ثم أصابها حد من حدود الله فاخذت الشفرة لتذبح نفسها وأدركناها وقد قطعت بعض اوداجها فداويناها حتى برأت ثم اقبلت بعد توبة حسنة وهي تخطب الى قوم أفأخبرهم بالذي كان : فقال عمر (رض) اتعمد الى ما ستره الله فتبديه والله لئن اخبرت بشأنها احداً من الناس لاجعلنك نكالا لاهل الامصار نكحها نكاح العفيفة المسلمة

ومن اخباره في رفع القصاص عن القاتل دفاعاً عن الشرف والعرض ما أخرجه في المناقب عن الليث عن عبد الله بن صالح قال أتى عمر بن الخطاب بفتى أمرد وجد قتيلا ملقى على وجهه في الطريق فسأل عمر عن أمره واجتهد فلم يقف له على خبر ولم يعرف له قاتل فشق ذلك على عمر وقال اللهم اظفرني بقاتله حتى اذا كان رأس الحول او قريباً من ذلك وُجد صبي مولود ملقى موضع القتيل فأتى به عمر فقال ظفرت بدم القتيل ان شاء الله فدفع الصبيّ الى امرأة وقال لها قومي بشأنه وخذي منا نفقته وانظري من يأخذه منك فاذا وجدت امرأة تقبله وتضمه الى صدرها فاعلميني بمكانها فلما شب الصبي جاءت جارية فقالت للمرأة ان سيدتي بعثتني اليك تبعثي الصبيّ لتراه وترده اليك . قالت نعم اذهبي به اليها وأنا معك فذهبت بالصبي والمرأة معها حتى دخلت على سيدتها فلما رأته أخذته فقبلته وضمته اليها فاذا هي بنت شيخ من الانصار من اصحاب رسول الله فاخبرت عمر خبر المرأة فاشتمل عمر على سيفه ثم اقبل الى منزلها فوجد أباها متكئاً على باب داره : فقال يا أبا فلان مافعلت ابنتك فلانة : قال يا أمير المؤمنين جزاها الله خيراً هي من اعرف

(١) اوءدهو دفن البنات وهن احياء وكانت عادة الوءد عند العرب في الجاهلية فلما جاء الاسلام ابطلها

الناس بحق الله تعالى وحق ابيها مع حسن صلاتها وصيامها والقيام بدينها فقال عمر قد احببت ان ادخل اليها فازيدها رغبة في الخير وأحثها على ذلك فقال جزاك الله خيراً يا أمير المؤمنين امكث مكانك حتى ارجع اليك . فاستأذن لعمر فلما دخل عمر أمر كل من كان عندها فخرج عنها و بقيت هي وعمر في البيت ليس معها أحد فكشف عمر عن السيف وقال لتصدقيني وكان عمر لا يكذب : فقالت على رسلك يا أمير المؤمنين فوالله لأصدقن : ان عجوزاً كانت تدخل عليّ فاتخذتها اماً وكانت تقوم في أمري بما تقوم به الوالدة وكنت لها بمنزلة البنت فمضيت بذلك حيناً ثم انها قالت لي يا بنية انه قد عرض لي سفر ولي بنت اتخوف عليها منه ان تضيع وقد أحببت ان اضمها اليك حتى ارجع من سفري . فعمدت الى ابن لها شاب امرد فهيأته كهيئة الجارية واتتني به لا أشك انه جارية فكان يرى مني ما ترى الجارية من الجارية حتى اغتفلني يوماً وانا نائمة فما شعرت حتى علاني وخالطني فمددت يدي الى شفرة كانت الى جنبي فقتلته ثم أمرت به فالقي حيث رأيت فاشتملت منه على هذا الصبي فلما وضعته القيته في موضع ابيه فهذا والله خبرهما على ما أعلمتك : فقال عمر صدقت بارك الله فيك ثم أوصاها و وعظها ودعا لها وخرج وقال لأبيها بارك الله في ابنتك فنعم الابنة ابنتك وقد وعظتها وأمرتها فقال الشيخ وصلك الله يا أمير المؤمنين وجزاك خيراً عن رعيتك

﴿ فنون شتى من اخباره ﴾

عن الحسن قال عاتب عيينة عثمان فقال له كان عمر خيراً لنا منك أعطانا فاغنانا وأخشانا فاتقانا

تظلم رجل من بعض عمال عمر وادعى انه ضربه وتعدى عليه: فقال اللهم اني لا أحل لهم اعشارهم ولا أبشارهم (أموالهم وأجسامهم) كل من ظلمه أميره فلا

امير عليه دوني ثم أقاده منه (أي أخذ له القود)

وقال المغيرة بن شعبة وذكر عمر فقال كان والله له فضل يمنعه أن يخدع وعقل يمنعه ان يخدع

في كنز العمال عن طاوس ان عمر قال أرأيتم ان استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل اقضيت ما علي؟ قالوا نعم : قال لا حتى انظر في عمله أعمل بما امرته ام لا

وفيه عن عمر قال : الرعية مؤدية الى الامام ما ادّى الامام الى الله فاذا رفع الامام رفعوا (أخرجه بن سعد)

وفيه عنه انه قال لا ينبغي أن يلي هذا الأمر الا رجل فيه أربع خلال اللين في غير ضعف والشدة في غير عنف والامساك في غير بخل والسماحة في سرف فان سقطت واحدة منهن فسدت الثلاث

وما أظن ان خليفة اتصف بهذا الصفات من غير تصنع ولا تكلف كعمر رضي الله عنه

وفيه عن قطن بن وهب عن عمه انه كان مع عمر بن الخطاب في سفر فلما كان قريباً من الروحاء سمع صوت راع في جبل فعدل اليه فلما دنا منه صاح يا راعي الغنم فاجابه الراعي : فقال له اني مررت بمكان هو أخصب من مكانك فان كل راع مسؤل عن رعيته ثم عدل صدور الركاب (أخرجه الامام مالك وابن سعد)

وتالله ان هذا الاهتمام بشؤون الناس حتى في ارشاد الرعاة الى اماكن الخصب لجدير بأن يقوم به كل خليفة من خلفاء المسلمين اقتداء بسلفهم الصالحين وهيهات هيهات فان الشهوات غلابة ومحبة الذات خلابة وليست كل النفوس خيرة كنفس عمر

وفيه عن سعيد بن المسيب ان عمر بن الخطاب قال في ولايته من ولي

هذا الامر بعدي فليعلم ان سيريده عنه البعيد والقريب وأيم الله ما كنت الاّ أقاتل الناس عن نفسي قتالاً

واخرج ابن الجوزي في المناقب عن يحي بن جمدة قال : قال عمر لولا اني أسير في سبيل الله أو أضع جبيني لله في التراب أو أجالس قوماً يلتقطون طيب القول كما يُلتقط طيب التمر لاحببت أن أكون قد لحقت بالله

وفيه عن ابن سعد قال : قال عمر والله ما أدري أخليفة أنا أم ملك فان كنت ملكا فهذا أمر عظيم : فقال قائل يا أمير المؤمنين ان بينهما فرقاً قال ما هو : قال الخليفة لا يأخذ الا حقاً ولا يضعه الا في حق وأنت بحمد الله كذلك والملك يعسف الناس فيأخذ من هذا ويعطي هذا فسكت عمر

وفيه عن الزهري قال كان جلساء عمر اهل القرآن كهولاً كانوا أو شباناً

وفيه عن الاوزاعي قال : بلغني ان عمر (رض) سمع صوت بكاء في بيت ومعه غيره فمال عليهم ضرباً حتى بلغ النائحة فضربها حتى سقط خمارها وقال اضرب فانها نائحة لا حرمة لها انها لا تبكي لشجوكم انما تهريق دموعها على أخذ دراهمكم انها تؤذي أمواتكم في قبورهم واحياءكم في دورهم . انها تنهي عن الصبر الذي امر الله به وتأمر بالجزع الذي نهى الله عنه

وفيه عن عبدالله بن بريدة قال: ربما أخذ عمر بن الخطاب بيد الصبي فيجيء به ويقول ادعُ لي فانك لم تذنب بعدُ: وفيه عن محمد قال: كان عمر يشاور حتى المرأة

وفيه عن ابي امامة بن سهل قال : كتب عمر الى ابي عبيدة رضي الله عنهما علموا غلمانكم العوم ومقاتلتكم الرمي

ولا يخفى انه اراد بهذا التعليم التمرن على فنون الحرب من حال الصغر وانما كان تعلم الرمي من أهم لوازم الجند بالنسبة لذلك العصر

واما في هذا العصر فلوازم الحرب كثيرة ومنها تعلم فنون الكيمياء لاجل عمل المواد الالتهابية التي يحتاج اليها المحارب وتعلم الهندسة والميكانيات أي علم صناعة الآلات لاجل عمل المدافع والبنادق والقلاع والمتاريس ونحوها من لوازم القوّة والدفاع وفن الجغرافية لاجل معرفة اطوال البلاد وعروضها وسهولها ونجودها وطرقها وجبالها وأخلاق أهلها وقوتهم وثروتهم وغير ذلك مما يعين على معرفة البلاد وأهلها معرفة تامة قبل مهاجمتها واعلان الحرب على أهلها (ومن الغريب) ان يقوم منذ سنتين بعض علماء المسلمين في مصر معلنين على ملأ الناس ان ادخال اهون هذه العلوم في أصول التعليم في الازهر وهو فن تقويم البلدان غير جائز ولا مفيد وهم يقرؤن كل يوم مئات من مثل هذه الآثار والاخبار تدعو الى الحض على العناية بفنون الحرب وصرف الهمم الى مبارات الامم في مضمار الحياة والقوة وكأنهم لا يقرؤن من ذلك شيئاً ولا يعلمون فانا لله وانا اليه راجعون

وأخرج الطبريّ عن زيد بن اسلم قال قال عمر كنا نعد المقرض بخيلا وانما هي المواساة

ومن مأثور كلامه قوله من كتم سره كان الخيار في يده : اشقى الولاة من شقيت به رعيته : اعقل الناس اعذرهم للناس : ما الخمر صرفاً باذهب لعقول الرجال من الطمع : لا يكن حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً : مُرْ ذوي القرابات ان يتزاوروا ولا يتجاوروا : قلما ادبر شيء فأقبل : اشكو الى الله ضعف الامين وخيانة القويّ : من لا يعرف الشر كان أجدر ان يقع فيه (عن زهر الآداب وثمر الالباب)

ودخل عديّ بن حاتم على عمر فسلم وعمر مشغول فقال يا أمير المؤمنين أنا

عديّ بن حاتم فقال : ما اعرفني بك آمنت اذ كفروا ووفيت اذ غدروا وعرفت اذ انكروا واقبلت اذ ادبروا (عنه ايضاً)

ومن جميل قوله اياكم والمعاذير فان كثيراً منها كذب : وقوله تعلموا المهنة فانه يوشك احدكم ان يحتاج الى مهنته (المناقب)

عن قبيصة بن جابر قال : قال لي عمر بن الخطاب انك رجل حدث السن فصيح اللسان فسيح الصدر وانه يكون في الرجل عشرة اخلاق تسعة اخلاق حسنة وخلق سيّء فيغلب الخلق السيّء التسعة الاخلاق الحسنة فاتق عثرات الاشياء :

وفي المناقب عن عبيد بن أم كلاب انه سمع عمر يقول لايعجبنكم من الرجل طنطنته[1] ولكن من ادّى الامانة وكفّ عن اعراض الناس فهو الرجل

وفيه عن اسماعيل بن أمية قال قال عمر الراحة في ترك خلطاء السوء : وما أعظمها من حكمة وأفيدها من موعظة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد

وعن مسروق قال تذاكرنا عند عمر بن الخطاب الحسب فقال : حسب المرء دينه وأصله عقله ومروءته خلقه

ومن قوله في بيان فضيلة الكسب ماذكره في المناقب عن عطاء قال : قال عمر ابن الخطاب رضي الله عنه لأن أموت بين شعبتي رَحلٍ (هو قتب الجمل) أسعى في الارض ابتغي من فضل الله كفاف وجهي أحبّ اليّ من ان أموت غازياً

كلمة اجمالية في أخلاقه

هذا ما احببنا ايراده من مناقب عمر (رض) واخلاقه وسيرته ومنه تعلم كيف كان ذلك الرجل العظيم فيتمثل لك فيه صورة من النور وجسم من الفضيلة

---

(١) صوت صلاته في الليل

والكمال وعلم من اعلام الرجال الذين تفتخر بحياتهم الأمم ويقتدي بسيرتهم أرباب الهمم فالجد والصبر والثبات والجلد والقوّة والعدل والتقوى والتواضع والرفق والحلم والبصيرة والرأي كلها أخلاق قلّ ان تجتمع في عدد عديد من الرجال وقد اجتمعت في عمر بن الخطاب كما رأيت فيما أو ردناه من سيرته وكل أخلاقه هذه تكاد تكون فطرية لايظهر عليها شيء من التصنع او التكلف ولو أردنا استقصاء كل أخباره وآثاره لأعجزنا هذا الأمر كما اعجز كثيراً غيرنا من الفضلاء الذين حاولوا جمع أخباره وتتبع آثاره فلم يدركوا غايتها ولم يأتوا بمعشارها ومن احسن وصف موجز وصف به عمر ماروى ان معاوية بن أبي سفيان قال لصعصعة بن صوحان صف لي عمر بن الخطاب فقال

كان عالماً برعيته عادلا في قضيته عاريا من الكبر قبولا للعذر سهل الحجاب مصون الباب متحريا للصواب رفيقاً بالضعيف غير محابٍ للقريب ولا جافٍ للغريب :

وكان من اخص صفاته الجد المصحوب بالحزم مع التأني في الأمور والاستشارة في جليلها وحقيرها لهذا من تتبع سيرته لايراه فشل في أمر من الامور بل كل تلك الاعمال التي عملها في خلافته وذلك الفتح العظيم الذي كان على عهده توفق اليه توفيقاً صاحبه من أول عهده بالخلافة الى حين وفاته وسبب هذا التوفيق هو الجد والحزم وعدم التردد في الامر وتمحيص الاشياء شأن كل رجل عظيم يريد مايقول وينال مايريد ولو بحثنا في تاريخ الامم القديمة والحديثة لوجدنا لكل أمة رجلا أو رجالاً من رجال السياسة والحرب تفتخر بهم وتعلي ذكرهم ولكن ليس من هؤلاء الرجال من اجتمعت فيه كل تلك الخصال السامية والاخلاق الحميدة التي اجتمعت في عمر بن الخطاب . إذن فاذا افتخرت كل أمة

برجالها فنحن لا نبالغ اذا فاخرنا بهذا الرجل العظيم كل الامم واذا كان هناك مبالغة في القول أو غلو في الوصف ووقف غيرنا من سير رجال الامم المشهورين على من اتصف بكل صفات عمر فليبينه لنا وهو المتفضل وانا اضع له خدي في التراب اعترافاً بالحق وإقراراً بفضل ذوي الفضل من رجال العالم

نعم ان من مشهوري الرجال رجالاً أسسوا ملكا عريضاً اوسع من ملك عمر وافتتحوا من الممالك مالم يفتتحه ونالوا من السيادة على الشعوب الكثيرة فوق ما نال ولكن هل منهم من كان كعمر جباراً غير ظالم كريماً غير مسرف عادلاً لا عن ضعف شجاعاً غير متهوّر قنوعاً غير شره زاهدا بغير تصنع حليما من غير جبن تقيا غير متنطع كلاّ ما نظن ان اوصافا كهذه تجمع في رجل واحد غيره قط لا سيما اذا نشأ في بيئة كبيئته وبين قوم كقومه حالهم من البداوة معروف والتاريخ حكم عدل وما بسطناه من سيرته في هذا الكتاب خير شاهد أمين وانا والله لنتمنى لكثير ممن مضى من خلفائنا الذين نشأوا في مهاد الحضارة وحنكتهم تجارب الزمان وغذّتهم لبان السياسة بعضاً من أخلاق عمر يحملون بها الامة على طريق الخير والسعادة ويربونها على الجد ويتنكبون بها طرق المهالك التي ساقتها اليها ايد الظلم والاستبداد والجهل باصول سياسة الرعية ولله في خلقه شؤون

﴿ أولياته ﴾

تقدم معنا كلام طويل على آثار عمر في الخلافة وفي تلك الآثار ماهو من اولياته ونحن ننقل هنا بوجه الاجمال اوليات عمر كما ذكرها السيوطي في تاريخه .

فهو اول من كتب التاريخ من الهجرة وأول من اتخذ بيت المال وأول من سن قيام شهر رمضان وأول من عس بالليل وأول من عاقب على الهجاء وأول من ضرب في الخمر ثمانين وأول من حرم المتعة وأول من نهى عن بيع أمهات الاولاد

وأول من جمع الناس في صلاة الجنائز وأول من فتح الفتوح ومسح السواد وأول من حمل الطعام من مصر في بحر أيلة (البحر الاحمر) الى المدينة وأول من احتبس صدقة [1] في الاسلام وأول من أعال الفرائض [2] وأول من أخذ زكاة الخيل وأول من قال أطال الله بقاءك (قاله لعلي) وأول من قال أيدك الله (وقال له ايضاً) وأول من اتخذ الدرة وأول من استقضى القضاة في الامصار وأول من مصر الامصار وأول من سمي أمير المؤمنين وكان يكتب اولاً من خليفة أبي بكر أو من خليفة خليفة رسول الله حتى كتب مرةً الى عامل العراق ان يبعث اليه رجلين جلدين يسألهما عن العراق وأهله فبعث اليه لَبيد بن ربيعة وعديّ بن حاتم فقدم المدينة ودخلا المسجد فوجدا عمر بن العاص فقالا استأذن لنا على أمير المؤمنين فقال عمر انتما والله اصبتما اسمه فدخل عليه عمرو فقال السلام عليك يا أمير المؤمنين فقال مابدا لك في هذا الاسم لتخرجن مما قلت فأخبره وقال أنت الامير ونحن المؤمنون فجرى الكتاب بذلك من يومئذ

وهو أول من اتخذ دار الدقيق يعين به المنقطع وأول من وسع المسجد النبوي وفرشه بالحصباء

هذا ما نقله السيوطي من أوليات عمر عن النووي والعسكري وابن سعد ونزيد عليه انه أول من ضرب النقود في الاسلام وأول من استعمل البريد لنقل الرسائل وأول من اقام والياً للحسبة وأول من شق الترع واقام الجسور وأول من وضع المرابطة من الجند في الثغور وسمي الاجناد وأول من امر بالعناية بالمناظير وأول من عين شخصاً مخصوصاً لاقتصاص اخبار العمال وتحقيق

---

(١) أي وقف وقفاً (٢) أعال من العول المعروف في الفرائض وهي ان تزيد الفريضة في الحساب فتدل القسمة على وجه معروف عند علماء الفرائض

الشكايات التي تصل الى الخليفة من عماله وهو محمد بن مسلمة وربما كان له أوليات أخرى غير هذه وقد تقدم الكلام على كل هذا مفصلا فيما مر من هذا الكتاب

باب كتبه

١

﴿ كتب الى أبي عبيدة حين ولي الخلافة يوليه على جند الشام ﴾

أوصيك بتقوى الله الذي يبقى ويفنى ما سواه الذي هدانا من الضلالة وأخرجنا من الظلمات الى النور وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك لا تقدم المسلمين الى هلكة رجاء غنيمة ولا تنزلهم منزلا قبل أن تستريده[1] لهم وتعلم كيف مأتاه ولا تبعث سرية الا في كثف من الناس واياك والقاء المسلمين في الهلكة وقد أبلاك الله بي وأبلاني بك فغمض بصرك عن الدنيا وأله قلبك عنها واياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم (هكذا وردت صورة هذا الكتاب في تاريخ الطبري) ورأينا صورة غيرها في حقائق الاخبار وهي بنصها

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وقد وليتك أمور المؤمنين فلا تستحي فان الله لا يستحي من الحق واني أوصيك بتقوى الله العظيم الذي لا يفنى ويفنى سواه الذي استخرجك من الكفر الى الايمان ومن الضلالة الى الهدى وقد وليتك على جند خالد فاقبض الجيش منه ولا تنفذ المسلمين الى الهلاك رجاء غنيمة ولا تبعث سرية الى جمع كثير ولا تقل اني أرجو لكم النصر واياكم والتغرير والقاء المسلمين الى الهلكة واغمض عن الدنيا عينك واله عنها قلبك واياك أن تهلكك كما أهلكت من كان قبلك فقد رأيت مصارعهم واختبرت سرائرهم وبينك وبين الآخرة بيت كالحمام وقد تقدم اليه سلفك فتنتظر سيراً أو سفراً طويلا من دار قد مضت نضارتها وذهبت منها زهارتها فأحرم الناس الخارج الى غيرها واتق الله في سرك ونجواك وتفكر في زاد التقوى وراع المسلمين ما استطعت وأما الحنطة والشعير التي وجدتموها في دمشق وكثرت مشاجرتكم عليها فهي للمسلمين وأما الذهب والفضة ففيهما الخمس والسلام اه

(١) تختبره

٢

وكتب الى ابي عبيدة يلومه على تركه حصار حلب

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح سلام عليك فاني أحمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم و بعد فقد ورد كتابك عليّ مع رسلك فسرني ما سمعت من الفتح وعلمت من قتل من الشهداء وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب الى النواحي التي قربت من انطاكية فهذا بئس الرأي أتترك رجلا ملكت دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحي والبلاد بأنك ما قدرت عليه فما هـذا رأي فيضعف رأيه و يعلو ذكره بما صنع ويطمع من لم يطمع فترجع اليك الجيوش وتكاتب ملوكها فاياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خـير الحاكمين فبث الخيل في السهل والسعة واكففها في المضايق والجبال ومن المعدات الى حد الدروب ومن صالحك منهم فاقبل صلحه ومن سالمك فسالمه والله خليفتي عليك وعلى جميع المسلمين وقد انفذت اليك كتابي هـذا ومعه أهل مشارف اليمن ممن وهب نفسه لله ولرسوله ورغب في الجهاد في سبيل الله وهم عرب وموال رجال وفرسان والمدد يأتيك متوالياً ان شاء الله تعالى اهـ



وكتب أبو عبيدة كتاباً الى عمر يخبره فيـه بانه لا يريد الاقامة بانطاكية لطيب هوائها وخوف اخلاد الجيوش الى الراحة فأجابه بما نصه

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عبد الله عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك فاني احمد الله الذي لا اله الا هو وأصلي على نبيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واشكره ملياً (كثيراً) على ما وهب من النصر للمسلمين وجعل العاقبـة للمتقين ولم يزل معيناً لطيفا وأما قولك انك لم تقم بانطاكية لطيب هوائها فالله عز وجـل لم يحرّم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات فقال تعالى في كتابه العزيز (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً اني بما تعملون عليم) وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون (١) في مطعمهم ويريحون الابدان النصبة في قتال من كفر بالله وأما قولك انك تنظر أمري الذى آمرك به ان تدخل الدروب

(١) يتوسعون و يتنعمون

خاف العدو فأنت الشاهد وانا الغائب والشاهد يرى ما لا يرى الغائب وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالاخبار فان رأيت الدخول الى الدروب صواباً فابعث اليهم السرايا وادخل معهم بلادهم وضيق عليهم مسالكهم وان طلبوا منك الصلح فصالحهم وأما قولك ان العرب أبصرت نساء الروم فارادوا التزوج فمن أراد ذلك فدعه ان لم يكن له في الحجاز أهل ومن أراد أن يشتري الاماء فدعه وذلك أصون لفروجهم والسلام عليك وعلى جميع من معك من المسلمين ورحمة الله وبركاته

(نقله والذى قبله في حقائق الاخبار عن منشآت السلاطين لفريدون بك)

٤

وكتب اليه كتاباً فقرأه على الناس بالجابية ونصه

من عبد الله عمر امير المؤمنين الى أبي عبيدة بن الجراح سلام عليك أما بعد فانه لم يقم امر الله في الناس الا حصيف العقدة [١] بعيد الغرة [٢] لا يطلع الناس منه على عورة ولا يحنق في الحق على جرته [٣] ولا يخاف في الله لومة لائم (كنز العمال)

٥

وكتب الى ابنه ينصحه

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فان من اتقى الله وقاه ومن توكل عليه كفاه ومن شكر له زاده ومن قرضه جزاه فاجعل التقوى عماد قلبك وجلاء بصرك فانه لاعمل لمن لانية له ولا أجر لمن لا حسبة له ولا جديد لمن لا خلق له (العقد الفريد)

٦

وكتب الى ابي موسى الاشعري يوصيه

(بسم الله الرحمن الرحيم) أما بعد فان للناس نفرة عند سلطانهم فاعوذ بالله ان تدركني واياك عمياء مجهولة وضغائن محمولة واهواء متبعة ودنيا مؤثرة فاقم الحدود ولو ساعة من نهار واذا عرض لك أمران أحدهما لله والآخر للدنيا فآثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا فان الدنيا تنفد والآخرة تبقى وكن من خشية الله على وجل

---

(١) قوله حصيف العقدة أي محكمها والعقدة بالضم الولاية على البلد او هي من عقد الحبل ربطه وهي كناية عن احكام الامر بالمعنى الثاني واحكام الولاية بالمعنى الاول (٢) الغرة هي الغفلة (٣) قال في لسان العرب لا يصلح هذا الامر الا لمن لا يحنق على جرته اي لا يحقد على رعيته وفلان لا يحنق على جرته اي لا يكتم سراً

وأخف الفساق واجعلهم يداً يداً ورجلا رجلا واذا كانت بين القبائل نائرة (١) وتداعوا بآل فلان فانما تلك نجوى الشيطان فاضربهم بالسيف حتى يفيئوا الى أمر الله وتكون دعواهم الى الله والى الامام وقد بلغ أمير المؤمنين ان ضبة تدعو بآل ضبة واني والله ما أعلم ان ضبة ساق الله بها خيراً قط ولا منع بها من سوء قط فاذا جاءك كتابي هذا فانهكهم عقوبة حتى يفرقوا (٢) ان لم يفقهوا والصق بغيلان بن خرشة من بينهم وعد مرضى المسلمين وأشهد جنائزهم وافتح بابك وباشر أمرهم بنفسك فانما أنت امرؤ منهم غير ان الله جعلك أثقلهم حملا وقد بلغ أمير المؤمنين انه فشا لك ولاهل بيتك هيئة في لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها فإياك يا عبد الله ان تكون بمنزلة البهيمة التي مرّت بواد خصب فلم يكن لها همة إلا السمن وانما حتفها في السمن واعلم ان للعامل مرداً الى الله فاذا زاغ العامل زاغت رعيته وان أشقى الناس من شقيت به رعيته والسلام (مفتاح الأفكار)

٧

وكتب الى معاوية وقيل الى أبي عبيدة

بسم الله الرحمن الرحيم أما بعد فاني لم آلك في كتابي اليك ونفسي خيراً . إياك والاحتجاب وأذن للضعيف وأدنه حتى تبسط لسانه وتجري قلبه وتعهد الغريب فانه اذا طال حبسه وضاق اذنه ترك حقه وضعف قلبه وانما ترك حقه من حبسه واحرص على الصلح بين الناس ما لم يستبن لك القضاء واذا حضرك الخصمان بالبينة العادلة والايمان القاطعة فامض الحكم (مفتاح الأفكار)

٨

(كتابه لأهل إيلياء . « القدس »)

بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا من صلبهم ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا يسكن بايلياء معهم أحد من اليهود وعلى أهل إيلياء ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن وعليهم

(١) قوله نائرة أي عداوة وقوله يفيئوا أي يرجعوا (٢) وقوله حتى يفرقوا أي يخافوا ويفزعوا واذا كانت بتشديد الراء فمعناها يتفرقوا

ان يخرجوا منها الروم واللصوت [1] فمن خرج منهـم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن كان بها من أهل الأرض قبـل مقتل فلان [2] فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن شاء سار مع الروم ومن شاء رجع الى أهله فانه لايؤخذ منهـم شيء حتى يحصد حصادهم وعلى ما في هذا الـكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين اذا اعطوا الذي عليهـم من الجزية شهد على ذلك خالد بن الوليد وعمرو بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكتب وحضر سنة ١٥ (تاريخ الطبري)

٩

(كتابه الى أهل لد)

(بسم الله الرحمن الرحيم) هـذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لد ومن دخل معهم من أهـل فلسطين أجمعين أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملتهم انه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينقص من حيزها ولا ملها ولا من صلبهم ولا من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم وعلى أهل لد ومن دخل معهم من أهل فلسطين ان يعطوا الجزية كما يعطي أهل مدائن الشام وعليهم ان خرجوا مثل ذلك الشرط الى آخره (عن الطبري)

١٠

(كتب الى سعد في اليوم الذي يرتحل فيه من شراف)

أما بعد فاذا كان يوم كذا وكذا فارتحل بالناس حتى تنزل فيما بين عذيب الهجانات وعذيب القوارس وشرق بالناس وغرب بهم (عن الطبري)

١١

(وكتب اليه أيضاً جواباً عن كتابه)

أما بعد فتعاهد قلبك وحادث جندك بالموعظة والنية والحسبة ومن غفل فالتحدثهما [3] والصبر الصبر فان المعونة تأتي من الله على قـدر النية والاجر على قدر الحسبة . والحذر الحذر على من أنت عليه وما أنت بسبيله واسألوا الله العافية واكثروا من قول لاحول ولا قوة إلا بالله . واكتب اليّ أين بلغك جمعهم ومن رأسهم الذي يلي

(١) وفي رواية واللصوص وهو الظاهر (٢) هكذا فى الاصل (٣) هكذا في الاصل والاحداث الابداء فليحرر

مصادمتكم فانه قد منعني من بعض ما أردت الكتابة به اليك قلة علمي بما هجمتم عليه والذي استقر عليه أمر عدوكم فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذي بينكم و بين المدائن صفة كأني أنظر اليها واجعلني من أمركم على الجلية وخف الله وارجه ولا تدل بشيء واعلم ان الله قد وعدكم . وتوكل لهذا الأمر بما لاخلف له فاحذر ان تصرفه عنك و يستبدل بكم غيركم

١٣

(وكتب الى سعد وهو بشراف يريد العراق وحرب الفرس ما نصه)

أما بعد فسر من شراف نحو فارس بمن معك من المسلمين وتوكل على الله واستعن به على أمرك كله واعلم فيما لديك انك تقدم على أمة عددهم كثير وعدتهم فاضلة و بأسهم شديد وعلى بلد منيع وان كان سهلا كؤوده لبحوره وفيوضه ودآدئه (١) الا أن توافقوا غيضاً من فيض واذا لقيتم القوم أو واحداً منهم فابدؤهم الشر والضرب واياكم والمناظرة لجموعهم ولا يخدعنكم فانهم خدعة مكرة أمرهم غير أمركم الا ان تجادوهم واذا انتهيت الى القادسية والقادسية في باب فارس في الجاهلية وهي أجمع تلك الابواب لمادتهم ولما يريدونه من تلك الأصل وهو منزل رغيب خصيب رحيب دونه قناطر وأنهار ممتنعة فتكون مسالحك على أنقابها ويكون الناس بين الحجر والمدر على حافات الحجر وحافات المدر والجراع بينهما ثم الزم مكانك فلا تبرحه فانهم اذا أحسوك أنغضتهم رموك بجمعهم الذي يأتي على خيلهم ورجلهم وحدهم وجدهم فان أنتم صبرتم لعدوكم واحتسبتم لقتاله ونويتم الامانة رجوت ان تنصروا عليهم ثم لايجتمع لكم مثلهم أبداً الا ان يجتمعوا وليست معهم قلوبهم وان تكن الاخرى كان الحجر في أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم الى أدنى حجر من أرضكم ثم كنتم عليها أجرأ و بها أعلم وكانوا عنها أجبن و بها أجهل حتى يأتي الله بالفتح و يرد لكم الكرة عليهم (هذا الكتاب وما قبله عن الطبري)

---

(١) كؤوده أي صعبه وفيوضه أي مياهه الفائضة والدآدا جمع دأداء وهو الفضاء الواسع وتوافقوا أي تلاقوا : غيضا من فيض أي قليلا من كثير : النقب الطريق يكون في الجبل والنقب وجمعها انقاب ولعل مراده بالانقاب هنا أنقاب القناطر التي على الانهار : والحجر والمدر كناية عن البادية والعمران أو المدن والفضاء لان المدن هي المدن والحجر هي نقا الرمل وقوله أنغضتهم أي حركتهم

١٣

(وكتب الى سعد)

قد جاءني كتابك وفهمته نأقم مكانك حتى ينغض الله عدوك واعلم ان لها ما بعدها فان منحك الله أدبارهم فلا تنزع عنهم حتى تقتحم عليهم المدائن فانه خرابها ان شاء الله (الطبري)

١٤

(وكتب اليه أبو عبيدة ومعاذ بن جبل ينصحانه)

(بسم الله الرحمن الرحيم) من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل الى عمر ابن الخطاب سلام عليك فانا نحمد اليك الله الذي لا إله الا هو (أما بعد) فانا عهدناك وامر نفسك لك مهم نأصبحت وقد وليت أمر هذه الامة أحمرها وأسودها يجلس بين يديك الصديق والعدو والشريف والوضيع ولكل حصة من العدل فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك وانا نحذرك يوماً تعنو فيه الوجوه وتجب (١) له القلوب وتنقطع فيه الحجج بحجة ملك قهرهم بجبروته والخلق داخرون (٢) له يرجون رحمته ويخافون عقابه وانا كنا نتحدث ان أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية أعداء السريرة وانا نعوذ بالله ان تنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا فانما كتبنا اليك نصيحة لك والسلام

(فكتب اليهما)

(بسم الله الرحمن الرحيم) من عمر بن الخطاب الى أبي عبيدة عامر بن الجراح ومعاذ بن جبل سلام عليكما فاني أحمد اليكما الله الذي لا إله الا هو (أما بعد) فقد جاءني كتابكما تزعمان انه بلغكما اني وليت أمر هذه الأمة أحمرها وأسودها يجلس بين يدي الصديق والعدو والشريف والوضيع وكتبتما ان أنظر كيف أنت يا عمر عند ذلك وانه لاحول ولا قوة لعمر عند ذلك الا بالله كتبتما تحذراني ما حذرت به الأمم قبلنا وقديماً كان اختلاف الليل والنهار بآجال الناس يقربان كل بعيد ويبليان كل جديد ويأتيان بكل موعود حتى يصير الناس الى منازلهم من الجنة والنار ثم توفى كل نفس بما كسبت ان الله سريع الحساب : كتبتما تزعمان ان أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها ان يكون اخوان العلانية أعداء السريرة ولستم بذاك وليس هذا ذلك الزمان ولكن زمان

---

(١) تخاف (٢) أي أذلاء صاغرون

ذلك حين تظهر الرغبة والرهبة فتكون رغبة بعض الناس الى بعض اصلاح دينهم ورهبة بعض الناس اصلاح دنياهم . وكتبتما تعرذانني بالله ان أنزل كتابكما مني سوى المنزل الذي نزل في قلوبكما وانما كتبتما نصيحة لي وقد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب فلا غنى بي عنكما والسلام عليكما (مفتاح الافكار)

وله كتب غير هذه تقدم ايرادها في غضون أخباره وكتب اخرى كتبها الى عمرو ابن العاص وهو في مصر رأينا من تمام الفائدة ان ترجئ ذكرها الى سيرة عمرو ابن العاص لان ايرادها في سيرته انسب لاشتمالها على تبادل المكاتبة بين الاثنين في شؤون خاصة ستري في محلها ان شاء الله

(كلام على وجوب التناصح في الاسلام)

وانت ترى من هذين الكتابين كيف كان المسلمون يتناصحون بالمعروف عملا بأمر كتابهم وهدى نبيهم ولا يمتنعون عن أداء النصيحة للامام لكونه اماماً له عليهم السلطان بل يرون ان النصيحة به احرى ولداولى وان له عليهم حق الطاعة كما لهم عليه حق النصيحة والارشاد الى مواقع الخطأ والتعهد بما يقيم الاود ويصلح العمل شأن الامم التي تعاون رؤساءها على البر وتعتمد في رفع شأنها على قوة التكافل في الحق والتعاون على شؤون الملك وقد انتهت بهم حرية الفكر والانطلاق عن قيود العبودية والقيام على حسن المناصحة ان لا يغفلوا ساعة عن نصيحة الامام وهو من هو : فذ الامة الاسلامية وفخر الاسلام والمثل المضروب في التقوى والعدل عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعنهم أجمعين وقد بلغ بهم الاغراق في حرية الضمائر وعدم الامساك عن الحق ان قال أحدهم لمثل ذلك الخليفة العظيم لما سأله عما اذا ترخص بأمر من امور المسلمين (لو فعلت لقومناك تقويم القدح) أي تقويم السهم المعوج كما رأيت ذلك فيما بسطناه في باب سياسته فما ازداد ذلك الخليفة العظيم الا سروراً بقول ذلك المسلم واستبشاراً في أن المسلمين قائمون على شؤونهم رجال في أخلاقهم متمسكون بشرع نبيهم متنبهون لكل خطأ يصدر عن خليفتهم وكان ذلك دأبه مع الناس في استطلاع طلع ضمائرهم من جهته ليعلم مبلغ الحياة فيهم ويسترشد الى عيوبه بجميل نصحهم وصادق قولهم ولم يكن يخطر له على بال او يمر له في خيال ان استرشاده بآراء ذوي الرأي والبصيرة من المسلمين وانتصاحه بنصائحهم فيه حطة في شأنه أو مس لسلطانه لهذا كتب لابي عبيدة ومعاذ لما نصحاه في آخر كتابه (قد صدقتما فتعهداني منكما بكتاب فلا غنى بي عنكما) وقد رأيت فيما مر زجره لمن اعترض على قائل قال له اتق الله يا عمر وقوله

للمعترض دعه فلا خير فيكم اذا لم تقولوها ولا خير فينا اذا لم نسمعها اذا تقرر هذا علمنا ان التناصح بين المسلمين واجب لا يستثنى منه أمير ولا صغير بل الامير اولى بان ينصح ويستنصح بسبب ما اوصد اليه من امور الملك التي ليس من طوق الآحاد القيام بها الا اذا سلكوا سبيل الامرة واطاعوا هوى النفوس فكان الانفراد بالسلطان والتسلط على الرعية والتطوح بمصالح الملك والدولة في مهاوي الهوى أحب اليهم من الانتصاح بنصيحة الاعوان والأخذ على شكائم النفوس الأمارة بالسوء التي يقودها الهوى الى تصور ان الامارة مرتبة لا ينبغي لها ان تكون في مصاف الملائكة المقربين او الانبياء المعصومين وحبذا لو تحقق هذا التصور الانسان من أولئك الامراء اذن والله لحكموا الناس بحكم الانبياء وهو هو التناصح الذي يهربون منه التعاون الذي يترفعون عنه وحسب هذا الترفع آفة انه اودى بدولة بني مروان في ابان شبابها كما اودى بكثير من اضرابها

المناصحة بالمعروف أس من أسس السعادة القومية في كل قبيل وعصر بل هي مدرسة الامة التي يتربى فيها الاخلاق وتنمو الفضيلة وتتطهر الاعراق وتنبت روح الألفة والتعاون وليس لمدرسة مثلها اثر في الاخلاق ومؤثر في نفوس الامة قط إذ تتداول بالتعليم الكبير والصغير عفواً بلا أجر وتسري روحها بين كل الطبقات مختارة بلا اكراه فيربي الكبير والصغير ويرشد المهتدي الضال وينصح الصغير الامير وكلهم يتبادل العوض مع الآخر بما ينفعه في اخلاقه ويقوم اوده فينتفع الكل بالكل وتعم السعادة والرخاء سائر الناس

أجل هذه هي المدرسة التي ربت مثل معاذ وابي عبيدة وعمر واضرابهم من عامة المسلمين وخاصتهم فسادوا بالمناصحة والاخلاص على كل الامم وأدهشت سيرتهم عقول الشعوب وامتد ظل سلطانهم على نصف الكرة ونالهم من السعادة والعز والمجد فوق ما رأيت في هذا الكتاب

وهي هي المدرسة التي علمت الشعوب الأوروبية حرية الضمائر والافكار ورفعتهم من حضيض الجهالة وسلكت بهم سبيل المجد وسودتهم لهذا العهد على الامم فملكوا ثلاثة ارباع المعمور وقضوا على استقلال الدول الشرقية فمحوا بعضه محواً وجعلوا بعضه صورة في الخيال قد باتت على وشك الزوال كما زالت دول الهند العظيمة وافريقيا الكبيرة والجاوى والقريم وبخارى وسمرقند وما لا يعد من الشعوب والدول الاسلامية

ليس بعجيب ان يصير المسلمون في أمر الدول المتغلبة ويتقاص ظل مجدهم عن الأرض بعد إذ كان شأنهم في المناصحة والقيام على الحق ماذكر ثم بلغ ترك المناصحة وانحطاط النفوس والأخلاق بفريق كبير منهم ان صاروا يعدون الناصح بالمعروف خارجاً عن دينه خارجاً على سلطانه والدين يقول (يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم) (واذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى) والنبي صلى الله عليه وسلم يقول (من لم يحمد عدلا ولا يذم جوراً فقد بارز الله تعالى بالمحاربة)(١)

ومن البديهي ان مدح العدل وذم الجور انما يكون بان يقول المسلم للعادل المحسن عدلت وأحسنت وللجائر على نفسه أو على غيره جرت وأسأت فاستقم كما أمرت وهو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذي وردت آياته الباهرة في الكتاب الكريم

ومن الاغراق في الجهالة والتناهي في الانحطاط ان يرى المسلمون بلادهم تتخرب واستقلالهم ينتزع وملكهم يزول ودولهم تدول والاوربيون قد غلبوهم على أمرهم وزاحموهم في ملكهم وتحكموا فيهم وفي دولهم وسبقوهم في العلم والمعارف والاختراع واجلبوا عليهم بالخيل والرجل وسدوا دونهم منافذ الصناعة والتجارة واذا دعاهم ناصح من اخوانهم غيور من بني دينهم الى النظر في أسباب انحطاطهم وارتقاء غيرهم وتقهقرهم وتقدم سواهم وأبان لهم طرفاً من تلك الاسباب وحكمهم في التفريق بين خطئها والصواب أعرضوا عنه اعراض المريض عن الماء الزلال بل ربما رماه بعضهم بأنواع الزور وتقرب بماله وأهله ودمه الى ولاة الامور رجاء نيل الحظوة عندهم والتزلف اليهم واكتساب رضاهم وان أغضب الله والمروءة والوجدان وخرج عن الانسانية والدين إذ لاوازع من النفس ينهاه ولا فضيلة تلوي عنان شهوته عن ظلم أخيه والشواهد على هذا كثير في الاشخاص والأعمال سنأتي على بيانها في محالها ان شاء الله لتكون عبرة يتعظ بها الآني والحاضر وصورة في التاريخ ترهب قلوب الاشرار وتزعج عن مواطيء الرذيلة أقدام الفجار

باب

خطبه

أوردنا عند ذكر استخلافه أول خطبة خطبها ورأينا في رواية أخرى رواها ابن الجوزي في المناقب عن جامع بن شداد عن أبيه ورواها غيره من المحدثين من طرق

(١) أخرج هذا الحديث في أسد الغابة في ترجمة المغيرة بن نوفل

اخرى ان أول خطبة خطبها عمر (رض) ان صعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه وقال (اللهم اني شديد فليني واني ضعيف فقوني واني بخيل فسخني) وقد رأينا هذه الخطبة في العقد الفريد بعبارة أطول الا انها لا تخرج عن هذا المعنى

٢

وفي تاريخ الحافظ ابن عساكر عن سعيد بن المسيب قال لما ولي عمر بن الخطاب خطب الناس على منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال

أيها الناس اني قد علمت انكم كنتم تؤنسون مني شدة وغلظة وذلك اني كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه (شرطيه) وكان كما قال الله تعالى بالمؤمنين رؤفاً رحيما وكنت بين يديه كالسيف المسلول الا ان يغمدني أو ينهاني عن أمر فأكف عنه والا أقدمت على الناس لمكان أمره فلم أزل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك حتى توفاه الله وهو عني راض والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد ثم قمت ذلك المقام مع أبي بكر الصديق خليفة رسول الله بعد رسول الله وكان من قد علمتم في رغبه ولينه فكنت خادمه وجلوازه وكنت كالسيف المسلول بين يديه على الناس اخلط شدتي بلينه الا ان يتقدم إليّ فأكف والا اقدمت فلم أزل حتى توفاه الله فكان عني راضياً والحمد لله على ذلك كثيراً وأنا به أسعد . ثم صار أمركم اليوم الي وأنا أعلم انه يقول قائل كان يشتد علينا والامر الى غيره فكيف به لما صار الامر اليه فاعلموا انكم لا تسألون عني أحداً قد عرفتموني وخبرتموني وقد عرفت بحمد الله من محمد نبيكم صلى الله عليه وسلم ما قد عرفت وما أصبحت نادماً على شيء كنت احب ان اسأله الا وقد سألته واعلموا ان شدتي التي كنتم ترونها ازدادت أضعافاً عن الاول على الظالم والمتعدي والاخذ للمسلمين لضعيفهم من قويهم واني بعد شدتي تلك واضع خدي الى الارض لاهل العفاف واهل الكفاف ان كان بيني و بين من هو منكم شيء من احكامكم ان امشي معه الى من احبه منكم فينظر فيما بيني و بينه : فاتقوا الله وأعينوني على نفسي بالامر بالمعروف والنهي عن المنكر واحضاري النصيحة فيما ولاني الله من أمركم [1]

---

(١) تصرفت تصرفاً طفيفاً ببعض الالفاظ الواردة بهذه الخطبة لان الناسخ الذي نسخ لي سيرة عمر من تاريخ ابن عساكر من مكتبة دمشق لم يتمكن من ضبط الالفاظ المشوشة والمتشابهة لسقامة خط التاريخ

٣

وفى تاريخ الحافظ ابن عساكر أيضاً عن الشعبي قال : لما ولي عمر بن الخطاب صعد المنبر فقال

ما كان الله ليراني ان أرى نفسي أهلاً لمجلس أبى بكر فنزل مرقاة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : اقرؤا القرآن تعرفوا به واعملوا به تكونوا من أهله وزنوا أنفسكم قبل ان توزنوا وتزينوا للعرض الأكبر يوم تعرضون على الله لا تخفى منكم خافية . انه لم يبلغ حق ذي حق ان يطاع في معصية الله (١) ألا واني أنزلت نفسي من مال الله بمنزلة وليّ اليتيم ان استغنيت عففت وان افتقرت أكلت بالمعروف

٤

وفي الخراج لأبي يوسف خطبة بهذا المعنى الا انها أطول وأجمع رواها عن طلحة ابن معدان قال

خطبنا عمر بن الخطاب خطبة فحمد الله وأثنى عليه ثم صلى على النبي صلى الله عليه وسلم وذكر أبا بكر فاستغفر له ثم قال : أيها الناس انه لم يبلغ ذو حق في حقه ان يطاع في معصية الله واني لا أجد هذا المال يصلحه الا خلال ثلاث ان يؤخذ بالحق ويعطى في الحق ويمنع من الباطل وانما أنا ومالكم كولي اليتيم ان استغنيت استعففت وان افتقرت أكلت بالمعروف ولست أدع أحداً يظلم أحداً ولا يعتدي عليه حتى أضع خده على الأرض وأضع قدمي على الخد الآخر حتى يذعن للحق ولكم عليّ أيها الناس خصال أذكرها لكم فخذوني بها : لكم على ان لا اجبي شيئاً من خراجكم ولا مما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ولكم عليّ اذا وقع في يديّ ان لا يخرج مني إلا في حقه : ولكم على ان لا أزيد اعطياتكم وأرزاقكم ان شاء الله وأسد ثغوركم : ولكم عليّ ان لا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم (أحبسكم) فى ثغوركم . وقد اقترب منكم زمان قليل الامناء كثير القراء قليل الفقهاء كثير الامم يعمل فيه أقوام للآخرة يطلبون به دنيا عريضة تأكل دين صاحبها كما تأكل النار الحطب ألا من

(١) يعني بذى الحق نفسه وهو الحق الذي يعين به حد السلطة العليا بما لا يتعدى ما أمر الله من العدل الى ما تأمر به النفس وتطلبه السيادة وهو من قبيل قول أبى بكر (رض) في احدى خطبه أطيعوني ما أطعت الله فيكم فرضى الله عن تلك النفوس السامية ما كان اعرفها للحق والعدل والزمها لشرعة الانصاف مع الرعية

درك ذلك منكم فليتق الله ربه وليصبر : يا أيها الناس ان الله عظم حقه فوق حق خلقه فقال فيما عظم من حقه « ولا يأمركم ان تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد اذ أنتم مسلمون » ألا واني لم أبعثكم أمراء ولا جبارين ولكن بعثتكم أئمة الهدى يهتدى بكم فأدروا على المسلمين حقوقهم ولا تضربوهم فتذلوهم ولا تحمدوهم فتفتنوهم ولا تغلقوا الابواب دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم ولا تستأثروا عليهم وقاتلوا بهم الكفار طاقتهم فاذا رأيتم بهم كلالة فكفوا عن ذلك فان ذلك أبلغ في جهاد عدوكم : أيها الناس اني اشهدكم على أمراء الامصار انى لم أبعثهم إلا ليفقهوا الناس في دينهم ويقسموا عليهم فيأهم ويحكموا بينهم فان أشكل عليهم شيء رفعوه اليّ اه

هذه الخطبة من أجمع خطبه لانها تمثل عدله وسياسته وعقيدته وتحدد وظيفته وتبين مقاصده وتنبئ عن اخلاصه في خدمة المسلمين وشدته على الظالمين ورأفته بالمظلومين الى غير ذلك مما يدركه القارئ من معاني هذه الخطبة الغراء فرضي الله عنه

٥

﴿ وخطب خطبة فقال بعد ان حمد الله وأثنى عليه ﴾

يا أيها الناس اني قد وليت عليكم ولولا رجاء ان أكون خيركم لكم وأقواكم عليكم وأشدكم استضلاعاً بما ينوب عن مهم أموركم ما توليت ذلك منكم ولكفى عمر مهماً محزناً موافقة الحساب بأخذ حقوقكم كيف آخذها و وضعها أين اضعها وبالسير فيكم كيف أسير فربي المستعان فان عمر أصبح لايثق بقوة ولا حيلة ان لم يتداركه الله عزّ وجل برحمته وعونه وتأييده (تاريخ الطبرى)

٦

﴿ وخطب فقال ﴾

ان الله عزّ وجل قد ولاني أمركم وقد علمت أنفع ما بحضرتكم لكم وانني أسئل الله ان يعينني عليه وان يحرسني عنده كما حرسني عند غيره وان يلهمني العدل في قسمكم كالذي أمر به وان يغير الذي وليت من خلاتكم من خلقي شيئاً ان شاء الله انما العظمة لله عزّ وجل وليس للعباد منها شيء فلا يقولن أحد منكم ان عمر تغير منذ ولي : اعقل الحق من نفسي وأتقدم وابين لكم أمري فأيما رجل كانت له حاجة أو

ظلم مظلمة او عتب علينا في خلق فليؤذنني (١) فانما أنا رجل منكم فعليكم بتقوى الله في سركم وعلانيتكم وحرماتكم واعراضكم واعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا الي فانه ليس بيني و بين أحد من الناس هوادة (٢) وأنا حبيب الي صلاحكم عزيز على عتبكم وأنتم أناس عامتكم حضر في بلاد الله وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع الا ما جاء الله به اليه وان الله عزّ وجل قد وعدكم كرامة كثيرة وأنا مسؤل عن أمانتي وما أنا فيه ومطلع على ما بحضرتي بنفسي ان شاء الله لا أكله الى احد ولا استطيع ما بعد منه الاّ بالامناء وأهل النصح منكم للعامة ولست أجعل امانتي الى أحد سواهم ان شاء الله (تاريخ الطبري)

٧

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال بعد ما حمد الله واثنى عليه وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم أيها الناس ان بعض الطمع فقر وان بعض اليأس غنى وانكم تجمعون ما لا تأكلون وتأملون ما لا تدركون وانتم مؤجلون في دار غرور كنتم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تؤخذون بالوحي فمن اسرّ شيئاً أُخذ بسريرته ومن أعلن شيئاً أُخذ بعلانيته فأظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر فانه من أظهر لنا شيئاً وزعم ان سريرته حسنة لم نصدقه ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسناً واعلموا ان بعض الشح شعبة من النفاق (فأنفقوا خيراً لانفسكم ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون) أيها الناس أطيبوا مثواكم واصلحوا اموركم واتقوا الله ربكم ولا تلبسوا نساءكم القباطيّ فانه ان لم يشف فانه يصف (٣) أيها الناس اني لوددت ان انجوا كفافاً لا لي ولا علي واني لارجوا ان عمرت فيكم يسيراً او كثيراً أن أعمل بالحق فيكم ان شاء الله وان لا يبقى أحد من المسلمين وان كان في بيته الا أتاه حقه ونصيبه من مال الله ولا يعمل اليه نفسه ولم ينصب (٤) اليه يوماً واصلحوا أموالكم التي رزقكم الله ولقليل في رفق خير من كثير في عنف والقتل حتف من الحتوف يصيب البر والفاجر والشهيد من احتسب نفسه واذا

---

(١) اي فليعلمني وهي من آذنه بالامر اي اعلمه به (٢) الهوادة بالفتح الصلح والاختصاص بالميل (٣) القباطي أثواب مشهورة وشف رق فحكى ما تحته ويصف لعله من الوصف أو من التواصف وهو أن يصفوا الشيء بعضهم لبعض (٤) ولا يعمل اليه نفسه اي لا يجهد نفسه اليه اي يأتيه بلا طلب . ولم ينصب اي لم يتعب

اراد أحدكم بعيراً فليعمد الى الطويل العظيم فليضرب بعصاه فان وجده حديد الفؤاد فليشتره (تاريخ الطبري)

٨

﴿ وخطب أيضاً ﴾

فقال ان الله سبحانه وبحمده قد استوجب عليكم الشكر واتخذ عليكم الحجج فيما آتاكم من كرامة الآخرة والدنيا عن غير مسئلة منكم له ولا رغبة منكم فيه اليه فخلقكم تبارك وتعالى ولم تكونوا شيئاً لنفسه وعبادته وكان قادراً أن يجعلكم لاهون خلقه عليه فجعل لكم عامة خلقه ولم يجعلكم لشيء غيره وسخر لكم ما في السموات وما في الارض وأسبغ [١] عليكم نعمه ظاهرة وباطنة وحملكم في البر والبحر ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون ثم جعل لكم سمعاً وبصراً ومن نعم الله عليكم نعم عم بها بني آدم ومنها نعم اختص بها أهل دينكم ثم صارت تلك النعم خواصها وعوامها في دولتكم وزمانكم وطبقتكم وليس من تلك النعم نعمة وصلت الى امرئ خاصة الا لو قسم ما وصل اليه منها بين الناس كلهم اتعبهم شكرها وفدحهم [٢] حقها الا بعون الله مع الايمان بالله ورسوله فانتم مستخلفون في الارض قاهرون لاهلها قد نصر الله دينكم فلم تصبح أمة مخالفة لدينكم الا أمتان أمة مستعبدة للاسلام واهله يجزون لكم يستصفون معائشهم وكدائحهم ورشح جباههم [٣] عليهم المؤونة ولكم المنفعة وأمة تنتظر وقائع الله وسطواته في كل يوم وليلة قد ملأ الله قلوبهم رعبا فليس لهم معقل [٤] يلجئون اليه ولا مهرب يتقون به قد دهمتهم جنود الله عز وجل ونزلت بساحتهم مع رفاغة العيش [٥] واستفاضة المال وتتابع البعوث وسد الثغور باذن الله مع العافية الجليلة العامة التي لم تكن هذه الامة على أحسن منها مذ كان الاسلام والله المحمود مع الفتوح العظام في كل بلد فما عسى ان يبلغ مع هذا شكر الشاكرين وذكر الذاكرين واجتهاد المجتهدين مع هذه النعم التي لا يحصى عددها ولا يقدر قدرها ولا يستطاع أداء حقها الا بعون الله ورحمته ولطفه فنسأل الله الذي لا اله الا هو الذي أبلانا هذا ان يرزقنا العمل بطاعته والمسارعة الى

---

(١) أفاض (٢) اثقلهم (٣) قوله يجزون أي يعطون الجزية : وكدائحهم أي سعيهم أو مكاسبهم : ورشح الجباه عرقها : (٤) حصن وملجأ (٥) رفاغة العيش سعته وخصبه

مرضانه واذكروا عباد الله بلاء الله عندكم واستتموا نعمة الله عليكم وفي مجالسكم مثنى وفرادى فان الله عز وجل قال لموسى (أخرج قومك من الظلمات الى النور وذكرهم بأيام الله) وقال لمحمد صلى الله عليه وسلم (واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون في الارض) فلو كنتم اذ كنتم مستضعفين محرومين خير الدنيا على شعبة من الحق تؤمنون بها وتسترجون اليها مع المعرفة بالله ودينه وترجون بها الخير فيما بعد الموت لكان ذلك ولكنكم كنتم أشد الناس معيشة واثبته بالله جهالة فلو كان هذا الذي استشلاكم [1] به لم يكن معه حظ في دنياكم غير انه ثقة لكم في آخرتكم التي اليها المعاد والمنقلب وأنتم من جهد المعيشة على إما كنتم عليه احرياء ان تشحوا على نصيبكم منه وان تظهروه على غيره قبله أما انه قد جمع لكم فضيلة الدنيا وكرامة الآخرة ومن شاء ان يجمع له ذلك منكم فاذكركم الله الحائل بين قلوبكم الا ما عرفتم حق الله فعملتم له وقسرتم انفسكم على طاعته وجمعتم مع السرور بالنعم خوفاً لها ولانتقالها ووجلا منها ومن تحويلها فانه لا شيء أسلب للنعمة من كفرانها وان الشكر أمن للغير ونماء للنعمة واستجلاب للزيادة: هذا الله علي من امركم ونهيكم واجب (تاريخ الطبري)

٩

﴿ وخطب لما شيع جيش سعد بن ابي وقاص ﴾

ان الله تعالى ضرب لكم الأمثال وصرف لكم القول ليحيي به القلوب فان القلوب ميتة في صدورها حتى يحييها الله . من علم شيئاً فلينتفع به . وأن للعدل أمارات وتباشير فأما الامارات فالحياء والسخاء والهين واللين وأما التباشير فالرحمة وقد جعل الله لكل أمر باباً ويسر لكل باب مفتاحاً فباب العدل الاعتبار ومفتاحه الزهد. والاعتبار ذكر الموت بتذكر الاموات والأستعداد له بتقديم الاعمال . والزهد أخذ الحق من كل احد قبله حق (اي عنده) وتأدية الحق الى كل أحد له حق. ولا تصانع في ذلك احداً واكتف بما يكفيه من الكفاف فان من لم يكفه الكفاف لم يغنه شيء . اني بينكم وبين الله وليس بيني وبينه أحد وأن الله قد ألزمني رفع الدعاء عنه فأنهوا شكاتكم الينا فمن لم يستطع فالى من يبلغناها نأخذ له الحق غير متعتع [2] (تاريخ الطبرى)

---

(١) استشلاه دعاه لينجيه من ضيق أو هلاك (٢) في القاموس تعته اى تلتله وحركه بعنف أو اكرهه في الامر

١٠

وسمع مرة ان نفراً يقولون لو مات عمر لبايعنا فلاناً اعتماداً منهم على ان بيعة أبي بكر تمت بمبايعة نفر من المهاجرين والانصار فأراد عمر رضي الله عنه أن يبين لهم أن بيعة ابي بكر كانت فلتة وأن اهليته واستعداده وحرج الموقف الذي وقف به المسلمون يومئذ سوغ تلك البيعة فخطب فيهم هذه الخطبة التي رواها الشيخان فقال .

قد بلغني ان فلاناً منكم يقول لو مات عمر بايعت فلاناً فلا يغترن امرؤ ان يقول ان بيعة ابي بكر كانت فلتة الا وانها كانت كذلك الا ان الله وقى شرها وليس فيكم اليوم من تقطع اليه الاعناق مثل ابي بكر وانه كان من خيرنا حين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن علياً والزبير ومن معهما تخلفوا في بيت فاطمة وتخلفت الانصار عنا بأجمعها في سقيفة بني ساعدة واجتمع المهاجرون الى ابي بكر فقلت يا ابا بكر انطلق بنا الى اخواننا من الانصار فانطلقنا نؤمهم حتى لقينا رجلان صالحان فذكرا لنا الذي صنع القوم فقالا اين تريدون يا معشر المهاجرين قلت نريد اخواننا من الانصار فقالا عليكم ان لا تقربوهم واقضوا امركم يا معشر المهاجرين فقلت والله لنأتينهم . فانطلقنا حتى جئناهم في سقيفة بني ساعدة فاذا هم مجتمعون واذا بين ظهرانيهم رجل مزمل فقلت من هذا قالوا سعد بن عبادة فقلت ما له قالوا وجع فلما جلسنا قام خطيبهم فأثنى على الله بما هو اهله وقال (أما بعد) فنحن انصار الله وكتيبة الاسلام وانتم يا معشر المهاجرين رهط منا وقد دفت دافة (١) منكم يريدون ان تختزلونا من اصلنا وتحضنونا من الامر فلما سكت أردت ان اتكلم وقد كنت زورت مقالة اعجبتني أردت أن اقولها بين يدي ابي بكر وقد كنت اداري منه بعض الجد وهو كان احلم مني واوقر فقال ابو بكر على رسلك فكرهت ان اغضبه وكان اعلم مني والله ما ترك من كلمة اعجبتني في تزويري الا قالها في بداهته وافضل حتى سكت فقال

اما بعد فما ذكرتم من خير فأنتم اهله ولم تعرف العرب هذا الامر الا لهذا الحي من قريش هم اوسط العرب نسباً وداراً وقد رضيت لكم أحد هذين الرجلين ايهما شئتم . فأخذ بيدي وبيد ابي عبيدة بن الجراح فلم اكره مما قال غيرها وكان والله ان اقدم فتضرب عنقي لا يقربني ذلك من اثم احب اليّ من ان أتأمر على قوم فيهم ابو بكر

---

(١) الدفة الجيش يدفون نحو العدو : والاختزال : الاقتطاع وتحضنونا تكفونا

فقال قائل من الانصار انا جذيلها المحكك وعذيقها المرجب منا امير ومنكم امير يا معشر قريش وكثر اللغط وارتفعت الاصوات حتى خشيت الاختلاف فقلت ابسط يدك يا أبا بكر فبسط يده فبايعته وبايعته المهاجرون ثم بايعه الانصار اما والله ما وجدنا فيما حضرنا امراً هو أوفق من مبايعة ابي بكر . خشينا ان فارقنا القوم ولم تكن بيعة ان يحدثوا بعدنا بيعة فاما ان نبايعهم على ما لا نرضى وأما ان نخالفهم فيكون فيه فساد

١١

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس ما الجزع مما لا بد منه وما الطمع فيما لا يرجى وما الحيلة فيما سيزول وانما الشيء من أصله وقد مضت قبلنا أصول ونحن فروعها فما بقاء الفرع بعد أصله انما الناس فى هذه الدنيا أغراض تنتضل (١) المنايا فيهم وهم نصف المصائب مع كل جرعة شرق وفى كل اكلة غصص لا ينالون نعمة الا بفراق أخرى ولا يستقبل معمر من عمره شيئاً الا بهدم آخر من اجله وانتم اعوان الحتوف على انفسكم فأين المهرب مما هو كائن وانما يتقلب الهارب فى قدرة الطالب فما اصغر المصيبة اليوم مع عظم الفائدة غداً واكثر جنبة الجانب جعلنا الله واياكم من المتقين (مفتاح الافكار)

١٢

﴿ وخطب فقال ﴾

ايها الناس انه اتى عليّ حين وانا احسب ان من قرأ القرآن انه انما يريد به الله وما عنده الا وقد خيل الى ان اقواماً يقرؤن القرآن يريدون به ما عند الناس الا فأريدوا الله بقراءتكم واريدوه بأعمالكم فانا كنا نعرفكم اذ الوحي ينزل واذ النبي صلى الله عليه وسلم بين اظهرنا فقد رفع الوحي وذهب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم فانما نعرفكم بما اقول لكم الا فمن اظهر لنا خيراً ظننا به خيراً واثنينا به عليه ومن اظهر لنا شراً ظننا به شراً وأبغضناه عليه اقدعوا (٢) هذه النفوس عن شهواتها فانها طلعة فانكم الا تقدعوها تنزع بكم الى شر غاية ان هذا الحق ثقيل مرئ وان

---

(١) فى اساس البلاغة وخرجوا الى النضال وهم يتناضلون وينتضلون : ومعناه يترامون ويتبارون (٢) قوله اقدعوا اى كفوا وقوله نفس طلعة تكثر التطلع الى الشيء

الباطل خفيف وبيء وترك الخطيئة خير من معالجة التوبة ورب نظرة زرعت شهوة وشهوة ساعة أورثت حزناً طويلا (مفتاح الأفكار)

١٣

﴿ وخطب فقال ﴾

انما الدنيا أمل مخترم [١] وأجل منتقص وبلاغ الى دار غيرها وسير الى الموت ليس فيه تعريج فرحم الله امرءاً فكر في أمره ونصح لنفسه وراقب ربه واستقال ذنبه بئس الجار الغني يأخذك بما لا يعطيك من نفسه فان أبيت لم يعذرك اياكم والبطنة فانها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية الى السقم وعليكم بالقصد في قوتكم فهو أبعد من السرف وأصح للبدن وأقوى على العبادة وان العبد لن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه (مفتاح الأفكار)

١٤

﴿ خطبته بالجابية عند اوبته من الشام الى المدينة ﴾

قال بعد ان حمد الله وأثنى عليه الا اني قد وليت عليكم وقضيت الذي علي في الذي ولاني الله من أمركم ان شاء الله قسطنا بينكم فيئكم ومنازلكم ومغازيكم وأبلغنا ما لديكم فجندنا لكم الجنود وهيئنا لكم الفروج وبوأناكم ووسعنا عليكم ما بلغ فيكم وما قاتلتم عليه من شامكم وسمينا لكم اطماعكم وأمرنا لكم بأعطياتكم وأرزاقكم ومعاونكم فمن علم علم شيء ينبغي العمل به فبلغناه نعمل به ان شاء الله ولا قوة إلا بالله (تاريخ الطبري)

﴿ باب ﴾

﴿ مقتل عمر ﴾

ذكر أرباب السير والمحدثون عن مقتل عمر ان أبا لؤلؤة غلام المغيرة ابن شعبة شكا اليه ارتفاع الخراج الذي ضربه عليه مولاه المغيرة وطلب اليه

---

(١) مخترم أي منتقص وقوله منتقض من الانتقاض وهو التراجع والانتكاث

تخفيفه فمن قائل انه وعده خيراً وعزم أن يلقى المغيرة في تخفيف الخراج عنه ومن قائل انه سأله كم خراجك قال درهمان في كل يوم قال وايش صناعتك قال نحاس نقاش حداد قال فما أرى خراجك بكثير على ما تصنع من الاعمال فتوعده الغلام وانصرف فقال عمر توعدني العبد

قالوا ولما انصرف عمر الى منزله جاءه من الغد كعب الاحبار فقال ياأمير المؤمنين اعهد فانك ميت في ثلاثة أيام : قال وما يدريك قال أجده في كتاب الله عز وجل التوارة قال عمر الله انك لتجد عمر بن الخطاب في التوارة : قال اللهم لا ولكني أجد صفتك وحليتك وانه قد فني أجلك : قال وعمر لا يحس وجعاً ولا ألماً فلما كان من الغد جاءه كعب فقال ياأمير المؤمنين ذهب يوم وبقي يومان وهكذا ما زال يجيئه كل يوم الى مساء اليوم الذي قتل في صبيحته . وممن روى هذا الخبر وذكر فيه قول كعب هذا ابن جرير الطبري في تاريخه رواه عن المسور بن مخرمة

وروى في أسد الغابة عن أبي رافع ان أبا لؤلؤة لما طلب الى عمر ما طلب قال له عمر اتق الله وأحسن الى مولاك ومن نية عمر الى يلقى المغيرة فيكلمه ان يخفف عنه فغضب العبد وقال وسع الناس كلهم عدله غيري فأضمر على قتله فاصطنع له خنجراً له رأسان وشحذه وسمه ثم أتى به الهرمزان فقال كيف ترى هذا قال انك لاتضرب به أحداً الا قتلته قال فتحين أبو لؤلؤة عمر فجاءه في صلاة الغداة حتى قام وراء عمر وكان عمر اذا أقيمت الصلاة يقول أقيموا صفوفكم فقال كما كان يقول فلما كبر وجأه (طعنه) أبو لؤلؤة في كتفه ووجأه في خاصرته وقيل ضربه ست ضربات فسقط عمر وطعن أبو لؤلؤة بخنجره ثلاثة عشر رجلا (ممن حاولوا القبض عليه) فهلك منهم سبعة

وفي رواية ان أحد المسلمين التى على أبي لؤلؤة برنسا ليتمكن من القبض

عليه فلما أحس انه مأخوذ انتحر بخنجره : وفي رواية الطبري وغيره ان عمر لما سقط قال أفي الناس عبد الرحمن بن عوف قالوا نعم هو ذا قال تقدم فصل بالناس: فصلى عبد الرحمن بالناس صلاة خفيفة وعمر طريح ثم احتمل فأدخل داره فدعا بعليّ وعثمان والزبير وسعد وأمرهم أن يتشاوروا في أمر الخلافة وقال لهم انتظروا أخاكم طلحة ثلاثا فان جاء والا فاقضوا أحدكم وليشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الامر شيء قوموا فتشاوروا وليصل بالناس صهيب : ثم قال لابي طلحة الانصاري يا أبا طلحة ان الله اعز بكم الاسلام فاختر خمسين رجلا من الانصار وكونوا مع هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلاً منهم : وقال للمقداد بن الاسود اذا وضعتموني في حفرتي اجمع هؤلاء الرهط وقم على رؤسهم فان اجتمع خمسة على رأي واحد وأبى واحد فأشدخ رأسه بالسيف وان اجتمع أربعة ورضوا وابى الاثنان فاضرب رأسيهما فان رضي ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر فان لم يرضوا بعبد الله فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

وفي المناقب عن ابن ميمون قال لما طعن عمر دخل عليه كعب فقال (الحق من ربك فلا تكن من الممترين) قد انبأتك انك شهيد فقلت من أين لي الشهادة وأنا في جزيرة العرب وفي تاريخ الطبري ان المهاجرين والانصار جعلوا يدخلون على عمر لما طعن فيسلمون عليه ويقول لهم أعن ملاء منكم كان هذا فيقولون معاذ الله ودخل في الناس كعب فلما نظر اليه عمر انشأ يقول

فأوعدني كعب ثلاثا أعدها ... ولا شك ان القول ما قال لي كعب
وما بي حذارُ الموت اني لميّتٌ ... ولكن حذار الذنب يتبعهُ الذنب

وفي رواية أبي جعفر الطبري ان عبيد الله بن عمر قتل بابيه ابنة أبي لؤلؤة

وقتل جفينة رجلا نصرانياً من أهل الحيرة أتى به سعد بن ابي وقاص ليعلم الناس الكتابة وقتل الهرمزان وان سبب قتله للاثنين الاخيرين ان عبدالرحمن بن أبي بكر قال غداة قتل عمر : رأيت عشية امس الهرمزان وابا لؤلؤة وجفينة وهم يتناجون فلما رأوني ثاروا وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه وهو الخنجر الذي ضرب به عمر فقتلهم عبيدالله وقال والله لاقتلن رجالا ممن شرك في دم ابي يعرض بالمهاجرين والانصار فبلغ ذلك صهيباً فبعث اليه عمرو بن العاص فما زال به حتى أخذ منه السيف ثم ثاوره سعد بن أبي وقاص واخذه وحبسه في داره

هذه الروايات التي جاءت في قتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن امعن فيها النظر وراجع ما كتبناه عن الهرمزان ونكثه عهد المسلمين قبل اسره المرة بعد المرة وكيف احتال للخلاص من القتل ثم اذا اضاف الى هذا ما ذكرناه في اخبار نهاوند من ان ابا لؤلؤة فارسي الاصل من نهاوند وقد كان اسره الروم ثم اسره منهم المسلمون ولما قدم سبي نهاوند الى المدينة جعل أبو لؤلؤة لا يلقى منهم صغيراً الا مسح رأسه وبكى وقال له اكل عمر كبدي وان جفينة نصراني وان كعب الاحبار يهودي حديث عهد بالاسلام وان مراجل الحقد على عمر وتدويخه لبلادهم وقهره لهم ولملوكهم كانت تغلي في صدور هؤلاء الدخلاء في الدين اتضح لديه ان قتل عمر لم يكن الا عن مؤامرة بين اولئك الدخلاء كما شهد بذلك عبدالرحمن بن ابي بكر وان السبب الظاهر الذي اختلقه أبو لؤلؤة تحته اسباب أهم واعظم وهي الغيظ والحقد على المسلمين وان كعبا كان واقفاً على امر هذه المؤامرة فانذر عمر بالقتل قبل ثلاثة أيام من قتله والا فقوله لعمر انه رأى خبر قتله في التوراة كلام غير معقول يرفضه العقل بتاتاً وليس عليه دليل كما انه ليس لكعب ان يعلم الغيب وانما علمه عند الله ومن المحتمل ان لا يكون لكعب الاحبار يد في هذه المؤامرة الا

انه علمها واراد ان يعرض بذكرها لعمر رضي الله عنه بالكناية تحذيراً له ولم يشأ يصرح له بذلك لامر لا نعلمه الا ان عمر رضي الله عنه لم يعبأ لسلامة صدره بقوله ولم يشدد عليه في السؤال وربما لم يخطر له ذلك الامر في بال لما يعلمه من نفسه من القيام على الحق والعدل وانصاف الناس مسلمهم وغير مسلمهم وعربيهم وعجميهم ومن كان هذا شأنه يكون بالطبع آمناً غائلة الناس وغدر الغادرين وخصوصاً عمر بن الخطاب الذي يحكي انه جاءه مرة رسول من قبل ملك الروم فوجده نائماً على الارض متوسداً الحصا فقال: لله أنت عدلت فأمنت فنمت: ولكن قدر على المسلمين ان يغفلوا عن مضرة وجود امثال اولئك الدخلاء في المدينة في مثل عصر عمر الذي كانت فيه جيوشه تضرب في انحاء الارض وتثل عروش الملوك وتزعزع اركان الممالك وتشيد بنيان الاسلام وهذا كله مما يحفظ قلوب الاعداء ويطوي جوانحهم على دغل ويستدعي الانتباه لمثل أبي لؤلؤة والهرمزان وجفينة وأمثالهم من الدخلاء ولا ينبغي ان يحسن بهم الظن الامع الاحتياط والتحذر ريثما يتناسون ثأرهم وتضعف في نفوسهم أسباب الضغن ويسكنون الى سلطان المسلمين ويألفون حكم الاسلام ويوثق باخلاصهم في الطاعة وامانة الجوار هذا مع ان عمر رضي الله عنه كان يكره وجود الاعاجم في المدينة فلا ندري لهذا السبب ام لغيره فقد اخرج في المناقب عن ابن عمر قال كان عمر يكتب لامراء الجيوش لا تجلبوا علينا من العلوج احداً جرت عليه المواسي فلما طعنه غلام المغيرة قال الم اقل لكم لا تجلبوا علينا من العلوج احداً فغلبتموني: فربما كان على علم وبينة مما يبطنون الا انه لم يظن انهم يجرأون عليه ما دام قائماً فيهم وفي كل الرعية بالقسط هذا ولما طعن عمر قال لابن عباس انظر من قتلني فجال ساعة ثم جاء فقال غلام المغيرة بن شعبة: قال الصنع: قال نعم: قال قاتله الله لقد امرت به معروفاً

فالحمد لله الذي لم يجعل منيتي بيد رجل يدعي الاسلام ولما حمل الى بيته جزع الناس عليه جزعاً شديداً وكأنه لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ واما هو رضي الله تعالى عنه فقد أظهر من الثبات والجلد ما هو معروف به في حال الشدة والرخاء وكان أول همه النظر في أمر الخلافة وتقريرها على وجه يمنع من حصول الفتنة بعده فرأى ورأيه الحق ان يتركها شورى بين النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض ففعل وبلغ به الحرص على دفع الفتنة وتعجيل نصب الخليفة بعده ان امر المقداد بما أمر كي لا يكون بينهم فتنة وان كانت فان تقمع بالسيف

وفي المناقب عن ابن عمر ان عمر دعا بطبيب ينظر في جرحه فجاءه بطبيب من الانصار من بني معاوية فسقاه لبناً فخرج من الطعنة أبيض فقال له الطبيب يا أمير المؤمنين اعهد : فقال عمر صدقني أخو بني معاوية ولو قلت غير ذلك لكذبتك : فبكى عليه القوم حين سمعوا فقال لا تبكوا علينا من كان باكياً فليخرج ألم تسمعوا ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يعذب الميت ببكاء أهله عليه

وفيه عن جعفر بن محمد: قال لما طعن عمر اجتمع اليه البدريون المهاجرون والانصار فقال لابن عباس اخرج اليهم فسلهم عن ملاء منكم ومشورة كان هذا الذي اصابني قال فخرج ابن عباس فسألهم فقال القوم لا والله وَلَوَدِدْنَا أنْ زاد الله في عمرك من أعمارنا

وفي العقد عن ابن عباس قال دخلت على عمر بن الخطاب في ايام طعنته وهو مضطجع على وسادة من أدم وعنده جماعة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقال له رجل ليس عليك بأس : قال لئن لم يكن عليَّ اليوم ليكونن بعد اليوم وان للحياة لنصيبا من القلب وان للموت لكربة وقد كنت أحب ان أنجي نفسي وأنجو منكم وما كنت من أمركم الا كالغريق يرى الحياة فيرجوها ويخشى ان يموت دونها

فهو يركض بيديه ورجليه . واشد من الغريق الذي يرى الجنة والنار وهو مشغول ولقد تركت زهرتكم كما هي مالبستها فأخلقتها . وثمرتكم يانعة في اكمامها ما أكلتها وما جنيت ماجنيت الا لكم وما تركت ورائي درهما ما عدا ثلاثين او أربعين درهما : ثم بكى وبكى الناس معه : فقلت والله ياأمير المؤمنين أبشر فوالله لقد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنك راض ومات أبو بكر وهو عنك راض وان المسلمين راضون عنك : قال (أي عمر) المغرور والله من غررتموه أما والله لو ان لي ما بين المشرق والمغرب لافتديت به من هول المطلع

وفيه عن هشام بن عروة عن أبيه قال : لما طعن عمر بن الخطاب قيل له ياأمير المؤمنين لو استخلفت : قال ان تركتكم فقد ترككم من هو خير مني وان استخلفت فقد استخلف عليكم من هو خير مني ولو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول انه أمين هذه الأمة ولو كان سالم مولى حذيفة حياً لاستخلفته فان سألني ربي قلت سمعت نبيك يقول ان سالما ليحب الله حبا لو لم يخفه ماعصاه قيل له فلو انك عهدت الى عبد الله فانه له أهل في دينه وفضله وقديم اسلامه قال : بحسب آل الخطاب ان يحاسب منهم رجل واحد عن أمة محمد ولوددت أني نجوت من هذا الامر كفافاً لا لي ولا عليّ : ثم راحوا فقالوا ياأمير المؤمنين لو عهدت فقال : قد كنت أجمعت بعد مقالتي لكم ان أولي رجلا أمركم ارجو ان يحملكم على الحق وأشار الى عليّ بن أبي طالب ثم رأيت ان لا أتحملها حياً ولا ميتاً فعليكم بهؤلاء الرهط الذين قال فيهم النبي صلى الله عليه وسلم انهم من أهل الجنة وذكر السبعة واستثنى من الشورى سعيد بن زيد وقال عن الستة فليختاروا منهم رجلا فاذا ولوكم والياً فأحسنوا موازرته (أي معاونته) في حديث طويل سيأتي معنا ما هو بمعناه في قصة الشورى ان شاء الله

ومن هذا تعلم مقدار حرج الموقف في منصب الخلافة الرفيع حتى ان عمر لم يقبل ان يتحمل مسؤليته بعد الموت كما تحملها في الحياة وانما يعرف هذه المسؤلية من كان له دين يردعه كعمر بن الخطاب رضي الله عنه واخوانه من الخلفاء الراشدين

أخرج في أسد الغابة عن عمرو بن ميمون في حديث طويل ان عمر قال لابنه يا عبد الله بن عمر انظر ما عليّ من الدين فحسبوه فوجدوه سته وثمانين الفاً قال ان وفى له مال آل عمر فأدوه من أموالهم والا فسل في بني عدي فان لم تف اموالهم فسل في قريش ولا تعدهم الى غيرهم فأدعني هذا المال وانطلق الى عائشة أم المؤمنين فقل لها يقرأ عليك عمر السلام ولا تقل أمير المؤمنين فاني لست اليوم للمؤمنين أميراً وقل يستأذن عمر بن الخطاب ان يدفن مع صاحبيه فسلم (أي عبد الله) واستأذن ودخل عليها فوجدها قاعدة تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن ان يدفن مع صاحبيه: فقالت كنت اريده لنفسي ولأوثرن به اليوم على نفسي: فلما اقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء: قال عمر ارفعوني فأسنده رجل اليه فقال ما لديك قال الذي تحب قد اذنت: قال الحمد لله ما كان شيءٌ أهم اليّ من ذلك فاذا انا قبضت فاحملوني ثم سلم فقل يستأذن عمر ابن الخطاب فان أذنت لي فادخلوني وان ردتني ردوني الى مقابر المسلمين

روي انه لما ثقل عمر قال لابنه عبد الله ضع خدي على الارض فوضعه على الارض فجعل يقول ويلي وويل أمي ان لم يغفر لي ربي ثم مات ولما توفي صلي عليه في المسجد وحمل على سرير رسول الله صلى الله عليه وسلم وغسله ابنه عبد الرحمن وصلى عليه صهيب وكان تقدم قبل ذلك عليّ وعثمان للصلاة عليه فقال عبد الرحمن لا اله الا الله ما أحرصكما على الامرة أما علمتما ان أمير المؤمنين قال ليصل بالناس صهيب

قال في أسد الغابة روي أبو بكر بن اسماعيل بن محمد بن سعد انه قال طعن عمر يوم الاربعاء لاربع ليال بقين من ذي الحجة سنة ثلاث وعشرين ودفن يوم الاحد هلال المحرّم سنة اربع وعشرين وكانت خلافته عشر سنين وخمسة أشهر وواحد وعشرين يوماً قال : وقال عثمان بن محمد الاخنسي هذا وهم توفي عمر لاربع ليال بقين من ذي الحجة وبويع عثمان يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة

وتوفي عمر وهو ابن ثلاث وستين سنة وقيل اقل والاول أصح الأقوال في عمره

﴿ وصيته لمن يخلفه ﴾

اخرج ابن الجوزي وغيره من الحفاظ والمحدثين عن ابن عمر انه قال : دفع اليّ عمر كتاباً فقال اذا اجتمع الناس على رجل فادفع اليه هذا الكتاب واقرأه مني السلام فاذا فيه

اوصي الخليفة من بعدي بتقوى الله وأوصيه بالمهاجرين الأولين : الذين اخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله : ان يعرف حقهم ويحفظ لهم كرامتهم . وأوصيه بالانصار خيراً (الذين تبوّؤا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا) الى قوله تعالى : المفلحون : ان يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وان يشركوا في الامر . وأوصيه بذمة[1] الله وذمة محمد صلى الله عليه وسلم ان يوفي بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وان يقاتل من ورائهم (أي يحميهم) اه

(١ وهم أهل الذمة من غير المسلمين ويدخل فيها الفرس والكتابيون وكل من رضي بدفع الجزية للمسلمين فصار ذمة له ما لهم وعليه ما عليهم

هكذا انقضت حياة هذا الرجل العظيم نقية طاهرة بعد ان فتح الممالك ورفع منار الاسلام وبسط بساط العدل وبث روح الجد والنشاط في العرب وأسس لهم ذلك الملك العريض وفل بهم جيوش فارس والروم ورباهم على العفاف وكف يد الظلم واحترام العهود والوفاء بالذمة كما أمر به الاسلام وقررته شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فسعدت بحياته الرعية من سائر الملل ودخل الامم في طور جديد من الحرية والعدل والأمن والراحة لم يكونوا يعهدونه ولم يكن لأسلافهم أن يروه وبلغ به الحرص على ذلك البذار الطيب الذي بذره في المسلمين أن أوصى عند آخر نسمة من حياته بتلك الوصية الغراء التي تدل على الهمة العالية والشيم الطاهرة والاخلاق البارة التي اكتسبها عمر من نبيه عليه الصلاة والسلام فكان خير قدوة للمسلمين وذكرى الفخر الخالد لهم بين الناس أجمعين

لما توفي عمر اكثر الشعراء من مراثيه فرثاه حسان بن ثابت وعاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل وكانت زوجه وغيرهما

(صفته)

قال في أسد الغابة كان عمر أعسر يسراً يعمل بكلتا يديه وكان أصلع طويلاقد فرع[1] الناس كأنه على دابة وقال الواقدي كان عمر أبيض أمهق[2] تعلوه حمرة يصفر لحيته وانما تغير لونه عام الرمادة لانه اكثر من أكل الزيت وحرم على نفسه السمن واللبن حتى يخصب الناس : وقال بعضهم انه كان أسمر شديد السمرة وهو الاكثر عند أهل العلم

(١) علاهم (٢) الابيض لاحمرة فيه

باب

ولده وعماله

(ولده)

قال ابن قتيبة ولد عمر بن الخطاب هم عبد الله وحفصة أمهما زينب بنت مظعون : وعبيد الله (وهو الذي قتل الهرمزان وجفينة) وأمه مليكة بنت جرول الخزاعية : وعاصم وأمه جميلة بنت عاصم بن ثابت حمي الدبر : وفاطمة وزيد وأمهما أم كلثوم بنت عليّ بن أبي طالب : ومجبر واسمه عبدالرحمن : وأبو شحمة (وهو الذي حده أبوه في الخمر فمات) واسمه أيضاً عبدالرحمن : وبنات أخرى

وأما الذين أعقبوا من أولاد عمر فهم عبد الله وعبيد الله وعاصم ومجبر وعقب مجبر هذا بادوا ولم يبق منهم احد

(عماله)

كان عماله على الامصار سنة ٢٣ أي السنة التي توفي بها على مكة نافع ابن عبد الحارث الخزاعي . وعلى الطائف سفيان بن عبد الله الثقفي وعلى الكوفة المغيرة ابن شعبة وعلى البصرة أبو موسى الاشعري . وعلى مصر عمرو بن العاص . وعلى دمشق معاوية بن أبي سفيان . وعلى حمص عمير بن سعد وعلى البحرين وما حولها عثمان بن أبي العاص الثقفي وعماله في الحرب من علمنا من القواد الذين مر ذكرهم قبل وكاتبه زيد بن ثابت وكتب له معيقيب أيضاً وعلى بيت ماله عبد الله بن أرقم وحاجبه يرفأ مولاه

باب

الحالة الاجتماعية على عهده

كانت الحالة الاجتماعية على عهد عمر غيرها على عهد أبي بكر رضي الله عنهما

اذ توطد على عهد الثاني للمسلمين الملك وشيدت دعائم الدولة وصارت تلك الأمة العربية المشهورة بالانقسام والتفرّق والجهل بامور الدولة والانغماس في الجهالة وسذاجة الفطرة سائسة ملك وربة سطوة ومجد ومقننة قانون وصاحبة دين جعلها أمة تذكر في التاريخ بانها أعظم الامم وكانت تلك الحياة العربية والجامعة الملية مع انها بادية الظهور تنمو بسرعة وتؤذن بانقلاب عظيم يحدث في انحاء العالم وتهتزله أركان الدول العظمى يومئذ حيث اندفعت هذه الأمة بقوة الجامعة الاسلامية والاتحاد القومي على أطراف الممالك المجاورة لها وهي فارس والروم فانتزعت من الأولى سلطانها وتغلغلت بجيوشها في أحشاء بلادها وقلبت سرير ملكها وأزعجت قادتها ورؤساءها وألجأت للانكماش الى أطراف البلاد الشرقية والتخلي عن الملك أسرة الاكاسرة من ملوكها وأنقصت من الثانيـة أطرافها وقلصت عن سورية والجزيرة ومصر ظلها وهي تتقدم في داخل بلادها وتهدد بالهجوم عاصمة الامبراطور

تأصلت في تلك الممالك جذور الاستعباد وتناسى الروم معنى الحرية التي كان يقاتل دونها أسلافهم الرومان ويدافعون عنها يد الامبراطرة والملوك وخنع الفرس للاكاسرة واستعبدوا لاشراف البلاد فألف الفريقان حكم العبودية وفقدوا مبدأ الاعتماد على النفس والاستقلال الذاتي في الحياة فجاءهم العرب وقد امتزج في دمائهم حب الحرية حتى مايطيقون علو أمير المؤمنين عليهم واستئثاره بشيء من أمورهم دونهم كما رأيت فيما مر فنفثوا في روعهم روحاً جديدة من حب الاستقلال الذاتي والحرية الشخصية فهبوا كمن نشط من عقال فوضعوا ايديهم في أيدي الغالبين علامة الشكر والوفاء وشعروا حينئذ بأنهم بشر لايخطون في الحقوق العامة عن مرتبة الامراء وبلغ بهم ذلك ان لما أهين رجل مصري من

ابن أمير مصر عمرو بن العاص شخص الى مقر الخلافة يشكوه ويطلب انتصافه منه ولم يعدالا بعدان استنزل أباه عن منصة إمارته فقدم هو وابنه الى المدينة وأقادا ذلك الفرد من الرعية بحضور الخليفة كما سبق ايراده في غير هذا المحل وما نعلم ان قوما بلغت بهم الحرية الشخصية يوما مبلغها في ذلك العصر وتمتعوا بعدل مثل ذلك العدل وهو حال ما أهنأه لتلك الامم يومئذ من حال رفعهم من حضيض الذل والعبودية الى ذرى العز والحرية بشرهم بعصر جديد وسعادة ما عليها مزيد

خالط العرب هذه الأمم ودال اليهم ذلك الملك العريض ورأوا أبهة الحضارة واستشعروا بلزوم الحياة المدنية للامم الغالبة وليس لديهم من ذلك الا الاستعداد الفطري لقبول الخير والشر والشرع الالهي الذي دعاهم الى الخروج من ظلمات البداوة فاخذوا بحكم الضرورة يقلدون مجاوريهم في العادات وبدأوا يباورنهم في مضمار الحياة وكان مطمح نظرهم وأول عملهم بالطبع تقليد مجاوريهم في الامور الحربية واستعمال آلات القتال الفارسية والرومية ليقابلوا القوة بمثلها ويعدوا لهذه الفتوح عدتها ثم تطرقوا من ذلك الى الامور السياسية والادارية فوضع الخليفة عمر رضي الله عنه التاريخ ودوّن الدواوين على نحو ما هو موجود في الدولتين الرومية والفارسية ثم أقبل على ترتيب الولايات وتقسيم الاعمال وانتقاء العمال ثم فرض الاعطيات وقرر مصرف الفيء في غير سرف ولا تقتير ونشر جناح الامن وأقام ميزان العدل وقرر اصول الجباية بلا اجحاف في حقوق الرعية ولا غبن للدولة فعم الرخاء وبدأت مظاهر العمران تتجلى في أنحاء المملكة وانهال الغنى والثروة على الفاتحين وخطوا خطىً خفيفة الى ميدان الراحة والنعيم مع الأخذ على الشكائم والتخوشن في المآكل والملابس والتوسط في العيش والقصد في الانفاق والامساك عن البذل خوف الأخذ على أيديهم من عمر بن

الخطاب رضي الله عنه كما أخذ على يد خالد بن الوليد اذ وصل بعشرة آلاف من الدراهم شريفاً من أشراف العرب كما رأيته في باب سياسته مع العمال

هذا من وجه ومن وجه آخر فان عمر رضي الله عنه لم يدع للعرب بعد اذ دفع بهم في غمار الحضارة وقذف بهم الى ميدان الحروب وقتاً للاخلاد الى الراحة والايواء الى ظل التنعم والسكون تحت كنف الامصار بل شغلهم عن ذلك بالفتح وألهاهم بادخار الغنائم عن التمتع بها ريثما يفل من غرب الدول المجاورة ويأمن غائلة الامم المغلوبة وكان له بهذا مآرب أخرى أيضاً وهي أشغال العرب في الحرب وزجهم في مضمار الفتح ليأنسوا بأصول الاجتماع والحضارة وتتبدل أخلاقهم الجافية وتزول من نفوسهم أسباب التنافر والانتماء الى العصبية الداعية الى الشقاق والفرقة يدلك على هذا ما كتبه لابي موسى الاشعري في الكتاب عدد ٦ الذي جاء في باب كتبه وأمره فيه بأن يضرب من ينادي بالعصبية بالسيف

استفاد العرب في حالتهم الاجتماعية من هذه السياسة العمرية لكن اندفاعهم للفتح وتفرقهم في انحاء الممالك وتعجلهم في ذلك الظهور قبل ان تأصل الدين في عامتهم نشأ عنه بعد تشويش في الدين والملك منه عدم التمكن من محو آثار الوثنية من البلاد المفتتحة مع دخول أهلها في الاسلام وانما اختفت هذه الآثار حيناً ثم بدأت تظهر ثانية منصبغة بصبغة أخرى دعت لسرعة تفرق أهواء المسلمين وظهور البدع والمبتدعين خصوصاً بين الاعاجم من المسلمين مما لا محل لتعداده وذكره في هذا المقام. ومنه سرعة تقهقر الامة العربية بمقدار سرعة تقدمها في الحضارة والمدنية الى غير ذلك من الامور التي ربما مر معنا ذكرها في هذا الكتاب ومع هذا فاذا نظرنا من جهة أخرى الى سياسة عمر في تعجل الفتح نرى لها فوائد كبيرة في حينها وذلك لان دفعه للقوم الى الفتح في إبان الظهور وحين التحمس

مهد لهم السبيل لقهر الامم وتدويخ الممالك لاسيما وانه كان من ورائهم جزاه الله عنا وعنهم خير الجزاء يؤدبهم بأدبه ويحملهم على القناعة والقصد ويحبب فيهم الامم ويغل أيديهم عن التطاول الى حقوق الغير ويأمرهم بمحاسنة الناس وحماية أهل الذمة حتى كان من ذلك ان ارتاح لحكمهم الشعوب وسهل عليهم استخضاع الأقوام وبث دعوة الاسلام فلم يخرج على سلطانهم خارج إباء لحكمهم أو تظلماً من سياستهم مع حداثة عهدهم في الفتح وقلة الحامية منهم بين ظهراني الشعوب الخاضعين لسلطانهم الآمنين في أوطانهم

بسط المسلمون على عهده يد السلطة على الشعوب واستفتحوا أغلاق الكنوز وملكوا ما ملكوا من البلاد ومع هذا فلم تأخذهم الدنيا بزخارفها ولم يغرهم الغنى والسلطان بالنعيم ولم يبطرهم المال ولم تخط بهم الحضارة الا خطى قليلة الى الأمام فكانوا وسطاً في المعيشة في كل الامور ذلك لأن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يريدهم على البطء في السير في طريق الترقي ويحملهم على التوسط في العيش فلا يمنعهم منعاً ولا يدفعهم دفعاً اللهم الا الامراء والعمال فانه كان يحملهم على طريقته في التقشف وشظف العيش لحكمة ذكرناها فيما سبق من هذا الكتاب يدلك على هذا كتابه الى أبي موسى الأشعري الذي يقول له فيه: بلغني انه فشت لك ولأهلك هيئة في المطعم والملبس: وينصحه بالتزام القصد. وتأنيبه لسعد بن أبي وقاص على ان سمي داره في البصرة قصر سعد وغير هذا من أخباره الكثيرة مع العمال ومنها شرطه عليهم ان لا يأكلوا نقياً ولا يركبوا برذوناً الخ ما جاء في باب سياسته مع العمال وأما عاملة المسلمين فكان لا يريدهم على هذا الحال ولا يمنعهم عن التمتع بما أحل الله لهم من الطيبات بل يرغب حملهم على طريق الوسط وحسبك دليلاً على هذا كتابه الى أبي عبيدة بن الجراح الذي

يلومه فيه على رحيله من انطاكية لطيب هوائها وتم المسلمين فيها

وأما انه كان يريدهم على البطء في السير في طريق الترقي فيدلك عليه ما رواه عامة أهل السير ان الاحنف بن قيس وفد عليه مرة وتكلم عن أهل البصرة بكلام دل عمر على سعة عقله فاحتبسه عنده حولا وأشهراً ثم سرحه وكذلك فعل مع زياد بن أبيه لما وفد عليه من العراق ورأى فيه قوة العارضة والفطنة وزلاقة اللسان احتبسه عنده ولما سأله زياد عن السبب قال كرهت ان أحمل الناس على فضل عقلك. وانما كان يريد للعرب بهذه السياسة الترقي التدريجي حتى في المدارك على ان مخالطتهم الامم وسكنى الامصار غير ولاشك من أخلاقهم والان من طباعهم وزاد في معارفهم ولا يعقل ان قوماً كانوا يظنون الكافور ملحاً أيام فتح المدائن تصير اليهم كنوز الارض بعد ذلك ويسوسون الأمم الا باستعداد عظيم في قوى المدارك كن في نفوسهم وأظهره الاحتكاك بتلك الامم على وجه خال بالطبع عن كل شائبة من شوائب التصنع والختل المشهور بهما أهل الامصار في ذلك العصر وفي كل عصر فهم اذن كانوا أحسن أخلاقاً وأسد عملاً على سذاجة فطرتهم وجدة اسلامهم ممن حاربوهم من الامم وهذا شأن لاينكر على مثل عصر عمر رضي الله عنه الذي دأب فيه هذا الخليفة العظيم على تدريب هذه الأمة على أصول السياسة وتهذيبها على وفق ماجاء به القرآن من آيات الحث والترغيب في أسباب الظهور على الامم يدلك على هذا ما رواه الطبري في أخبار القادسية ان رستم زعيم الفرس وقائدهم قال يومئذ : أكل عمر كبدي أحرق الله كبده علم هؤلاء حتى علموا : وفيه دليل على ان العرب لم يكونوا قبل الاسلام في نظر الفرس شيئاً مذكوراً لبعدهم عن أسباب الحضارة واغراقهم في الجهالة ولما اجتمعوا على كلمة الاسلام وانكفأوا على مملكتي فارس والروم وظفروا بحسن قيادة عمر

رضي الله عنه بدولتي الفرس والروم عرف رستم وأشباهه من زعماء الدولة الفارسية عظم قدر عمر بن الخطاب و بعد نظره في السياسة وحسن قيامه على تربية المسلمين وتعليمهم كيف تكون حياة الامم ولهذا قال رستم ما قال ولا جرم فلاخلاص الراعي لله وحبه لرعيته وحسن قيامه على مصالح الأمة دخل عظيم في تسودهم على الامم وتعززهم بالعلم والقوة والعكس بالعكس

وبالجملة فالحالة الاجتماعية على عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه على حداثة عهد أهلها في تسنم ذرى الارتقاء تمثلها لك سيرة هذا الخليفة الجليل فى قالب الجد والاستقامة والعزيمة وتظهرها لديك في مظهر النهوض الى ارتقاء قمم المجد التي انتهى اليها المسلمون فيما بعد بسيرهم سيراً حثيثاً مدة تزيد على جيلين وقفوا بعدها وقفة المستريح من وعثاء سفر شاق المتلذذ بجني ثمرات الجد والنشاط والعمل وهكذا حتى تغير الحال وانقلب الجد والنشاط الى فتور واهمال وكان بعد ذلك ما كان من هبوط مستمر بلغ بنا الآن ان فقدنا كل حول وقوة الا من السفاسف والاوهام وكل اشتغال الا بالاباطيل وكل سعي إلا وراء الرتب والالقاب التي أضحكت علينا الامم وأسرعت ببقية الاخلاق الفاضلة فينا الى هوة العدم : والغربيون يبعثون الينا كل يوم بنذير من الرهبوت والقوة وواعظ من العلم والاعتبار ومنبه من التسلط على الممالك الاسلامية والديار الشرقية ومرشد الى كيف تكون حياة الامم وسيادة الشعوب ونحن سكوت لا يسمعون لنا ركزاً إلا في تهاتر ولا يحسون منا حركة إلا الى تدابر قد امتزج الاستعباد في نفوسنا حتى ما نطيق الحرية ولا نرضى العلم ولا نقبل التذرع الى السيادة والسمي الى المجد وهي حالة يا الله تمزق غشاء القلوب وتنذر بشق الجيوب فواغوثاه وواعمراه

﴿ اعتذار ﴾

هذا جهد ما استطعته في استقصاء أخبار رجل الامة العظيم عمر بن الخطاب رضي الله عنه واني لأرجو بما بذلته من الجهد وما عانيته من النصب وتعب الفكر فى تطبيق الحوادث وجمع الاشباه والنظائر وضرب الامثال وتحقيق الاخبار واستنتاج النتائج واداء النصيحة ان يقابل قومي خدمتي هذه بالقبول ويحملوا كل ماخطه قلمي على محمل الاخلاص في خدمة الملة والحق والله يشهد اني لا غرض لي أرمي اليه سواه ولا أرغب في هذه الحياة إلا فيه فان أصبت فيما كتبت فذلك ما أتمناه وإلا فالانسان محل الخطأ وصاحب الفضل من ردّ اليّ خطئي ونبهني الى غلطي لاصلحه في الجزء الذي يلي هذا الجزء وحسبي ما رأيته من قومي في جميع الاقطار الاسلامية من الاقبال على الجزء الاول من هذا الكتاب تنشيطاً لي ودافعاً لي الى المضي في عملي والمثابرة على اتمام هذا الكتاب على أسلوبه الجديد مهما عانيت من المشاق ولاقيت من التعب إذ كل شيء سهل بعد رضى قومي عن كتابي هذا . وقد بعث رضاؤهم في نفسي رجاء عظيماً في تحقيق أمنيتي التي قصاراها تنبيه العقول الراقدة لا الفاقدة الى سير أسلافهم الكرام ورجال الاسلام العظام الذين يمثلون صورة الحياة العالية في أجلى مظاهر الجد والقوة والنشاط فيقوم منها خيال فى النفوس الخامدة يزعجها عن مواطن الخمول والرذيلة وينهض بها الى تناول المجد من قمته الشامخة بوسائل الجد لا بالوسائل السافلة والله ملهم الصواب

هذا وقد كنت وعدت قرّاء الجزء الاول بأن أصدر هذا الجزء مشتملاً على سيرة عمر بن الخطاب ومن اشتهر في دولته وبهذا عنونت هذا الجزء الآني لما انتهيت من سيرة عمر رضي الله عنه وجدت ان الجزء قد زاد عن الحجم الذي قدرناه له ولو أضيفت اليه سيرة رجال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما وسعنا

الوفاء بشرط بيع الاجزاء بثمن هين ونخالف ذلك رغبتي في تعميم الكتاب لاسيما وان كثيراً من قراء الجزء الاول سألوني سرعة انجاز سيرة رجل الاسلام عمر بن الخطاب لهذا رأيت ان اصدر هذا الجزء خلواً من سيرة مشهوري الرجال في خلافة عمر رضي الله عنه وان ارجئها الى الجزء الذي يليه فأسأل القراء المعذرة كما أسأل الله التوفيق انه أكرم مسئول

كلمة للجرائد
وشكر للمنتقدين

التمست في الجزء الماضي من أهل الفضل وأرباب الجرائد الانتقاد على مافي ذلك الجزء من خطأ بما بدر به القلم لاصلحه في هذا الجزء فسبق بهذا التفضل من المجلات العلمية كل من مجلة المقتطف والهلال الشهيرتين اللتين خصتا بخدمة المعارف والعلم منذ أنشئنا الى هذا العهد فطلبت الي الاولى ان اوسع النظر في تواريخ الغربيين واستقدي منها حالة دولة الروم على عهد الفتح الاسلامي لاتوسع في بيان العلل والاسباب التي أوجبت قهر تلك الدولة بواسطة الجيوش العربية وفي الحقيقة فان هذا الأمر من الامور الجديرة بتدقيق المؤرخين الخليقة بالنظر والتأمل لهذا راجعت أشهر التواريخ الافرنجية التي كتبت عن العرب والروم في ذلك العهد كتاريخ الامبراطورية الشرقية لادورد جبون الانجليزي وتاريخ العرب للمؤرخ الفرنساوي ديفرجي والذي رأيته فيهما وفي غيرهما من التواريخ مالا تخلو منه كل دولة في مبادئ ضعفها من المفاسد الاجتماعية والسياسية كالظلم وحب الشهوات ونبذ القانون وتجاذب أطراف الرياسة وغير ذلك وزاد عليه في الدولة البزنطية تفاقم خطب المجادلات الدينية التي اودت بحياة القوم السياسية الا ان الامبراطور هرقل كان والحق يقال عضداً عظيماً لهذه الدولة في حال

ضعفها ذلك لانه من أعاظم الملوك البزنطيين وأشدهم حرصاً على حياة الدولة كما نرى ذلك من وقائعه الشهيرة مع المسلمين ومكافحته لهم بجيوش الروم مكافحة أهل العزيمة والحزم ومهاجمته لهم الكرة بعد الكرة لكن لم يغن عنه ذلك الكفاح شيئاً في جانب قوة المسلمين وكفاءة قوادهم العظام على ان الاطلاع على تاريخ الروم وأخبار دولة الخلفاء الراشدين في عهد الفتح ولو مجردة عن التعليقات السياسية والقياسية يكفي المؤرخ ان يستخرج العلل والاسباب من ثنايا السطور ومتفرقات الاخبار وقد بذلت في هذا الجزء جهد المستطاع في تتبع العلل السياسية والاجتماعية التي دعت لسرعة ظفر المسلمين بدولة الفرس والروم يومئذ أدع خبراً من الاخبار إلا أردفته بما خطر لي من الخواطر الفلسفية أو وقفت عليه من الحقائق التاريخية لأمثل ذلك العصر في صورة يراها القارئ كانما هو فيه خصوصاً فيما يتعلق بدولة الخلفاء الراشدين وسياسة المسلمين فان أصبت فيما قلت وبينت ثمة فذلك هو المطلوب والا ففوق كل ذي علم عليم وللمقتطف في تنبيهي الى ذلك فضل أشكره عليه من صميم الفؤاد

انتقد المقتطف الاغر كلاماً آخر من كتابي وسألني بياناً عمن هو المسئول عن بعض الحوادث التاريخية التي جرت في بعض انحاء القطر السوري في منتصف القرن الماضي والجواب عن هذا لاعلاقة له بهذا الجزء وانما هو من خصائص الاجزاء الأخيرة من هذا الكتاب وسيأتي في محله ان شاء الله

وأما مجلة الهلال الغراء فقد انتقدت عليّ قولي في الجزء الماضي ان دمشق كانت على عهد الفتح الاسلامي حاضرة بني غسان وقد أفردت للجواب عن هذا الانتقاد فصلاً مخصوصاً في هذا الجزء فيه البيان الكافي فلا حاجة هنا لغير اسدائها شكوى ومشاركتها في أجرى لأنها كانت السبب في

استقصائي للأدلة التاريخية التي اذا لم تفد في بابها اليقين فانها تكون عوناً للباحثين

وحبذا لو حذت حذو هاتين المجلتين كل المجلات العربية في انتقاد الكتاب وتتبع ما فيه من الخطأ إذن والله لزادتني انبعاثاً لتحقيق الاخبار وبسط الافكار ونبهتني الى ما ربما لم يخطر لي من الحوادث التاريخية في بال اذ العلم أجزاء لا يتناولها عقل الفرد والأمة جسم لا يتحرك عضو منه إلا بالاستعانة بأخيه فما بال مجلاتنا التي هي عون المعارف وسند الباحثين ومنار المسترشدين لا تفيض من كنوزها على المؤلفين الأقوال أحسن وأجاد ألعلها تجهل ان مدرسة الامة العامة هي الكتب والمؤلفات وان الجرائد هي المسيطرة على هذه المدرسة المكلفة بتعهدها بالنظر والبحث فيما يفسد أخلاق الناس أو يصلحها من خير أو شر وحق أو باطل

أو لعلها تجهل ان معظم البلاء الذي حلّ بالشرقيين عامة والمسلمين خاصة انما كان منشأوه الكتب التي شحنت بالاباطيل وانتزعت من النفوس ملكات العلم الصحيح فأفسدت الاخلاق وأضعفت العقول وجعلت الحق والباطل في نظر أكثر الناس سواء بل جعلت الحق عند فريق كبير تابعاً للاهواء ان شاءت جعلته باطلاً وضربت به وجوه العماء

ان جرائد الشرق ولا نكران للحق مصابة بنفس مصاب الأمة لم تستثن من ذلك البلاء لانها لا تحفظ على صفحاتها للمؤلفين غير المدح والاطراء فلا تنبه المؤلفين الى حقيقة ولا تمنعهم من سرد باطل

هذا وما خلا المجلات فقد انتقد عليّ بعض الادباء إغفالي تفسير الالفاظ اللغوية التي وردت في كلام القوم في الجزء الماضي على اني لم أغفلها إلا اقتصاداً للوقت كما نبهت على ذلك ثمة ومع هذا فقد استدركت هذا الخطأ في هذا الجزء ففسرت الالفاظ اللغوية الا ما كان منها كثير التداول

مفهوماً بقرينة المجاورة فاني لم أفسره اعتماداً على ذكاء القارئ

وقد نبهني بعضهم أيضاً الى غلطات مطبعية غير ماصححته في آخر ذلك الجزء فعزمت ان أضيفها الى فهرس الخطأ والصواب الذي يلحق بهذا الجزء

وانتقد عليّ بعضهم كثرة استعمال الالفاظ الدينية كالدعاء بالصلاة والترضي بحجة ان التاريخ ينبغي ان يكون خلواً من ذلك الحشو إذ يقرأه المسلم وغير المسلم ومن يرى لزوم الدعاء ومن لا يراه

ونحن مع علمنا بأن هذا شيء لم يرد عن لسان الصحابة والتابعين بل اصطلح عليه بعض المحدثين بقصد تعظيم الصحابة وان لهؤلاء من الفضيلة الذاتية ما يغنيهم عن مثل هذا التعظيم وان أكبر المحدثين والمؤرخين كابن جرير الطبري لم يستعمل الدعاء في تاريخه إلا لكبار الصحابة واستعمله بالترحم لا بالترضي وفيه دليل على ان وجوب التعظيم إنما هو في القلب لا في اللسان والمؤرخ في الخيار باستعمال أية صيغة من صيغ التعظيم اللفظية أو عدمه

مع هذا كله فاني لم أر بأساً من ايراد ذلك الدعاء اقتداء بالائمة المحدثين الآ اني رمزت اليه بحرفي (رض) على اصطلاح بعض المتأخرين ليتلوه من شاء ومن شاء فلا : ولا يخفى على فطنة المنتقد ان ذلك العصر عصر ديني أكثر مما هو سياسي والصحابة هم الرجال الذين قام بهم الاسلام وضمير كل إنسان يستشعر بشيء من وجوب التعظيم ان لم يكن باللسان ففي القلب عند ذكر كل رجل عظيم من أي قبيل أو ملة كان فكيف بالمسلم عند ذكر رجال أمته العظام وأئمته الكرام الذين رفعوا منار الاسلام وأسسوا ذلك الملك العريض وأعلوا شأن المسلمين

﴿ تنبيه ﴾

نقلت عن منتخب كنز العمال كثيراً من الأحاديث في هذا الكتاب ولم أذكر أسماء المخرجين اكتفاء بالعزو الى كنز العمال ليراجعه من أحب معرفة المخرج الذي ذكر في الكنز فيرجع الى كتابه عند قصد معرفة السند وكذلك نقلت عن السيرة العمرية لابن الجوزي التي جردها من السند أسامة بن مرشد واكتفى باسم الصحابي فقط كثيراً من الاحاديث المتعلقة بسيرة عمر رضي الله عنه وعزوتها الى السيرة ومن أحب معرفة سلسلة سند كل حديث فليرجع الى الأصل ويوجد منه نسخة خطية في المكتبة الخديوية بمصر

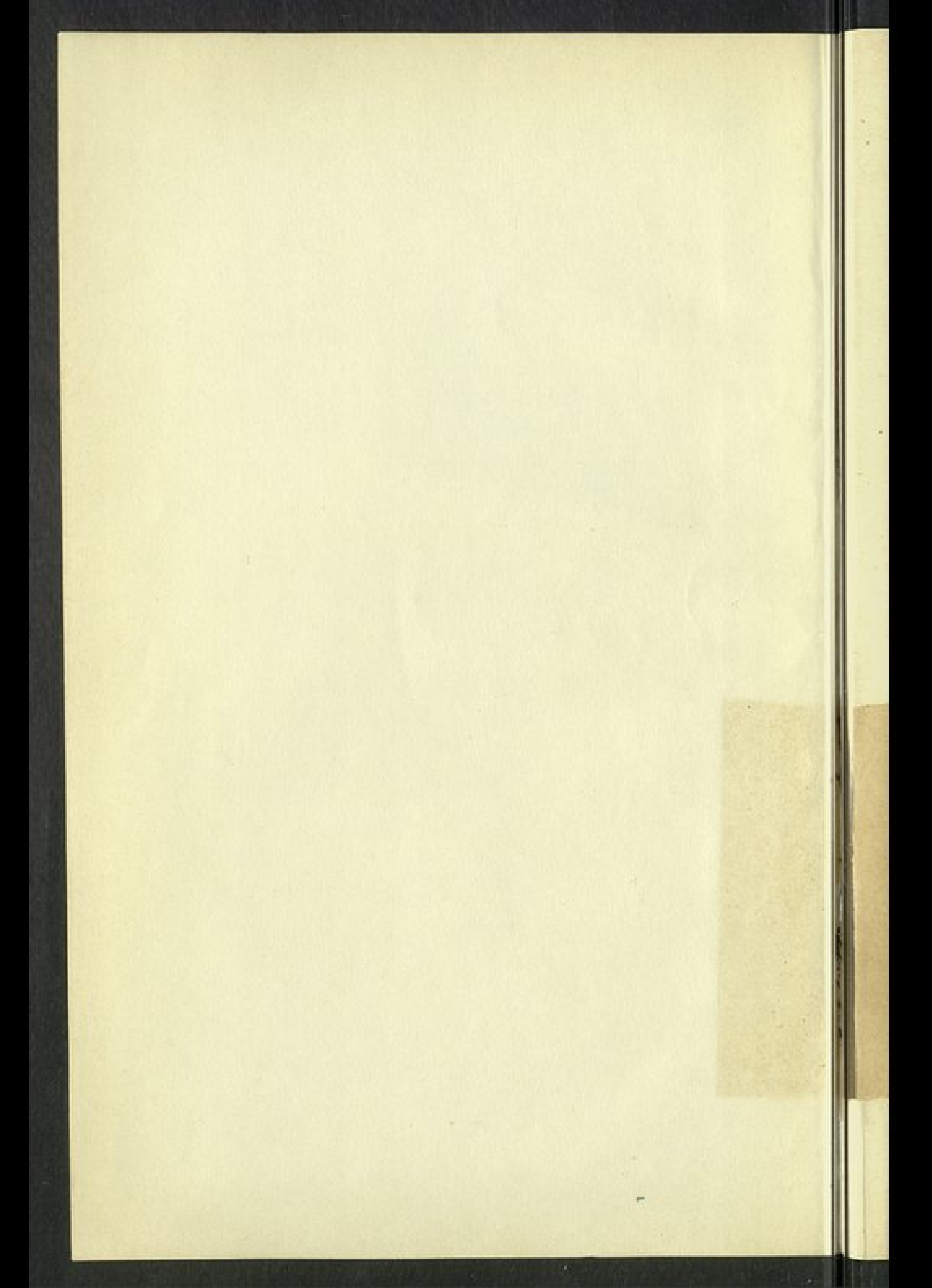
فهرست

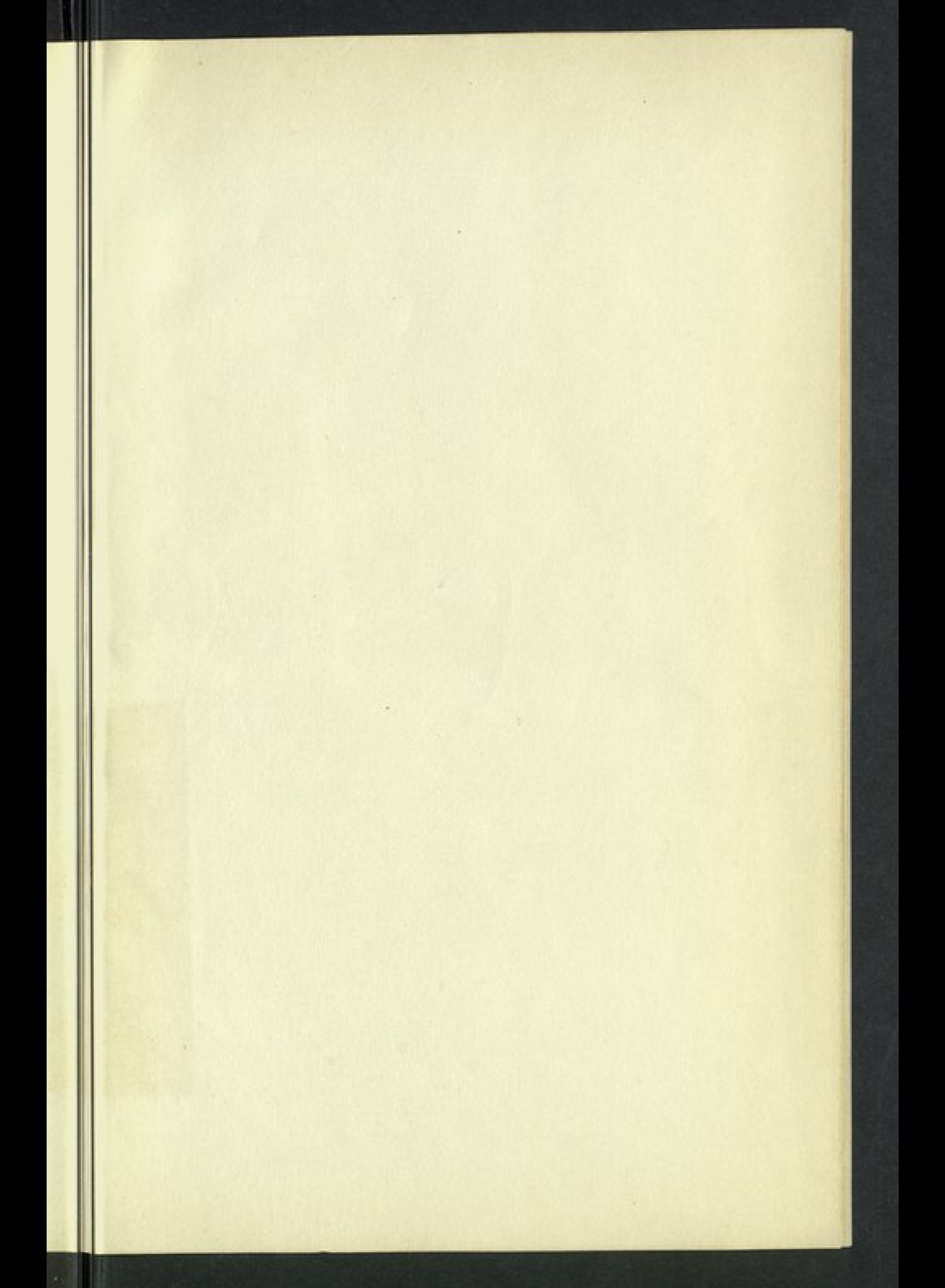
الجزء الثاني من أشهر مشاهير الاسلام

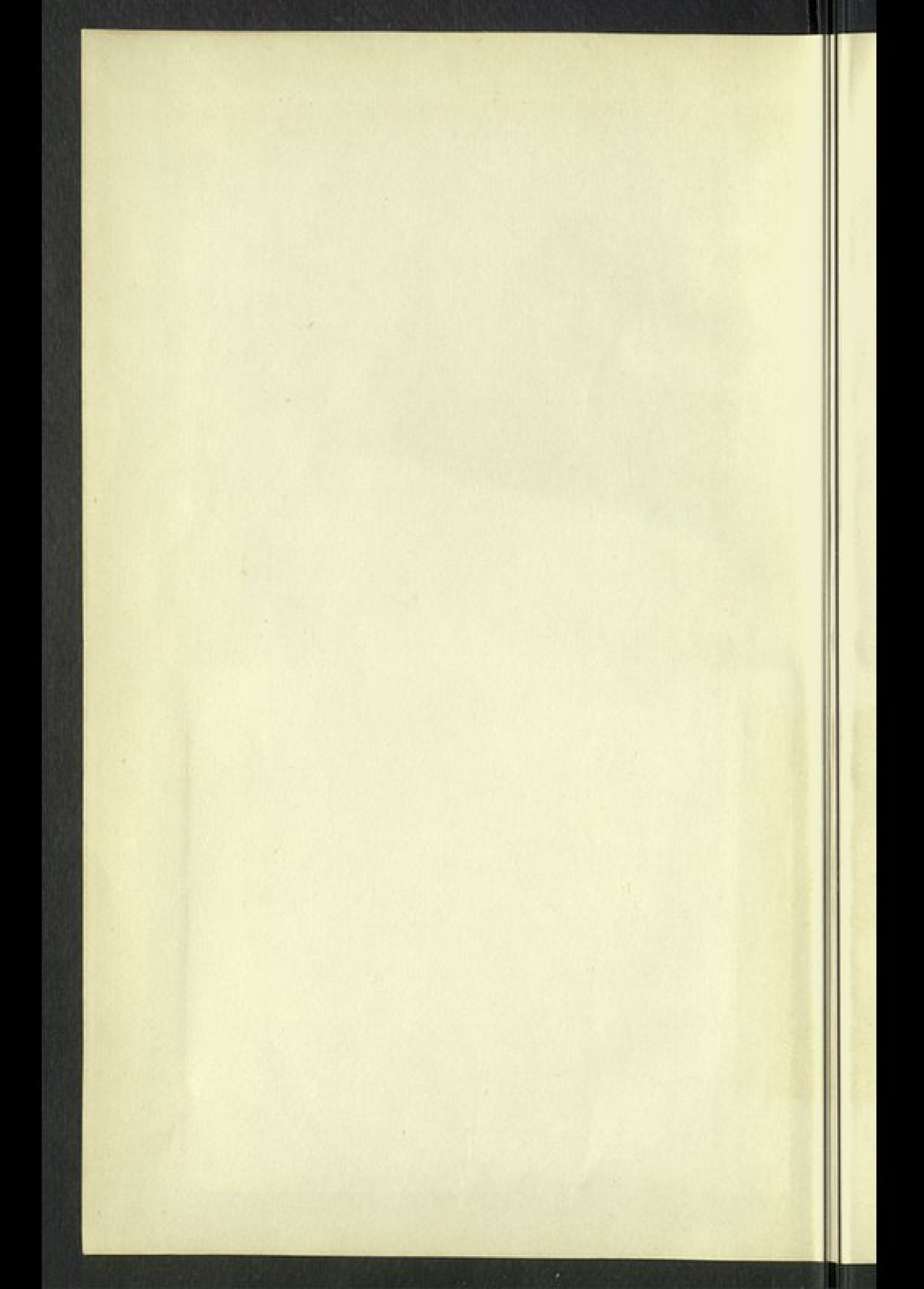


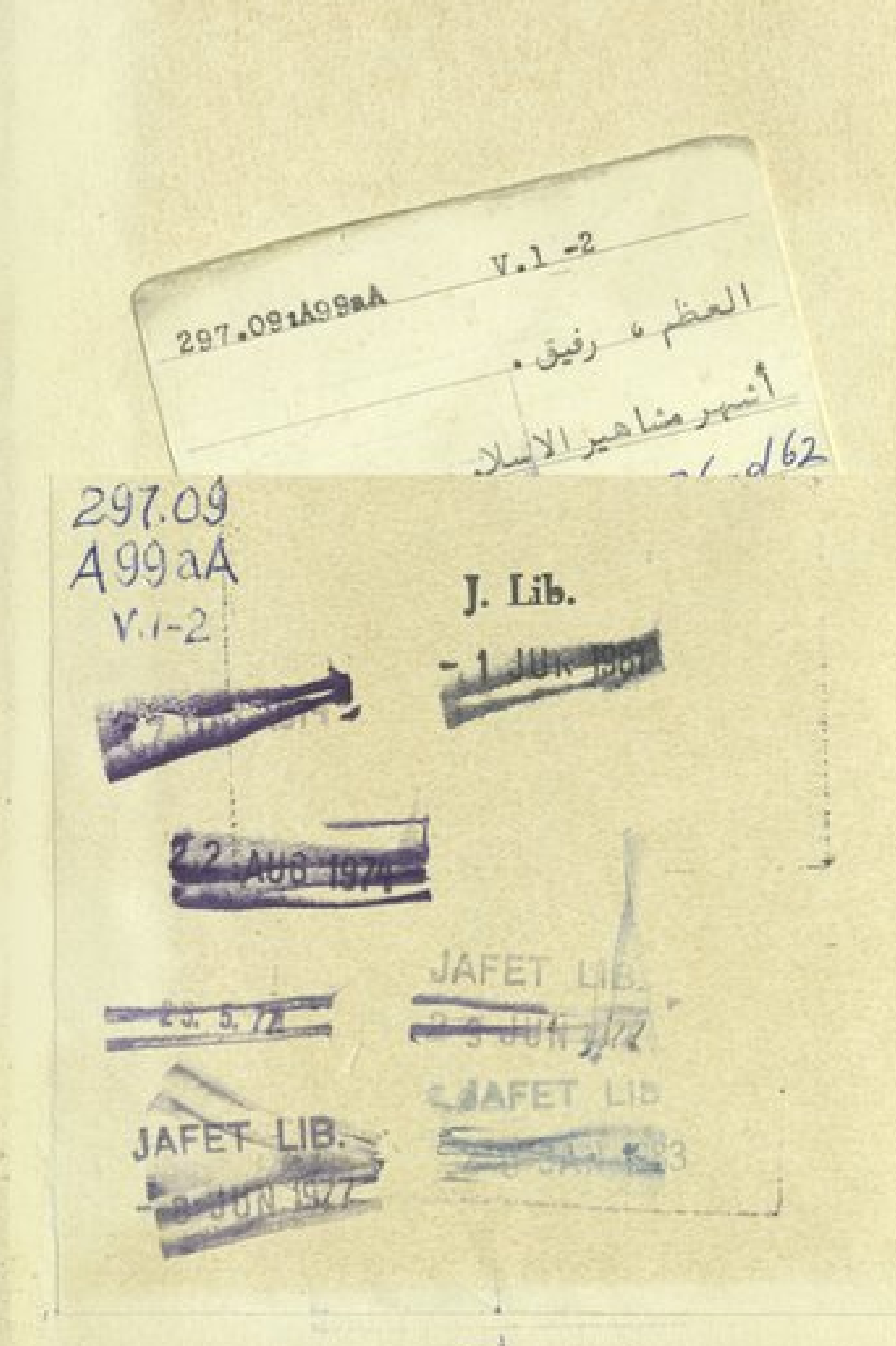
تمت الفهرست











297.09:A99aA V.1-2
العظم ، رفيق .
أشهر مشاهير الاسلام
297.09
A99aA
V.1-2
J. Lib.
- 1 JUN 1967
22 AUG 1974
JAFET LIB.
JAFET LIB
JAFET LIB.

